الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر باتنة-1-

كلية العلوم الإسلامية

قسم أصول الدين

نيابة العمادة لما بعد التدرج

والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

التزكية والتعليم من خلال القرآن والسنة

_دراسة موضوعية _

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث في العلوم الإسلامية

تخصص: علوم القرآن والحديث

إعداد الطالبة:

أمينة بن قديدح

إشـــراف الأستاذ الدكتور:

حسين شرفه

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
عائشة غرابلي	أستـــــاذ	جامعة باتنة-1-	رئيـــــسا
حسين شرفه	أستـــــاذ	جامعة باتنة-1-	مشرفا ومقررا
نادية أوزناجي	أستـــــاذ	جامعة باتنة-1-	عضـــــوا
صالح زنداقي	أستـــــاذ محاضر (أ)	جامعة باتنة-1-	عضـــــوا
محمد لقريز	أستـــــاذ محاضر (أ)	جامعة الأمير ع القادر _ قسنطينة_	عضـــــوا
عبد الغني عيساوي	أستـــــاذ محاضر (أ)	جامعة الأمير ع القادر_ قسنطينة_	عضـــــوا

السنة الجامعية: 1442- 1443 هـ / 2020-2021م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

أحمد الله جلّ ثناؤه حمدا كثيرا يليق بهﷻ على توفيقه إنهاء هذا البحث، فقد يسر لي إخراجه على هذه الصورة، وسخّر لي من أعانني في ذلك، فأسأله جلّ وعلا أن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به من قرأه.

ثم أتقدم بجزيل شكري، وكبير امتناني وعرفاني إلى الأستاذ الدكتور:**حسين شرفه**، فقد أشرف على هذا البحث، بكل ما تحمله كلمة الإشراف من معنى، تابعه صفحةً صفحة، وفقرةً فقرة، فأكمل ما فيه من نقص وخلل، وصحّح وصوب وسدّد دونما كلل أو ملل، فاستفدت من أدبه وسمته وورعه قبل علمه، ولو لم يكن لي من فائدة أجنيها من بحثي هذا غير التعرُّف على شخصه لكفاني، فاللهﷻ أسأل أن يجازيه عني خير الجزاء.

كما لا يفوتني أن أشكر أعضاء لجنة المناقشة على قبولهم مناقشة هذا البحث، وصرفهم من وقتهم لأجل قراءته وإبداء ملاحظاتهم فيه، رغم مشاغلهم الكثيرة.

إهداء

إلى والدي الحبيب أوَّلاً، فلا أعرف أحدًا انتظر ميلاد هذا البحث أكثر منه، بل قاوم مرضه بالانتظار، فكان الأمل الذي دفع به الألم.

إلى أمي العزيزة، فأنا مدينة لها بنجاحي، فقد مارست أمومتها مرتين؛ الأولى حين أرضعتني حُبَّ الدرجات العليا، والثانية حين كانت أمًّا لبناتي فوفَّرت لي الجوَّ المُناسب للبحث.

إلى أخي الوحيد "عمر" الذي طالما نخر بي وحفَّزني، فكان أخا بألف.

إلى رفيقات دربي أخواتي العزيزات؛ فاطمة الزهراء، سارة، خولة، اللواتي لم ينقطعن عن تشجيعي، فكانت كلماتهنّ بلسما على قلبي.

إلى زوجي الفاضل الذي بدأت معه هذا الطريق من البداية، فسابقتُه فسبقتُه، فلما انشغلت حاولت أن أسابِقَه فسبقَني، لكنّه لم يتجاوزني، بل عاد إليَّ ومدَّ يده ليرفعني لنعبر معا خطَّ النهاية.

إلى بناتي المُشاغبات؛ (بلقيس، ميسون، نورسين، سيرين) اللواتي كلما فتحت كتبي اشتعلت الغيرة في قلوبهنَّ، فوضعن خربشاتهنَّ عليها، أسأل الله ﷻ أن ينبتهنَّ نباتاً حسناً، وينشئهنَّ على حُبِّ العلم وأهله.

مُقَدِّمَةٌ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضِل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً.. وبعد:

فقد حظي الإنسان في القرآن الكريم بما لم يحظ به أي مخلوق آخر، وليس مرجع ذلك إلى أن القرآن خطاب تكليفي للإنسان، فذاك أمر بديهي، ولكن في احتفاله به والتنويه بقدره ومكانته بين سائر المخلوقات. وتبدو عناية القرآن الكريم بالإنسان في أنّه المخلوق الوحيد الذي فصَّل قصة خلقه، كما تتأكد عناية الله جل وعلا بهذا المخلوق حين أعلن عن ميلاده في الملأ الأعلى في احتفال مشهود، ثم كان تمام التكريم والتفضيل أن نفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة.

والحقيقة أن كل تلك الحفاوة وذلك التكريم إنما كانا بسبب المهمة التي سيكلف بها هذا المخلوق، وهي الاستخلاف في الأرض، وهي مهمة شاقة وأمانة ثقيلة أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها، وتحمل هو أعباءها وتولى تبعاتها، وقد انتدب الله جل ثناؤه الإنسان لتلك المهمة الشريفة والشاقة في آنٍ معاً، وزوده بكل متطلباتها سواء على مستوى ذاته في تكوينه، أو في تعامله مع المحيط من حوله.

وتُعدّ كل من التزكية والتعليم أهم حلقة في تكوين شخصية الإنسان، الذي يعتبر أساس صلاح المجتمع، وقد حاول الكثير في عالمنا الإسلامي صياغة مناهج عديدة، مستمدة من مختلف العلوم (علم النفس، علم الاجتماع، علم التربية ...) غافلين عن المصدر الرئيسي لهما وهما: الكتاب والسنة، ويأتي هذا البحث ليسلط الضوء عن هذه الثنائية باعتبارها مقصدا من مقاصد مبعث النبي ﷺ، وذلك تحت عنوان:

" التزكية والتعليم من خلال القرآن والسنة _ دراسة موضوعية _ "

أولا _ إشكالية البحث:

يعالج البحث إشكالية رئيسة تتمثل في بيان منهج القرآن والسنة في التزكية والتعليم، باعتبارهما أعظم مقومين في إخراج الإنسان الصالح الذي يضطلع بمهمة الاستخلاف في الأرض وعمارتها، ولذلك كانتا من المهام الأساسية التي أناطها الله جل ذكره بصفوة خلقه من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن المقاصد الكبرى من بعثة النبي الخاتم ﷺ، وتتفرع عن هذه الإشكالية جملة من التساؤلات يُجاب عنها من خلال فصول ومباحث هذه الأطروحة، ومن أهمها:

- ✓ ما مفهوم التزكية والتعليم في القرآن والسنة؟ وما العلاقة القائمة بينهما؟ وما الأهمية التي أولاها القرآن والسنة لهما؟
- ✓ ما الوسائل المحقّقة للتزكية؟ وما الموانع التي تحول دونها؟

- ✓ ما الآداب التي ينبغي للمعلم والمتعلم التحلي بها؟ وما الأساليب الموصلة لتحقيق المهمة التعليمية؟
- ✓ ما آثار تحقيق التزكية والتعليم على الفرد والمجتمع؟

ثانيا_ أهمية الموضوع:

تبرز أهمية الموضوع فيما يلي:

_ أنه مستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية؛ فهما مصدران معصومان للتربية والتعليم، ولا يخضعان لمتغيرات الزمان والمكان، بخلاف أقوال الفلاسفة، ونظريات رجال التربية ومنظري التعليم.

_ أن التزكية والتعليم من مقاصد البعثة النبوية كما دلّ عليه قولهﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾[الجمعة/ 1_2].

_ وممّا يؤكد أهمية الموضوع والحاجة الماسة إلى دراسة متخصصة حوله؛ أنّ الله عز وجل ربط الفلاح والسعادة بالتزكية، كما أن أطول قسم في القرآن الكريم يتعلق بها، أما التعليم فأول ما نزل في القرآن كان في الحثّ عليه، وبيّنت السنة أنّ النبي ﷺ بُعث معلما، فأمر هذا شأنه؛ وجب العناية به.

_ يعتبر موضوع التزكية والتعليم العصب الأساس والحساس في المجتمع، فالكل منشغل بالبحث عن وسيلة ناجحة لتحقيق ذلك، وقد اعتمدت كثير من المناهج التعليمية في العالم الإسلامي، والتي لا تتناسب مع طبيعة هذه الأمة وأهدافها؛ إذ إنها لا تتوافق مع خصائص المجتمع المسلم وتطلعاته نحو تحقيق وظيفة الاستخلاف؛ لذلك فالحاجة ماسة إلى دراسة منبثقة من صميم هذه الأمة، ومن أصلها الأصيل ألا وهو الكتاب والسنة.

ثالثا_ أسباب اختيار الموضوع:

تكمن أهم أسباب اختيار هذا الموضوع في النقاط الآتية:

_ الوضع الذي آل إليه المسلمون من ضعف في المستوى التعليمي، وبُعْدٍ عن مبادئ التربية الإسلامية، نتيجة لتخليهم عن القرآن الكريم والسنة النبوية، ولا سبيل للتخلّص من هذا الواقع إلاّ بالرجوع إليهما، فهما غنيان بما يضمن ذلك.

_ موضوع التزكية (التربية) والتعليم موضوع الساعة يشغل الباحثين في جميع المجالات، وقد ساهم الباحثون في علم النفس، وعلم الاجتماع في إثرائه، فأردت أن أضع بصمتي فيه.

_ السعي في خدمة الكتاب والسنة على قدر المستطاع لنيل الأجر والثواب.

_ الرّغبة النفسية الشديدة في دراسة هذا الموضوع للاستفادة منه في تربية أبنائي باعتباري أمّا، وفي تعليم أبناء المسلمين باعتباري معلمة.

رابعا_ أهداف البحث:

_ إلقاء الضوء على منهج التزكية والتعليم المذكورة في الكتاب والسنة؛ ليستغني المسلم بها عن الأساليب المستوردة التي أثبتت التجربة عدم نجاعتها.

_ إبراز العلاقة بين التزكية والتعليم في القرآن والسنة.

_ إماطة اللّثام عن الوسائل التربوية، والأساليب التعليمية المعتمدة في القرآن والسنة، وإبراز أسبقيتها للنظريات التربوية الحديثة.

_ المساهمة في إبراز وبلورة منهج إسلامي تربوي تعليمي متكامل، ليُقدَّم كمقترح لواضعي المناهج، ليمارس ويطبق من طرف الأساتذة والمعلمين.

خامسا_ الدراسات السابقة:

في حدود اطلاعي لم أقف على دراسة تتضمن ثنائية التزكية والتعليم من خلال القرآن والسنة، وغاية ما وقفت عليه، بحوث تتعلق بالتزكية، أو التعليم من خلال القرآن أو السنة، ومن ذلك:

1_ « منهج الإسلام في تزكية النفس وأثره في الدعوة إلى الله »، للباحث: أنس أحمد كرزون، وهي رسالة تقدّم بها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى بمكة المكرمة، وقد جاءت في تمهيد وستة أبواب، تطرق فيها إلى النّفس الإنسانية وصفاتها مع بيان المناهج المختلفة، كما تناول الأسس العقدية في تزكية النّفس، واستطرد في بيان الأساليب العملية في التزكية، حيث ضمّنها في عشر مجالات، ثمّ تطرق إلى أمراض النّفس ومعوقات تزكيتها وعلاج ذلك، وناقش بعض المفاهيم المنحرفة في تزكية النّفس، كالغلو والعزلة والرهبنة.. ليختم بحثه ببيان ثمرات التزكية.

وقد استفدت من هذا البحث، غير أنّه امتاز بالتوسع والاستطراد، مع إغفاله لكثير من القضايا التي حاولت استدراكها، حيث اقتصر في الأسس العقدية على دور القضاء والقدر، والإيمان باليوم الآخر في تحقيق التزكية، وأغفل دور بقية أركان الإيمان.

كما أنّه أغفل أثر العبادات القولية، ودور الأخلاق في تحقيق التزكية. واقتصر فيما أسماه بمعوقات التزكية على تأثير الشيطان والأسرة والمجتمع، وأغفل بقية الموانع.

2_ « تزكية النّفس في الإسلام وفي الفلسفات الأخرى »، وهي رسالة دكتوراه للباحث: علي بن عبده أبو حميدي، نوقشت بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وتقع في 343 صفحة، قسّمها إلى فصل تمهيدي وستة فصول، وقد تمحور اهتمام صاحبها حول عقد مقارنة بين مفهوم التزكية في الإسلام مقارنة مع الفلسفات الأخرى: المثالية، الواقعية، البرجماتية، البوذية.

وقد ظهر لي أنّ الباحث كتب رسالته بمنهجية مخالفة لما هو متعارف عليه في البحوث الأكاديمية؛ حيث ضَمّن المقدمة في الفصل التمهيدي، وأطال فيها إلى حدٍّ بعيد، متناولا بعض القضايا التي يصلح طرحها في صلب الموضوع، حتى إنّه ليبدو للقارئ أنّه يقرأ أمورا ليس لها علاقة بالمقدمة، والحقيقة أني لم أستفد من هذه الرسالة.

3_ « التزكية في القرآن الكريم وعند علماء الفكر التربوي الإسلامي ودورها في تعديل السلوك »، وهي رسالة ماجستير تقدّم بها الباحث: جمال يوسف أحمد، إلى جامعة آل البيت، كلية العلوم التربوية، الأردن، والحقيقة أني لم أستطع الاطلاع على البحث كاملا، فقد نشر عنه ملخص تعريفي به، وقد بدا لي من الاطلاع عليه أنّ طرحه للموضوع مختلف عن طرحي.

4_ « الإعجاز التربوي للقرآن الكريم في طرق التدريس »، للباحثة: فوزية شحادة أحمد البراوي، وهي رسالة تقدّمت بها لنيل درجة الماجستير من جامعة غزة، كلية أصول الدين، وقد جاءت في تمهيد وأربعة فصول، سعت من خلالها أن تبرز سمات وأهداف ووسائط وطرق التدريس، بعرضها تربويا ثم بيانها في القرآن الكريم، محاولة أن تُظهر أسبقية القرآن للتربويين في ذلك.

والرسالة في الحقيقة مفيدة في بابها، وقد بذلت الباحثة فيها جهدا طيبا، غير أنّ طريقتي في هذه الدراسة تختلف على طريقتها.

5_ « آداب العالم والمتعلم في أحاديث الرسول ﷺ »، وهو بحث علمي محكم، نُشر في عدد خاص بكلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة ديالى بالعراق، سنة 1434هـ/ 2013م، من إعداد: الأستاذ الدكتور: مثنى علون الجشعمي، وقد قسّمه إلى فصلين، استعرض في الأول أهمية التعلم والتعليم في الإسلام، وأورد في الثاني بعض الأحاديث النبوية الواردة في فضل العلم والتعليم، أو في آفات العلم، وقد اتسم البحث في طريقة عرضه بالعموم.

وعموما فإنّ أهم ما يميّز بحثي عن الدراسات السابقة، أنّه يتناول ثنائية التزكية والتعليم من خلال القرآن والسنة، في حين تناولت المذكورة آنفا جوانب وقضايا خاصة، وبالتالي فإنها تتقاطع مع بحثي في بعض جزئياته لا في محاوره وفصوله.

سادسا_ منهج البحث وطريقة كتابته:

مناهج البحث تحددها طبيعة البحوث، وبما أن بحثي دراسة موضوعية، فإن المنهج يحتم علي اتباع خطوات التفسير الموضوعي التجميعي، فاعتمدت **المنهج الوصفي**؛ الذي فرض استخدام عدّة آليات، كان أوّلها آلية الاستقراء؛ فاستقرأت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تناولت موضوع التزكية والتعليم

وجمعتها، وتلك هي المادة العلمية الأساسية لهذا البحث، ثم صنفتها بحسب موضوعاتها، ومن ثمَّ **تحليلها واستنباط** بعض الأحكام والفوائد منها، مستعينا في ذلك بأقوال العلماء والمفسرين.

كما اعتمدت **المنهج المقارن** في معرض الموازنة بين منهج الكتاب والسنة في التزكية والتعليم، والمناهج والنظريات التربوية والتعليمية الحديثة والمعاصرة.

هذا عن المنهج العام المتبع في الدراسة، وأما ما تعلّق **بطريقة كتابة البحث** فألخصها فيما يلي:

- عزوت الآيات القرآنية إلى مواضعها معتمدة رواية ورش عن نافع، مع إدراج اسم السورة ورقمها بعد الآية مباشرة، تحاشيا لكثرة الهوامش التي تزيد في حجم البحث.
- عزوت الأحاديث النبوية إلى مضانها، فإن كان مخرجا في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بذلك، وإن كان في غيرهما ذكرت من خرّجه باختصار، مع إيراد الحكم عليه من أقوال المحدثين القدامى، فإن لم أقف على ذلك أوردت حكم المعاصرين.
- بذلت وسعي في تخريج الآثار المنسوبة إلى الصحابة رضي الله عنهم.
- اكتفيت بتراجم الأعلام غير المشهورين.
- اعتنيت بشرح الألفاظ الغريبة في الهامش.
- ذيّلت البحث بفهارس فنية للآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والتراجم، والأشعار، وختمت ذلك بفهرس للمصادر والمراجع.

سابعا_ مصادر ومراجع البحث:

بذلت جهدي في الاطلاع على أي مصدر أو مرجع وقفت عليه ممّا له صلة بموضوعي، فكانت متنوعة، منها المصادر الأصلية وفي مقدمتها كتب التفسير المشهورة كتفسير الطبري والرازي وابن كثير وغيرها، ومن مصادري المهمة في هذا البحث كتب الحديث وفي مقدمتها الكتب الستة، وشروحها كفتح الباري والمنهاج ومعالم السنن وغيرها، كما رجعت إلى أمهات المعاجم والقواميس في تأصيل المسائل اللغوية والاصطلاحية، كالصحاح ومعجم مقاييس اللغة والقاموس المحيط ولسان العرب وغيرها، كما استعنت بالمراجع العلمية الحديثة والمعاصرة التي تناولت قضايا التربية والتعليم، وكل ذلك مبين في فهرس المصادر والمراجع.

وقد التزمت الأمانة العلمية، فنسبت كل قول أو فهم إلى صاحبه، ووثقت كل معلومة من مصدرها الأصلي.

ثامنا_ خطة البحث:

قسّمت بحثي إلى مقدمة وفصل تمهيدي وبابين وخاتمة، وتفصيل ذلك فيما يلي:

المقدمة: وتضمّنت إشكالية البحث، وأسباب اختياره، وأهميته، وأهدافه، مع ذكر أهم المصادر المعتمدة، بالإضافة إلى الدراسات السابقة، والمنهج المتبع، لتختم بخطة البحث.

الفصل التمهيدي: عنونته بـ: **مفهوم التزكية والتعليم، أنواعهما، أهميتهما والعلاقة بينهما في القرآن والسنة**، اشتمل على ثلاثة مباحث؛ **الأول: خصّصته لبيان مفهوم التزكية وأنواعها في القرآن والسنة**، تضمن مطلبين؛ أولهما في مفهوم التزكية، والثاني في أنواعها. أمّا **المبحث الثاني**: فجاء لبيان **مفهوم التعليم وأنواعه في القرآن والسنة**، وذلك في مطلبين؛ الأول في مفهوم التعليم، والثاني في أنواعه. أمّا **المبحث الثالث**: فتطرقت فيه **لأهمية التزكية والتعليم والعلاقة بينهما في القرآن والسنة**، اشتمل مطلبين؛ الأول في أهمية التزكية والتعليم، والثاني في العلاقة بينهما.

الباب الأول: أفردته لعنصر **التزكية في القرآن والسنة** باعتباره المقصد الأول من مقاصد البعثة المحمدية، وقسمته إلى ثلاثة فصول:

تناولت في **الفصل الأول وسائل التزكية في القرآن والسنة** من خلال ثلاثة مباحث، استعرضت في **المبحث الأول: دور الإيمان في تحقيق التزكية**، وتركز حديثي حول دور أركانه في تحقيقها، جعلت كل ركن عنوانا لمطلب. **أما المبحث الثاني** فحدّدت من خلاله **دور العبادات في تحقيق التزكية**، وقد تركّز الحديث في مطلبين؛ أولهما تحدثت فيه عن دور العبادات الفعلية في التزكية، اشتمل على أركان الإسلام وركائزه الفعلية، وجاء المطلب الثاني لبيان دور العبادات القولية في التزكية، تضمن الدعاء ثم قراءة القرآن ثم الذكر. وكان تمام الفصل الأول مع **المبحث الثالث** باستعراض **دور الأخلاق في تحقيق التزكية**، وحيث أنّ الأخلاق كثيرة لا يمكن استيعابها، فقد خصّصت منها ما جاء التصريح بالنّص في بيان أثرها في التزكية، تناولت ذلك في مطلبين؛ جاء المطلب الأول لبيان دور خلق العفة في التزكية، اشتمل على أثر العفة عن شهوات البطن، ثم الفرج في تحقيق التزكية، أما المطلب الثاني فتمحور حول دور حسن الظن والالتزام بآداب الاستئذان في التزكية.

الفصل الثاني: **خصّصته لدراسة موانع التزكية في القرآن والسنة**، قسّمته إلى أربعة مباحث؛ تناولت في **المبحث الأول فتنة الشيطان وأعوانه**، وذلك من خلال مطلبين، أولهما بينت فيه عداوة الشيطان وأعوانه للحق وأهله، وذكرت في الثاني أساليبهم للمنع من التزكية. وفي **المبحث الثاني** ركزت على **مانع الاغترار بالدنيا**، من خلال مطلبين أيضا، استعرضت في الأول خطورة الدنيا وشهواتها، والثاني خصّصته لذكر نماذج لمن اغتروا بالدنيا، مراعيا في ذلك ترتيبهم حسب التاريخ. وكان **المبحث الثالث** خاصا بذكر **مانع الكبر والحسد**، وتفرع عنه مطلبين كالمباحث السابقة، درست في الأول خطورة الكبر والحسد، وفي الثاني أوردت نماذج للمعاندين بسبب هذين

المانعين. واكتملت عقد هذا الفصل **بالمبحث الرابع**، والذي جعلته لبيان **مانع الجهل والتقليد الأعمى**، اشتمل على مطلبين، تركز الحديث في الأول عن مانع الجهل، وجاء الثاني ليستعرض مانع التقليد الأعمى.

أما الفصل الثالث والأخير في هذا الباب فقد ضمّنته **آثار التزكية في الدنيا والآخرة**، من خلال مبحثين؛ بيّنت **في الأول آثار التزكية في الدنيا**، وقد اشتمل على خمسة مطالب، الأول: الانتفاع بالمواعظ والآيات وحصول الهداية، وأما الثاني فتحدثت فيه عن حصول السعادة، وجاء الثالث لبيان نيل محبة الله تعالى وحصول القبول في الأرض، وتضمن الرابع تحقيق الأمن والرخاء، ليكتمل هذا المبحث بالمطلب الخامس والذي خصّصته للحديث عن تحقق الأخوة. وجاء **المبحث الثاني** لاستعراض **آثار التزكية في الآخرة**، وقد تناولته في ثلاثة مطالب؛ الأول: حصول الثبات والبشارة عند الاحتضار، الثاني: الأمن من عذاب القبر وتحصيل نعيمه، وأما المطلب الثالث والأخير فتناولت فيه السلامة يوم القيامة ودخول الجنة.

الباب الثاني: خصّصته لعنصر **التعليم في القرآن والسنة** باعتباره المقصد الثاني من مقاصد البعثة المحمدية، وقسمته إلى فصلين:

تناولت في **الأول آداب المعلم والمتعلم في القرآن والسنة**، من خلال ثلاثة مباحث، استعرضت في **الأول الآداب المشتركة بين المعلم والمتعلم في القرآن والسنة**، جعلت كل أدب عنوانا لمطلب، تركز حديثي في الأول عن الإخلاص ثم العمل بالعلم، ثم الصبر، ثم التواضع، لأختم بالحديث عن الاعتناء بالهيئة. أمّا **المبحث الثاني** فتركز الحديث فيه عن **آداب المعلم في القرآن والسنة**، اشتمل ستة آداب، ضمّنت كل أدب في مطلب، تحدثت في الأول عن الرّفق والرّحمة بالمتعلمين، ثم مراعاة واقع المتعلم، ثم اختيار المعلّم الجلوس في مكان يراه فيه طلابه، بالإضافة إلى مخاطبة المعلم باسمه أو كنيته، وعدم كتمان العلم، لأختم هذا المبحث بالحديث عن تشجيع المتعلّم والثناء عليه. وجاء **المبحث الثالث** والأخير في هذا الفصل ليتناول **آداب المتعلم في القرآن والسنة**، تضمن أربعة آداب، في أربعة مطالب، الأول احترام المعلم، وأما الثاني: الحرص على العلم، وخصّصت الثالث للحديث عن تقييد العلم، لأختم ببيان ضرورة الابتعاد عن الحسد.

الفصل الثاني: تركز الحديث فيه عن **أساليب التعليم وآثاره في القرآن والسنة**، وذلك من خلال مبحثين، تناولت في **الأول أساليب التعليم**، لخّصت فيه سبعة أساليب، هي: أسلوب التدرج، ثم أسلوب المناقشة والحوار، ثم أسلوب التعليم بالسؤال، ليأتي بعده أسلوب الممارسة والتطبيق، يليه أسلوب ضرب الأمثال، ثم استخدام الإشارة والرّسم البياني، لأختم بأسلوب القصص، وقد جعلت كل أسلوب ممّا سبق في مطلب. أما **المبحث الثاني** والأخير فقد استكملت به الفصل الثاني وعنونته ب: **آثار العلم في القرآن والسنة**، وجاء في أربعة مطالب، كان الأول خاصا بدور العلم في تحقيق الإيمان والسعادة، والثاني لبيان أنّ العلم سبيل للتمكين في الأرض ونيل الرّفعة،

وأوضحت في الثالث أنّ العلم سبيل لمعرفة الحق والتمييز بين النافع والضار، لأختم باستعراض دور العلم في نيل البركة في الدنيا والنّجاة يوم القيامة.

وأنهيت البحث **بخاتمة** ضمّنتها أهم النتائج التي توصلت إليها، أتبعتها بفهارس فنية للآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والآثار، بالإضافة إلى فهرس الأعلام، ثم الأشعار، ثم المصادر والمراجع، لأختم بفهرس الموضوعات.

هذا.. وما كان من صواب وسداد في هذا البحث فبتوفيق من الله جل ثناؤه، فله الحمد والمنّة، وما كان فيه من خلل ونقص، فمن نفسي ومن الشيطان، وحسبي أني بذلت قصارى جهدي واستفرغت وُسعي، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

والحمد لله في البدء والختام، والصلاة والسلام على نبينا محمد خير الأنام.

الفصل التمهيدي

مفهوم التزكية والتعليم، أنواعهما، أهميتهما والعلاقة بينهما في القرآن والسنة.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم التزكية وأنواعها في القرآن والسنة.

المبحث الثاني: مفهوم العلم وأنواعه في القرآن والسنة.

المبحث الثالث: أهمية التزكية والتعليم والعلاقة بينهما في القرآن والسنة.

يتناول البحث ثنائية التزكية والتعليم في القرآن الكريم والسنة النبوية، وهي مصطلحات مفتاحية وجب الوقوف عندها لبيان معناها، وأهميتها والعلاقة القائمة بينها، ويأتي هذا الفصل لتحقيق ذلك وفق ثلاثة مباحث، خصّصت الأول لبيان مفهوم التزكية وأنواعها، وجاء المبحث الثاني لدراسة مفهوم العلم وأنواعه، لأختم ببيان أهمية التزكية والتعليم والعلاقة بينهما، وتفصيل ذلك فيما يلي:

المبحث الأول: مفهوم التزكية وأنواعها في القرآن والسنة

يتطرّق هذا المبحث إلى بيان مفهوم التزكية، مع التعريج على أنواعها في القرآن الكريم والسنة النبوية، وذلك في مطلبين على النحو التالي:

المطلب الأول: مفهوم التزكية في القرآن والسنة

مفهوم التزكية في القرآن والسنة يتطلب بداية ذكر المعنى اللغوي والاصطلاحي، ثم بيان الألفاظ ذات الصلة، ليختم باستعمال القرآن الكريم والسنة النبوية، وهذا ما سيأتي في ثلاثة فروع:

الفرع الأول: مفهوم التزكية لغة واصطلاحا

التزكية من حيث **اللغة** مأخوذة من جذر (زكى)، وقد أورد ابن فارس أنّ الزاء والكاف والحرف المعتل أصل يدلّ على نماء وزيادة [1].

وأرجع ابن قتيبة معنى التزكية إلى: **النّماء والبركة**، وجعل تزكية القاضي للشهود لا تخرج عن معنى **النّماء والرّفعة**؛ لأنّه يرفعهم بذلك، كما ذكر معنى آخر وهو: **الطهارة** [2].

وأضاف الأزهري إلى ما سبق معنى **الصلاح** [3].

واعتبر ابن الأثير أنّ لفظ (زكى) يرجع إلى **الطهارة والنّماء والبركة والمدح**، وأنّ لفظ (الزكاة) يشترك في المخرج والفعل؛ فيراد به المال المُزكى، ويراد به التزكية[4].

---

(1) ينظر: معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، (ت: محمد عوض مرعب_ فاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث العربي- بيروت 1439 هـ- 2008م)، باب الزاء والكاف وما يثلثهما، مادة: (زكى)، (3/ 17).

(2) ينظر: غريب الحديث، ابن قتيبة الدينوري، ت: عبد الله الجبوري، مطبعة العاني – بغداد، ط: 1، 1397، (1/ 184).

(3) ينظر: تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري، ت: محمد عوض، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: 1، 2001م، (10: 175).

(4) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين ابن الأثير، ت: طاهر أحمد الزاوي، المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ - 1979م، (307/2).

وذكر المطرزي (1) أن التركيب يدل على **الطهارة**، وقيل على **الزيادة والنّماء** وهو الظاهر. كما أنّه وافق ابن الأثير في إطلاق اللّفظ على **المدح** (2).

ووافق ابن منظور من سبق ذكرهم في إرجاع المعنى إلى **النّماء**، **والطهارة**، و**المدح**، **وزكاة المال** المعروفة، وأرجع سبب تسميتها بذلك _أي الزكاة_ لما فيها من تطهير للمال. وأضاف بعض المعاني وهي: **ما أخرجه الله ﷻ من الثمر**؛ أي الإثمار ويحمل معنى **النّماء**، كما أضاف معنى آخر وهو: **صفوة الشيء**؛ أي أفضله وأحسنه. إضافة إلى **الصلاح** (3).

بعد استعراض جملة من أقوال أهل اللّغة وأربابها، يتّضح أن التزكية تدور حول المعاني التالية: **النّماء والبركة والطهارة والمدح والصلاح وصفوة الشيء وأحسنه**، وكل هذه المعاني مقصودة في عنوان البحث.

أما من حيث **الاصطلاح** فذهب الرّاغب إلى أنّ التزكية هي: تنمية النّفس بالخيرات والبركات، وهو أن يتحرّى الإنسان ما فيه تطهيره، وبِزَكَاءِ النّفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحقّ في الدّنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة، وذلك ينسب تارة إلى العبد لكونه مكتسبا لذلك نحو قوله ﷻ: ﴿**قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا**﴾[الشمس: 9]، وتارة ينسب إلى الله تعالى؛ لكونه فاعلا لذلك في الحقيقة نحو قوله جلّ ثناؤه: ﴿**بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ**﴾[النساء: 49]، وتارة إلى النبيﷺ لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم، نحو قوله تعالى: ﴿**تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا**﴾[التوبة: 103]، وقوله: ﴿**وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ**﴾[البقرة: 151]... (4).

يتضح من تعريف الراغب للتزكية؛ أنّه ركز على تنمية النّفس وتطهيرها بالطاعات وجميل القربات، كما بيّن مصدر التزكية، والوسائل المعينة عليها.

---

(1) هو: ناصر بن أبي المكارم أبو المظفر المطرزي المقلب ببرهان الدين، كان إماما في الفقه واللغة والعربية، حتى قيل عنه: هو خليفة الزمخشري، ولد سنة ست وثلاثين وخمس مائة (536هـ) بجرجانية خوارزم، وقيل في سنة ثمان وثلاثين (538هـ)، له مصنفات عديدة منها: المغرب في ترتيب المعرب، وله الإيضاح في شرح المقامات للحريري، توفي بخوارزم عاشر جمادي الأولى وقيل الحادي والعشرين سنة عشر وست مائة (610هـ). ينظر: الجواهر المضية في طبقات الحنفية، محي الدين القرشي، مجلس دائرة المعارف، الهند، ط1، د ت ط، (190/2).

(2) ينظر: المغرب في ترتيب المعرب، برهان الدين المطرزي، دار الكتاب العربي، بيروت، د ت ط، (1/ 209).

(3) ينظر: لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، دار صادر – بيروت، ط: 3، 1414 هـ، (359/14).

(4) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ت: صفوان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق، ط: 1، 1412هـ، (ص: 381) (بتصرف يسير).

وعرّفها ابن تيمية بقوله: «هي تربية القلب وتنميته بالكمال والصلاح، وذلك بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره، وتزكية النّفس بالصالحات وترك السيئات، أو إزالة الشر وزيادة الخير»(1).

المُلاحظ من التعريف أنّه استفاد من بعض المعاني اللّغوية، **كالتنمية والصلاح والكمال** الذي يتضمّن معنى الصفوة، كما أنّه ركّز على النّفس مبينا أنّ أساس تزكيتها هو **التخلي عن الشر، والتحلي بالخير**.

وقال عبد الرؤوف المناوي: «التزكية: إكساب الزكاة، وهي نماء النفس بما هو لها بمنزلة الغذاء للجسم... وأصل التزكية نفي ما يستقبح قولا أو فعلا، وحقيقتها الإخبار عما ينطوي عليه الإنسان» (2).

وعرّف ماجد عرسان التزكية بقوله: «هي انتزاع ما هو غير مرغوب فيه، وتعزيز ما هو مرغوب به؛ فهي إذن تعديل للسلوك بلغة التربية الحديثة» (3).

وقال أيضا: «هي عملية تطهير وتنمية شاملين، هدفها استبعاد العناصر الموهِنة لإنسانية الإنسان، وما ينتج عن هذا الوهن من فساد وتخلّف وخسران، وتنمية كاملة للعناصر المحقّقة لإنسانية الإنسان، وما ينتج عن هذه التنمية من صلاح وتقدم وفلاح في حياة الأفراد والجماعة» (4).

أول ما أستنتجه من هذا التعريف الأخير أنّ التزكية تقوم على بذل الوسائل الموصلة إليها، مع السعي للاتصاف بها، والتخلي عن الوسائل المفسدة. كما أنّ أثر التزكية يتعدى الفرد ليشمل الجماعة، فمعناها لا يقتصر على الفرد فحسب، وإنما تضاف إليه غالبا فيقال: تزكية النّفس؛ لأن صلاح الفرد يؤدي لصلاح المجتمع.

وعرّفها أنس أحمد كرزون بقوله: «هي تطهير النّفس من نزعات الشر والإثم، وتنمية فطرة الخير فيها مما يؤدي إلى استقامتها، وبلوغها درجة الإحسان» (5).

من خلال التعاريف التي نقلتها يتضح التقارب بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، غير أنّ المعاني اللغوية ركّزت أكثر على جانب التطهير، وأما الاصطلاحية فقد أضافت إلى التخلية التحلية.

---

(1) مجموع الفتاوى، تقي الدين بن تيمية، ت: عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد_ السعودية، ط: 1، 1416هـ_ 1995م، (96/10).

(2) التوقيف على مهمات التعاريف، عبد الرؤوف المناوي، عالم الكتب، القاهرة، ط: 1، 1410هـ- 1990م، (ص: 96).

(3) مناهج التربية الإسلامية والمربون والعاملون فيها، ماجد عرسان، عالم الكتب_ بيروت، ط: 1، 1416هـ_1995م، (ص:127).

(4) تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، ماجد عرسان، دار ابن كثير_ بيروت، ط: 2، 1405هـ_ 1985م، (ص: 41).

(5) منهج الإسلام في تزكية النفس وأثره في الدعوة إلى الله، أنس أحمد كرزون، دار ابن حزم _ لبنان، ط: 5، 1432هـ_2011م، (ص: 16).

وانطلاقا من كل ما ذكرت آنفا يمكنني إعطاء تعريف لها وهو: **التزكية تطهير النّفس من الشّر، ممّا يؤدي إلى تنمية الخير فيها والاستقامة عليه، وهي عملية متواصلة في سبيل بلوغ أعلى المراتب، حتى يصل العبد إلى درجة الإحسان؛ فيعبد الله كأنّه يراه.**

الفرع الثاني: الألفاظ ذات الصلة بالتزكية

تشترك التزكية مع ألفاظ عديدة في الدلالة على بعض المعاني التي تتضمنها، منها ما يلي:

أولا_ الطهارة:

من الألفاظ التي تحمل معنى التزكية؛ **الطهارة**، وقد جاءت آيات كثيرة في هذا الصدد، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب: 33]، والمراد بالتطهير هنا؛ تنقية النّفس وتزكيتها، قال الراغب: «ومعلوم أنّه تعالى لم يرد تطهيراً عن نجاسة في ثوب وبدن، وإنّما أراد تطهير النفس الذي يستحق به المدح»[1]. يشير بقوله: «أراد تطهير النّفس الذي يستحق به المدح» إلى قول الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[الشمس:9].

وقال بن عاشور: «وللتطهير إطلاق حقيقي وهو التنظيف وإزالة النجاسات، وإطلاق مجازي وهو التزكية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»[2].

ومن الآيات التي استعملت لفظ (**الطهارة**) بمعنى التزكية، قولهﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾[المجادلة: 12]، قال السمعاني: «وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾؛ أي: أزكى»[3]. وقال البغوي: «أزكى لكم وأطهر من أدناس الآثام» [4].

ومن جملة ما امتنّ اللهﷻ به على مريم عليها السلام ما ذكره في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران: 42]، وقد أوضح الطبري أنّ المقصود

---

(1) تفسير الراغب، الراغب الأصفهاني، ت: محمد بسيوني، جامعة طنطا_ مصر، ط: 1، 1420 هـ - 1999م، (127/1).

(2) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر_ تونس، 1984 هـ، (29/ 297).

(3) تفسير القرآن، منصور بن محمد السمعاني، ت: ياسر بن إبراهيم، غنيم بن غنيم، دار الوطن– السعودية، ط: 1، 1418هـ–1997م، (5/ 390).

(4) معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين البغوي، ت: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي –بيروت، ط: 1، 1420 هـ، (1/ 278).

بتطهيرها، إنّما هو تنقيتها من الأدناس، وهو معنى التزكية، حيث قال: «﴿**وَطَهِّرْكِ**﴾يعني **طهّر** دينك من الرّيب والأدناس التي في أديان نساء بني آدم»(1).

وجاء أيضا لفظ (الطهارة) بمعنى التزكية في السنة النبوية، فعن عبد الله بن أبي أوفىﷺ أنّ رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول: «...**اللّهم طهرني بالثلج والبرد، والماء البارد اللهم طهرني من الذنوب والخطايا، كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ**»(2).

وعن أبي أمامةﷺ، قال: «إن فتى شابا أتى النبيّ ﷺفقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا!، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: «**ادنه**» فدنا منه قريبا، قال: فجلس، قال: «**أتحبه لأمك؟**» قال: لا واللّٰه، جعلني اللّٰه فداك، قال: «**ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**»، **قال**: «**أفتحبه لابنتك؟**» قال: لا واللّٰه، يا رسول اللّٰه جعلني اللّٰه فداك، قال: «**ولا الناس يحبونه لبناتهم**» قال: «**أفتحبه لأختك؟**» قال: لا واللّٰه، جعلني اللّٰه فداك، قال: «**ولا الناس يحبونه لأخواتهم**» قال: «**أفتحبه لعمتك؟**» قال: لا واللّٰه، جعلني اللّٰه فداك، قال: «**ولا الناس يحبونه لعماتهم**» قال: «**أفتحبه لخالتك؟**» قال: لا واللّٰه جعلني اللّٰه فداك، قال: «**ولا الناس يحبونه لخالاتهم**» قال: فوضع يده عليه وقال: «**اللّهمّ اغفر ذنبه وطهّر قلبه، وحَصِّنْ فرْجَه**»، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء»(3).

فانظر كيف دعا النبيﷺ للشاب أن يُطهّر اللهﷻ قلبه من الميل إلى الفواحش؛ لتتحقق له التزكية، فكل من ابتعد عنها فهو زكي طاهر القلب، وهذا ما شهد به الأعداء من قوم لوطﷺ لما دعاهم إلى البعد عن الفواحش: ﴿**قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ**﴾[الأعراف: 82]. وفي المقابل فإنّ كل من مال إليها فهو مريض القلب، قالﷻ: ﴿ **فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا** ﴾[الأحزاب: 32].

وعكس الطهارة النّجاسة، وقد وصف اللهﷻ بها بعض المنكرات، قال ابن القيم: « وقد وسم الله سبحانه الشرك والزنا واللّواطة بالنجاسة والخبث في كتابه دون سائر الذنوب وإن كانت مشتملة على ذلك، لكن الذي

---

(1) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة _ السعودية، ط: 1، 1420هـ - 2000م، (6/ 393).

(2) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، (ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: 1، 1412هـ_ 1991م)، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، رقم: 476، (1/ 346).

(3) أخرجه أحمد في مسنده، (ت: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط: 1، 1421هـ - 2001م)، رقم: 22211، (36/ 545)، وصحّحه شعيب الأرنؤوط.

وقع في القرآن قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة: 28]، وقوله تعالى في حق اللّوطية: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴾ [الأنبياء: 73] وقالت اللوطية: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[النمل: 56]، فأقروا مع شركهم وكفرهم أنهم هم الأخابث الأنجاس، وأن لوطا وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له، وقال تعالى في حق الزناة:﴿ ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ ۖ ﴾[النور:26]»[1].

بالإضافة إلى ما أورده ابن القيم، فإنّ الله ﷻ سمى الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسا، وذلك في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[المائدة:90]، وسمى النبي ﷺ الخمر بأم الخبائث. والرّجس والخبث ضد التزكية والتطهير، كما قال الرازي [2].

والنّاظر إلى هذه المنكرات العظام الموسومة بالخبث والنجاسة، يتّضح له أنّ علّة تحريمها هو الحفاظ على المقاصد الضرورية التي يراد بها حصول الفلاح؛ فتحريم الشرك للحفاظ على الدين، وتحريم الفواحش للحفاظ على العرض، وتحريم الخمر للحفاظ على العقل، وتحريم الميسر للحفاظ على المال، وبذلك تتحقّق الطهارة ويحصل الفلاح الذي خصّه الله ﷻ للأزكياء كما في قوله جلّ ثناؤه: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾[الشمس: 9].

وعَكْس الفلاح هو الخسران، وقد وصف الله تعالى به من تعدى على الدماء المعصومة، قال ﷻ : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: 140]، وبذلك تكتمل المقاصد الضرورية، ويتضح أنّ من تعدى عليها فقد دنّس نفسه وألحق بها الخسران.

ثانيا_ الطيب:

من الألفاظ التي لها صلة بمصطلح التزكية أيضا وتحمل بعض مدلولاتها: لفظ **الطيب**؛ إذ يأتي بمعنى الطهارة، قال ﷻ: ﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾[المائدة: 6]، قال الراغب: «أي طاهرا»[3].

---

(1) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن قيم الجوزية، ت: محمد حامد الفقي، دار المعرفة_ بيروت، ط: 2، 1395هـ_ 1975م، (1/ 59).

(2) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: 3 - 1420 هـ، (14/ 303).

(3) تفسير الراغب، الراغب الأصفهاني، (4/ 288).

وقد وصف اللهﷻ به عباده الأزكياء فقال: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾[النور: 26]، قال القاسمي: «ولفظ **الطاهر** كلفظ **الطيب** قال تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾، كما قال: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ [النور: 26]، وقد روي أنّه قال لعمّار: «**ائْذَنُوا لَهُ، مرحباً بالطيّبِ المُطيَّبِ**»(1)، وهذا أيضا كلفظ المتقي و**المزكي**»(2).

وبيّن الله جلّ وعلا وظيفة نبيهﷺ فقالﷻ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[الأعراف:157]؛ فالطيبات التي يحلّها هي كل ما يتوافق مع فطرة الإنسان؛ لأنّ أصل الطيب ما تستلذه الحواس والنّفس(3)، وأما الخبائث التي يحرّمها فهي المفسدات التي تحول دون تزكية النّفس، فالآية تضمنت التخلية والتحلية.

وفي بيان عبارات المفسرين في قولهﷻ: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة: 2]، قال الرازي: « ومنها: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ عن الشرك وسائر الأرجاس كقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾» (4).

ووصف الله جلّ ثناؤه المؤمن الذي ينتفع بالقرآن بالأرض الطيبة الزكية، قال ﷻ: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: 58]، قال السمرقندي: «يعني المكان العذب **الزّكي** الليّن من الأرض الليّنة، يخرج نباته إذا أمطرت فينتفع به، كذلك المؤمن يسمع الموعظة فتدخل في قلبه، فينتفع بها وينفعه القرآن كما ينفع المطر الأرض الطيبة»(5).

وممّا يدل على تقارب معنى الطيب بالتزكية أنّ اللهﷻ سمى شهادة التوحيد **زكاة**، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: 6- 7]، قال ابن عباسرضي الله عنه:

---

(1) أخرجه أحمد في المسند، رقم: 779، (1/ 503)، وابن ماجه في سننه (ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، د ت ط)، باب فضل عمار بن ياسر، رقم: 146، (1/ 52)، والترمذي (سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، ت: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط: 2، 1395 هـ - 1975 م)، كتاب المناقب، باب مناقب عمار بن ياسر وكنيته أبو اليقظانرضي الله عنه، رقم: 3798، (5/ 668). وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(2) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، محمد باسل، دار الكتب العلميه – بيروت، ط: 1 - 1418 هـ، (8/ 73).

(3) ينظر: لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح، عبد الحق الدِّهلوي، ت: تقي الدين الندوي، دار النوادر – سوريا، ط: 1، 1435 هـ - 2014م، (5/ 493).

(4) مفاتيح الغيب، الرازي، (4/ 60).

(5) بحر العلوم، السمرقندي، (1/ 524).

«لايشهدون أن لا إله إلا الله»(1). كما سمّى شهادة التوحيد في موضع آخر ب "**الكلمة الطيبة**" فقال جلّ ثناؤه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾[إبراهيم: 24](2). وهذا ما يشير إلى العلاقة الوطيدة بين اللّفظين.

ثالثا_ التربية:

كثيرا ما يُطلق لفظ (التزكية) ويراد به (**التربية**) والعكس، حيث نجد تداخلا بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للفظتين؛ فقد مرّ بنا أنّ الزاي والكاف والحرف المعتل (ز ك ى) أصل يدل على النماء والزيادة والطهارة، ومنه الزكاة لزيادة المال، وزكا الزرع نما. والتربية يتجاذبها أصلان؛ أحدهما: الراء والباء والحرف المعتل (ر ب ى)، وهو أصل يدل على الزيادة والنماء والعلو، تقول: ربا الشيء يربو، إذا زاد. وَرَبَا الرَّابِيَةَ يَرْبُوهَا، إذا علاها، والرَّبْوَةُ: المكان المرتفع. ويقال أَرْبَتِ الحِنْطة: زكت... أما الأصل الثاني: الراء والباء بالتضعيف (ر ب ب)، فهو أصل يدل على إصلاح الشيء والقيام عليه (3). ومعاني التربية تدور بين هذين الأصلين، قال ابن فورك: «التربية: تنشئة الشيء حالاً بعد حال، ونظيره نماه ينميه نماء» (4).

وقد استعمل أهل العلم لفظ التربية للدلالة على التزكية، فهذا عبد الرحمان الثعالبي (5)ينقل عن الشيخ المالقي(6) في بيان أهمية الذكر في تحقيق التزكية فيقول: «قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري الساحلي المالقي في كتابه الذي ألفه في «السلوك»: واعلم أن الإنسان مطلوب بطهارة نفسه وتزكيتها، وطرق

---

(1) أخرجه الطبري في تفسيره، (21/ 430)، وعزاه السيوطي لأبن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي. ينظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر – بيروت، د ت ط، (7/ 313).

(2) ينظر: جامع البيان، الطبري، (13/ 635).

(3) ينظر: مقايس اللغة، ابن فارس، مادة (ربى/أ)، (2/ 483).

(4) تفسير ابن فورك، محمد ابن فورك، ت: عاطف بخاري، جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية ط: 1، 1430 - 2009 م، (1/ 221).

(5) هو عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الثعالبي، ولد بواد يسر بالجزائر عام (786هـ)، قال السخاوي عنه: «كان إماما علامة، مصنّفا». له العديد من المؤلفات أشهرها: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، توفي سنة: (875هـ)، ينظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد مخلوف، ت: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط: 1، 1424 هـ - 2003 م، (1/ 382)، الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط: 15، 2002 م، (1/ 331).

(6) هو: محمد بن أحمد بن عبد الرحمن المالقي، كان مقبلا على نفسه مستوعبا ضروب الخير وأنواع القرب من الصلاة والصوم والذكر، اقتدى به طوائف من الناس وخطب الناس بمالقة وغرناطة، له كتاب الحجة في رسوم المحجة، توفي: في شوال سنة: (735هـ). ينظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، ت: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ط: 2، 1392هـ_ 1972م، (5/ 50).

التزكية وإن كثرت، فطريق الذكر أسرع نفعا، وأقرب مراما، وعليه درج أكثر مشائخ التربية»[1]. فسمى المهتمين بتزكية النّاس **مشايخ التربية**، وهذا ما يبن شيوع استخدام لفظ التربية للدلالة على التزكية.

وممّا يؤكد ذلك ما أورده البشير الإبراهيمي عند قوله جلّ ثناؤه: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[البقرة: 151]، حيث قال: «فقدّم التزكية التي هي **التربية** على تعليم الكتابة والعلم»[2]. وقال السعدي: «أي يُطهر أخلاقكم ونفوسكم، **بتربيتها** على الأخلاق الجميلة، وتنزيهها عن الأخلاق الرذيلة»[3]. وبهذه النقول التي أوردتها تتأكد الصلة بين اللفظتين.

رابعا_ التهذيب:

من الألفاظ التي تشترك في بعض معانيها مع التزكية؛ لفظ **التهذيب** ويراد به في اللغة التنقية، وهذّب الشيء يهذّبه تهذيبا، وهذّبه: نقّاه وأخلصه، وقيل: أصلحه... والمهَذَّب من الرّجال: المخلص النّقي من العيوب؛ ورجل مهذّب أي مُطهّر الأخلاق[4]. قالت بنت الشاطئ: «والتزكية أيضاً **التهذيب** والتطهير، ومنه في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: 164]...»[5].

وهناك ألفاظ أخرى لها صلة وثيقة بالتزكية ومن ذلك الاستقامة والعدالة؛ إذ تستخدم عند المحدثين لدلالة على التزكية.

من خلال ما سبق تتضح العلاقة الوطيدة بين التزكية و: **الطهارة والطَيِبُ والتربية والتهذيب والاستقامة والعدالة**، فهذه الألفاظ تحمل في دلالاتها بعض المعاني التي تضمّنتها التزكية، غير أنّي استعملت في عنوان البحث كلمة التزكية دون غيرها، لأنّه مصطلح قرآني ذُكر مع العلم في سياق بيان وظيفة النبيﷺ.

(1) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمان الثعالبي، ت: محمد معوض وعادل عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 1، 1418 هـ، (3/ 113).

(2) آثار البشير الابراهيمي، محمد البشير الإبراهيمي، ت: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، ط: 1، 1997م، (5/ 266).

(3) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، ت: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط: 1، 1420هـ -2000 م، (ص: 57).

(4) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، (1/ 782).

(5) ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة بنت الشاطئ، دار المعارف، القاهرة، ط: 7، د ت، (2/ 116).

الفرع الثالث: التزكية في استعمال القرآن والسنة

بتتبع **القرآن الكريم** اتضح أنّ مادة (زكى) وردت اثنتان وعشرون (22) مرة [1]، وقد جاءت بعدة معانٍ، وهي:

أولا_ بمعنى أداء الزّكاة الشّرعيّة: كما في قولهﷻ: ﴿ **وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ** ﴾[البقرة: 43]، ولها نظائر كثيرة في القرآن.

ثانيا_ بمعنى النقاء والطهارة: جاءت آيات كثيرة بهذا المعنى ومنها قوله ﷻ: ﴿ **رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ** ﴾[البقرة: 129]؛ أي يطهرهم، وهذا ما ذكره ابن جريج كما عزاه إليه الطبري، و ممّن ذكر ذلك أيضا السمرقندي والماوردي والقرطبي[2]، وهو المعنى نفسه الذي جاء في آيات أخرى كقولهﷻ: ﴿ **قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا** ﴾[مريم: 19]، قال الطبري: « والغلام الزكي هو الطاهر من الذنوب»[3].

ثالثا_ بمعنى الثناء والمدح: كما في قولهﷻ: ﴿ **أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا** ﴾ [النساء: 49]، وقولهﷻ: ﴿ **فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ** ﴾ [النجم: 32]. قال الراغب: «وذلك نهي عن الثناء على النفس..»[4].

رابعا_ بمعنى الحلال: كما في قولهﷻ: ﴿ **فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا** ﴾[الكهف: 19]؛ أي أحل، ذكره الطبري عن سعيد بن جبير، واختاره ابن كثير[5].

---

(1) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط: 1، 1364، (ص: 331).

(2) ينظر: جامع البيان، الطبري، (3/ 88)، بحر العلوم، السمرقندي، (1/ 94)، النكت والعيون، علي بن محمد الماوردي، ت: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت_ لبنان، د ت ط، (1/ 192)، الجامع لأحكام القرآن، شمس الدين القرطبي، ت: أحمد البردوني، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط: 2، 1384هـ - 1964م، (2/ 131).

(3) جامع البيان، الطبري، (18/ 164).

(4) تفسير الراغب، (1/ 173)

(5) ينظر: جامع البيان، الطبري، (17/ 638)، تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير، ت: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع _السعودية، ط: 2، 1420هـ - 1999، (5/ 145).

خامسا_ بمعنى السلامة من الذنوب: كما في قولهﷻ: ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾[الكهف: 74]، قال الطبري: «هي التي لم تجن شيئا»[1]، وقال ابن أبي زمنين: «أي: لم تذنب»[2].

سادسا_ بمعنى التقوى والصلاح: كما في قولهﷻ: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾[الكهف: 81]، قال يحي بن سلام: «في التقوى»[3]. وقال الطبري: «خيرا من الغلام الذي قتله صلاحا ودينا»[4].

سابعا_ بمعنى الأقرب إلى المصلحة: كما في قولهﷻ: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [النور: 28]، قال الطبري: «أي رجوعكم عنها إذا قيل لكم ارجعوا، ولم يؤذن لكم بالدخول فيها، أطهر لكم عند الله» [5]. وهو المعنى الذي نقله ابن أبي حاتم عن سعيد ابن جبير، وبه قال البغوي [6].

ثامنا_ بمعنى التوحيد والشهادة: ومن ذلك قوله جلّ ثناؤه: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿17﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ [النازعات: 17_ 18]، فعن عكرمة: هل لك إلى أن تقول: لا إله إلا الله. وعن ابن زيد هل لك أن تُسْلم[7].

هذا مجمل ما ورد من معاني للتزكية في كتاب اللهﷻ وهي تتقارب في معانيها ودلالاتها، إذ لم تخرج عن معنى الطهارة.

وقد جاء لفظ التزكية في **السنة النبوية** أيضا بعدّة معانٍ منها:

أولا_ بمعنى الزكاة الشرعية: وهو كثير جدا، أوّله وأولاه حديث ابن عمر رضي الله عنه أن رسول اللهﷺ قال: «**بُنِيَ الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة،**

---

(1) جامع البيان، الطبري، (18/ 75).

(2) تفسير القرآن العزيز، محمد بن أبي زمنين، ت: حسين بن عكاشة - محمد الكنز، دار الفاروق الحديثة – مصر، ط: 1، 1423هـ - 2002م، (3/ 74).

(3) ينظر: تفسير يحي بن سلام، يحي بن سلام، ت: هند شلبي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط: 1، 1425 هـ - 2004 م، (1/ 200).

(4) جامع البيان، الطبري، (18/ 87).

(5) المصدر نفسه، (19/ 150).

(6) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم، (8/ 2568)، معالم التنزيل، البغوي، (3/399).

(7) ينظر: جامع البيان، الطبري، (24/ 201).

وحجّ البيت، وصوم رمضان» [1]، والشاهد قوله ﷺ: «**وإيتاء الزكاة**».

ثانيا_ بمعنى الثناء والمدح: ومن ذلك ما روي عن محمد بن عمرو بن عطاء، قال: «سميت ابنتي برة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: «**إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسميت برة، فقال رسول الله ﷺ**: «**لا تزكوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البر منكم**» فقالوا: بم نسميها؟ **قال**: «**سموها زينب**»»[2].

ثالثا_ بمعنى الإحسان: حيث ورد في ذلك حديث: «**ثلاث من فعلهن فقد طَعِم طَعْم الإيمان: من عبد الله وحده فإنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه رافده عليه في كل عام، ولم يعط الهرمة ولا الدَّرِنَة** [3] **ولا الشَّرَطَ اللَّئِيمَةَ**[4] **ولا المريضة ولكن من أوسط أموالكم، فإن الله عز وجل لم يسألكم خيره، ولم يأمركم بشره، وزكى عبد نفسه**»، فقال رجل: ما تزكية المرء نفسه يا رسول الله؟ **قال**: «**يعلم أن الله معه حيث ما كان**»[5]. هذه هي المعاني التي وقفت عليها للفظ التزكية من خلال السنة النبوية، وسيأتي في المطلب الموالي الحديث عن أنواع التزكية.

المطلب الثاني: أنواع التزكية في القرآن والسنة

بتتبع القرآن الكريم والسنّة النبوية ظهر أنّ مصطلح التزكية وما جرى في معناه، قد يُراد منه ما فطر الله ﷻ عليه الإنسان في أصل خلقته من الجِبِلَّة السليمة، كما يُطلق على ما يكتسبه الإنسان من الصفات الحميدة، ويأتي لفظ التزكية مقرونا بالمدح وهذا هو الغالب في استعماله، كما يأتي أيضا مقرونا بالذّم. وانطلاقا مما تقرّر يمكن تقسيم التزكية باعتبارين:

الفرع الأول: التزكية باعتبار مصدرها

تنقسم التزكية في القرآن والسنة من حيث مصدرها إلى قسمين:

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، رقم: 8، (1/ 11). ومسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: بني الإسلام على خمس، رقم: 19، (1/ 45).

(2) أخرجه مسلم، كتاب الآداب، باب استحباب تغير الاسم، رقم: 2142، (3/ 1687).

(3) أي الجرباء. وأصله من الوسخ. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، (2/ 115).

(4) أي الهزيلة. ينظر المصدر نفسه، (2/ 218)

(5) أخرجه أبو داود في سننه (ت: شعَيب الأرنؤوط - محمّد بللي، دار الرّسالة العالمية، دمشق، ط: 1، 1430 هـ - 2009م) دون زيادة: «وزكى عبد نفسه..»، باب في زكاة السائمة، رقم: 1582، (3/ 32)، والبيهقي في السنن الكبرى (ت: عبد الله التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، ط: 1، 1432 هـ - 2011 م)، كتاب الزكاة، باب لا يأخذ الساعي فيما يأخذ، رقم: 7275، (4/ 161)، وصحّحه شعيب الأرنؤوط بمجموع طرقه.

أولا_ التزكية الفطرية: وهي الجِبِلَّة التي خلق اللهﷻ عليها البشر، من الإقرار بالتوحيد، وعدم الإشراك به، قال ﷻ: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾[الروم: 30]، عزا مكي بن أبي طالب لمجاهد أنّه قال: « صبغة الله: فطرة الله؛ وهي فطرة الإسلام التي فطر الناس عليها ». والفطرة ابتداء ما خلق عليه الخلق وهو الإسلام، ثم غيّروا دين أنبيائهم بدين آخر» (1).

وقالﷻ: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ** ﴾[الأعراف: 172]، يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد ربَّك إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم، فقرَّرهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض شهادتَهم بذلك، وإقرارَهم به»(2).

فالآيات السابقة تبيّن أنّ الله جلّ ثناؤه فطر الناس في أصل خلقتهم على زكاء نفوسهم وطهارتها، وأعظم ما فطرهم عليه الإقرار بتوحيده، وهو أصل التزكية ودعامتها، غير أنّ الناس غيروا وبدّلوا، كما دلّ عليه قوله ﷻ: ﴿ **ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾[الروم: 30].

وجاء في آية أخرى بيان أثر هذه التزكية التي فطر اللهﷻ عليها النّاس؛ حيث كانوا أمة واحدة قبل أن يضلّهم الشيطان عن سواء السبيل، فاختلفوا وتنازعوا، ودنّسوا نفوسهم بالشرك والمعاصي، فبعث اللهﷻ الأنبياء عليهم السلام لتزكيتهم، قال جلّ ثناؤه: ﴿ **كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ** ﴾[البقرة: 213]، قال القاسمي: « ﴿ **كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً** ﴾؛ أي: وُجدوا أمة واحدة تتحد مقاصدها ومطالبها ووجهتها؛ لتصلح ولا تفسد، وتحسن ولا تسيء، وتعدل ولا تظلم أي: ما وجدوا إلّا ليكونوا كذلك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ **وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟** ﴾ [يونس: 19] أي: انحرفوا عن الاتحاد والاتفاق، الذي يثمر كلّ خير لهم وسعادة، إلى الاختلاف والشقاق المستتبع الفساد وهلاك الحرث والنسل.

---

(1) الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه، مكي بن أبي طالب، ت: مجموعة من الباحثين بإشراف: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، ط: 1، 1429 هـ - 2008م، (1/ 471).

(2) جامع البيان، الطبري، (13/ 222).

ولما كانوا لم يخلقوا سدى، منّ الله عليهم بما يبصّرهم سبيل الرشاد في الاتحاد على الحق من بعثة الأنبياء، وما نزل معهم من الكتاب الفصل، كما أشارت تتمة الآية ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾الذين رفعهم على بقية خلقه فأنبأهم بما يريد من أمره، وأرسلهم إلى خلقه ﴿مُبَشِّرِينَ﴾لمن آمن وأطاع، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لمن كفر وعصى، ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾أي: كلامه الجامع لما يحتاجون إليه في باب الدين على الاستقامة والهداية التامة» (1).

وقد جاء في السنة التأكيد على التزكية الفطرية في أصل الإنسان ومنشئه، فعن عياض المجاشعيرضي الله عنه أنّ النبيصلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربهعز وجل أنّه قال: «**وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمَت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا** ...»(2)، وجاء عن ابن عباسرضي الله عنه بيان المدة التي كان الناس فيها على الفطرة السليمة، حيث قال: «كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين». قال: وكذلك في قراءة عبدالله «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا»(3).

ولئن كانت فطرة كثير من النّاس قد انحرفت مع تقادم العهد بالرسل عليهم السلام، فإنّ النصوص الشرعية بيّنت أنّ التزكية الفطرية تصاحب فترة زمنية من عمر الإنسان، وهي مرحلة الطفولة، والتي تمتد حتى البلوغ، ففيها يكون الطفل سليم القلب، طاهر النّفس لا يحمل غلا ولا حسدا، مستقيما على أصل فطرة التوحيد، ثم قد تنحرف فطرته أو تحافظ على أصلها بسبب جملة من العوامل والأسباب، وهذا ما دلّ عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم كما رواه أبو هريرةرضي الله عنه:«**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جَمْعَاء**(4)**، هل تحسون فيها من جَدْعَاء**(5)». ثم يقول أبو هريرةرضي الله عنه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا

(1) محاسن التأويل، القاسمي، (2/ 95).

(2) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم: 2865، (4/ 2197).

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك، تفسير سورة هود، رقم: 4009، (2/ 596)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه».

(4) جَمْعَاء: أَي سليمَة من الْعُيُوب سميت بذلك لِاجْتِمَاع سَلامَة أعضائها. ينظر: غريب الحديث، ابن الجوزي، (1/ 171).

(5) جَدْعَاء: أي مقطوعة الأطراف، أو واحدها. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، (1/ 247).

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم: 30]» (1).

وممّا يبيّن أنّ هذا النوع يصاحب الطفل الصغير، ما جاء في قصة موسىعليه السلام، حيث ذكر اللهسبحانه وتعالى إنكاره على الخضرعليه السلام قتل الغلام، فقال له: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: 74]، فوصْفُ موسىعليه السلام لنفس الغلام بأنّها زكية إنّما كان بسبب صغره، قال ابن عاشور: «ووصف النفس بالزاكية لأنها نفس غلام لم يبلغ الحلم فلم يقترف ذنبا فكان زكيا طاهرا» (2).

وقد ذكر الله جلّ ثناؤه بشارة الملك لمريم عليها السلام بقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: 19]، قال القاسمي: « أي لأكون سببا في هبته. و (الزكيّ) الطاهر من الذنوب أو النامي على الخير» (3). وتزكية الأنبياء تصاحبهم طيلة حياتهم، فقد اختارهم الله وعصمهم من الذنوب والمعاصي.

وقد يطبع اللهسبحانه وتعالى في قلوب بعض الأخيار صفات حميدة، لا بكسب منهم، يدل على ذلك قول النبي ﷺ لأشج عبد القيسرضي الله عنه: «**إنّ فيك خلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**» (4). وجاء في رواية أخرى أنّ الأشجّرضي الله عنه قال: «يا رسول الله أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما؟ قال: «**بل الله جَبَلَك عليهما**» قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله» (5). فهذا نص صريح في اعتبار التزكية الفطرية.

ثانيا_ التزكية المكتسبة:

نتيجة لتعرض النفوس البشرية للانحراف، فإنها مأمورة أن تعود إلى جبلّتها؛ لتكتسب ما يصلحها في دنياها، ويكون ذلك سببا في فلاحها يوم القيامة، ومن هنا يأتي النوع الثاني من أنواع التزكية التي أوردها القرآن الكريم، وهي التزكية المكتسبة؛ ويقصد بها ما يسعى الإنسان لتحقيقه لتطهير نفسه والارتقاء بها، وهي المقصودة من قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[الشمس: 9]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[الأعلى: 14]، ولأجل ذلك بعث

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، رقم: 1358، (2/ 94)، ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم: 2658، (4/ 2047).

(2) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس، 1984 هـ، (15/ 378).

(3) محاسن التأويل، القاسمي، (7/ 89).

(4) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، وشرائع الدين، والدعاء إليه، رقم: 17، (1/ 48).

(5) أخرجه أبو داود، باب في قبلة الرجل، رقم: 5225، (4/ 357)، وحسّنه شعيب الأرنؤوط.

الله رسله، فقال آمرا موسى عليه السلام: ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾[النازعات: 17_18]، قال الطبري: « فقل له: هل لك إلى أن تتطهر من دنس الكفر، وتؤمن بربك؟»[1]. فنسب التزكية له؛ لأنّ الله تبارك وتعالى جعل للإنسان الاختيار، على أن يتحمل تبعات ذلك، قال جلّ شأنه: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ ﴾[الكهف: 29]، قال السعدي: «أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة بها يقدر على الإيمان والكفر، والخير والشر، فمن آمن فقد وُفق للصواب، ومن كفر فقد قامت عليه الحجة، وليس بمكره على الإيمان...»[2].

وجاء في السنة الأمر باكتساب التزكية، قال النبي ﷺ: «**ثلاث من فعلهن فقد ذاق طعم الإيمان: من عبد الله عز وجل وحده بأنه لا إله إلا هو، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه في كل عام، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا المريضة ولكن من أوسط أموالكم؛ فإن الله عز وجل لم يسألكم خيرها ولم يأمركم بشرها، وزكى نفسه**»، فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: «**أن يعلم أنّ الله عز وجل معه حيث كان**»[3].

وكل ما جاء في البحث من بيان لأهمية التزكية ووسائلها، وآثارها والتحذير من موانعها، داخل في الحثّ على اكتساب التزكية.

الفرع الثاني: التزكية باعتبار حكمها

بتتبع القرآن الكريم والسنة النبوية ظهر أن التزكية تتفرع من حيث حكمها إلى نوعين؛ أحدهما محمود، وهو المطلوب اكتسابه، وأما الآخر فمذموم، يقول الرّاغب: «وتَزْكِيَةُ الإنسان نفسه ضربان: أحدهما: بالفعل، وهو محمود وإليه قصد بقوله: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس: 9]، وقوله: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى: 14]، والثاني: بالقول، كتزكية العدل غيره، وذلك مذموم أن يفعل الإنسان بنفسه، وقد نهى الله تعالى عنه فقال: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾[النجم: 32]»[4]، وفيما يلي بيان ذلك:

أولا_ التزكية المحمودة:

يقصد بالتزكية المحمودة تلك التي يثاب عليها فاعلها، وهي المأمور بها في نصوص الكتاب والسنة، وبها ربط الله تبارك وتعالى الفلاح كما في قوله تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾، وجعلها أساس مبعث الأنبياء عليهم السلام كما قال

(1) جامع البيان، الطبري، (24/ 200).
(2) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 476).
(3) سبق تخريجه. ينظر: (ص: 21).
(4) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، (ص: 381).

عن موسى عليه السلام: ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿17﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾[النازعات: 17 ـ 18]، وقال مبينا وظيفة نبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[الجمعة: 1_2]، وهو المعنى الذي يُفهم غالبا إذا أطلق لفظ التزكية.

فالتزكية المحمودة ترتبط بالعمل الصالح الذي يعود على النفس بالفلاح، وتركه يعود عليها بالهلاك قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: 46]، قال البقاعي في تفسيره لهذه الآية: «﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ كائناً من كان من ذكر أو أنثى ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾؛ أي فنفع عمله لها ببركتها به لا يتعداها، والنّفس فقيرة إلى التزكية بالأعمال الصالحة؛ لأنّها محلّ النقائص فلذا عبّر بها... ﴿وَمَنْ أَسَاءَ ﴾أي في عمله ﴿ فَعَلَيْهَا ﴾؛ أي على نفسه خاصة، ليس على غيره منه شيء»[1].

وهذا المعنى أكّده رشيد رضا حيث قال: «وتزكية النفس تكون بالعمل الذي يجعلها زاكية؛ أي طاهرة كثيرة الخير والبركة، وأصل الزكاء والزكاة: النمو والبركة في الزرع، ومثله كل نافع، فتزكية النفس بالفعل عبارة عن تنمية فضائلها وخيراتها، ولا يتم ذلك إلا باجتناب الشرور التي تعارض الخير وتعوقه، وهذه التزكية محمودة وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾[الشمس: 9]؛ أي: نفسه»[2].

«والتزكية للأنفس بالفعل تسند إلى الله تعالى؛ لأنّه هو الخالق المقَدِّر الموفق للعبد لفعل ما تزكو به نفسه وتصلح، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[النور: 21]، وتسند إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنّه المربي للمؤمنين على ما تزكو به أنفسهم، ويعلو قدرها بسنته العملية والقولية في بيان كتاب الله جلّ ثناؤه، وما لهم فيه من الأسوة الحسنة ومنه هذه الآية: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[الجمعة: 1_2]، فتزكيته صلى الله عليه وسلم للأمة من مقاصد البعثة، وتُسْنَدُ إلى العبد لكونه هو الفاعل لما جعله الله

(1) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د ت ط، (17/ 210).

(2) تفسير المنار، رشيد رضا، (5/ 123).

سببا لطهارة نفسه وزكائها، كالصدقات وغيرها من أعمال البِرِّ، ومنه قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾، وقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾[الأعلى: 14]»(1). والتزكية التي يُحمد عليها الإنسان أن يعمل عملاً صالحاً تزكو به نفسه.

ثانيا_ التزكية المذمومة:

وهي المتعلقة بالقول ومدح الإنسان نفسه وهي التي نهى الله عنها، وبيّن أنّها من صفات أهل الكتاب ممن حرّفوا دينهم، كما في قوله: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 188]، فعن ابن عباسﷺ: « هم أهل الكتاب، أنزل عليهم الكتاب فحكموا بغير الحق، وحرّفوا الكلم عن مواضعه، وفرحوا بذلك، وأحبوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، وكفروا بمحمدﷺ وهم يزعمون أنهم يعبدون الله، ويصومون ويصلون ويطيعون الله، فقال الله جل ثناؤه ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾»، وعن السدي قال: « كتموا اسم محمد ﷺوفرحوا بذلك حين اجتمعوا عليه، وكانوا يُزَكُّونَ أنفسهم فتوعدهم الله بالعذاب»(2).

وجاءت آية أخرى في سورة النساء تؤكّد قبح فعل اليهود بتزكية نفوسهم، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[النساء: 49]،وقد اتفق المفسرون على أن المراد اليهود(3)؛ حيث أثنوا على أنفسهم بقولهم: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾[المائدة: 18]،وقولهم: ﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾[البقرة: 111]، وهذا ما ذكره قتادة والحسن(4).

وقد رَدَّ الله جل ثناؤه عليهم بقوله: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾؛ «أي: ليست العبرة بتزكيتكم لأنفسكم بأنكم أبناء الله وأحباؤه، وأنكم لا تعذبون في النار وأنكم ستكونون أهل الجنة دون غيركم؛ لأنكم شعب الله المختار، بل الله يزكي من يشاء من عباده من جميع الشعوب والأقوام بهدايتهم إلى العقائد الصحيحة، والآداب الكاملة، والأعمال الصالحة، أو شهادة كتابة لهم بموافقة عقائدهم وآدابهم وأخلاقهم وأعمالهم لما جاء فيه»(5).

(1)تفسير المنار، رشيد رضا، (11/ 20).

(2) ينظر: جامع البيان، الطبري، (7/ 468).

(3) فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ط: 2، 1414 هـ، (1/ 551).

(4) ينظر: المصدر السابق، (8/ 452).

(5) تفسير المنار، رشيد رضا، (5/ 123).

والآية وإن كانت في اليهود إلا أنها تتناول كل من زكى نفسه بحق أو بباطل من اليهود وغيرهم(1)، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو معلوم.

وقد أكدت آية النجم عموم النهي وذلك في قوله جلّ ثناؤه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[النجم: 32]، قال الطبري في معنى الآية: « فلا تشهدوا لأنفسكم بأنها زكية بريئة من الذنوب والمعاصي»(2). قال الراغب: « ونهيه عن ذلك تأديب لقبح مدح الإنسان نفسه عقلا وشرعا، ولهذا قيل لحكيم: ما الذي لا يحسن وإن كان حقّا؟ فقال: مدح الرّجل نفسه» (3)، «وقد أجمع العقلاء على استقباح تزكية المرء لنفسه بالقول، ومدحها ولو بالحق، ولتزكيتها بالباطل أشد قبحا... وهذا النّوع من التزكية مصدره الجهل والغرور، ومن آثاره العتو والاستكبار عن قبول الحق، والانتفاع بالنّصح»(4).

والنهى عن تزكية النّفس في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ ليس المقصود به الكفّ عن طلب ما يُزكى النفس ويطهرها، فالعمل على تزكية النفس، وتطهيرها مما يخالطها من ذنوب وآثام هو أمر مطلوب دائما من كل إنسان يطلب الفلاح والنّجاة، كما يقول سبحانه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[الأعلى: 14]، وقال أيضا: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 9_10]، فالمراد بالنّهي عن التزكية في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾هو النّهي عن الاطمئنان إلى النفس، وعدّها مزكّاة مطهرة، لا تحتاج إلى تزكية وتطهير... فإنّ النّفس التي خالطت تراب الأرض ولبست هذا الجسد الترابي، لن تكون أبدا على حال كاملة من النّقاء والطهر، بل هي دائما في حاجة إلى زكاة وتطهير...، فالنّهي عن تزكية النفس هنا، هو نهي عن إخلاء النفس من مشاعر الاتهام لها بالهوى، والنظر إليها نظرة لا ترفعها إلى درجة الكمال، وهذا من خداع النفس، الذي يزين المرء سوء عمله، ويريه من ذاته، أنّه أوفى على غاية الإحسان... والله جلّ ثناؤه يقول: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: 8]، فقد يرى المرء منكم نفسه في حال معجبة له من الطهر والزكاة، وهو ملطخ بالآثام، غارق في المنكرات، وقد يُخيّل له أن أعماله مبرورة مقبولة، وهى مردودة عليه، فالذي يعلم حقيقة الإنسان، وما هو فيه من خير وشر، وما هو عليه من هدى وضلال هو الله ﷻ، كما يقول جل شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾[البقرة: 220] ... فالمطلوب من الإنسان أن يكون

(1) ينظر: فتح القدير، الشوكاني، (1/ 551).
(2) جامع البيان، الطبري، (22/ 540).
(3) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، (ص: 381).
(4) تفسير المنار، رشيد رضا، (5/ 123).

دائما متهما لنفسه، طالبا السعي إلى غسلها من الأدران، متعهدا لها بالنظافة في كل وقت، كما يتعهد جسده بالغسل والنظافة[1].

واعتبر أهل العلم أن التلقّب بالألقاب المتضمنة للتزكية داخلة في هذا النهي كمحيي الدين، وعز الدين، ونحوهما[2]، ونقل أبو الوليد الباجي عن الإمام مالك قال: «ولا ينبغي أن يتسمى الرجل بياسين ولا بمهدي ولا بجبريل قيل له فالهادي قال هذا أقرب؛ لأن الهادي هادي الطريق»[3]. وممّا استدلوا به؛ ما ورد في حديث محمد بن عمرو بن عطاء قال: «سميت ابنتي برّة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: **أن رسولﷺ نهى عن هذا الاسم،** وسميت برة، فقال رسول اللهﷺ: «**لا تزكوا أنفسكم، إنّ الله أعلم بأهل البر منكم**». فقالوا: بم نسميها؟ **قال:** «**سموها زينب**»[4].

ويستثنى من تزكية الإنسان نفسه ما دعت إليه الحاجة، كأن يتوصل بذلك إلى نشر حق مع عدم إعجابه بنفسه، ومن ذلك قول يوسف عليه السلام: ﴿ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾[يوسف: 5]، قال ابن الجوزي: « فإن قيل: كيف مدح نفسه بهذا القول، ومن شأن الأنبياء والصالحين التواضع؟ فالجواب: أنّه لما خلا مدحه لنفسه من بغي وتكبر، وكان مراده به الوصول إلى حق يقيمه وعدل يحييه وجور يبطله، كان ذلك جميلا جائزا. وقد قال نبينا عليه السلام: «**أنا أكرم ولد آدم على ربه**»[5]، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «والله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار»[6]، وقال ابن مسعود: «لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته»[7]، فهذه الأشياء خرجت مخرج الشكر لله، وتعريف المستَفِيد ما عند المفِيد، ذكر هذا محمد بن القاسم، قال القاضي أبو يعلى: «في قصة يوسف دلالة على أنّه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه، وأنّه ليس من المحظور في قوله: ﴿ **فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ** ﴾[النجم : 32]» »[8].

---

(1) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي – القاهرة، د ت ط، (14/ 615) (بتصرف يسير).

(2) ينظر: فتح القدير، الشوكاني، (1/ 551).

(3) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي، دار السعادة، القاهرة، ط: 1، 1332 هـ، (7/ 296).

(4) سبق تخريجه. ينظر: (ص: 21).

(5) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، رقم: 3610، (5/ 585)، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(6) أخرجه أبو نعيم في الحلية (دار الفكر– مصر، ط: 1، 1416هـ، 1996م)، (1/ 68).

(7) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم: 5002، (6/ 187)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، رقم: 2463، (4/ 1913).

(8) زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن الجوزي، ت: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط: 1- 1422هـ، (2/ 451).

وكما يُنهى عن تزكية الإنسان نفسه، يُنهى أيضا أن يُزكي غيره دون مسوّغ شرعي، وقد وردت أحاديث في بيان ذلك، منها ما روي عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه قال: «مدح رجل رجلا عند النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**ويلك! قطعت عنق صاحبك _مرارا_ إذا كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلانا والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدا، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك**»[1]، وعن همام بن الحارث رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه في وجهه، قال: فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب ويقول: **أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المَدَّاحِين أن نحثو في وجوههم التراب**»[2].

أما إن دعت الحاجة لذلك فلا إشكال فيه، قال ابن عطية: «وأمّا تزكية الإمام والقدوة أحدا ليؤتم به أو لِيَتَهَمَّم الناس بالخير فجائز، وقد زكّى رسول الله ﷺ بعض أصحابه أبا بكر وغيره، وكذلك تزكية الشهود في الحقوق جائزة للضرورة إليها»[3].

وكل ما جاء في البحث في بيان وسائل التزكية والتحذير من موانعها، والحثّ عليها ببيان آثارها، داخل ضمن التزكية المحمودة، التي حثّ الإسلام على اكتسابها، وحذّر من معوقاتها.

وخلاصة هذا المبحث أن التزكية من حيث اللغة تدور حول المعاني التالية: النّماء والبركة والطهارة والمدح والصلاح وصفوة الشيء وأحسنه.

وأما في الاصطلاح فيقصد منها تطهير النّفس من الشّر، ممّا يؤدي إلى تنمية الخير فيها والاستقامة عليه، وهي عملية متواصلة في سبيل بلوغ أعلى المراتب حتى يصل العبد إلى درجة الإحسان؛ فيعبد الله كأنّه يراه.

وتشترك التزكية مع ألفاظ عديدة في الدلالة على بعض المعاني التي تتضمنها، منها الطهارة، الطيب، والتربية، والتهذيب.

وقد وردت مادة (زكى) في القرآن الكريم اثنتي وعشرون (22) مرة، وجاءت بعدة معانٍ، منها: بمعنى أداء الزّكاة الشّرعيّة، النقاء والطهارة، الثناء والمدح، الحلال، السلامة من الذنوب، التقوى والصلاح، الأقرب إلى المصلحة، التوحيد والشهادة. وأما في السنة فوردت بمعنى التوحيد والشهادة، الزكاة الشرعية، الثناء والمدح، الإحسان.

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب إذا زكى رجل رجلا كفاه، رقم: 2662، (3/ 177)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح، رقم: 3000، (4/ 2296).

(2) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح، رقم: 3002، (4/ 2297).

(3) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن عطيّة، ت: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: 1 - 1422 هـ، (5/ 205).

وتنقسم التزكية باعتبار مصدرها إلى: تزكية فطرية، وهي الأصل في الإنسان. وتزكية مكتسبة، وهي التي حثّ عليها القرآن والسنة. وأما باعتبار حكمها فتنقسم إلى تزكية محمودة وهي تطهير النّفس من كل الأدران، وتنمية جوانب الخير فيها. وتزكية مذمومة، وتكون إما بثناء الإنسان على نفسه أو على غيره دون مسوغ شرعي. والتزكية المقصودة في البحث، هي التزكية المحمودة التي ينبغي للإنسان أن يسعى لتحقيقها، وتتمثل في تخلية الإنسان من الأدران وتحليته بالفضائل حتى يرتقي إلى درجة الإحسان.

وقد جاءت التزكية في القرآن مقرونة بالعلم في موضع بيان وظيفة النبيﷺ والمقصد من بعثته، فما مفهوم العلم وأنواعه في القرآن الكريم والسنة النبوية؟ هذا سيأتي بيانه في المبحث الموالي.

المبحث الثاني: مفهوم العلم وأنواعه في القرآن والسنة

من المصطلحات المرجعية للبحث مصطلح (التعليم)، وقاعدته التي يستند عليها هو: (العلم)، لذا وجب بيان مفهومه، والتطرق لأنواعه، حتى يتحدد مقصود العلم المراد دراسته من خلال القرآن والسنة، ويأتي هذا المبحث لتحقيق ذلك، من خلال مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم العلم في القرآن والسنة

بيان مفهوم العلم في القرآن والسنة أمر في غاية الأهمية، وينبغي التقديم ببيان مفهومه لغة واصطلاحا، وبعدها تذكر الألفاظ ذات الصلة، ليختم بتتبع استعمال القرآن الكريم والسنة النبوية للمصطلح، وذلك في ثلاثة فروع على النحو التالي:

الفرع الأول: مفهوم العلم لغة واصطلاحا

ذكر ابن فارس أن مادة (عَلَمَ) من حيث **اللغة** أصل صحيح يدلُّ على أَثَرٍ بالشَّيءِ يتميَّزُ به عن غيره، ومن ذلك الْعَلَامَةُ، يُقال: أَعْلَمَ الفارس، إذا كانت له علامة في الحرب... وَالْعَلَمُ: الرَّاية... وَالْعَلَمُ: الجبل، وكل شيء يكون مَعْلَمًا؛ خِلَافُ الْمَجْهَلِ. وَالْعَلَمُ: الشَّقّ فِي الشَّفة العليا، والعِلْم: نقيض الجهل، وتعلّمت الشيء، إذا أخذت علمه[1].

وأما الرّاغب فقد جعل العِلم بمعنى المعرفة والخبر الذي يدل عليه لفظ (الإعلام)، غير أنّه أوضح الفرق بين عَلّمته وأَعْلمته؛ فالإعلام اختصّ بما كان بإخبار صحيح، والتّعليم اختصّ بما يكون بتكرير وتكثير حتّى يحدث منه أثر في نفس المتعلّم[2].

وذكر ابن منظور أنّ العلم نقيض الجهل... وعَلِمْتُ الشي أَعْلَمُه عِلْماً: عرفته، وذكر من معاني العلم الإلهام، وفي حديث ابن مسعودﷺ: «**إِنّك غُلَيْمٌ مُعَلَّمٌ**»[3]، أي ملهم للصّواب والخير، وعلم بالشّيء: شعر، وعلم الأمر وتعلّمه: أتقنه، وعلم الرّجل: خبره، وأحبّ أن يعلمه أي يخبره[4].

بعد استعراض بعض أقوال أهل الشأن اتضح أنّ العلم يدور حول جملة من المعاني، منها: **العلامة والخبر والمعرفة والإلهام للصواب والشعور بالشيء.**

---

(1) ينظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، باب العين واللام وما يثلثهما، مادة: علم، (4/ 110).

(2) ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، (ص: 580).

(3) أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده، رقم: 317، (1/ 215)، وأخرجه أحمد، رقم: 3598، (3/ 505)، والحديث حسّنه الألباني في صحيح السيرة النبوية، المكتبة الإسلامية – الأردن، ط:1، 1421هـ، (ص: 124).

(4) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، فصل العين المهملة، مادة: علم، (12/ 417).

أما من الناحية الاصطلاحية فقد تعدّدت تعاريف العلم، حيث عرّفه الرّاغب بقوله: «العِلْمُ: إدراك الشيء بحقيقته»[(1)].

وحدّه الكفوي بالإدراك فقال: «والمعنى الحقيقي للفظ العلم هو الإدراك، ولهذا المعنى متعلق وهو المعلوم، وله تابع في الحصول يكون وسيلة إليه في البقاء وهو الملكة، فأطلق لفظ العلم على كل منها إما حقيقة عرفية، أو اصطلاحية أو مجازا مشهورا»[(2)].

وتَعَقب البعض ربط العلم بالإدراك باعتبار وجود فروق بينهما؛ فالإدراك موقوف على أشياء مخصوصة وليس العلم كذلك[(3)]، وذكر ابن الفراء أنّ الإدراك يُستعمل في أشياء مختلفة على طريق الحقيقة بالإدراكات الخمسة: الرؤية والسمع والشم والذوق والبلوغ، فثبت أنه يستعمل في غير العلم[(4)].

وقال أبو حامد الغزاليّ: «العلم هو معرفة الشّيء على ما هو به»[(5)]. والملاحظ أنّ هذا التعريف يقترب كثيرا من تعريف الرّاغب، غير أنّ الراغب ربطه بإدراك الشيء والغزالي ربطه بمعرفة الشيء.

واختار أبو يعلى في كتابه العدّة تعريف الغزالي، غير أنّه عدل عن قول: «معرفة الشيء»، إلى القول بأنه «معرفة المعلوم»؛ لأن: القول (معلوم)، أعم من: القول (شيء)، فالشيء لا يكون إلا موجودًا، والمعلوم يكون معدومًا وموجودًا، وقد ثبت أن المعدوم ليس بشيء، وعلّل ربط العلم بالمعرفة باعتبار أن كل علم تعلق بمعلوم فإنه معرفة له، وكل معرفة لمعلوم فإنها علم به[(6)].

وقال الجرجانيّ: «هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، وقال الحكماء: هو حصول صورة الشيء في العقل، والأول أخص من الثاني...»[(7)].

---

(1) المفردات في غريب القرآن، الراغب، (ص: 580).

(2) الكليات، أبو البقاء الكفوي، ت: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط: 2، 1419هـ، 1998م، (ص: 611).

(3) ينظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ت: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، د ت ط، (ص: 89).

(4) ينظر: العدة في أصول الفقه، أبو يعلى ابن الفراء، ت: أحمد المباركي، ط: 2، 1410 هـ - 1990 م، (1/ 77).

(5) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة – بيروت، د ت ط، (1/ 29).

(6) ينظر: المصدر السابق، (1/ 78).

(7) التعريفات، علي الجرجاني، ت: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، ط: 1،1403 هـ - 1983م، (ص: 155).

وأمّا معنى التعليم فقد أورد الراغب تعريفا له، مبيّنا الفرق الموجود بينه وبين التعلم، حيث قال: «قال بعضهم: التَّعْلِيمُ: تنبيه النّفس لتصوّر المعاني، والتَّعَلُّمُ: تنبّه النّفس لتصوّر ذلك، وربّما استعمل في معنى الإِعْلَامِ إذا كان فيه تكرير، نحو: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾[الحجرات: 16]»[1].

يظهر من خلال ما سبق تداخل التعاريف فيما بينها؛ فبعضها اهتمّ بالمعنى، والبعض الآخر ركّز أكثر على الألفاظ حتى يكون التعريف جامعا مانعا، غير أنّ الكثير منها اضطر أصحابها أو من جاء بعدهم إلى شرحها وإخراج المحترزات، فكثر بذلك الاعتراض والجواب عليه، ولا يكاد يسلم تعريف من الأخذ والرد، وهذا ما يجعل المتلقي في حيرة من أمره واضطراب، والحق أنّ العلم واضح المعنى لا يحتاج إلى تعقيد وأخذ ورد، وعليه فالمختار عندي أنّ **العلم هو ما بُني على الدليل، وأوجب اليقين**، يؤكد ذلك قوله ﷻ: ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ﴾**[الأنعام: 148]**، فالمقصود بالعلم حسب ما دلّت عليه الآية؛ الحجة التي توجب اليقين[2]. وتأتي العديد من الألفاظ الدالة عليه، وهذا ما سيتضح من خلال الفرع الموالي.

الفرع الثاني: الألفاظ ذات الصلة

يشترك لفظ العلم مع ألفاظ عديدة في الدّلالة على بعض المعاني، ومن ذلك ما يلي:

أولا_ الفقه: عرّف العلماء الفقه؛ بالعلم بالشيء والفهم له والفطنة، وفقه كعلم؛ أي فهم[3]، وقد استعملوا أحد اللفظين للدلالة على الآخر، ومن ذلك ما أورده الطبري عند تفسير قوله ﷻ: ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[النساء: 78]، حيث قال: « يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ ﴾؛ فما شأن هؤلاء القوم الذين تصبهم حسنة يقولوا: ﴿ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾، ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ﴾: ﴿ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ ، يقول: لا يكادون **يعلمون** حقيقة ما تخبرهم به»[4].ونقل مقاتل في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾[التوبة: 81]، قراءة ابن مسعودﷺ: «لو كانوا **يعلمون**»[5].

---

(1) التعريفات، الجرجاني، (ص: 580).

(2) ينظر في تفسير الآية: جامع البيان، الطبري، (12/ 211).

(3) ينظر: الكليات، الكفوي، (ص: 690).

(4) المصدر السابق، (8/ 557).

(5) تفسير مقاتل، مقاتل بن سليمان، ت: عبد الله شحاته، دار إحياء التراث – بيروت، ط: 1 - 1423 هـ، (2/ 187).

وقال الطيبي عند شرحه لقول النبيﷺ: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**»(1): «الفقه في العلم: الفهم، يقال: فقه الرجل يفقه فقهاً إذا **علم**، وفَقُه يفقه إذا صار فقيهاً **عالماً**، وجعله العرف خاصاً بعلم الشريعة»(2).

وفرّق بعضهم بين العلم والفقه، حيث قال الماتريدي: «الفقه هو معرفة الشيء بمعناه الدال على نظيره، والعلم ما يعرف نفسه؛ ولهذا لا يقال: الله فقيه، ويقال: عالم؛ لأنه عالم بالأشياء بذاته لا بأغيارها ونظائرها، والفقيه: هو الذي يعرف الأشياء بأغيارها ونظائرها ودلائلها»3. واعتبر الرّاغب الفقه أخصّ من العلم، كما ربطه بالعلم بأحكام الشريعة(4).

وكل الأقوال السابقة تبرز الصلة الوثيقة بين الفقه والعلم، مع وجود بعض أوجه الاختلاف من حيث العموم والخصوص.

ثانيا_ المعرفة: استعمل أهل العلم المعرفة للدلالة على العلم، بل وعرّفوا بها العلم كما مرّ سابقا، حيث ذكر الغزالي أنّ: «العلم هو معرفة الشّيء على ما هو به»(5). وعلّل أبو يعلى في كتابه العدة ربط العلم بالمعرفة باعتبار أن كل علم تعلق بمعلوم فإنه معرفة له، وكل معرفة لمعلوم فإنها علم به(6).

وعند تفسير قولهﷻ: ﴿**مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ**﴾[النور: 35]، قال الطبري: « عن ابن عباس قال: مثل هداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار ازداد ضوءا على ضوء، كذلك يكون قلب المؤمن، يعمل بالهدى قبل أن **يأتيه العلم**، فإذا **جاءه العلم** ازداد هدى على هدى، ونورا على نور، كما قال إبراهيم صلوات الله عليه قبل أن تجيئه **المعرفة**: ﴿**قَالَ هَٰذَا رَبِّي**﴾[الأنعام: 76] حين رأى الكوكب من غير أن يخبره أحد أن له ربا، فلما أخبره الله أنه ربه ازداد هدى على هدى»(7).

(1) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، رقم: 71، (1/ 25)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم: 1037، (2/ 718).
(2) الكاشف عن حقائق السنن، الطيبي، (2/ 660).
(3) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، (4/ 186).
(4) ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب، (ص: 642).
(5) إحياء علوم الدين، الغزالي، (1/ 29).
(6) ينظر: العدة في أصول الفقه، ابن الفراء، (1/ 78).
(7) جامع البيان، الطبري، (19/ 182).

فبالتأمل في كلامه يتضح أنّه استعمل المعرفة في مقابل العلم، ووصف في موطن آخر علماء اللّغة بأهل المعرفة، حيث قال: «وأما المرجان، فإني رأيت أهل المعرفة بكلام العرب لا يتدافعونه أنه جمع مرجانة، وأنه الصغار من اللؤلؤ»(1).

وممّا يؤكد أنّ المعرفة تحمل معنى العلم، ما ذكره الله جلّ ثناؤه عن أحبار اليهود زمن النبيﷺ، حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: 146].

وفرّق صاحب الفروق اللغوية بين العلم والمعرفة، معتبرا المعرفة أخصّ من العلم وأدق؛ فهي علم بعين الشيء منفصلا، بخلاف العلم فإنّه يكون منفصلا كما يكون مجملا(2)، وهذا ما يعني _ حسبه_ أنّ كل معرفة علم، وليس كل علم معرفة.

ثالثا_ **الدراية**: عدّ أبو علي الفارسي الدراية من ضروب العلم(3)، «وذلك صحيح؛ لأنّ الإنسان إذا سُئل عما لا يدري فقال: لا أدري، فقد أفاد هذا القول منه معنى قوله: لا أعلم...، فقوله لا أدري إنّما هو لا أعلم ما جواب مسألتك، وعلى هذا يكون العلم والدراية سواء؛ لأن الدراية علم يشتمل على المعلوم من جميع وجوهه، وذلك أن الفِعَالة للاشتمال، مثل العصابة والعمامة والقلادة؛ ولذلك جاء أكثر أسماء الصناعات على فِعَالة، نحو القِصَارَةُ(4) والخياطة، ومثل ذلك العبارة؛ لاشتمالها على ما فيها»(5).

وحمل الرازي مفهوم الدراية على العلم، فقال عند تفسير قوله ﷻ: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ﴾[يونس: 16]: « قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ﴾هو من الدراية بمعنى العلم»(6).

---

(1) جامع البيان، الطبري، (23/ 35).

(2) ينظر: الفروق اللغوية، العسكري، (ص: 80).

(3) ينظر: الحجّة للقراء السبعة، أبو علي الفارسي، ت: بدر الدين قهوجي - بشير جويجابي، دار المأمون للتراث، بيروت، ط: 2، 1413هـ، 1993م، (1/ 258).

(4) القِصَارَةُ: حرفة يقوم صاحبها بتحوير الثياب، وتدقيقها بالقَصَرَةِ، وهي قطعة من الخشب. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، (5/ 104).

(5) الفروق اللغوية، العسكري، (ص: 92).

(6) مفاتيح الغيب، الرازي، (17/ 226).

وأشار الزمخشري إلى وجود فرق بين العلم والدراية، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[لقمان: 34]، حيث: قال: «وجعل العلم لله، والدراية للعبد، لما في الدراية من معنى الختل والحيلة»(1). وهذا الفرق أورده أبو الهلال العسكري، حيث قال: «والفعالة أيضا تكون للاستيلاء مثل الخلافة والإمارة، فيجوز أن تكون بمعنى الاستيلاء فتفارق العلم من هذه الجهة»(2).ومهما يكن من فروق يقتضيها اختلاف مبنى الكلمتين، إلا أنّ العلاقة بينهما قائمة.

رابعا_ اليقين: من الألفاظ التي لها صلة مع العلم؛ اليقين، ومما يبين ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14]، قال السمرقندي: « ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ يعني: وهم **يعلمون** أنها من الله تعالى»(3).

وعَكْس اليقين: الشك والريب، وقد أورد الله تعالى حال المبطلين، وقابل ذلك ببيان حال أهل العلم ممن أشربت قلوبهم باليقين قالﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿48﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾[العنكبوت: 49]، قال الماتريدي: «﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بل هو اليقين أنك لا تقرؤه، أو لا تكتبه عند الذين أوتوا العلم، وهم مؤمنو أهل الكتاب من نحو عبد الله بن سلام وأصحابه»(4).

وقد أوضح الراغب العلاقة بين اليقين والعلم، موضّحا أنّ اليقين هو الذي لا يصاحبه شك، فهو أعلى درجات العلم، حيث قال: «اليقين أبلغ علم وأوكده، وهو أن يكون عالما بالشيء، وعالماً بأنك تعلمه غير شاك ولا متهيئ للشك، ولذلك قيل: هو المعلوم الذي زالت عنه المعارضة على مرور الأوقات، وإنما لم يوصف الباري تعالى به من حيث أنه لا يستعمل إلا في العلم المكتسب، ولهذا قال تعالى في صفة إبراهيمعليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[الأنعام: 75]»(5).

---

(1) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جار الله الزمخشري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط: 3، 1407 هـ، (3/ 505).

(2) الفروق اللغوية، العسكري، (ص: 92).

(3) بحر العلوم، السمرقندي، (2/ 575).

(4) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، (8/ 235).

(5) تفسير الراغب الأصفهاني، الراغب، (ص: 303).

يُلاحظ من النقل السابق أنّ اليقين يندرج ضمن مراتب العلم، غير أنّه يحصل بعد النظر والاستدلال؛ لذا لا يوصف اللهﷻ به.

وقد سبق إلى بيان هذا المعنى أبو علي الفارسي حيث قال: «فكل يقين علم، وليس كل علم يقينا، وذلك أنّ اليقين كأنّه علم يحصل بعد استدلال ونظر، لغموض المعلوم المنظور فيه، أو لإشكال ذلك على الناظر، يقوي ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾، ثم ذكر بعد ما كان من نظره واستدلاله، ولذلك لم يجز أن يوصف القديم سبحانه به، فليس كل علم يقينا؛ لأنّ من المعلومات ما يعلم من غير أن يعترض فيه توقف أو موضع نظر، نحو ما يعلم ببدائه العقول والحواس...»[(1)].

نستنتج من خلال ما سبق أنّ للعلم صلة بألفاظ عديدة تحمل بعض معانيه، أو تشترك في الدلالة عليها، ومن ذلك: **الفقه، والمعرفة، والدراية، واليقين**. ويبقى لفظ العلم هو الجامع لكل تلك الدلالات، والأكثر ورودا في كتاب الله تعالى، ولذلك ناسب أن يكون قرين التزكية.

الفرع الثالث: العلم في استعمال القرآن والسنة

بتتبع القرآن والسنة ظهر أنّ العلم يستعمل للدّلالة على معاني عديدة، حيث وردت مادة (عَلِمَ) في **القرآن الكريم** سبعمائة وثمان وسبعين مرة (778)[(2)]، ودلّت على المعاني التالية:

أولا_ بمعنى علم الله تعالى الذي لا تحده حدود: وقد جاءت الكثير من الأدلة تبين ذلك، والعلم المضاف إلى الله تعالى يَرِدُ في القرآن الكريم – فضلًا عن اتصاف الله تعالى به- لأغراض وراء ذلك، وهي أمور يكون العلم دليلًا عليها ورمزًا لمعناها، ومن تلك الأغراض: التحذير من الجزاء والتخويف من العقاب، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴾[محمد: 19]؛ أي والله يعلم متقلبكم في الدنيا ومثواكم في الآخرة، والمراد من علمه تعالى بذلك تحذيرهم من جزائه وعقابه.

كما يتضمن ذلك التهديد والوعيد، ومثاله الآيات الموجّهة للمنافقين والمشركين، ويستلزم ذلك اطمئنان المؤمنين وتهدئة خواطرهم وخاطر الرّسول صلوات الله وسلامه عليه، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ [الأنعام: 33]؛ فيقول اللهﷻ مسليًا لرسوله: قد أحطنا بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم، فاطمئن ولا تكدر خاطرك فسينالهم من العقاب ما يستحقونه،

(1) الحجة للقراء السبعة، الفارسي، (1/ 256).

(2) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، (ص: 469).

وستكون عاقبتك النّصر عليهم، فالتعبير في الآية في صورة الخبر ولكن المقصود النهي وذلك تلطف من الله تعالى [1].

ثانيا_ بمعنى إدراك الأمر والإحاطة به: وهو أكثر المعاني ذكرا في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[البقرة: 120]، قال الطبري: «﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بضلالتهم وكفرهم بربهم، ومن بعد الذي اقتصصت عليك من نبئهم في هذه السورة...»[2].

ثالثا_ بمعنى الرُّؤْيَة: ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[آل عمران: 142]، قال مقاتل: «﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾؛ يعني: يرى الله، ونظيرها أيضا: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[سبأ: 6]؛يعني: ويعلم..»[3].

رابعا_ بمعنى الْإِذْن: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[هود: 14]، قال مقاتل: « ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ﴾هذا القرآن ﴿بِعِلْمِ اللَّهِ﴾؛ يعني بإذن الله، وقراءة ابن مسعود «أنما أنزل بإذن الله»[4].

خامسا_ بمعنى الدليل والْكتاب والحجّة: ومنه قولهﷻ: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[الأنعام: 148]، فعن ابن عباس ﭬقال: «يعني: من كتاب نزل من عند الله في تحريم ما حرّمتم»[5].

ويظهر أنّه نسب العلم إلى مصدره؛ إذ الوحي المنزل من عند اللهﷻ هو الفيصل فيما ادعوه لو كانوا صادقين، ويقصد بذلك طلب الدليل والحجّة؛ وهذا ما فهمه كثير من المفسرين، قال البغوي: «أي: كتاب وحجة من الله»[6].

---

(1) التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، فضل حسن عباس، دار النفائس- الأردن، ط: 1، 1437هـ_ 2016م، (2/ 763) (بتصرف).

(2) جامع البيان، الطبري، (2/ 564).

(3) تفسير مقاتل، مقاتل بن سليمان، (1/ 139).

(4) المصدر نفسه، (2/ 275).

(5) ينظر: التفسير الوسيط، الواحدي، (2/ 334).

(6) معالم التنزيل، البغوي، (2/ 169).

وقال الشوكاني: «هل عندكم دليل صحيح يعدّ من العلم النافع فتخرجوه إلينا لننظر فيه ونتدبره؟»[1].

سادسا_ بمعنى الفقه: ومنه قوله ﷻ: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: 74]، قال النسفي: «﴿ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا ﴾ حكمة وهي ما يجب فعله من العمل أو فصلاً بين الخصوم أو نبوة ﴿ وَعِلْمًا ﴾ فقهاً»[2].

سابعا_ بمعنى الدين: حيث ذهب بعض المفسرين إلى إيراد هذا المعنى، ومن أمثلته قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: 120]، قال الرازي: «أي: من الدين المعلوم صحته بالدلائل القاطعة»[3]. وقال أبو حيان: « ﴿ بَعْدَ الَّذِي جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أي: من الدين، وجعله عِلْماً؛ لأنه معلوم بالبراهين الصحيحة»[4]. وفي المقابل يستعمل الجهل أحيانا للدلالة على الكفر، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَٰهِلُونَ ﴾ [الزمر: 64]»، معناه أيها المشركون[5].

ثامنا_ بمعنى الفضل: ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص: 78]، قال ابن قتيبة: «معناه لفضل عندي، ويروى أنه كان أَقرأ بني إسرائيل للتوراة »[6].

تاسعا_ ما يَعدّه أربابه علما وإن لم يكن كذلك: ومنه قوله جلّ ثناؤه: ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ [غافر: 83][7]، قال الطبري: « فرحوا جهلا منهم بما عندهم من العلم»[8]. فهو من قبيل قوله تعالى:

---

(1) فتح القدير، الشوكاني، (2/ 199).

(2) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات النسفي، ت: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط: 1، 1419 هـ - 1998 م، (2/ 413).

(3) مفاتيح الغيب، الرازي، (4/ 29).

(4) البحر المحيط، أبو حيان، (1/ 591).

(5) ينظر: بحر العلوم، السمرقندي، (3/ 193).

(6) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، عبد الرحمن بن الجوزي، ت: محمد كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط: 1، 1404هـ - 1984م، (ص: 453).

(7) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(8) جامع البيان، الطبري، (21/ 422).

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 148]»، فإطلاق العلم على اعتقادهم تهكم وجري على حسب معتقدهم، وإلاّ فهو جهل[1].

والمدقّق في هذه المعاني السابقة، باستثناء المعنى الأخير، يتضح له أنها وإن كانت تحمل معاني متعدّدة تُفهم من سياق الآية، إلاّ أنّها لا تخرج عن المعنى الرئيس للفظ (العلم)، والذي يعني إدراك الشيء على ما هو عليه.

وأما معاني العلم في **السنة النبوية** فيصعب إيفاؤها حقها؛ لصعوبة استقراء الأحاديث جميعا، غير أنّ الذي وقفت عليه من خلال الصحيحين؛ أنّ العلم يأتي للدلالة على ما يلي:

أولا_ علم الله تعالى: ومثاله ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: «سُئل النبي عن أولاد المشركين، فقال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»[2].

ثانيا_ العلم بالدين والفقه فيه: ومثاله ما رواه أبي بن كعبﷺ عن النبي ﷺقال: «**يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**» قال: قلت: ﴿**ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ**﴾**[البقرة: 255]**، **قال**: **فضرب في صدري، وقال**: «**والله ليهنك العلم أبا المنذر**»[3].

ومنه ما جاء عن عمرﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**بينا أنا نائم، إذ رأيت قدحا أتيت به فيه لبن، فشربت منه حتى إني لأرى الري يجري في أظفاري، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب**» قالوا: فما أولت ذلك؟ يا رسول الله قال: «**العلم**»[4]. ومن ذلك أيضا ما رواه أنس بن مالكﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا**»[5].

ثالثا_ العلم النّافع عموما: ويدل عليه ما رواه أبو هريرةﷺ،أنّ رسول الله ﷺ، قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[6].

---

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (24/ 221) (بتصرف يسير).

(2) أخرجه البخاري، كتاب القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين، رقم: 6597، (8/ 122).

(3) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف، وآية الكرسي، رقم: 810، (1/ 556).

(4) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه، رقم: 2391، (4/ 1859).

(5) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل، رقم: 80، (1/ 27)، ومسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، رقم: 2671، (4/ 2056).

(6) أخرجه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم: 1631، (3/ 1255).

من خلال ما سبق يتضح أن للعلم استعمالات عديدة في القرآن الكريم، حيث يأتي للدلالة على **علم الله تعالى الذي لا تحدّه حدود**، كما يأتي بمعنى **إدراك الأمر والإحاطة به**، وبمعنى **الرُّؤْيَة**، **والْإِذْن**، **والدليل والْكتاب والحجّة**، ويأتي أيضا بمعنى **الفقه**، **والدين**، **والفضل**، **وما يعدّه أربابه علما وإن لم يكن كذلك**.

وفي ذلك دلالة على سعة معنى العلم، وكونه أحد الألفاظ المحورية في القرآن الكريم، وما ذلك إلاّ لأهمية العلم وأثره في سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

وأما معاني العلم في السنة النبوية، فمنها: **علم الله تعالى، والعلم بالدين والفقه فيه**، كما يأتي للدلالة على **العلم النّافع عموما**.

المطلب الثاني: أنواع العلم في القرآن والسنة

بتتبع نصوص الكتاب والسنة اتضح أن العلم ينقسم إلى قسمين؛ الأول: باعتبار مصدره، والثاني: باعتبار حكمه، وفيما يلي بيان ذلك:

الفرع الأول: العلم باعتبار مصدره

أثناء استقرائي للآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية الواردة في العلم، ظهر أنّه يتفرع باعتبار مصدره إلى نوعين:

أولا_ العلم اللَدنيّ: هذه العبارة تكررت كثيرا في مؤلفات السابقين، ويقصدون به ما يحصّله العبد من غير واسطة، بل بإلهام من الله ﷻ وتعريف منه لعبده، كما حصل للخضر عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿ **وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** ﴾[الكهف: 65][1]، قال القاسمي في تفسيره لهذه الآية: « أي علما جليلا آثرناه، وهو علم لدنيّ يكون بتأييد ربّاني»[2].

وقد وجّه الطوفي[3] تخصيص بعض العلوم بهذا الوصف رغم أنّ سائر العلوم من عند الله ﷻ؛ بأنّ اللدنية متفاوتة في مراتب الخصوص، فهذا العلم اللدني خاص، ومثّل بالسلطان يُعطي جنده وحاشيته ورعيته على مراتبهم من الصوف إلى ثياب الذّهب، والجميع من عنده وخزانته، فكذلك هاهنا[4].

---

(1) ينظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، (2/ 445).

(2) محاسن التأويل، القاسمي، (7/ 48).

(3) هو: سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم بن سعيد الطوفي، كان فقيهاً حنبليا، عالما بالنحو والفقه والتاريخ، له تصانيف كثيرة منها: مختصر الترمذي، وشرح الأربعين النووية، توفي سنة: (716هـ). ينظر: أعيان العصر وأعوان النصر، صلاح الدين خليل الصفدي، ت: علي أبو زيد، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط: 1، 1418 هـ - 1998م، (2/ 447).

(4) ينظر: الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، نجم الدين الطوفي، ت: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1426 هـ - 2005 م، (ص: 414).

وباعتبار الأنبياء والرّسل عليهم السلام هم خاصة الخاصة، فإن الكثير من علمهم من هذا القبيل، فيُعلّمون بغير واسطة، وقد حمل بعض المفسرين قولهﷻ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[البقرة: 31]، على هذا الوصف، قال الثعالبي: «.. تعليمه سبحانه لآدم الأسماء كلها، إنما كان بالعلم اللدني بلا واسطة»(1).

وبيَّن الذهبي أنّ أكمل صفات النبي: كمال العلم والعمل، ولا يكون أحد نبيا إلاّ بوجودهما، وليس كل من برز فيهما نبيا؛ لأن النبوة موهبة من الحق تعالى لا حيلة للعبد في اكتسابها، بل بها يتولد العلم اللدني والعمل الصالح(2).

وتأمل حديث نزول الوحي، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «...فجاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال: «**ما أنا بقارئ**»، **قال: فأخذني، فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قال: قلت: «ما أنا بقارئ»، قال: فأخذني، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: أقرأ، فقلت: «ما أنا بقارئ»، فأخذني، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال:** ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ④ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾**[العلق: 1_5]**»(3)

قال الكرماني: « لما سمع _ أي النبي ﷺ_ منه (اقرأ)، تصور أنه اعتقد أن حكمه ليس كحكم سائر الناس في أن حصول القراءة والتمكن منها إنما هو بطريق التعليم والتعلم ومدارسة الكتب، فرده بقوله: «ما أنا بقارئ»؛ أي حكمي كحكم النّاس من أن حصول القراءة إنما هو بالتعلم وعدمه بعدمه؛ فلذلك أخذه وغطّه مرارا ليخرجه من حكم سائر الناس، وسيتفرغ منه البشرية، ويُفرغ فيه من الصفات الملكية، فحينئذ يعلم معنى (اقرأ) ويُخاطب بقوله: (اقرأ)، ففي المقروء أيضا إشارة إلى رد ما تصوره من أن القراءة إنما هي تيسر بطريق التعليم فقط، بل إنها كما تحصل من التعليم بواسطة المعلم، فقد تحصل بتعليم الله بلا واسطة، فقوله: ﴿ عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ إشارة إلى العلم التعليمي، و ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ إشارة إلى **العلم اللدني**»(4).

---

(1) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي، (1/ 209).

(2) ينظر: سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة، ت: مجموعة من الباحثين بإشراف شعيب الأرنؤوط، ط: 3، 1405هـ _ 1985م، (12/ 185).

(3) أخرجه البخاري، كتاب بدئ الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟، رقم: 3، (1/ 7)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم: 160، (1/ 140).

(4) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، شمس الدين الكرماني، دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، ط: 2، 1401هـ - 1981م، (1/ 35).

والعبد المؤمن قد يُوفّق لنيل بعض من العلم اللدني، ففي دعاء الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[آل عمران: 8]، قال الطيبي: «خضعوا لبارئهم لاستنزال العلم اللدني، واستعاذوا به من الزيغ النفساني»(1). وهو ما أسماه السيوطي بعلم الموهبة، وجعله شرطا للمفسر(2)، وذهب البعض إلى اعتبار الحكمة من هذا القبيل، ولا تتحقق إلاّ لمن أراد الله به خيرا، قال ﷻ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة: 269]، قال الثعلبي: « وقال بعض أهل الإشارة: هي العلم اللدني»(3).

وقد غلا بعض المتصوفة في هذا الوصف فأطلقوه على شيوخهم، وزعموا أنّهم مستغنون بما أسموه بالمكاشفات عن تعلم الوحي، ونبزوا أهل الحديث بقولهم: «أنتم تأخذون العلم ميتا عن ميت، ونحن نأخذ علمنا عن الحي الذي لا يموت!»(4)، ولا شك في خطورة اعتقاداهم وبطلانه.

وقد بيَّن ابن القيم حقيقة العلم اللدني خلافا لما زعم هؤلاء، فقال: «والعلم اللدني ثمرة العبودية والمتابعة والصدق مع الله والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله ﷺ، وكمال الانقياد له، فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصّه به، كما قال علي بن أبي طالب ﵁وقد سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلاّ فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه. فهذا هو العلم اللدني الحقيقي، وأما علم من أعرض عن الكتاب والسنة ولم يتقيد بهما فهو من لدن النفس والهوى والشيطان..»(5).

وذكر ابن تيمية أنّ العلم اللدني هو ما يفتح الله به على قلوب أوليائه المتقين وعباده الصالحين بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه، واتباعهم ما يحبه ما لا يفتح به على غيرهم، وهذا كما قال علي رضي الله عنه: «إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه»، وفي الأثر: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»، وقد دلّ القرآن على ذلك في غير موضع كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿66﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا

---

(1) الكاشف عن حقائق السنن، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، ت: عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ط: 1، 1417 هـ - 1997 م، (2/ 620).

(2) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ت: محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: 1، 1394هـ/ 1974 م، (4/ 215).

(3) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن إبراهيم الثعلبي، ت: مجموعة من الباحثين بإشراف: صلاح باعثمان، دار التفسير، السعودية، ط: 1، 1436 هـ - 2015 م، (7/ 309).

(4) ينظر: تلبيس إبليس، عبد الرحمن ابن الجوزي، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط: 1، 1421هـ/ 2001م، (ص: 285).

(5) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، (2/ 445).

عَظِيمًا ﴿67﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[النساء: 66_68]، فقد أخبر أنه من فعل ما يؤمر به، يهديه الله صراطا مستقيما[1].

من خلال ما أوردته سابقا يتضح أنّ العلم اللدني فتح من اللهﷻ على عباده المتقين بتيسير الفهم وقوة القريحة وسرعة البديهة، وبهذا تتضح علاقة العلم بالتزكية، إذ إنّ العلم سبيل لتحقيقها، والملازم لها يزيده الله علما ويوفقه لإدراك ما يخفى على غيره، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾[البقرة: 282].

ثانيا_ العلم المكتسب: يقصد بالعلم المكتسب ما يسعى الإنسان لإدراكه بإعمال الفكر وبذل الوسع، وجميع نصوص الوحيين الآمرة بطلب العلم والسعي في تحقيقه، تدخل ضمن هذا القبيل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿1﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿2﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿3﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿4﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[العلق: 1_5].

ومن شدّة عناية القرآن الكريم والسنة النبوية بهذا النوع، حثّ الله تعالى على استخدام الوسائل الموصلة لاكتساب العلم، فقال جلّ ثناؤه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[النحل: 78]، فالسمع والبصر يستخدمان لتلقي المعلومات، والعقل يستخدم لتحليلها وبذل الوسع لفهمها والعمل بها.

وقد جاء في السنة النبوية ما يبين أنّ العلم يتحقق بالسعي في اكتسابه، فعن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: «**إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحرى الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه...**»[2]، فالحديث يوضّح أنّ نيل العلم إنّما يكون بالتعلّم، وجاء بصيغة التفعل التي تقتضي التكرار والمداومة على الشيء، وفي ذلك حثّ على الحرص عليه، بثني الرّكب في حلقه، والسفر لتحصيله وسؤال أهل العلم عنه.

وانطلاقا مما سبق يُعلم أنّ الأصل في العلم أنّه يتحقق بالسعي لاكتسابه، وقد تواردت نصوص الكتاب والسنة في الحثّ على ذلك.

---

(1) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (13/ 245) (بتصرف).

(2) أخرجه الطبراني في الأوسط، (ت: طارق بن عوض الله، عبد المحسن بن إبراهيم، دار الحرمين – القاهرة، ط: 1، 1415هـ_ 1995م)، رقم: 2663، (3/ 118)، وجاء من وجه آخر عن معاوية ﷺ أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، باب فضل العلم، رقم: 352، (ص: 253)، وحسّنه الألباني في الصحيحة (مكتبة المعارف_ الرياض، ط: 1، 1415هـ - 1995م)، رقم: 342، (1/ 670).

الفرع الثاني: العلم باعتبار حكمه

ذكر الله تعالى في كتابه العلم تارة في مقام الحمد، وهو العلم النّافع، وتارة في مقام الذم، وهو العلم الذي لا ينفع. وكذلك الأمر بالنسبة للسنة النبوية، حيث أوضحت هذا التقسيم، وفيما يلي بيان ذلك:

أولا_ العلم المحمود

العلم المحمود هو ما يعود بالمصلحة والخير على الإنسان في العاجلة والآجلة، ويعتبر العلم الشرعي أشرف العلوم وأنفعها على الإطلاق، فلا سبيل لعبادة الله ﷻ على الوجه اللائق إلى من طريقه؛ لذا حثّ الله جلّ ثناؤه على تعلمه وتعليمه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة: 122]، ووصف الله أهله بالعلم فقال: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[العنكبوت: 49].

وهو العلم الذي امتن الله جلّ ثناؤه به على نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[النساء: 113]، وأمره بطلب المزيد منه، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[طه: 114].

وبيّن النبي ﷺأنّ الخير منوط بحملته، فقال: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**...»[1]، ووصف مجالسه برياض الجنّة، فقال: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «حِلَقُ الذِّكْرِ**»[2].

وينبغي التنبيه في هذا المقام إلى أنّ العلم الشرعي وإن كان أشرف العلوم وأفضلها، إلاّ أنّ العلم النّافع لا يختصّ به فحسب، بل إنّ كل علم تتحقق منه مصلحة تخدم المقاصد الشرعية فهو علم نافع، شريطة أن لا يُبعد صاحبه عن عبادة ربّه، وأن لا يكون سببا في غفلته.

والمتتبع لنصوص القرآن الكريم يظهر له أنّ الله تعالى حثّ على التأمل في ملكوت السماوات والأرض، وإعمال العقل للوصول إلى إقرار وحدانية الله ﷻ، ومن ذلك قوله جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، رقم: 71، (1/ 25)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم: 1037، (2/ 719).

(2) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، رقم: 3510، (5/ 532)، وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن أنس».

وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة: 164]، ولا شك أنّ العلوم الكونية النّافعة إنّما تنطلق وتعتمد على التأمل.

ومما يبيّن أهمية العلوم الدنيوية النّافعة ما أورده الله تعالى في معرض الامتنان على نبيه داود عليه السلام، حيث قال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾[الأنبياء: 80]، قال ابن عاشور: «وامتن الله بصنعة علمها داوود فانتفع بها الناس وهي صنعة الدروع»[1]. والدروع إنّما تصنع بالحديد، ولقد ألانه الله له كما قال جلّ في علاه: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾[سبأ: 10].

قال السعدي: «يحتمل أن تعليم الله لداود صنعة الدروع وإلانتها أمر خارق للعادة، وأن يكون - كما قاله المفسرون-: إن الله ألان له الحديد، حتى كان يعمله كالعجين والطين، من دون إذابة له على النار.

ويحتمل أن تعليم الله له، على جاري العادة، وأن إلانة الحديد له بما علمه الله من الأسباب المعروفة الآن لإذابتها، وهذا هو الظاهر؛ لأنّ الله امتن بذلك على العباد وأمرهم بشكرها، ولولا أن صنعته من الأمور التي جعلها الله مقدورة للعباد، لم يمتن عليهم بذلك ويذكر فائدتها؛ لأن الدروع التي صنع داود عليه السلام متعذر أن يكون المراد أعيانها، وإنما المنة بالجنس، والاحتمال الذي ذكره المفسرون لا دليل عليه إلاّ قوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾، وليس فيه أن الإلانة من دون سبب، والله أعلم بذلك»[2].

من خلال النّقل السابق تظهر وجاهة القول الذي اختاره السعدي، وهذا ما يبين عناية القرآن بالعلوم النّافعة، ومما يزيد الأمر تأكيدا ذكر منافع الحديد وأهميته، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾[الحديد: 25]، وفي ذلك حثّ على بذل الوسع للاستفادة منه، ولا يتحقق استخراجه إلاّ بجملة من العلوم، كما لا تتحقق الاستفادة منه إلاّ بجملة من العلوم والحرف أيضا، قال الرازي: «وأما الحديد ففيه البأس الشديد، فإن آلات الحروب متخذة منه، وفيه أيضا منافع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾[الأنبياء: 80].

ومنها أن مصالح العالم إما أصول وإما فروع، أما الأصول فأربعة: الزراعة والحياكة وبناء البيوت والسلطنة؛ وذلك لأن الإنسان مضطر إلى طعام يأكله، وثوب يلبسه، وبناء يجلس فيه، والإنسان مدني بالطبع، فلا تتم

---

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (17/ 120).

(2) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 528).

مصلحته إلا عند اجتماع جمع من أبناء جنسه يشتغل كل واحد منهم بِمُهِم خاص، فحينئذ ينتظم من الكل مصالح الكل، وذلك الانتظام لا بدّ وأن يفضي إلى المزاحمة، ولا بدّ من شخص يدفع ضرر البعض عن البعض، وذلك هو السلطان، فثبت أنه لا تنتظم مصلحة العالم إلاّ بهذه الحروف الأربعة؛ أما الزراعة فمحتاجة إلى الحديد، وذلك في كرب الأراضي وحفرها، ثم عند تَكَوُّن هذه الحبوب وتولّدها لا بدّ من خبزها وتنقيتها، وذلك لا يتمّ إلا بالحديد، ثم الحبوب لا بدّ من طحنها وذلك لا يتم إلا بالحديد، ثم لا بدّ من خبزها ولا يتم إلا بالنار، ولا بدّ من المِقْدَحَة الحديدية[1]، وأما الفواكه فلا بدّ من تنظيفها عن قشورها، وقطعها على الوجوه الموافقة للأكل، ولا يتم ذلك إلا بالحديد.

وأما الحياكة فمعلوم أنه يحتاج في آلات الحياكة إلى الحديد، ثم يحتاج في قطع الثياب وخياطتها إلى الحديد، وأما البناء فمعلوم أن كمال الحال فيه لا يحصل إلا بالحديد.

وأما أسباب السلطنة فمعلوم أنها لا تتم ولا تكمل إلا بالحديد، وعند هذا يظهر أن أكثر مصالح العالم لا تتم إلا بالحديد...»[2].

ولاحظ كيف امتنّ الله جلّ ثناؤه على ذي القرنين فآتاه علما، ومنه ما تعلّق بمعرفته كيفية الاستفادة من الحديد واستغلاله، قال تعالى عنه: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴾ [الكهف: 84]، وبيَّن الله ﷻ اعتراف ذي القرنين بنعمة الله تعالى عليه وظهور أثرها في الواقع، حيث طُلب منه أن يجعل حاجزا يمنع من خروج ياجوج وماجوج حتى لا يُفسدوا في الأرض مشيا على طريقتهم المعهودة، وعُرض عليه المال، فكان جوابه: ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴾[الكهف: 95_96].

وممّا يؤكد أهمية العلوم الدنيوية النّافعة، ما بينه الله ﷻ من أمر طالوت عليه السلام، فقد اصطفاه على غيره بالعلم والقوة البدنية، وجعله ملكا على بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ

(1) المِقْدَحَة: أي حجر القدح وحديدته التي تشعل به النار. ينظر: أساس البلاغة، جار الله الزمخشري، دار النفائس- بيروت، ط: 1، 1430 هـ -2009 م، (2/ 55).

(2) مفاتيح الغيب، الرازي، (29/ 471).

﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: 247]، ومن العلوم التي برع فيها كما ذكر أهل التفسير، وكما هو واضح من خلال المهمة التي انْتُدب لها، ما تعلّق بعلم الحرب والتخطيط وأمور السياسة[1]، وقد تضمن القرآن والسنة جوانب كثيرة متعلقّة بذلك، كما تضمن نصوصا تهتم بالأمن القومي وكيفية الحفاظ عليه، حتى أُلّفت العديد من المصنفات في السياسة الشرعية، وبيان علاقة الراعي بالرعية.

والعلوم المتعلّقة بالسياسة والأمن القومي صارت فنونا تُدرّس اليوم لتحقيق مصالح النّاس في العاجلة، والفارق بين الدراسات النظرية الغربية منها والسائرة في فلكها، والدراسات المنبثقة من صميم الشريعة الإسلامية، أنّ الأولى لا تهتم غالبا بالمبادئ والقيم إلاّ في حدود ضيقة، بل تكاد تُغلّف كل نظرياتها بغلاف مادي بحت، دون نظر في العواقب والمألات نظرة دقيقة فاحصة، بخلاف الدراسات الشرعية، فإنها تحيط بمثل هذه القضايا من جميع جوانبها؛ الروحية والأخلاقية والمادية، كما تراعي واقع الحال والمآل.

ومن العلوم النّافعة التي اهتم القرآن الكريم والسنة النبوية بها؛ علم الاقتصاد والتسيير، وقد بيّن الله جلّ ثناؤه في قصة يوسف عليه السلام كيف جنّبهم مجاعة كادت أن تأتي على الأخضر واليابس، وكان من جملة ما استعان به؛ درايته بكيفية تسيير المرحلة وفق المتطلبات الواقعية، وهو ما يسمى اليوم: **بترشيد النفقات.**

ومن عناية القرآن والسنة بهذا الجانب، الحثّ على البيع والشراء، وتحريم المعاملات المحرّمة التي تفضي إلى ضياع المال، قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[البقرة: 275]، دون أن نُغفل حثّ الإسلام على استثمار المال في المشاريع الوقفية، والتي تعود بمنافع عديدة في الدنيا والآخرة.

وتأمل تلك القاعدة الذهبية التي رسمها هذا الدين العظيم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[الإسراء: 29]، قال ابن باديس: «نهى تعالى بهذه الآية عن طرفي الإفراط والتفريط، وهما الإسراف [والتقتير][2].

فالمأمور به: هو العدل الوسط، فعلى ذي المال أن يأخذ في إنفاقه بهذا الميزان؛ ليكون إنفاقه محمودا: فلا يمسك عما يستطيع، ولا يتجاوزه إلى ما لا يستطيع، أو إلى ما يوقعه في عسر وضرر...

وحذّر تعالى من سوء عاقبة الإسراف والتقتير بقوله: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[الإسراء: 29]؛ فالبخيل الممسك ملوم من الله تعالى ومن العباد، إذا لم تلمه نفسه الخبيثة لموت قلبه _ على أنه سيلوم هو نفسه بعد الموت_.

(1) ينظر: بحر العلوم، السمرقندي، (1/ 162).

(2) هذه اللفظة لم ترد في النسخة المعتمدة، والظاهر أنّ فيها سقط؛ لأن السياق يقتضيها.

والمسرف ملوم من الجميع، ومن نفسه بعد ضياع ما في يده.

والمحسور: المتعب المضني، الذي انكشفت عنه القوة، ولم تبق به قدرة على شيء، تقول العرب: حسرت البعير؛ أي أنضيته وأتعبته بالسير، حتى لم تبق به قدرة عليه.

والجمل لا يقطع الطريق ويصل إلى الغاية إلا إذا حافظ صاحبه على ما فيه من قوة، فسار به سيرا وسطا، أما إذا أجهده واستنزف قوته، فإنه يسقط كليلا محسورا؛ فلا قطع طريقه، ولا وصل منزله، ولا أبقى جمله.

فكذلك الإنسان في طريق هذه الحياة محتاج إلى قوة المال، فإذا أنفقه بحكمة نفع به وانتفع، وبلغ غاية حياته هادئا راضيا، وإذا بسط يده فيه كل البسط أتى عليه فانقطع النفع والانتفاع، ولم يبلغ غاية حياته إلا بأتعاب ومشاق»[1]، وهذه قاعدة أساسية في سياسة الإنفاق.

وممّا يؤكّد أنّ العلم النّافع في الإسلام لا يقتصر على العلم الشرعي فحسب؛ النصوص الشرعية التي تبين أهمية علم الأبدان، فالطب يعتمد على جانبين: الوقاية والعلاج، وقد تضافرت نصوص القرآن والسنة في الحثّ على الوقاية، وتحريم إلحاق الأذى والضرر بصحة الإنسان، بل إن الله لم يحرم شيئا إلاّ لخبثه، قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[الأعراف: 157].

والخبث إمّا أن يكون ضرره على دين الإنسان، أو نفسه، أو عقله، أو ماله، أو عرضه. وشهوات البطن والفرج المحرّمة مثلا، تفضي إلى أمراض خطيرة، إذ لا يختلف عاقلان في أضرار الزنا والخمر وأكل لحم الخنزير والميتة... على صحة الإنسان، وهذا ما أثبته العلم الحديث، وكل هذا يدخل في جانب الوقاية.

كما تعتمد الوقاية أيضا على النظافة واجتناب مواطن القذر، ودين الإسلام دين الطهر والنقاء، ويكفي أنّه شرع ذلك في اليوم خمس مرات، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾[المائدة: 6]، وأمر بالغسل مرة في الأسبوع، وحثّ على تنظيف الأسنان بالسواك، مع التطيب، قال النبيﷺ: «**غُسْل يوم الجمعة على كل محتلم، وسواك، ويمس من الطيب ما قدر عليه**»[2]، وحرّم إتيان الحائض والنفساء، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ

(1) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس، (ص: 85).

(2) أخرجه البخاري دون زيادة: «وسواك، ويمس من الطيب ما قدر عليه»، كتاب الجمعة، باب فضل الغسل يوم الجمعة، وهل على الصبي شهود يوم الجمعة، أو على النساء، رقم: 879، (2/ 3)، ومسلم، كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة، رقم: 846، (2/ 581)، واللفظ له.

حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[البقرة: 222]، والأدلة في هذا السياق كثيرة.

وممّا يندرج في جانب الوقاية من الأمراض، عدم مخالطة المريض مرضا معديا للصحيح، إضافة إلى منع التنقل لأماكن المرض أو الخروج منها، وهو ما يُعبَّر عنه في علم الأوبئة، **بالحجر الصحي**، ويعتبر الإسلام سبّاقا إلى إقرار قواعده، فعن أبي هريرة ﷺ، أنّ النبي ﷺقال: «**لاَ يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ**»[1]، وعن سعد ﷺ عن النبي ﷺأنه قال: «**إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها**»[2].

كما يعتبر الإسلام سبّاقا إلى إقرار **قواعد التباعد الصحي**، فقد أورد ابن بطال عن الزهري عن عمر بن الخطابﷺ، قال لمعقيب رضي الله عنهما وقد كان به الجذام: «**اجلس مني قيد رمح**»[3]، وطول الرّمح أربعة أذرع أو نحو ذلك[4]، وهو ما يقارب مترا ونصف إلى مترين، وهي نفس المسافة التي أقرها منظمة الصحة العالمية في إجراء قواعد التباعد الصحي بسبب تفشي فيروس كورونا.

كما تعتمد الوقاية على تنمية القوة، وفي ذلك تقوية لجهاز المناعة، ويرتكز ذلك أساسا على نظام غذائي متوازن، إضافة إلى ممارسة الرياضة، مع الحفاظ على الصحة النّفسية، إذ لها تأثير بليغ الأهمية في جهاز المناعة قوة وضعفا، والإسلام قد اهتم بكل هذه الجوانب، وحثّ على ذلك، ويعتبر قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: 31]، قاعدة صحية في التوازن الغذائي، وجاء في السنة النبوية بيانها أيضا، قال ﷺ: «**ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه**»[5]، أما ممارسة الرياضة فلا يخفى مسابقة النبي ﷺلعائشة رضي الله عنها، كما تجمع الصلاة بين الجانب النفسي والبدني، إضافة إلى حكم وأسرار أخرى.

وأما ما تعلّق بالعلاج، فقد حثّ الإسلام عليه في نصوص كثيرة، فعن أسامة بن شريكﷺ، قال: «أتيت النبيﷺ وأصحابه كأنما على رءوسهم الطير، فسلمت ثم قعدت، فجاء الأعراب من ها هنا وها هنا، فقالوا: يا

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب لا هامة، رقم: 5771، (7/ 138).

(2) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، رقم: 5728، (7/ 130).

(3) ينظر: شرح صحيح البخاري، أبو الحسن ابن بطال، ت: ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، ط: 2، 1423هـ - 2003م، (9/ 411).

(4) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل، محمد حسن جبل، مكتبة الآداب – القاهرة، ط: 1، 2010 م، (2/ 856).

(5) أخرجه الترمذي، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم: 2380، (4/ 590)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

رسول الله، أنتداوى؟ فقال: «**تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء، غير داء واحد الهرم**»(1)، فلم يكتف النبي ﷺ بالحثّ على التداوي، بل فتح باب البحث على مصراعيه، بإقراره أنّ لكل داء دواء، وفي ذلك حثّ على استخدام الإمكانات المتاحة للوصول إلى اكتشاف الأدوية، بإنشاء مخابر للبحث وإجراء التجارب.

وقد أشار حديث آخر أن معرفة الدواء مربوط بالعلم، فمن سعى في سبيل ذلك وصل إلى المبتغى، ومن عطّل وظيفته في البحث بقي جاهلا به، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أنزل الله عز وجل داء إلا أنزل له دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله**»(2)، ومن أضرار الجهل بما تقوم به الحياة؛ أنّه يصيّر الأمة تابعة لا متبوعة، فتضيّع بذلك دورها الريادي، والواقع خير شاهد على ذلك.

وممّا يؤكد أنّ مجال العلم النّافع في القرآن الكريم والسنة النبوية يشمل جميع العلوم النّافعة قول النبي ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(3)، فكلمة (علم) نكرة، والنكرة تدل على الإطلاق، فهو علم بلا قيد، فيدخل فيه أي علم يُنتفع به(4)، شريطة أن يكون خالصا لوجه الله سبحانه وتعالى.

ثانيا_ العلم المذموم:

أوضحت بعض الأدلة من الوحيين أنّ من العلوم ما يكون مذموما لذاته، ومنه ما يكون مذموما لغيره، فأما الصنف الأول فيدخل فيه كل علم ضار، إذ الإسلام جاء لينشر الخير والهداية، ويبث القيم والأخلاق، ويجعل المسلم أخ للمسلم، ويمنع التعدي على أي أحد بغير حق، مسلما كان أو كافرا، بل ويمنع ذلك حتى على الحيوان غير المؤذي؛ لذا فتعلم العلم الذي يلحق الضرر بالغير يعتبر علما محرما، ومن ذلك تعلم السحر، قال تعالى:

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه، باب في الرجل يتداوى، رقم: 3855، (4/ 3)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (مكتبة الدليل _ السعودية، ط:4، 1418 هـ - 1997 م)، رقم: 223، (ص:123).

(2) أخرجه أحمد في مسنده، رقم: 3922، (4/ 85)، وصححه أحمد شاكر.

(3) سبق تخريجه. ينظر: (ص: 41).

(4) ينظر: فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام، محمد بن صالح العثيمين، ت: صبحي بن محمد رمضان، أم إسراء بنت عرفة بيومي، المكتبة الإسلامية، ط: 1، 1427 هـ - 2006 م، (4/ 280).

﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[البقرة: 102]، ذكر ابن كثير أنّ بعض العلماء استدل بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر[1]، وذلك لما فيه من الإشراك بالله وإلحاق الضرر بالمخلوقين.

وقد بين القاسمي خطورة تعلم السحر فقال: « ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾؛ إرشاد إلى أن ليس في تعلم السحر إلا المضرة، لما فيه من التلبيس والتمويه، وإيهام الباطل حقا، والتوصل به إلى المفاسد والشرور. وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾صرح به إيذانا بأنه ليس من الأمور المشوبة بالنفع والضرر، بل هو شر بحت، وضرر محض»[2]. وجزم الشوكاني على أن تعلم السحر كفر مستند إلى الآية السابقة، حيث قال: «وفيه دليل على أن تعلم السحر كفر، وظاهره عدم الفرق بين المعتقد وغير المعتقد، وبين من تعلمه ليكون ساحرا، ومن تعلمه ليقدر على دفعه»[3].

ولخطورة السحر فقد عدّه النبي ﷺمن الموبقات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺقال: «**اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر...»**[4].

ويلحق بالسحر التنجيم، وهو التنبؤ بما يحدث في المستقبل بالاعتماد على النجوم والأبراج، حيث يزعم المنجمون أنّ السعادة، والفقر والغنى، وغير ذلك يُعرَف بالنجوم؛ لأن الله جعل لكل نجمٍ خاصيَّةً في طلوعه وغروبه، فبعضُ النجومِ يدلُّ طلوعُه على كثرة المال للإنسان، وبعُضها يدلُّ على الفقر والمرض، وغير ذلك من الأحوال[5]، وهذا تحكم على الغيب وتعاط لعلم استأثر الله سبحانه به، ولا يعلم الغيب أحد سواه[6]، وقد جاء

(1) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (1/ 363).

(2) محاسن التأويل، القاسمي، (1/ 368)

(3) فتح القدير، الشوكاني، (1/ 141).

(4) أخرجه البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء/ 10]، رقم: 2766، (4/ 10).

(5) ينظر: المفاتيح في شرح المصابيح، الحسين المظْهري، ت: لجنة مختصة بإشراف: نور الدين طالب، دار النوادر، الكويت، ط: 1، 1433 هـ - 2012 م، (3/ 391).

(6) معالم السنن، أبو سليمان الخطابي، ت: محمد راغب الطباخ، المطبعة العلمية – حلب، ط: 1، 1351 هـ - 1932م، (4/ 230).

التنصيص بتحريم ذلك واعتباره علما ضارا، فعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من اقتبس علما من النجوم، اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد**»(1).

وينبغي التنبيه أن ما تعلّق بعلم الفلك، وتتبع حركة الشمس والقمر لمعرفة الحساب، ومعرفة أنواع النجوم للاهتداء بها، كل ذلك مما تحصل به الفائدة ولا يدخل في النهي، بل إنّ الله امتنّ على عباده بهذه العلوم فقال: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾[النحل: 5]، وقال أيضا: ﴿ **وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾[النحل: 16].

قال الخطابي: «فأما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والحس الذي يعرف به الزوال، ويعلم به جهة القبلة، فإنه غير داخل فيما نهي عنه، وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً بأكثر من أن الظل ما دام متناقصاً، فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي، وهذا علم يصح دركه من جهة المشاهدة، إلاّ أن أهل هذه الصناعة قد دبروه بما اتخذوا له من الآلة التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدته ومرا صدته...»(2).

وأما العلم المذموم لغيره، فهو الذي لا ينفع صاحبه، لا لقصور المعلومات أو فسادها، وإنما لفساد القلب الذي زرعت فيه، فالنبات الطيب لا يزكو إلاّ في الأرض الطيبة، وكذلك العلم لا ينفع إلاّ في المحلّ الطيب، وقد كان النبي ﷺ يستعيذ من العلم الذي لا ينفع، فيقول: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع**»(3).

ويدخل في هذا الصنف، أخذ العلم لغير وجه الله ﷻ، وإنما لتحقيق أغراض دنيئة، فالعلم إذا لم يكن لوجه الله تعالى صار وبالا على صاحبه، وهذا ما بينه قوله ﷺ: «**من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلّا ليصيب به عرضا من الدنيا، لم يجد عرف الجنة**»(4).

---

(1) أخرجه ابن ماجه في سننه، باب تعلم النجوم، رقم: 3726، (2/ 1228)، وأبو داود، كتاب الطب، باب النظر في النجوم، رقم: 3905، (6/ 50)، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح».

(2) معالم السنن، الخطابي، (4/ 230).

(3) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، رقم: 2722، (4/ 2088).

(4) أخرجه ابن ماجه، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم: 252، (1/ 92)، وأبو داود، باب في طلب العلم لغير الله تعالى، رقم: 3664، (3/ 323)، وقال شعيب الأرنؤوط: «حديث صحيح لغيره».

وقال أيضا: «**من طلب العلم ليُمارِي به السُّفهاء، أو يُجاري به العلماء، أو يَصرِفَ به وجوه النَّاس إليه، أدخله الله النَّار**»(1).

ويلحق بذلك أيضا العلم الذي لا يثمر العمل ولا يحقق للعبد تزكية، وهذا ما أكد عليه الرازي، حيث ذكر أنّ العلم والاحتجاج له إذا لم يفد الخشية كان من العلم المذموم(2).

وقد تضافرت نصوص الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة في ذم المتصفين بهذا الوصف، بل جعلهم الله ﷻ في حكم من لا يعلم، فقال: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾[البقرة: 101]؛ «أي أن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم أفسدوا علمهم، وجحدوا وكفروا وكتموا»(3)، «فلم ينتفعوا بعلمهم بل أعرضوا عنه فصار ذلك العلم كالعدم كما سمى الله تعالى الكفار: عميا وبكما وصما؛ إذ لم ينتفعوا بهذه الحواس، ويقال للرجل في شيء يفعله لكنه لا يضعه موضعه: صنعت ولم تصنع»(4).

ومن العلم المذموم لغيره، العلم المادي الذي يبعد الإنسان عن ربه جلّ وعلا، ويجعله يفرح بما عنده فيصاب بالغرور، وقد بين الله ﷻ أنّ ذلك كان سببا في ابتعاد فئام من المكذبين وإعراضهم عن تزكية نفوسهم، قال تعالى: ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [الروم: 7]، وقال أيضا: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾[غافر: 82_83]، قال أبو بكر جابر الجزائري: «﴿ **فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ** ﴾المادي، وسخروا من العلم الروحي واستهزأوا بأهله فرحا ومرحاً، ﴿ **وَحَاقَ بِهِمْ** ﴾ أي أحاط بهم العذاب الذي كان نتيجة كفرهم وتكذيبهم واستهزائهم...»(5).

---

(1) أخرجه ابن ماجه، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم: 253، (1/ 93)، والترمذي، باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا، رقم: 2654، (5/ 32). وحسنه الألباني.

(2) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، (2/ 407).

(3) جامع البيان، الطبري، (2/ 404).

(4) المصدر نفسه، (3/ 633).

(5) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط: 5، 1424هـ/ 2003م، (4/ 558).

ومن العلم المذموم أيضا؛ العلم الذي يجعل صاحبه يغتر بجاهه وسلطته، ولربما استبدل شرع الله ﷻ بما عنده من علوم، فصار يتقلب في تناقضاته، كشأن كثير ممن أوغلوا اليوم في علوم السياسة بعيدا عن السياسة الشرعية التي ينبغي أن يتخذوها منطلقا للصلاح والإصلاح، فلما أعرضوا عنها واستبدلوها بما عندهم من العلم، وقعوا في التناقضات، قال ﷻ: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء: 82]، وكم جرّ فرح بعض المعرضين بما عندهم من العلم من الويلات والأزمات.

وتأمل حال قارون، فقد كان خبيرا بشؤون الاقتصاد ومعرفة أساليب الربح وطرق حفظ المال، فاغتر بذلك، فما نفعه علمه قطميرا ولا حفظ له ثروته؛ لإعراضه عن ربه جلّ ثناؤه، واغتراره بما آتاه بغيا منه وعلوا، قال جلّ ثناؤه عنه: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[القصص: 78].

وخلاصة القول أنّ تعريف العلم من حيث اللغة يدور حول المعاني التالية: **العلامة، والخبر، والمعرفة، والفقه، والإلهام للصواب، والشعور بالشيء**. وأما اصطلاحا **فكل ما بني على دليل فهم علم**. وله صلة بألفاظ عديدة تحمل بعض معانيه، ومن ذلك: **الفقه، والمعرفة، والدراية، واليقين**. وجاء في استعمال القرآن بعدة معانٍ وهي: **علم الله ﷻ الذي لا تحدّه حدود**، كما جاء بمعنى **إدراك الأمر والإحاطة به**، وبمعنى **الرُّؤْيَة، والْإِذْن، والدليل والْكتاب والحجّة**، وجاء أيضا بمعنى **الفقه، والتمييز، والدين، والفضل، وما يعدّه أربابه علما وإن لم يكن كذلك**. وأما معاني العلم في السنة النبوية فيصعب إيفاؤها حقها؛ لصعوبة استقراء الأحاديث جميعا، غير أنّ الذي وقفت عليه من خلال الصحيحين؛ أنّ العلم يأتي للدلالة على: **علم الله تعالى، والعلم بالدين والفقه فيه،** كما يراد به: **العلم النّافع عموما**. وينقسم العلم في القرآن والسنة باعتبار مصدره إلى نوعين: الأول: العلم اللَدني، والثاني: العلم المكتسب، كما ينقسم باعتبار حكمه إلى نوعين أيضا: الأول: العلم النّافع. ثانيا: العلم الضار؛ وهو كل علم يلحق منه الضرر، وقد يكون ضار لذاته، كتعلم السحر والتنجيم، كما قد يكون ضار لغيره، إذا لم ينفع صاحبه، لا لقصور المعلومات أو فسادها، وإنما لفساد القلب الذي زرعت فيه، ويدخل في هذا الصنف: أخذ العلم لغير وجه الله، ويلحق بذلك أيضا العلم الذي لا يثمر العمل ولا يحقق للعبد تزكية، والعلم المادي الذي يبعد الإنسان عن ربه ويجعله يفرح بما عنده فيصاب بالغرور.

والعلم الذي يعتني به هذا البحث، هو العلم الذي يُحمد عليه صاحبه، وهو الذي يحقق له التزكية، وقد بيّن الله ﷻ في كتابه أنّ التعليم والتزكية أساس مبعث الرسل عليهم السلام، فما أهميتهما وما العلاقة بينهما؟ هذا ما سيأتي بيانه في المبحث الموالي.

المبحث الثالث: أهمية التزكية والتعليم والعلاقة بينهما في القرآن والسنة

بعد بيان مفهوم التزكية والتعليم في القرآن والسنة وأنواعهما في المبحثين السابقين، يحسن التعرض لأهميتهما والعلاقة القائمة بينهما، وذلك في ثلاثة مطالب على النحو التالي:

المطلب الأول: أهمية التزكية في القرآن والسنة

أكدّ القرآن الكريم والسنة النبوية أهمية التزكية في نصوص عديدة، ومن خلال نظرة فاحصة لبعض ما ورد في ذلك، توصلت إلى ما يلي:

الفرع الأول: التزكية أساس مبعث الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام

وظيفة الأنبياء والرّسل عليهم السلام هي هداية الناس وتطهيرهم من الأدران، وتمييز الخبيث من الطيب؛ لذا فالحاجة إليهم فوق كل حاجة، قال ابن القيم: «ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر؛ فإنّه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى **معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلاّ من جهتهم**، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلاّ هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الرّاجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه والعين إلى نورها والروح إلى حياتها فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرّسل فوقها بكثير، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك، وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال بل أعظم، ولكن لا يحُسّ بهذا إلاّ قلب حي، وما لجرح بميت إيلام»(1).

فتزكية النفوس مُسلَّمَة إلى الرّسل عليهم السلام، وإنما بعثهم الله ﷻ لهذه التزكية وولاّهم إيّاها، وجعلها على أيديهم دعوة وتعليما، وبيانا وإرشادا، قال الله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة:151]، وقال أيضا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ

(1) زاد المعاد، ابن القيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 27، 1995، (1/ 68).

مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [الجمعة: 2... فالرّسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلاّ من طريقهم وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم[1].

وقد بيّن اللهﷻ في كتابه أن الّرسل عليهم السلام أناس اختارهم فزكّاهم وطهّر قلوبهم؛ لأن ذلك شرط أساس لتزكية غيرهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 33_ 34]، قال الواحدي: « أي جعلهم صفوة خلقه، واختارهم بالنبوة والرسالة»[2].

والملاحظ أنّ هذه الآية تشير إلى كل الأنبياء والّرسل عليهم السلام، فقوله جلّ ثناؤه: ﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ ﴾؛ معناه أن بعضها متشعب من بعض، فآل إبراهيم؛ أي: إسماعيل وإسحاق متشعبان من إبراهيم المتشعب من نوح المتشعب من آدم وأولادهما إلى آخر أنبياء بني إسرائيل وإلى خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين متشعبون منهما، وآل عمران وهو موسى وهارون من ذرية إبراهيم ونوح وآدم، وكذا عيسى وأمه مريم عليهما السلام[3].

وقد أثنى اللهﷻ على أنبيائه عليهم السلام في آيات أخرى فقال: ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٥ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٦ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨

---

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم الجوزية، ت: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط :3، 1416 هـ - 1996م، (2/ 300) (بتصرف يسير).

(2) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي الواحدي، ت: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، أحمد محمد صيرة، أحمد عبد الغني الجمل، عبد الرحمن عويس، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط:1، 1415 هـ - 1994 م، (1/ 430).

(3) ينظر: روح البيان، إسماعيل حقي، دار الفكر – بيروت، د ت ط، (2/ 25) (بتصرف يسير).

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿89﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام: 83 _ 90].

«فنحن أمام كوكبة مباركة من الأنبياء والرسل عليهم السلام بلغت ثمانية عشر نبيا ورسولا، يُذكرون بأسمائهم في ثماني آيات، ويوصفون بأحسن الصفات، ويُزكُون بأحسن الأعمال والأخلاق لدرجة أن يُدعى خاتمهم إلى الاقتداء بهم»(1) .

وقد خصّ اللهﷻ بعضهم بمزيد من العناية والفضل، وبين ما جمّلهم به من المناقب، وحثّ النبي ﷺ على اقتفاء أثرهم فقال له: ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ** ﴾[الأحقاف: 35]، وهؤلاء هم الذين امتحنوا في ذات الله في الدنيا بالمحن، فلم تزدهم المحن إلاّ جِدًّا في أمر الله؛ وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام(2).

فنوحعليه السلام أوّل الرّسل، وقد بيّن الله عز وجل أنّه زكّاه وطهّره، فقال في شأنه: ﴿ **ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا** ﴾[الإسراء: 3]، وجاء في حديث الشفاعة شيئا من فضله، قال النبيﷺ: «**فينطلقون إلى نوحعليه السلام، فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فأنت اصطفاك الله، واستجاب لك في دعائك، ولم يدع على الأرض من الكافرين ديارا**»(3).

وجعل الله جلّ ثناؤه من ذريته إبراهيمعليه السلام، فبيّن جميل صفاته، وزكاء قلبه وطهارته من الأدناس، قال ﷻ: ﴿ **وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿83﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾[الصافات: 83_84]، وقال أيضا: ﴿ **وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ** ﴾[البقرة: 130]، قال القرطبي: « أي اخترناه للرسالة فجعلناه صافيا من الأدناس»(4).

وقال تعالى لموسىعليه السلام: ﴿ **وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي** ﴾ [طه: 41]، وجاء في الحديث: «**أنّ الله اصطفى موسى بكلامه ورسالته**»(5).

---

(1) سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، حسين شرفه، مؤسسة الرسالة_ لبنان، ط: 1، 1429هـ/ 2008م، (ص: 247).

(2) ينظر: جامع البيان، الطبري، (22/ 145).

(3) أخرجه أحمد في المسند، رقم: 15، (1/ 173)، وصحّحه أحمد شاكر.

(4) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (2/ 133).

(5) أخرجه البخاري، باب تحاج آدم وموسى عند الله، رقم: 6614، (8/ 126)، ومسلم، كتاب القدر باب حجاج موسى وآدم عليهما السلام، رقم: (2652)، (4/ 2043).

وتأمل كيف مهّد الله عز وجل الجو المناسب لموسى عليه السلام حتى يصل أعلى درجات التزكية، فساقه إلى امرأة فرعون لتتولى تنشئته، وهي امرأة كاملة كما جاء في حديث النبي ﷺ: «**كَمُل من الرّجال كثير ولم يكمل من النساء إلاّ آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران**...»(1)، قال النووي: «ولفظة الكمال تطلق على تمام الشيء وتناهيه في بابه؛ والمراد هنا التناهي في جميع الفضائل وخصال البر والتقوى»(2).

وهذا في الحقيقة هو معنى التزكية في أعلى صورها، فزكاء المنبت يؤثر فيما ينتج عنه، ولذلك قال ﷻ: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: 58].

كما أنّ نشأته في بيت الطاغية فرعون وإن كان في ظاهره نقمة، إلاّ أنّه تسنى لموسى عليه السلام أن يتعرّف على نفسية عدوه، وأسباب تسلّطه على قومه، ويَفهم من جهة أخرى أسباب ذل بني إسرائيل وانقيادهم له، وفي ذلك فائدة قصوى في كيفية التعامل معهم أثناء تزكيتهم.

ولم يكن النبي ﷺ بدعا من الرّسل عليهم السلام، فقد اصطفاه الله جلّ ثناؤه واختاره، وطهّر نسبه تمهيدا له لحمل أعباء تزكية الناس وتطهيرهم، وقد أكّد النبي ﷺ هذا المعنى فقال: «**إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم**»(3)، وقال أيضا: «**أُخرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح**»(4).

كما كان النبي ﷺ قبل البعثة زكيا طاهرا، معروفا بحسن خلقه حتى لُقِب: "بالصادق الأمينّ، والأمانة تدل على أعلى مراتب التزكية؛ لذا نجدها صفة مشتركة في المبلغين عن الله ﷻ، حيث قال كل رسول لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[الشعراء: 107 – 108]، وكانت هذه الصفة ظاهرة في نبي الله

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ... مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم/ 11_ 12]، رقم: 3411، (4/ 158)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، رقم: 2431، (4/ 1886).

(2) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محيي الدين بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: 2، 1392هـ، (15/ 198).

(3) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، رقم: 2276، (4/ 1782).

(4) أخرجه البيهقي في الكبرى (ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، ط: 1، 1432 هـ - 2011 م)، باب نكاح أهل الشرك وطلاقهم، رقم: 14077، (7/ 308)، وحّسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم: 3225، (1/ 613).

موسىعليه السلام، حتى قالت بنت الرجل الصالح لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾[القصص: 26].

وقد وصف اللهسبحانه وتعالى بالأمانة جبريلعليه السلام فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ (193) عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾[الأنعام: 192_194].

وكما وصف الله تعالى جبريل وأنبياءه عليهم السلام بالأمانة، جعلها أيضا وسما للرسالة والوحي فقال: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾[الأحزاب: 72]، فالأمانة وصف مشترك في المبلغ والبلاغ حتى تتحقق التزكية فيمن استمسك بذلك من أولي العقول والألباب، قال سبحانه وتعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [إبراهيم: 52]، وهكذا اختار الله جميع الرّسل واصطفاهم لتحقيق الهدف الأسمى من مبعثهم، وجعل لهم منهجا لتحقيق ذلك، قال سبحانه وتعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾[المائدة: 48]، قال رشيد رضا: « فهذه الجملة استئناف بياني لتعليل الأمر والنهي قبلها؛ أي لكل رسول أو لكل أمة منكم أيها المسلمون والكتابيون، أو أيها الناس جعلنا شريعة أوجبنا عليهم إقامة أحكامها، وطريقا للهداية فرضنا عليهم سلوكه لتزكية أنفسهم وإصلاحها»[1].

وأعظم ما توجّهت إليه عناية الرّسل عليهم السلام، وكان مقصدا عاما لهم؛ تخليص القلوب من رجس الشرك باللهسبحانه وتعالى، قال الله جلّ ثناؤه: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾[النحل: 36]، قال القرطبي: «أي بأن اعبدوا الله ووحدوه. ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾؛ اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم، وكل من دعا إلى الضلال»[2].

كما توجهت عنايتهم إلى معالجة أدواء أقوامهم، ومن نماذج ذلك ما نلحظه في مبعث موسى عليه السلام، إذ يظهر الرّكن الأساس من دعوته والمتمثل في تخليصهم من الشرك، قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (15) إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى (16) ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (17) فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾[النازعات: 15 _ 17]، قال

(1) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: 1، 1990 م، (6/ 341).
(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (10/ 103).

الطبري: «فقل له: هل لك إلى أن تتطهر من دنس الكفر، وتؤمن بربك؟»[1]، وقال السمرقندي: « معناه هل ترغب في توحيد ربك، وتشهد أن لا إله إلا الله، وتزكي نفسك من الكفر، والشرك»[2]،ومعنى الواد المقدس أي المطهر[3]، فاجتمعت طهارة المكان وطهارة المحلّ، وطهارة المقصد وأعظمه تطهيرهم من درن الشرك، وفي الوقت نفسه بذل جهده لتزكية قومه من صفاتهم الذميمة.

وقد بيّن الله ﷻ حال بني إسرائيل قبل مبعث موسى عليه السلام، وما كانوا يعانونه من بطش فرعون وفساده، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[القصص: 4]،وبيّن مقصدا من مقاصد مبعث موسى عليه السلام، فقال: ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : 5 ـ 6]، إذ بُعث ليطهرهم من الذلة والخنوع.

وبما أنّ موسى عليه السلام أكثر الأنبياء ذكرا في القرآن الكريم فسأشير إلى جملة من الصفات التي حرص على تحلية بني إسرائيل بها، وفي المقابل تلك الصفات التي بذل جهده لتخليتهم منها، حتى تتحقق لهم الهداية، قال تعالى موضحا هذا المقصد: ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 53]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم: 5]، فهذه الآيات تؤكد مقصد مبعث موسى عليه السلاموهو هداية النّاس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وهذا لا يتحقق إلاّ بالابتعاد عن الرذائل والقيام بالفضائل.

ومن أهم الصفات التي تحقق الفلاح وتؤثر في تزكية النفس: الشكر والصبر والاستغفار؛ لذا نجد موسى عليه السلام يحث بني إسرائيل على الاتصاف بها، قال ﷻ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: 6ـ 7]، قال الخازن: «﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ ﴾؛ يعني يا بني إسرائيل

---

(1) جامع البيان، الطبري، (24/ 200).

(2) بحر العلوم، السمرقدي، (3/ 543).

(3) ينظر: جامع البيان، الطبري، (24/ 199).

ما خَوَّلْتُكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم، بالإيمان الخالص والعمل الصالح ﴿ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾؛ يعني نعمة إلى نعمة»(1).

وحين اشتدّ أذى فرعون ببني إسرائيل أوصاهم نبيهم بالصبر، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿127﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: 127_128]، وفي الشكر والصبر تمام النعمة، قال قتادة: «نِعْمَ العبد، عبد إذا ابتلى صبر، وإذا أعطي شكر»(2)؛ وذلك أنّ الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر(3).

وبمثل ما أوصاهم بالصبر والشكر، أوصاهم بالتوبة والاستغفار ليكتمل لديهم عنوان السعادة والفلاح، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[البقرة: 54]، فهذه الصفات الثلاث إذا اجتمعت في العبد تحققت له السعادة والفلاح، قال ابن القيم: «فإنّ هذه الأمور الثلاثة عنوان سعادة العبد، وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه، ولا ينفك عبد عنها أبداً، فإنّ العبد دائم التقلب بين هذه الأطباق الثلاث، الأول: نعم من الله تعالى تترادف عليه، فقيدها **الشكر**...الثاني: محن من الله تعالى يبتليه بها، ففرضه فيها **الصبر**... ، والعبد مُعَرَّضُ للغفلة والخطأ، فإذا أراد الله بعبده خيراً فتح له من أبواب **التوبة**...»(4).

وهذا شعيب عليه السلام يُحذِّر قومه من الشرك، ويأمرهم أن يتطهروا من التطفيف في الميزان والإفساد في الأرض والصدّ عن سبيل الله، وهذه الوصايا من صميم التزكية التي كلّف بها الأنبياء والرسل عليهم السلام، قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿85﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ

---

(1) لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين الخازن، ت: محمد شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: 1، 1415هـ، (3/ 29).

(2) جامع البيان، الطبري، (16/ 523).

(3) ينظر: الطب النبوي، ابن قيم الجوزية، دار الهلال – بيروت، ط: 2، 1992م، (1/ 251).

(4) الوابل الصيب، ابن قيم الجوزية، ت: سيد إبراهيم، دار الحديث – القاهرة، ط: 3، 1999م، (ص: 6).

صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[الأعراف: 85_86].

وبيّن الله عز وجلّ حرص إسماعيل عليه السلام على تزكية أهله، قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم: 54_55].

ولم تخل رسالة نبيناﷺ من هذا المقصد، فكانت التزكية من أعظم مقاصد بعثته، قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: 151]، قال رشيد رضا: «فتزكيته – ﷺ– للأمة من مقاصد البعثة»[1].
قال سيد قطب: «وإنّها لتزكية وإنه لتطهير ذلك الذي كان يأخذهم به الرسولﷺ تطهير للضمير والشعور، وتطهير للعمل والسلوك، وتطهير للحياة الزوجية، وتطهير للحياة الاجتماعية، تطهير ترتفع به النّفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح، ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح، وترتفع به من رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيماني، ومن دنس الربا والسحت إلى طهارة الكسب الحلال... إنّها تزكية شاملة للفرد والجماعة، ولحياة السريرة وحياة الواقع، تزكية ترتفع بالإنسان وتصوراته عن الحياة كلها وعن نفسه ونشأته إلى آفاق النور التي يتصل فيها بربه، ويتعامل مع الملأ الأعلى ويحسب في شعوره وعمله حساب ذلك الملأ العلوي الكريم»[2].

وقد بيّن النبي ﷺ هذه الوظيفة بقوله: «**إنّما بُعثت لِأُتمّم صالح الأخلاق**»[3].

يتضح مما سبق أنّ مقصد بعثة الأنبياء والرسل عليهم السلام هو تزكية أقوامهم بتطهيرهم من الشرك والصفات الدنيئة، وتحليتهم بالإيمان والصفات الجميلة.

الفرع الثاني: التزكية سبب الفلاح

النّفس البشرية مثلما لها قابلية للتطهر، فهي قابلة أيضا للفجور الذي يدنسها، وعلى الإنسان بعقله وإرادته أن يختار بينهما، فإن سلك طريق التزكية ومشى فيه فقد سلك سبيل الفلاح، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن

(1) تفسير المنار، رشيد رضا، (11/ 20).
(2) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط: 34، 1425هـ، 2004م، (6/ 3565).
(3) أخرجه أحمد في المسند، رقم: 8952، (14/ 513)، وصححه شعيب الأرنؤوط.

﴿ تَزَكَّىٰ ﴾[الأعلى: 14] ، وقال أيضا: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾[الشمس: 9]، وإن اختار التدسية تحققت له الخيبة والخسران، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[الشمس: 10].

وقد ذكر اللهﷻ هذين الأمرين بعد أن مهدّ لهما بأحد عشر (11) قسما لبيان أهمية التزكية، وخطورة التدسية، حيث قال: ﴿ وَالشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَالۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَالَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَالسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَالۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[الشمس: 1_ 10].

وجاء بعد ذكر الفلاح والخيبة، عقاب قوم ثمود حيث قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ انۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ فَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ﴾[الشمس: 11_15]؛ ليُمثّل بنموذج من نماذج الخيبة التي ينتهي إليها من يدسي نفسه، فيحجبها عن الهدى والحق، وهو ما أصاب ثمود من غضب ونكال وهلاك، ومثّل اللهﷻ بهم؛ لأنّهم بالغوا في الضلالة وابتعدوا عن نور الهداية بعد أنّ وضّحها الله تعالى لهم، قال جلّ شأنه: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَاسۡتَحَبُّواْ الۡعَمَىٰ عَلَى الۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ الۡعَذَابِ الۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[فصلت: 17](1).

ولا شك أنّ من اتبع الهدى يفلح، أما المعرض عنه فينال الشقاء في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ الۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ الۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: 123_126]؛ ولذلك استحق عاقر النّاقة أن يكون من أشقى النّاس، كما جاء في الحديث(2).

وبالعودة إلى الآية السابقة، فقد جعل الله عزّ وجل الغفلة عن آياته سببا في العذاب، «فالمعنى كما نسيت آياتنا في الدنيا، فتركتها وأعرضت عنها، فكذلك اليوم ننساك، فنتركك في النّار»(3)، وهذه حال من أعرض عن تزكية نفسه، قال الله جلّ ثناؤه: ﴿ الۡمُنَٰفِقُونَ وَالۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِالۡمُنكَرِ

(1) ينظر: التبيان في أقسام القرآن، ابن قيم الجوزية، ت: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، د ت ط، (ص: 27).

(2) أخرجه الحاكم في مستدركه، ذكر إسلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، رقم: 4590، (3/ 122)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه».

(3) جامع البيان، الطبري، (18/ 396).

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: 67]

بالإضافة إلى ما سبق، فإيراد عقوبة ثمود مع الحثّ على تزكية النفس والتحذير من تدسيتها يعود إلى تشابه حالهم مع رسولهم، بحال كفار قريش مع النبيﷺ؛ فثمود دعاهم طغيانهم إلى تكذيب نبيهم وعقر النّاقة ومحاولة قتله،وهذا ما بيّنه اللهﷻ في قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[النمل: 52.45]، فعاقبة مكرهم كانت وخيمة.

وكذلك فعل كفار قريش فقد مكروا بالنبيﷺ وحاولوا قتله، فكانت عاقبتهم في تباب، قال المولى جلّ ثناؤه: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[الأنفال: 30]، ونظيرا لهذا التشابه بيّن اللهﷻ عاقبتهم حتى يسعى أهل قريش لتزكية نفوسهم، ويعلموا عاقبة من أعرض عن ذلك؛ ولهذا توعدهم بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، قال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[فصلت : 13].

وفي قوله جلّ ثناؤه: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾[الشمس: 9]، «أسند التزكية إلى العبد؛ لكونه هو الفاعل لما جعله الله سببا لطهارة نفسه وزكائها كالصدقات وغيرها من أعمال البر»[1]، فسبب الفلاح والنجاة إنما يكون من نفس الإنسان ذاتها لا من غيرها، وهذا هو الفارق بين الإسلام وغيره من الأديان، فالنصارى يعتقدون زورا وبهتانا

(1) تفسير المنار، رشيد رضا، (11/ 20).

أن خلاصهم وسعادتهم يكون بالمسيح فدية لهم يفتديهم بنفسه مهما كانت حالهم، والمسلمون يعتقدون أنّ العمدة في النّجاة تزكية النفس بالفضائل والأعمال الصالحة(1).

وكذلك كان حال اليهود قبلهم؛ إذ يزكون أنفسهم بالأقوال دون الأفعال، ويزعمون أنّهم أبناء الله وأحباؤه، قال الله جلّ ثناؤه مبينا حال أهل الكتاب الذين يعلقون النّجاة بكونهم هودا أو نصارى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿111﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: 111_ 112]، قال أبو بكر الجزائري: « من هداية الآيات إبطال تأثير النّسب في السعادة والشقاء، وتقرير أنّ السعادة بدخول الجنّة مردّها إلى تزكية النّفس بالإيمان والعمل الصالح، وإن الشقاوة بدخول النار مردها إلى الشرك، وارتكاب الذنوب فلا نسبة إلى يهودية أو نصرانية أو غيرهما تُغني عن صاحبها، وإنّما المغني بعد فضل الله ورحمته؛ الإيمان والعمل الصالح بعد التخلي عن الشرك والمعاصي»(2).

وهذا ما أوضحه الله ﷻ في قوله: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿75﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾[طه: 75_ 76]، قال الطبري: «وهذه الدرجات العلى التي هي جنات عدن على ما وصف جل جلاله، ثواب من تزكى، يعني: من تطهر من الذنوب، فأطاع الله فيما أمره، ولم يدنس نفسه بمعصيته فيما نهاه عنه»(3).

وتوعَّد الله عز وجل الذين لا يزكون أنفسهم فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿6﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: 6 – 7]، «قال بعض المفسرين: المراد بالزّكاة هنا: تزكية النفس، لأن الآية مكية... فتزكية النفس بالأعمال الصالحة مطلوبة مأمور بها»(4).

وقد ذكر الطبري خلافهم في ذلك فقال: «اختلف أهل التأويل في ذلك، فقال بعضهم: معناه: الذين لا يعطون الله الطاعة التي تطهرهم، وتزكي أبدانهم، ولا يوحدونه؛ وذلك قول يذكر عن ابن عباس»(5)، ثم أورد القول

---

(1) تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، مصر، ط: 1، 1365 هـ - 1946 م، (6/ 112) (بتصرف).

(2) أيسر التفاسير، أبو بكر جابر الجزائري، (1/ 101).

(3) جامع البيان، الطبري، (18/ 343).

(4) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، صالح الفوزان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 3، 1423هـ 2002م، (ص: 246).

(5) المصدر السابق، (21/ 430).

الآخر وأنّ المعنى أنهم لا يؤتون زكاة أموالهم ونسبه لقتادة ورجحّه[1]، واستدرك عليه ابن كثير بقوله: «واختاره ابن جرير، وفيه نظر؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة، على ما ذكره غير واحد وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأمورا به في ابتداء البعثة، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: 141]، فأمّا الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعا بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف، فرض الله على رسوله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك، شيئا فشيئا، والله أعلم»[2].

والحقيقة أن المعنى متحقق في كلا القولين؛ إذ الذي لا يزكي ماله غير زكي في الأصل، والزكاة إنما سميت بذلك لأنها تطهير للنفس من الشح وتطهير للمال وتنمية له، قال ابن كثير: «والمراد بالزكاة هاهنا: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك، وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سببا لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقا إلى استعماله في الطاعات»[3].

وما يقال في هذه الآية ينطبق أيضا على قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ① ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ② وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: 1_4]، حيث نسب الله الفلاح لأهل الزكاة، واختلف في المقصود بها، قال ابن كثير: «وقد يحتمل أن المراد بالزكاة ها هنا: زكاة النفس من الشرك، والدنس، وقد يكون المرد بها الزكاة المعروفة، ويحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا وهو زكاة النفوس، وزكاة الأموال فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا ...»[4].

وقد بيّن الله تعالى مصير من أهمل نفسه فلم يزكها وجزاء من طهرها من رجس الهوى فقال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ㊲ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ㊳ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ㊴ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ㊵ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 37_ 41].

وجاء في حديث النبيﷺ ما يبيّن أن تزكية النفس سبب لحصول حلاوة الإيمان حيث قال: «**ثلاث من فعلهن فقد ذاق طعم الإيمان: من عبد الله عز وجل وحده بأنه لا إله إلا هو، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه في كل عام، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا المريضة ولكن من أوسط أموالكم؛ فإن الله عز وجل لم يسألكم**

(1) ينظر: جامع البيان، الطبري، (21/ 430).
(2) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (7/ 164).
(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(4) المصدر نفسه، (5/ 462).

خيرها ولم يأمركم بشرها، وزكى نفسه»، فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: «أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان»[1].

وخلاصة القول إنّ للتزكية أهمية عظيمة في الكتاب والسنة ويظهر ذلك باعتبارها أساس مبعث الأنبياء والرّسل، فهم أطباء القلوب، ولا سبيل إلى تزكية النّفس وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم، وقد اختارهم الله فزكّاهم وطهّر قلوبهم؛ لأن ذلك شرط أساس لتزكية غيرهم. وممّا يبين أهمية التزكية أيضا أنّها سبيل للفلاح، كما أن الإعراض عنها سبيل للخيبة والخسران. وقد قرنت التزكية في القرآن بالعلم فما أهميته؟ هذا ما سيأتي بيانه في المطلب الموالي.

المطلب الثاني: أهمية العلم في القرآن والسنة

للعلم مكانة عظيمة في القرآن الكريم والسنة النبوية، ويأتي هذا المطلب لتأكيد ذلك، ضمن مجموعة من العناصر على النحو التالي:

الفرع الأول: امتنان الله ﷻ به على أنبيائه عليهم السلام وجعله من مقاصد مبعثهم

بعث الله ﷻ رسله وأنبياءه لتعليم النّاس الطريق الموصل إليه سبحانه وتعالى، فامتثلوا ذلك وبذلوا في سبيله الغالي والنّفيس، وقد جاءت أدلّة كثيرة تبين هذه الوظيفة المنوطة بهم، فهم يجتمعون في تعليم النّاس توحيد ربهم، وما تصلح به أخلاقهم وتستقيم أحوالهم، وقد سبق بيان هذه القضية في أهمية التزكية؛ لذا سأقتصر في هذا العنصر على ذكر الأدلة التي تبيّن بجلاء الدور التعليمي للأنبياء وتُصرّح بذلك، وهي بطبيعة الحال تضاف إلى ما ذُكر في المطلب المشار إليه، ومن تلك الأدلة، ما ذكره الله عن إبراهيم عليه السلام، حيث قال لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾[مريم: 43]، فالآية بينت أن الله تفضّل على إبراهيم بالعلم، وقد استدل به حتى يتبعه أبوه، وتلك إشارة واضحة أنّ صاحب العلم قدوة لغيره.

وبيّن الله ﷻ تفضّله على لوط عليه السلام بهذه النّعمة العظيمة، حتى يُعلِّم قومه ما ينفعهم، قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ﴾ [الأنبياء: 74]، قال القرطبي: «والحكم: النبوة، والعلم: المعرفة بأمر الدين وما يقع به الحكم بين الخصوم، وقيل: (علما) فهما، والمعنى واحد»[2].

كما أورد الله تعالى أثر هذه النّعمة على داود وسليمان عليهما السلام، فقال: ﴿ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ﴾[الأنبياء: 79].

---

(1) سبق تخريجه. ينظر: (ص: 21).

(2) الجامع لأحكام القرآن القرطبي، (11/ 306).

وبيّن تفضّله على يوسف عليه السلام بالعلم، فقال: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[يوسف: 22]، وقد كان لعلمه بالإضافة إلى أمانته أثر في دوره الإصلاحي، حيث دعا إلى توحيد ربه في أحنك الظروف، حين سُئل عن تأويل الرؤيا، فانتهز الفرصة وأخذ يُعلِّم السائلين توحيد الله تعالى، ويستحضر نعمته عليه بتعليمه ذلك، قائلا: ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿37﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿38﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾[يوسف: 37_39]، قال الماتريدي في قول يوسف عليه السلام: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾: «وذلك لطف من الله تعالى للرّسل عليهم السلام»(1).

وبعد أن بيّن يوسف عليه السلام فضل الله جلّ ثناؤه عليه بتعليمه وتوفيقه لتوحيده، وأنّه في ذلك لم يبتدع شيئا من عنده، وإنما اتبع ملة آبائه القائمة على إخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى، أخذ في دعوتهم لإعمال عقولهم، موضّحا أنّ ما اتخذوه من شركاء لا يُقِرُّ به العلم، إنّما هو من قبيل التقليد الأعمى للآباء، فقال: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يوسف: 40].

ثمّ عبّر لهم الرؤيا، وكان ذلك سببا في إشاعة فضله عند الملك، فرفعه الله سبحانه وتعالى بالعلم؛ حيث جنّب مصر مجاعة كانت ستأتي على الأخضر واليابس، وقد كان العلم سببا في تسييره شؤون خزائنها: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[يوسف: 55]، قال البقاعي: « ﴿ إِنِّى حَفِيظٌ ﴾؛أي قادر عل ضبط ما إليّ، أمين فيه، ﴿ عَلِيمٌ ﴾؛أي بالغ العلم بوجوه صلاحه واستنمائه، فأخبر بما جمع الله له من أداتي الحفظ والفهم، مع ما يلزم الحفظ من القوة والأمانة؛ لنجاة العباد مما يستقبلهم من السوء، فيكون ذلك سبباً لردهم عن الدين الباطل إلى الدين الحق»(2).

---

(1) تأويلات أهل السنة، أبو المنصور الماتريدي، ت: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، ط: 1، 1426 هـ – 2005 م، (6/ 239).

(2) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، (10/ 131).

وكذلك امتنّ اللهﷻ بنعمة العلم على موسىعليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَاسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[القصص: 14].

وبيّن الله عز وجل امتنانه على عبد من عباده بهذه النّعمة العظيمة حين وفقّه لإدراك عين اليقين؛ ــ وهي أعلى مراتب العلم ــ بإماتته ثم إحيائه، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة: 259]، وقد جاء في قوله: ﴿ قَالَ أَعْلَمُ ﴾قراءتان؛ الأولى: بصيغة الفعل بناء على نفسه، والثانية: بصيغة الأمر إفادة لغيره ما عَلِم؛« لتدل القراءتان على أنّه عَلِم وعَلّم؛ لأنّ العلم إنما يتم حين يصل إلى غير العالم، فيجمع فضل العلم والتعليم»[1]، وفي ذلك بيان لهذا المقصد العظيم الذي امتثله أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام.

وامتنّ الله تعالى بنعمة العلم على نبينا محمدﷺ، فقال له: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[النساء: 113]،قال ابن عرفة: « هذا من أدل دليل على أفضلية العلم، وبها احتجّ الغزالي رحمه الله على فضل العلم»[2].

وبيّن الله جلّ جلاله أنّ التعليم من مقاصد مبعث نبيناﷺ، فقال: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: 151].

وجاء في السنّة النبوية ما يبيّن هذه الوظيفة، ومن ذلك قولهﷺ: «**إنما أنا لكم مثل الوالد لولده، أعلمكم...**»[3]، وعن أبي هريرةرضي الله عنه: «أن فقراء المهاجرين أتوا رسول اللهﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، فقال: «**وما ذاك؟**» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ﷺ: «**أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم؟ ولا يكون أحد أفضل منكم إلاّ من صنع مثل ما صنعتم...**»[4].

---

(1) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، (4/ 59).

(2) تفسير ابن عرفة، محمد بن عرفة، ت: حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية – تونس، ط: 1، 1986م، (2/ 55).

(3) أخرجه ابن ماجة في سننه، باب الاستنجاء بالحجارة، والنهي عن الروث والرمة، رقم: (313)، (1/ 114).

(4) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم: 595 (1/ 416).

فالحديث يحمل دلالة واضحة على هذا المقصد العظيم، وقد تحقق ذلك فكان واقعا عمليا؛ حيث بذل النبيﷺ حياته معلما من أول ساعة أمره الله جلّ ثناؤه بذلك، وكان تعليمه واضحا للعيان، حتى قال أبوذرؓ: «**لقد تركنا محمد ﷺ، وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علما**»(1).

ولم يخالف في بيان هذه الوظيفة حتى الأعداء، حيث قالوا لسلمان الفارسي ؓ: «**قد علّمكم نبيكمﷺ كل شيء حتى الخراءة، فقال: «أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط، أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو بعظم**»(2).

وبهذا يتبيّن عظم العلم وعلو مكانته، فأحب الخلق إلى اللهﷻ هم رسله عليهم الصلاة والسلام، وامتنان الله جلّ ثناؤه عليهم بذلك دليل واضح على شرف العلم وأهله.

الفرع الثاني: حثّ القرآن والسنة عليه وذم الجهل وأهله

من أهم ما يبرز أهمية العلم في القرآن والسنة، تلك النصوص الكثيرة الحاثّة عليه أو المحذّرة من نقيضه، فأول ما نزل قوله تعالى: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾[العلق: 1_ 5].

وجاء الحثّ على العلم قبل القول والعمل، فقال تعالى: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾[محمد: 19].

وأمر الله تعالى نبيه ﷺبطلب المزيد منه، فقال: ﴿ **وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾[طه: 114]، قال القرطبي: «فلو كان شي أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم...»(3).

وبيّن النبي ﷺمنافع العلم، وفي ذلك حثّ على سلوك سبيله وبيان لأهميته، حيث قال: « **من سلك طريقا يلتمس به علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن طالب العلم ليستغفر له من في السماء والأرض، حتى الحيتان في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم، إن العلماء هم ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما أورثوا العلم،**

---

(1) أخرجه أحمد، رقم: 21361، (35/ 290)، وحسّنه شعيب الأرنؤوط.

(2) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم: 262، (1/ 223).

(3) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (4/ 41).

فمن أخذ به أخذ بحظه _ أو بحظ وافر_»(1)، وأوضح أن الخيرية مربوطة بتعليم النّاس ما ينفعهم، فقال: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»(2)، والنصوص في هذا الباب كثيرة يصعب حصرها.

وفي المقابل فقد تضافرت نصوص الوحيين في ذم الجهل وأهله، قال ابن القيم في معرض ذكر أوجه فضل العلم: «ومنها أنَّه سبحانه ذمَّ أهلَ الجهل في مواضع كثيرةٍ من كتابه، فقال تعالى: ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ**﴾ [الأنعام: 111]، وقال: ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[الأنعام: 37]، وقال: ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**﴾[الفرقان: 44]، فلم يقتصر سبحانه على تشبيه الجُهَّال بالأنعام، حتى جعلهم أضلَّ سبيلًا منهم..

وليس على دين الرسل أضرُّ من الجُهَّال، بل هم أعداؤهم على الحقيقة، وقال تعالى لنبيِّه – وقد أعاذَه –: ﴿**فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾[الأنعام: 35]، وقال كليمُه موسى: ﴿**أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾[البقرة: 67]، وقال لأول رسله نوح: ﴿**إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ [هود: 46].. وأمرَ سبحانه نبيَّه بالإعراض عنهم، فقال: ﴿**وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ [الأعراف: 199].

وأثنى على عباده بالإعراض عنهم ومُتارَكتِهم، كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ**﴾ [القصص: 55].. وكلُّ هذا يدلُّ على قُبح الجهل عنده، وبُغْضِه للجهل وأهله، وكذلك هو عند الناس، فإنَّ كلَّ أحدٍ يتبرَّأ منه وإن كان فيه»(3).

ومن هنا يتضح أنّ أهل العلم وأهل الجهالة لا يستوون، قال جلّ ثناؤه: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[الزمر: 9].

وقد جاء في السنة ما يبيّن قبح الجهل وأهله، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء**»(4)، ومن أهم علاماتهم الجهل، فقد ثبت من حديث أنس بن مالك،

(1) أخرجه ابن ماجه في سننه، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم: 223، (1/ 81)، وأبو داود، باب الحثِّ على طلب العلم، رقم: 3641، (485/5)، والترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم: 2682، (5/ 49)، وحسنه شعيب الأرنؤوط.

(2) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه، رقم: 5027، (6/ 192).

(3) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم الجوزية، دَار عَالم الفوَائد، السعودية، ط: 1 1432 هـ، (1/ 5).

(4) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب ظهور الفتن، رقم: 7067، (9/ 49)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، رقم: 2949، (4/ 2268).

قال: قال رسول اللهﷺ: «إنّ من أشراط الساعة: **أن يرفع العلم ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا**»[1].

ولاحظ كيف أنّ هذه المنكرات إنّما حلّت بسبب رفع العلم وانتشار الجهل، كما تكثر الفتن وينتشر القتل، وذلك بسبب الجهل، قال النبيﷺ: «**إن بين يدي الساعة لأياما، ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج**» والهرج: القتل[2].

بعد الذي استعرضته في بيان حثّ الإسلام على العلم وتحذيره من الجهل، يتضح بجلاء أهميته في القرآن والسنة، فالله تعالى لا يأمر إلاّ بما فيه خير وصلاح، وسؤدد وفلاح، ولا ينهى إلاّ عمّا فيه الخسارة والضلال.

الفرع الثالث: العلم مقدّم على غيره

ممّا يدل على أهمية العلم في القرآن والسنة؛ تقديمه على غيره، ولقد تضافرت النصوص الشرعية في بيان ذلك، منها: أنّ العلم مقدّم على القول والعمل؛ فالنّطق بالخير والسعي لتحقيقه بالفعل من أعظم القربات التي توصل العبد لنيل رضا رب الأرض والسماوات، بَيْدَ أنّ السبيل لتمييز ذلك؛ إنّما هو العلم، فمن خلاله يعرف الصحيح من السقيم والغث من السمين؛ لذا أمر اللهﷻ به قبل القول والعمل، حيث قال: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ** ﴾[محمد: 19]، وهذا ما فهمه أئمة السلف، فعن سفيان بن عيينة أنّه سئل عن فضل العلم فقال: « ألم تسمع قوله حين بدأ به فقال: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ** ﴾، فأمر بالعمل بعد العلم وقال: ﴿ **اِعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ** ﴾[الحديد: 20]، إلى قوله: ﴿**سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ** ﴾[الحديد: 21]...وقال: ﴿ **وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ** ﴾[الأنفال: 48]، ثم أمر بالعمل بعد ذلك»[3].

وقد عقد البخاري بابا أسماه: (**العلم قبل القول والعمل**) واستند في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ** ﴾، فصنيعه يبيّن أنّ العلم شرط في صحة القول والعمل،

---

(1) سبق تخريجه. ينظر: (ص: 41).

(2) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب ظهور الفتن، رقم: 7062، (9/ 48)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، رقم: 2672، (4/ 2056).

(3) الكشاف، الزمخشري، (4/ 324).

إذ لا عبرة لهما إلاّ به؛ لأنّه مُصحّح للنيّة المصحّحة للعمل، فنبّه على ذلك حتى لا يسبق إلى الذّهن من قولهم إنّ العلم لا ينفع إلاّ بالعمل تهوين أمر العلم والتساهل في طلبه[1]، فكونه مصحّح للنيّة يجعله من أعمال القلوب، وانطلاقا من هذا وضّح الكرماني وجه تقديمه، حيث قال: « فالعلم مقدم عليهما بالذات وكذا مقدم عليهما بالشرف؛ لأنّه عمل القلب وهو أشرف أعضاء البدن»[2].

وتأمل كيف أنّ الله جلّ ثناؤه ربط بين التوحيد والعلم، وإن كان توحيد الله ﷻ من الأمور التي فُطرت عليها النفوس، إلاّ أنّ الشيطان يفعل فعلته، خاصة بتقادم العهد مع نور الرّسالة، إذ يَدْرُس العلم ويحلّ محلّه الجهل، وبهذه الطريقة ظهر الشرك عند العرب، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد أما وُدّ كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سُوَاع كانت لهذيل، وأما يَغُوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف، عند سبإ، وأما يَعُوق فكانت لهمدان، وأما نَسْر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم، أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك **وتنسخ العلم عبدت**»[3]، لأجل هذا فإنّ العبد يحتاج إلى من يُعلّمه توحيد ربه ﷻ؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ** ﴾[محمد: 19].

وبلغ من تعظيم القرآن الكريم لشأن العلم والبرهان أن قيّد به الحكم بمنع الشرك بالله تعالى، والنهي عنه وهو أكبر الكبائر وأقصى الكفر، قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[الأعراف: 33]، فالسلطان البرهان، وقال في بر الوالدين الكافرين: ﴿ **وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾[العنكبوت: 8]، ومعلوم من الدين بالضرورة أن الشرك بالله لا يكون بعلم ولا ببرهان؛ لأنه ضروري البطلان، لكن ذكر ذلك لتعظيم أمر الحجة والدليل وما يليه من ذمِّ التقليد[4]، الذي يعتبر من معوقات العلم.

---

(1) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، دار المعرفة - بيروت، 1379هـ، (1/ 160).

(2) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، الكرماني، (2/ 29).

(3)أخرجه البخاري، باب ﴿ **وُدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا** ﴾ [نوح/ 23]، رقم: 4920، (6/ 160).

(4) تفسير المنار، رشيد رضا، (11/ 203) (بتصرف).

وإذا كان العلم مقدم على القول والعمل، فإن صاحبه مقدّم على غيره وإن كان أكبر منه سنّا، أو أكثر منه وجاهة، أو أعرق منه نسبا، وهذا ما أكدته الأدلة الشرعيّة، حيث احتفى القرآن بالعلم، ورفع به أنبياءه ومن سلك طريقهم، وذكر عناية الأنبياء به وشُكْرِهم الله عليه، وتقديمهم له على غيره من النّعم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[النمل: 15]، قال البيضاوي: « وفيه دليل على فضل العلم وشرف أهله؛ حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل، ولم يعتبرا دونه ما أوتيا من الملك الذي لم يؤت غيرهما»(1). وقال ابن باديس: « قد ابتدأ الحديث عن الملك العظيم بذكر العلم، وقُدمت النّعمة به على سائر النّعم، تنويهًا بشأن العلم، وتنبيهاً على أنّه هو الأصل الذي تنبني عليه سعادة الدنيا والأخرى، وأنّه هو الأساس لكل أمر من أمور الدين والدنيا، وأن الممالك إنما تُبنى عليه وتُشَاد، وأن المُلْك إنّما يُنظّم به ويُساس، وأنّ كل ما لم يُبن عليه فهو على شفا جرف هار، وأنّه هو سياج المملكة ودرعها، وهو سلاحها الحقيقي، وبه دفاعها، وأن كل مملكة لم تُحم به فهي عرضة للانقراض»(2)؛ لذا جعله الله سبحانه وتعالى من أهم خصائص طالوت حين اختاره ليكون ملكا على بني إسرائيل، وردّ عليهم زعمهم أنّهم أحق بالملك منه لغناهم وفقره، وقدّم ذكر العلم على بسطة البدن، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: 247]، فالرّفعة الحقيقية لأهله، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[المجادلة: 11].

وقد جاء في السنة النبوية أن نافع بن عبد الحرث، لقي عمر بعسفان، وكان عمر رضي الله عنه يستعمله على مكة فقال: «من استعملته على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى، فقال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولى! قال: إنه قارئ لكتاب الله وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «**إنّ الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين**»(3).

وجاء أيضا ما يوضّح أنّ صاحب العلم يقدّم على غيره في الصلاة، وممّا يبيّن ذلك أنّ النبي ﷺ كان يقدّم عمرو بن سلمة ليؤم قومه رغم صغر سنّه، وذلك لما معه من العلم، وانطلاقا من هذا فهم العلماء أنّ قول النبي ﷺ:

---

(1) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: 1 - 1418 هـ، (4/ 156).

(2) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد بن باديس، ت: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان، ط: 1، 1416هـ - 1995م، (ص: 254).

(3) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن، ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه، أو غيره فعمل بها وعلمها، رقم: 817، (1/ 559).

«**فليؤمكم أكبركم**»[1]، فيه دليل أنّ الإمامة تستحق بالسن إذا كان معه علم وفضل، وأما إن تعرى السن من العلم والقراءة والفضل، فلا حظ للكبير في الإمامة[2].

كما قدّم العلم على كثير من العبادات، وجعله بمنزلة الجهاد في سبيل الله، قال جلّ ثناؤه: ﴿**وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا**﴾[الفرقان: 52]؛ أي بالقرآن كما روي عن ابن عباس[3]، ولا يتحقق هذا الجهاد إلاّ بالعلم بالقرآن وما تضمّنه من أحكام، وقد قال الله مخاطبا نبيهﷺ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ**﴾[التوبة: 73]،ومعلوم أنّ جهاد المنافقين إنما يكون بالحجة والبيان[4].

وقد ورد في السنة النبوية ما يبيّن أنّ طلب العلم أو تعليمه من الجهاد في سبيل اللهﷻ، فعن عن أبي هريرةرضي الله عنه أن رسول اللهﷺ قال: «**من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيرا أو ليعلمه كان كالمجاهد في سبيل الله، ومن دخله لغير ذلك كان كالناظر إلى ما ليس له**»[5]، وهذا المعنى صار في حكم المعلوم عند العلماء حتى نقل ابن عبد البر عن أبي الدرداء أنّه قال: «من رأى الغدو والرواح إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص عقله ورأيه»[6].

وقد بيّن ابن القيم الحكمة في اعتبار العلم جهادا حيث قال: «وإنما جعل طلب العلم من سبيل الله؛ لأنّ به قوام الإسلام كما أنّ قوامه بالجهاد، فقوام الدين بالعلم والجهاد؛ ولهذا كان الجهاد نوعين؛ جهاد باليد والسنان؛ وهذا المشَارِك فيه كثير، والثاني الجهاد بالحجة والبيان، وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل وهو جهاد الأئمة وهو أفضل الجهادين؛ لعظم منفعته وشدة مؤنته وكثرة أعدائه»[7].

والعالم مقدّم على العابد، وقد وردت أدلة تثبت ذلك، ففي الحديث: «**وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب**»[8]، وممّا يؤكد هذا الفضل؛ قصة الذي قتل تسعا وتسعين نفسا فإنّه لما أراد التوبة

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب مقام النبيﷺ بمكة زمن الفتح، رقم: 4302، (5/ 151).

(2) ينظر: شرح صحيح البخارى، ابن بطال، (2/ 307).

(3) أخرجه الطبري في جامع البيان، (19/ 281).

(4) ينظر: مفتاح دار السعادة، ابن القيم، (1/ 70).

(5) أخرجه أحمد في مسنده، رقم: 8587، (8/ 362)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، (ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 1، 1408 هـ – 1988م) باب ذكر التسوية بين طالب العلم ومعلمه وبين المجاهد في سبيل الله، رقم: 87، (1/ 288)، وحسنه شعيب الأرنؤوط.

(6) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر القرطبي، ت: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، السعودية، ط: 1، 1414 هـ – 1994 م، (1/ 152).

(7) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، (1/ 70).

(8) سبق تخريجه. ينظر: (ص:73).

دُلّ في الأول على راهب فقال له ليس لك توبة فقتله ثم دل على عالم فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة. قال أبو العباس القرطبي: « وبهذا يُعلم فضل العلم على العبادة، فإنَّ الأول غلبت عليه الرهبانية، واغتر بوصف النّاس له بالعلم، فأفتى بغير علم، فهلك في نفسه وأهلك غيره، والثاني كان مشتغلا بالعلم ومعتنيا به فوفق للحق، فأحياه الله في نفسه، وأحيا به النّاس»(1)، ونظيرا لهذه الأدلة أدرك السلف قيمة العلم وأفضليته، قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: « **فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة**، وخير دينكم الورع»(2).

فالعلماء أعلى أهل العبادات درجة عند الله؛ حيث أنّه تعالى ذكر الدرجات لأربعة أصناف؛ أولها: للمؤمنين من أهل بدر قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝2 ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝3 أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: 2_4]، والثانية: للمجاهدين قال: ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[النساء: 95]،والثالثة: للصالحين قال: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾[طه: 75]، الرابعة: للعلماء قال: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[المجادلة: 11]، والله فضل أهل بدر على غيرهم من المؤمنين بدرجات، وفضل المجاهدين على القاعدين بدرجات، وفضل الصالحين على هؤلاء بدرجات، ثم فضل العلماء على جميع الأصناف بدرجات، فوجب أن يكون العلماء أفضل الناس(3).

وصفوة القول أنّ للعلم منزلة عظيمة في الكتاب والسنة، وممّا يبرز ذلك أنّ الله ﷻ امتن به على أنبيائه عليهم السلام وجعله من مقاصد مبعثهم، كما حثّ عليه، وقدّمه على كثير من النعم، وذم الجهل وأهله.

المطلب الثالث: العلاقة بين التزكية والتعليم في القرآن والسنة

إنّ دراسة الباحثين لموضوع التزكية بمعزل عن التعليم، لا يعني أنّ الصلة بينهما ليست متينة، بل على العكس تماما، فالعلاقة بينهما وطيدة ومتكاملة، ويظهر هذا التكامل من خلال جمع القرآن الكريم بينهما في أكثر من موضع، بالإضافة إلى ورود أدلة كثيرة تبين دور العلم في تحقيق التزكية، أو دور التزكية في تحصيل العلم النّافع والعمل الصالح، وإن كنت سأحرص على الربط بين هذه المعاني كلما ظهرت لي مناسبة لذلك في ثنايا معالجتي لعناصر

---

(1) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، محيي الدين ميستو، أحمد السيد، يوسف بديوي، محمود بزال، دار ابن كثير، دمشق، ط: 1، 1417 هـ - 1996م، (7/ 90).

(2) ينظر: جامع البيان، الطبري، (22/ 481).

(3) مفاتيح الغيب، الرازي، (2/ 400) (بتصرف).

البحث، إلا أني سأورد طرفا مما يبين هذه الصلة الوثيقة، وذلك من باب بيان أهمية تناول الموضوع من طرفيه؛ التزكية والتعليم، ويأتي ذلك من خلال ما يلي:

الفرع الأول: التقديم والتأخير بين التزكية والتعليم في القرآن الكريم

بتتبع آيات القرآن الكريم اتضح أنّه وردت أربع آيات قرآنية جمعت بين التزكية والتعليم، وهي قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: 129]، وقوله ﷻ: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 151]، وقوله جلّ ثناؤه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران:164]، وقوله أيضا: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: 2].

ويلاحظ أنّ التزكية تقدّمت عن التعليم في ثلاثة مواضع، بينما تقدّم التعليم في موضع واحد، وذلك في دعاء إبراهيم عليه السلام، وقد أرجع أبو حيان سبب ذلك في معرض تفسيره لآية الجمعة إلى اختلاف المراد بالتزكية بين ما ورد في دعاء إبراهيم عليه السلام، وما ورد في آية الجمعة حيث قال: «وفي هذه الآية قدّم التزكية على التعليم، وفي دعاء إبراهيم قدّم التعليم على التزكية، وذلك لاختلاف المراد بالتزكية. فالظاهر أن المراد هنا هو التطهير من الكفر... وهناك هو الشهادة بأنهم خيار أزكياء، وذلك متأخر عن تعليم الشرائع والعمل بها»(1).

وعليه فإنّ تقديم التزكية باعتبار أهميتها؛ إذ إنّ التطهر من الكفر _كما وجّه أبو حيان معنى آية الجمعة_ أعظم المقاصد التي جاء الأنبياء عليهم السلام لتحقيقها، وأما تأخير التزكية وتقديم العلم عليها كما في دعاء إبراهيم عليه السلام فمن باب تقديم السبب على المُسبَّب، والوسيلة على الغاية؛ إذ التزكية نتيجة للتعليم، وهو وسيلة لتحقيقها، كما سأوضّحه لاحقا.

وقد أكّد أبو جعفر الغرناطي على بعض المعاني السابقة، وزاد عليها معنى الامتنان على أمة النبي ﷺ بتقديم التزكية على التعليم في غير دعاء إبراهيم عليه السلام، حيث قال: «قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة:129] وفى آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى

(1) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، (2/ 48).

ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[آل عمران:164]، وفي الجمعة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[الجمعة: 2]، فقدم في الأولى ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ وأخّر ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ وورد في السورتين بعد على العكس من ذلك، فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك.

والجواب عنه – والله أعلم – أنه لما كانت دعوة إبراهيم عليه السلام قبل وجود الضلال في الذرية المدعو لها، وإنما تحصل لهم من تزكيتهم ورفع ضلالهم المتوقع وقوعه بما يمنحونه من التعليم، وما يتلى عليهم من الآيات، لأن ذلك هو السبب في حصول التزكية والسلامة من الضلال إذا وفقوا للانقياد له، ألا ترى أن ارتباط التزكية بأعمال الطاعات قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:103]، وإنما كانت تزكية لهم بانقيادهم للطاعة فيما يطالبهم به من ذلك، ويأخذه منهم، فتأخر ذكر التزكية المسببة عما به تحصل، وذلك بعد هدايتهم للإيمان، فجاء على الترتيب من بناء المُسبب على سببه.

ولما كان مقصود الآيتين الأخيرتين إنما هو ذكر الامتنان عليهم بهدايتهم بعد الضلال الذي كان قد وجد منهم والتعريف بإجابة دعوة إبراهيم عليه السلام أخّر ذكر تعليمهم الكتاب والحكمة المزيلين لضلالهم، ليكون تلوه ذكر الضلال الذي أنقذهم الله منه بما علمهم وأعطاهم وأمتن عليهم وهو ثاني المسببين، فكان الكلام في قوة أن لو قيل: ويعلمهم ما به زوال ضلالهم، وأخر في هاتين الآيتين ذكر السبب ليوصل بمسببه الأكيد هنا الذي كان قد وقع وهو رفع ضلالهم من عظيم محنته، ولو أخر ذكر التزكية لما أحرز هذا المعنى المقصود هنا، فاختلاف الترتيب إنما هو بحسب اختلاف المقصدين، ورعى ما ذكر فورد كل على ما يجب ويناسب والله أعلم بما أراد»(1).

وقد أبدع الطاهر بن عاشور في بيان المعاني السابقة، حيث بيّن أنّ الوظائف المنوطة بالنبيﷺ والمتمثلة في التزكية والتعليم جاءت مرتبة في الذكر حسب ترتيب وجودها، فأول التبليغ تلاوة القرآن الكريم وتعليم معانيه، وبذلك العلم تحصل التزكية، وهذا ما جاء في دعاء إبراهيمعليه السلام، أما في المواضع الأخرى فقدّمت التزكية على التعليم؛ لأن المقام هنا للامتنان على المسلمين فقدّم فيها ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم وتعليمهم، وهي منفعة تزكية نفوسهم اهتماما بها وبعثا لها بالحرص على تحصيل وسائلها وتعجيلا للبشارة بها(2)

(1) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أبو جعفر الغرناطي، ت: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، د، ت، ط، (1/ 51).

(2) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (2/ 49).

وانطلاقا ممّا سبق يتضح أنّ العلاقة بين التزكية والتعليم علاقة تكاملية؛ فالعلم من أسباب التزكية، وتحصيل التزكية سبب من أسباب التوفيق للعلم النّافع والعمل الصالح، وهذا ما دلّت عليه نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، وسيأتي بيانه من خلال الفروع الموالية.

الفرع الثاني: العلم وسيلة لتحقيق التزكية

إنّ أول ما ورد في سورة العصر من صفات الفلاح: الإيمان، وهو «أصل كل زكاة ونماء... »[1]؛ لذا بعث الله جلّ ثناؤه جميع أنبيائه عليهم السلام للدعوة إلى ذلك كما قالﷻ: ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: 25]، ولا الإيمان على الوجه المطلوب إلاّ بالعلم، لذا أمر الله ﷻ به قبل القول والعمل فقال: ﴿**فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ**﴾ [محمد: 19]، وهذا ما فهمه البخاري حيث عقد في صحيحه بابا سمّاه: (**العلم قبل القول والعمل**)[2]؛ لأن الإيمان لا يتحقق إلاّ بالعلم، قال جندب بن عبد اللهﷺ: «كنا مع النبيﷺ ونحن فتيان حزاورة «فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا»[3].

وقد تبيّن لنا في أهمية التزكية أنها من مقاصد مبعث النبي ﷺ، وكان أول ما نزل لتحقيق ذلك قوله ﷻ: ﴿**ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ② ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ③ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ④ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ**﴾ [العلق: 1_5]، وفي هذا أعظم دليل على دور العلم في تحقيق التزكية، وأنّه سبب موصل إليها.

وقد بدأ الله جلّ ثناؤه في هذه الآيات السابقة بالعلم قبل الخلق، ومثله في سورة الرّحمان حيث قالﷻ: ﴿**ٱلرَّحۡمَٰنُ ① عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ② خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ③ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ**﴾ [الرحمن: 1_ 4]، وهذا ما يبيّن عناية الإسلام بالرّوح التي يصلحها العلم، أكثر من عنايته بالجسد.

وَلَمَّا أورد اللهﷻ صفات طالوت الذي اختاره ملكا، بدأ ببسطة العلم ثم الجسم فقال: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ**

(1) إغاثة اللهفان، ابن القيم، (1/ 49).

(2) صحيح البخاري، (1/ 24).

(3) أخرجه ابن ماجة، باب في الإيمان، رقم: 61، (1/ 23). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجة (مكتبة المعارف/ الرياض، ط:1، 1417هـ_1997م)، (37/1).

عَلِيمٌ﴾[البقرة:247]، فتقديم العلم دليل على عُلوّ شأنه، إذ يُبصّر صاحبه بالحق الموصل إلى التزكية، قال ﷻ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[سبأ: 6]، قال السعدي: «فأهل العلم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار، هو الحق؛ أي: الحق منحصر فيه، وما خالفه وناقضه فإنّه باطل؛ لأنّهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين، ويرون أيضا أنّه في أوامره ونواهيه: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، وذلك أنّهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة، من جهة علمهم بصدق من أخبر به، ومن جهة موافقته للأمور الواقعة والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها التي تقع عيانا، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدّالة عليها في الآفاق وفي أنفسهم، ومن جهة موافقتها لما دلّت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه، ويرون في الأوامر والنواهي أنّها تهدي إلى الصراط المستقيم المتضمن للأمر بكل صفة تُزكي النّفس وتنمي الأجر، وتفيد العامل وغيره، كالصدق والإخلاص وبِرّ الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى عموم الخلق ونحو ذلك، وتنهى عن كل صفة قبيحة تُدَنِس النَّفس، وتُحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر، من الشرك والزنا والرّبا والظلم في الدّماء والأموال والأعراض، وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنّه كلما كان العبد أعظم علما وتصديقا بأخبار ما جاء به الرّسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجّة على ما جاء به الرّسول، احتجّ الله بهم على المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية وغيرها»[1].

وهؤلاء لعلمهم بالحق تميّزوا عمن عميت بصائرهم فأعرضوا عن طريق التزكية، وتميّزهم عنهم بأخذهم بجملة الوسائل الموصلة للفلاح، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿19﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿20﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿21﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: 19 _22].

ولا يزال صاحب العلم يتدرج في منازل التزكية حتى ينتقل من الوقوف عند صور العلم الظاهرة إلى معانيها وحقائقها الباطنة وثمراتها المقصودة منها، حتى كأنه يرى ويشاهد ما أخبر به الرسول ﷺ، فينتقل من العلم إلى اليقين، ومن اليقين إلى عين اليقين، ومن علم الإيمان إلى ذوق طعم الإيمان ووجدان حلاوته[2]، فيرى بعين قلبه أنّ

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 675).

(2) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، (149/2) (بتصرف).

ما أنزل الله إلى رسوله هو الحق، فيرتقي حتى يصل إلى مقام الإحسان، كما جاء في الحديث «**أن تعبد الله كأنك تراه**»[1].

ولا ريب أن تصديق الخبر واليقين به يقوي القلب، حتى يصير الغيب بمنزلة المشاهد بالعين[2]، وهذه حقيقة التزكية كما جاءت في الحديث: « **ثلاث من فعلهن فقد طَعَمَ طُعْمَ الإيمان: من عبد الله وحده فإنّه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه رافدة عليه في كل عام، ولم يعط الهرمة ولا الدّرنة ولا الشرط اللائمة ولا المريضة، ولكن من أوسط أموالكم، فإنّ الله عزّ وجل لم يسألكم خيره، ولم يأمركم بشره، وزكّى عبد نفسه، فقال رجل: ما تزكية المرء نفسه يا رسول الله؟ قال: يعلم أن الله معه حيث ما كان**»[3]؛ لذا كان العلماء أهل خشية وخوف من الله تعالى، قال عز وجل: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ** ﴾ [فاطر: 28].

ولأهمية العلم في تحقيق التزكية أمر الله جلّ ثناؤه نبيه ﷺ أن يطلب المزيد منه فقال: ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾[طه: 114]، ذلك أن العلم شرط للتزكية، وقد أوكلها اللهﷻ للأنبياء كما أوكلها للعلماء بعدهم، كما جاء في الحديث: «...**وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء، وإن الأنبياءَ لم يُورِّثُوا ديناراً ولا دِرْهماً، إنَّما وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فمن أخَذَه أخَذَ بحظٍّ وافرٍ**»[4].

والعلم يكون سببا في تزكية الناس وهدايتهم وتلك نعمة عظيمة، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: «**لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حُمُرِ النَّعَمْ**»[5]، قال ابن القيم: «وهذا يدلّ على فضل العلم والتعليم وشرف منزلة أهله، بحيث إذا اهتدى رجل واحد بالعالم كان ذلك خيرا له من حُمُرِ النَّعَمْ، وهي خيارها وأشرفها عند أهلها»[6].

---

(1) أخرجه البخاري، باب سؤال جبريل النبيﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، رقم: 50، (1/ 19)، ومسلم، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، رقم:8، (36/1).

(2) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، (3/ 145) (بتصرف).

(3) سبق تخريجه. ينظر: (ص: 21).

(4) سبق تخريجه. ينظر: (ص:73).

(5) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، رقم: 2942، (4:47)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي رضي الله عنه، رقم: 2406، (4/ 1872).

(6) مفتاح دار السعادة ومنشور ولية العلم والإرادة، ابن قيم الجوزية، ت: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط:1، 1432 هـ، (1/ 62).

وبهذا يتضح سبب تقديم العلم على التزكية في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة:129]، فهو من أهم وسائل تحقيقها. بقي أن أشير إلى دور التزكية في تحصيل العلم، وفيما يلي بيان ذلك.

الفرع الثالث: دور التزكية في تحصيل العلم النافع

سبق أن بيّنت جانبا من دور التزكية في تحصيل العلم النّافع، وذلك عند حديثي عن العلم اللدني الذي يفتح الله ﷻ به على قلوب أوليائه المتقين بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه، واتباعهم ما يحبه ما لا يفتح به على غيرهم، وقد دلّ القرآن الكريم على ذلك في غير موضع كقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿66﴾ وَإِذًا لَّأٓتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿67﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[النساء: 66_68]، فقد أخبر أنه من فعل ما يؤمر به، يهديه الله صراطا مستقيما، وفي الأثر: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»[(1)].

وقد استند بعض المفسرين إلى قوله ﷻ: ﴿ وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾[البقرة: 282]، لبيان هذه الصلة الوثيقة بين التزكية وتحصيل العلم، قال القرطبي: «وَعْدٌ من الله تعالى بأنّ من اتقاه علّمه؛ أي يجعل في قلبه نورا يفهم به ما يلقى إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقانا، أي فيصلا يفصل به بين الحق والباطل، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: 29] ...»[(2)].

والمقصود بالفرقان «أي نوراً في قلوبكم تفرقون به بين الشبهات ومثله: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾[الطلاق: 2]؛ أي من كل أمر أشكل على الناس ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: 3] علم بغير تعليم بل إلهام وتوفيق من لدن الخبير العليم...»[(3)].

والتقوى يقصد بها فعل المأمور واجتناب المحظور، وتلك حقيقة التزكية القائمة على التخلية والتحلية، وقد أكّد الغزالي على دورها في تحصيل العلم النّافع، حيث قال: «والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف، وذلك علم من غير تعلم، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

(1) ينظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (13/ 245).
(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (3/ 406).
(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾[يونس/6] خصّصها بهم، وقال تعالى: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: 138]» (1).

ومما يبرز دور التزكية في تحصيل العلم، أنّ الالتزام بكثير من آدابه يندرج ضمن التزكية، فالعبد ينال من العلم ما ينفعه بقدر تأدّبه بها، كما يُحرم منه بحسب تخلّفه عنها، وقد أورد ابن القيم أسباب حرمان العلم، وغالبها راجع إلى القصور في آداب المعلم والمتعلم، ومن ذلك سوء الإنصات وعدم إلقاء السمع، بالإضافة إلى عدم نشره وتعليمه، فإنّ من خزن علمه ولم ينشره ولم يعلمه ابتلاه الله بنسيانه وذهابه منه جزاء من جنس عمله، وهذا أمر يشهد به الحس والوجود، كما أنّ عدم العمل به يؤدي إلى الحرمان منه، فإن العمل به يوجب تذكره وتدبره ومراعاته والنظر فيه، فإذا أهمل العمل به نسيه، قال بعض السلف:« كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به» وقال بعض السلف أيضا:« العلم يهتف بالعمل فإن أجابه حل وإلا ارتحل» فالعمل به من أعظم أسباب حفظه وثباته، وترك العمل به إضاعة له، فما استدر العلم ولا استجلب بمثل العمل قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[الحديد: 28] (2).

وصفوة القول أنّ للتزكية أهمية عظيمة في الكتاب والسنة فهي أساس مبعث الأنبياء والرّسل عليهم السلام، كما أنّها سبيل الفلاح، والإعراض عنها يؤدي للخيبة والخسران. وممّا يبرز أهمية العلم أنّ الله ﷻ امتن به على أنبيائه عليهم السلام، وجعله من مقاصد مبعثهم، كما حثّ عليه، وقدّمه على كثير من النعم، وذم الجهل وأهله.

وقد جاء العلم مقرونا بالتزكية في العديد من الآيات القرآنية، فبينهما علاقة تكاملية؛ إذ العلم من أسباب التزكية، والتزكية سبب من أسباب التوفيق للعلم النّافع والعمل الصالح.

وخلاصة هذا الفصل أن التزكية لغة تدور حول المعاني التالية: النّماء والبركة والطهارة والمدح والصلاح وصفوة الشيء وأحسنه. وأما في الاصطلاح فيقصد منها تطهير النّفس من الشّر، ممّا يؤدي إلى تنمية الخير فيها والاستقامة عليه، وهي عملية متواصلة في سبيل بلوغ أعلى المراتب حتى يصل العبد إلى درجة الإحسان؛ فيعبد الله كأنّه يراه.

وللتزكية ألفاظ عديدة تشترك معها، منها الطهارة، الطيب، والتربية، والتهذيب. وقد وردت مادة (زكى) في القرآن الكريم بمعاني عديدة، منها: أداء الزّكاة الشّرعيّة، النقاء والطهارة، الثناء والمدح، الحلال، السلامة من

---

(1) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، أبو طالب المكي، (1/ 143).

(2) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، (1/ 172).

الذنوب، التقوى والصلاح، الأقرب إلى المصلحة، التوحيد والشهادة. وأما في السنة فوردت بمعنى التوحيد والشهادة، الزكاة الشرعية، الثناء والمدح، الإحسان.

وتنقسم التزكية باعتبار مصدرها إلى: تزكية فطرية، وتزكية مكتسبة. وأما باعتبار حكمها فتنقسم إلى تزكية محمودة، وتزكية مذمومة.

ويراد بالعلم لغة: العلامة، والخبر، والمعرفة، والفقه، والإلهام للصواب، والشعور بالشيء. وأما اصطلاحا فكل ما بني على دليل فهو علم. وللعلم صلة بألفاظ عديدة، من ذلك: الفقه، والمعرفة، والدراية، واليقين. وجاء في استعمال القرآن بعدة معانٍ وهي: علم الله ﷻ الذي لا تحدّه حدود، إدراك الأمر والإحاطة به، الرُّؤْيَة، الْإِذْن، الدليل والْكتاب والحجّة، الفقه، التمييز، الدين، الفضل، ما يعدّه أربابه علما وإن لم يكن كذلك. وأما معاني العلم في السنة النبوية فمنها: علم الله تعالى، والعلم بالدين والفقه فيه، كما يراد به: العلم النّافع عموما. وينقسم العلم في القرآن والسنة باعتبار مصدره إلى نوعين: العلم اللَدني، والعلم المكتسب. أما باعتبار حكمه فينقسم إلى علم نافع، وعلم ضار.

وللتزكية أهمية عظيمة فهي أساس مبعث الأنبياء والرّسل عليهم السلام، كما أنّها سبيل الفلاح، والإعراض عنها يؤدي للخيبة والخسران. وممّا يبرز أهمية العلم أنّ الله ﷻ امتن به على أنبيائه عليهم السلام، وجعله من مقاصد مبعثهم، وحثّ عليه، وقدّمه على كثير من النعم، وذم الجهل وأهله.

وقد جاء العلم مقرونا بالتزكية في القرآن والسنة، وهذا ما يبرز وجود علاقة تكاملية بينهما؛ إذ العلم من أسباب التزكية، والتزكية سبب من أسباب التوفيق للعلم النّافع والعمل الصالح.

الباب الأول

التزكية في القرآن والسنة.

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: وسائل التزكية في القرآن والسنة.

الفصل الثاني: موانع التزكية في القرآن والسنة.

الفصل الثالث: آثار التزكية في القرآن والسنة.

لقد ساهم الفصل التمهيدي في بيان مفهوم التزكية، وأنواعها، وأهميتها في القرآن الكريم والسنة النبوية، حيث اتضح أنها عملية متواصلة لتطهير الإنسان من نوازع الشرِّ، والارتقاء به إلى مصاف الأتقياء.

والتزكية المطلوبة هي المرتبطة بسعي الإنسان في سبيل بلوغ أعلى المراتب حتى يصل إلى درجة الإحسان؛ فيعبد الله ﷻ كأنّه يراه، أما ثناء العبد على نفسه فإنّه أمر مذموم شرعا وعقلا وعرفا ما لم تدعو الحاجة إليه، ولا تتحقق التزكية إلاّ بالتركيز على التخلية والتحلية؛ ولأجل ذلك بُعث الرسل عليهم السلام، فسلوك سبيلهم طريق موصل للنّجاة.

وانطلاقا مما سبق فقد تكوّن لدينا تصور أولي حول موضوع التزكية في القرآن الكريم والسنة النبوية، واتضحت ملامحه الأولى، وتحقّقت أهميته، ما يستدعي السعي للأخذ بأسباب التزكية، والابتعاد عن العوارض الحائلة دونها، هذا ما يحقّق آثارا عاجلة في الدنيا وأخرى في الآخرة، ويأتي هذا الباب لبيان ذلك من خلال ثلاثة فصول؛ أتناول في الأول منها: وسائل التزكية في القرآن والسنة، معرجا من خلاله إلى دور الإيمان والعبادات والأخلاق في تحقيق التزكية.

وفي الفصل الثاني أتطرق لموانع التزكية، المُمَثَّلة في فتنة الشيطان وأعوانه، والاغترار بالدنيا، بالإضافة إلى مانع الكبر والحسد، والجهل والتقليد الأعمى.

ويأتي الفصل الثالث والأخير لبيان آثار التزكية، في الدنيا والآخرة.

وِفْق هذه الخطة ستدور محاور هذا الباب، والله أسأل التوفيق والسداد.

الفصل الأول

وسائل التزكية في القرآن والسنة.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: دور الإيمان في تحقيق التزكية في القرآن والسنة.

المبحث الثاني: دور العبادات في تحقيق التزكية القرآن والسنة.

المبحث الثالث: دور الأخلاق في تحقيق التزكية في القرآن والسنة.

العناية ببيان وسائل التزكية أمر غاية في الأهمية؛ إذ لا يتصور أن يكون العبد زكيا ما لم يعمل بها، ولا يمكنه ذلك إلاّ إذا علمها، واجتنب ضدّها، ولا شك أنّ مصدر هذه الوسائل: القرآن والسنة، وسأركز في هذا الفصل على أهم ما يُحقق التزكية، وذلك ضمن مباحث ثلاثة، وتفصيل ذلك على النحو التالي:

المبحث الأول: دور الإيمان في تحقيق التزكية

قبل بيان دور الإيمان في تحقيق التزكية يحسن أن أقدم بتعريفه لغة واصطلاحا؛ وبالاطلاع على بعض المعاجم اللغوية لمادة أمن تبين أنّ له معنيان:

الأول_ الأمن: فالإيمان مصدر آمن يؤمن إيمان فهو مؤمن[1]، وهو من الأمن ضد الخوف، والأمانة ضد الخيانة[2]، قال الراغب: « أصل الأَمْن: طمأنينة النفس وزوال الخوف »[3].

الثاني _ التصديق: وضده التكذيب، يقال آمن به قوم وكذّب به [4].

والذي يهمنا في هذا المبحث هو المعنى الثاني.

وأما من حيث **الاصطلاح**؛ فقد أجمع أهل السنة أنّ الإيمان قول باللّسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية[5]، قال ابن القيم: «حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول علما والتصديق به عقدا والإقرار به نطقا والانقياد له محبة وخضوعا والعمل به باطنا وظاهرا»[6]. وأركانه _ كما لا يخفى _ ستة، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره، وكل واحد من هذه الأركان له أثر كبير في تحقيق التزكية، وسأحاول بيان جانب من ذلك فيما يلي:

المطلب الأول: دور الإيمان بالله ﷻ في تحقيق التزكية

إنّ الإيمان باللهﷻ بالنسبة لبقية الأصول كأصل الشجرة بالنسبة للسوق والفروع، فهو أصل الأصول، وقاعدة الدّين، وأساس الزكاء، ومصدر الهداية والنجاح، والسؤدد والفلاح. ويأتي هذا المطلب ليبيّن ذلك، ضمن فرعين،

---

(1) ينظر: تهذيب اللغة، الأزهري، (15/ 368).

(2) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل الجوهري، ت: أحمد عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط:4، 1407 هـ - 1987م، (2071/5).

(3) المفردات في غريب القرآن، الراغب، (ص: 90).

(4) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، (13/ 23).

(5) ينظر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، يوسف بن عبد البر، ت: مصطفى العلوي، محمد البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب، ط:1، 1387 هـ، (9/ 238).

(6) الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: 2، 1393 هـ - 1973م، (ص: 107).

خصّصت الأول للحديث بشكل مختصر عن حقيقة الإيمان بالله جلّ ثناؤه، وأما الفرع الثاني فيأتي ليوضّح دور الإيمان بالله ﷻ في تحقيق التزكية.

الفرع الأول: حقيقة الإيمان بالله ﷻ

الإيمان بالله جلّ ثناؤه مما تقر به الفطرة السليمة؛ إذ إنّه أمر جبلت عليه النّفس البشرية، ومصداق ذلك قوله عز وجل: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ** ﴾[الأعراف: 172]، فهذه الآية تذكر لنا واقعة حدثت في الأزل؛ إذ استخرج الله ﷻ ذرية آدم من أصلاب أبائهم، فقرَّرهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض شهادَتَهم بذلك، وإقرارَهم به[1].

وقال جلّ ثناؤه: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾[الروم: 30]، عزا مكي بن أبي طالب لمجاهد أنّه قال: «صبغة الله: فطرة الله؛ وهي فطرة الإسلام التي فطر الناس عليها ». والفطرة ابتداء ما خلق عليه الخلق وهو الإسلام، ثم غيّروا دين أنبيائهم بدين آخر»[2].

والإيمان بالله ﷻ يشمل الإيمان بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته؛ **فالإيمان بربوبيَّته** يقتضي الإقرارُ بأنَّه واحد في أفعاله، لا شريك له فيها، كالخَلق والرِّزق والإحياء والإماتة، وتدبير الأمور والتصرّف في الكون، وأنّ الحكم له ﷻ، قال جلّ وعلا: ﴿ **أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ [الأعراف: 54]، فلا يتحقق إيمان العبد على الحقيقة حتى يقرّ بذلك، ويستسلم لله ﷻ القائل في كتابه: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا** ﴾[النساء: 65]، ففي هذه الآية « دلالة على أن الإيمان الحقيقي لا يحصل إلا لمن حكّم الله ورسوله على نفسه، قولا وفعلا، وأخذا

(1) جامع البيان، الطبري، (13/ 222) (بتصرف).

(2) الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه، مكي بن أبي طالب، ت: مجموعة من الباحثين بإشراف: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، ط: 1، 1429 هـ - 2008م، (1/ 471).

وتركا، وحبا وبغضا فتبين لك من هذا أنه لا تحصل لك حقيقة الإيمان بالله إلا بأمرين: الامتثال لأمره، والاستسلام لقهره سبحانه»(1).

وتوحيد الألوهيَّة يقتضي إفراد الله ﷻ بالعبادة، كالدعاء والخوف والرَّجاء والتوكُّل والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذَّبح والنَّذر، وغيرها من أنواع العبادة التي يجب إفراده بها، فلا يُصرف منها شيء لغيره، ولو كان ملَكاً مقرَّباً أو نبيًّا مرسَلاً، قال الله جلّ ثناؤه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن: 18].

وأمَّا **توحيد الأسماء والصفات**، فهو إثبات كلِّ ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات على وجه يليق بكماله وجلاله، دون تكييف أو تمثيل، ودون تحريف أو تأويل أو تعطيل، وتنزيهه عن كلِّ ما لا يليق به، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

الفرع الثاني: دور الإيمان بالله ﷻ في تحقيق التزكية

سبق بيان أن التزكية تتضمن التخلية والتحلية، والإيمان بالله ﷻ يرتكز على شهادة التوحيد التي تقتضي أن لا معبود بحق إلاّ الله، فهو قائم على نفي الشريك لله عزّ وجل، وإثبات العبادة له وحده، وهذه الغاية من خلق الإنسان، كما قال الله جلّ ثناؤه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: 56].

وقد سمى الله ﷻ التوحيد زكاة في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾[فصلت: 5_ 6]، وهذا التفسير مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، حيث قال: « ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: هم الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله»(2). وإلى هذا ذهب أكثر المفسرين كما قال ابن القيم: «أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنّه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء... فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد»(3).

(1) الجواهر الحسان، الثعالبي، (2/ 258).

(2) أخرجه الطبري في جامع البيان، (21/ 430).

(3) إغاثة اللهفان، ابن القيم، (49/1).

كما سمى الله ﷻ الشرك رجسا، ووصف المشركين بالنجاسة، فقال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: 30]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: 28]، فدلّ مفهوم الآيتين أنّ الطهارة والتزكية في التوحيد الخالص لله جلّ وعلا، قال الطاهر بن عاشور: «فالتزكية التطهير من النقائص وأكبر النقائص الشرك بالله»[1].

والتزكية تقوم أيضا على التحلية، وهي في هذا السياق تقتضي التحلّي بالتوحيد الخالص، ولهذا قال موسى عليه السلام لفرعون وهو يدعوه إلى عبادة الله وحده: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿18﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[النازعات: 18_ 19].

وإن كان الله ﷻ قد ربط الفلاح بالتزكية في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: 9]، فإنّ أعظم ما تتحقق به التزكية؛ توحيد الله ﷻ وعدم الإشراك به، قال ابن تيمية: «ولهذا كان التوحيد والإيمان أعظم ما تزكو به النفس، وكان الشرك أعظم ما يدسيها» [2].

وممّا يبرز دور الإيمان بالله ﷻ في تحقيق التزكية؛ أنّه يحمل القلب على التحلي بأعمال عظيمة، تعتبر من مقتضيات الإيمان بأسماء الله ﷻ وصفاته، وهي أساس كل عبادات الجوارح، سواء ما تعلّق بعبادة الخالق بالصلاة والصيام والزكاة والحجّ... أو ما تعلّق بمعاملة الخَلْق بحسن الخُلُق، كالبِرّ والإحسان والصلة والتواضع وإحسان الظن... ولا تصلح أعمال الظاهر إلاّ بصلاح أعمال القلب، قال ابن تيمية: « أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أحمد في مسنده: «**الإسلام علانية والإيمان في القلب**»[3]؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول:« **الحلال بيّن والحرام بيّن، وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهنّ كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإنّ لكل ملك حمى، ألا وإنّ حمى الله محارمه، ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد وهي القلب**»[4]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (723/1).

(2) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (10/ 632).

(3) أخرجه أحمد في مسنده، رقم: 12381، (19/ 374)، وضعّفه شعيب الأرنؤوط.

(4) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم: 52، (1/ 20)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم: 1599، (3/ 1219).

خبث خبثت جنوده »[1]–[2]؛ لذا فالعناية بها أهم من العناية بأعمال الجوارح لأنها _ أي أعمال الجوارح _ تبع لها، قال ابن القيم في معرض حديثه عن النية: « وإنّما هي الأصل المراد المقصود، وأعمال الجوارح تبع ومكملة ومتممة، وأنّ النية بمنزلة الروح، والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء الذي إذا فارق الروح فموات، وكذلك العمل إذا لم تصحبه النية فحركة عابث، فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح، إذ هي أصلها وأحكام الجوارح متفرعة عليها »[3].

ومن هنا يتبين أنها أساس صلاح القلب، وبصلاحه يصلح الفرد ومن ثمّ صلاح المجتمع، وهذا هو معنى التزكية التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية. وأعمال القلوب التي هي ثمرة الإيمان بالله ﷻ كثيرة منها:

أولا_ الإخلاص:

وهو تجريد القصد طاعة للمعبود، وبهذا أُمر العبد، وقد دلّت السنة الصريحة على ذلك، كما في قوله ﷺ: «**يقول الله عز وجل يوم القيامة: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملا أشرك فيه غيري فهو كله للذي أشرك به**»[4]، وهذا هو معنى قوله ﷻ: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا** ﴾ [الكهف: 110][5].

والإخلاص هو أهم أعمال القلوب وأعلاها وأساسها، وهو حقيقة الدين، ومفتاح دعوة الرسل عليهم السلام، قالﷻ: ﴿ **وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ** ﴾ [البينة: 5].

وللإخلاص أثر عظيم في التزكية؛ فالعناية به دليل على سلامة القلب من الأمراض، إذ يُطهّره من الانصراف لغير اللهﷻ، ويُبعد عنه الرياء والسمعة، والعجب والكبْر والغرور، كما يجعل الإنسان في معزل عن المعاصي الحائلة

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (ت: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد_ الرياض، ط:1، 1423 هـ - 2003 م)، رقم: 109، (132/1).

(2) أمراض القلوب وشفاؤها، ابن تيمية، المطبعة السلفية، القاهرة، ط:2، 1399هـ، (ص: 42).

(3) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، ت: علي بن محمّد العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط:1، 1425 هـ، (3/ 187).

(4) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم: 2985، (4/ 2289).

(5) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، ت: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية – بيروت، ط:1، 1411هـ - 1991م، (2/ 125).

دون تزكيته، كما يبعده عن عدوه، قال تعالى عن يوسف‌عليه السلام: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: 24].

ولأهمية الإخلاص فإن إبليس اعترف أنّه لا قبل له بالمخلصين، كما في قوله‌سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿82﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: 82 - 83].

فالمخلص متخلص من الرذائل، متحلّ بالفضائل، ينفع نفسه وغيره، قال الله جلّ ثناؤه مبينا صفات أهل الإخلاص: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿17﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿18﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾[الذاريات: 17_19]، قال ابن القيم : «أخبر سبحانه عن إحسانهم إلى الخلق مع إخلاصهم لربهم، فجمع لهم بين الإخلاص والإحسان ضد ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿6﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾[الماعون:6_7]، وأكّد إخلاصهم في هذا الإحسان، بأن مصرفه للسائل والمحروم الذي لا يقصد بإعطائه الجزاء منه ولا الشكور»(1).

ولشدّة إخلاص أهل التزكية، وخوفهم على نفوسهم من الرياء يُخْفُون أعمالهم كما يُخفي صاحب المعصية ذنبه، فقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(2).

وبهذا يتبين أنّ الإخلاص يُهذّب نفس الإنسان فيجعل همّتها تتعدى حدود الأرض لتصل إلى السماء، فلا يضره ذمّ، ولا يغتر بمدح وثناء، بل يحمله الذم والمدح على زيادة العمل الصالح، إذ لا يجتمع الإخلاص في القلب، ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس، إلاّ كما يجتمع الماء والنّار، والضب والحوت(3).

ومن آثار الإخلاص في تحقيق التزكية، أنّه يحلي القلب بالرّاحة والسكينة، ويخليه من القلق والاضطراب والخوف من المخلوقين، ويحمله على الشجاعة، ويطهّره من الجبن؛ لأنه يدرك أن المرجع إلى الله تعالى، وأن كل شيء بيده، القائل في كتابه: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة:51]، فيقبل نحو المعالي كالسيل مندفقا، وكالسّهم منطلقا.

---

(1) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم، (ص: 294).

(2) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، رقم: 1423، (2/ 111).

(3) ينظر: الفوائد، ابن القيم، (ص: 149).

ومن آثاره في تزكية النفس؛ تطهيرها من الغل والحقد، وهذا ما يحقق راحة البال وسلامة الصدر، قال النبيﷺ: «**ثلاث لَا يَغُلُّ عليهن قلب المسلم: إخلاص العمل لله، ومُناصحة أئمة المسلمين ولزوم جماعتهم، فإن الدعوة تحيط من ورائهم**»(1).

بل إنّ حدود الإخلاص تتجاوز تزكية النفس، لتصل إلى تزكية الذهن والقريحة، فقد ورد عن مكحول أنّه قال: «ما أخلص عبد قط أربعين يوما، إلاّ ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه» (2). وتأمل كيف وصف اللهﷻ إمام المخلصين إبراهيم الخليلعليه السلام بالرّشد فقال: ﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ**﴾[الأنبياء: 51]، وبيّن أنّ هذا الرّشد، إنّما هو إنكاره عبادة غير اللهﷻ فقال: ﴿**إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ**﴾ [الأنبياء: 52].

وبهذا يتضح أنّ الإخلاص يحقق الرّشاد، ويطهّر القلوب من الأوبئة الفتّاكة التي تنشر فيه الجهل، وأخطرها الشرك بالله تعالى؛ لذا وصف اللهﷻ المستنكف عن ملة إبراهيمعليه السلام بالسفه فقال: ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ**﴾ [البقرة: 130].

ثانيا_ الخوف والرجاء:

من أهم الأعمال القلبية التي تحقق التزكية كثمرة من ثمرات الإيمان باللهﷻ؛ الخوف والرجاء، والمراد بالخوف: أن يخاف العبد مولاه عز وجل أن يصيبه بعقاب عاجل أو آجل، دون يأس من روح الله تعالى، ولا قنوط من رحمته عز وجل؛ لأن اللهﷻ ذم ذلك، فقال: ﴿**إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ**﴾ [يوسف: 87]، وقال أيضا: ﴿**قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ**﴾ [الحجر: 56]. والمراد بالرجاء «الثقة بجود الرب تعالى، والفرق بينه وبين التمني، أن التمني يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، والرّجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل»(3).

---

(1) أخرجه ابن ماجه في سننه، باب من بلغ علما، رقم: 230، (1/ 84)، وأخرجه الترمذي في السنن، كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، رقم: 2658، (5/ 34)، وصحّحه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجة، (مكتبة المعارف_ الرياض، ط:1، 1417هـ، 1997م)، رقم: 292، (1/ 94).

(2) ينظر: الرسالة القشيرية، عبد الكريم القشيري، ت: عبد الحليم محمود و محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، د ت ط، (2/ 362).

(3) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، (2/ 37).

وقد أوردتهما معا لتلازمهما، إذ جاءا في القرآن الكريم مقترنين في عديد من الآيات منها: قولهﷻ: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: 57].

وقد بيّن ابن القيم سِرّ هذا التلازم، فقال: «الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف؛ فكل راج خائف، وكل خائف راج؛ فكل راج خائف من فوات مَرْجُوِّه، وكل خائف يرجو عفو ربِّه ومغفرته، والخوف بلا رجاء يُعتبر يأسا من روح الله وقنوطا من رحمته»(1).

وممّا يؤكد على دور الخوف والرجاء في التزكية؛ أنّهما يجعلان العبد يُقبل على الطاعة ويبتعد عن المعصية وكأن الجنة والنّار ماثلتين بين عينيه، قالﷻ مبينا حال عباده الأتقياء: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: 90]، قال ابن القيم نقلا عن ابن تيمية: «الخوف المحمود ما حجزك على محارم الله»(2).

ومن أثرهما أيضا أنّهما يحملان العبد حال تكافئهما على الوسطية والاعتدال اللّذين هما عنوان الخيرية، فلا يميل العبد إلى طول الأمل، ولا إلى اليأس والقنوط، بل يكون وسطا في ذلك من غير غلو ولا جفاء، هذه الوسطية التي تجعل المجتمع يتطهر من آفات عديدة، كالعجب والغرور والدّعة والكسل.

وممّا يبرز الأثر السلبي للتقنيط من رحمة اللهﷻ، والأثر الإيجابي لفتح باب الرّحمة للمقبل عليه، ما ورد في الحديث: «**كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا، ثم خرج يسأل، فأتى راهبا فسأله فقال له: هل من توبة؟ قال: لا، فقتله، فجعل يسأل، فقال له رجل: ائت قرية كذا وكذا، فأدركه الموت، فَنَاءَ بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقربي، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجد إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له**»(3).

فالذي أغلق على التائب باب الرّجاء، فتح عليه باب مواصلة الإفساد، وأمّا الذي فتح له ذلك الباب، فقد منعه من الإفساد. وكثير من أهل الغلو في زماننا ممن ركبوا موجة التكفير والتبديع غير المنضبط، إنّما أُوتوا من قبل غلوّهم في باب الخوف، ولك أن تنظر إلى نتائج ذلك، من انتشار موجات القتل والإرهاب، والإساءة إلى دين الرّحمة والإحسان.

---

(1)مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، (51/2).

(2) المصدر نفسه، (511/1).

(3) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب حديث الغار، رقم: 3470، (174/4).

كما أنّ الذين ميّعوا الدين بتساهلهم المفرط في أحكام الله تعالى، فكانوا سببا في فساد الكثير وتركهم للعمل الصالح، ووقوعهم في الآثام، إنّما أُوتوا من قبل غلوّهم في باب الرّجاء، والحق أنّ الرّجاء يحمل صاحبه على التوبة والندم وبذل الخير والطاعة، فهو لا يصلح إلاّ مع العمل وتزكية النفس من الخطايا والذنوب، أما ترك العمل اعتمادا على سعّة فضل الله ﷻ ورحمته، فليس من الرجاء في شيء، وذلك من قبيل ترك الأسباب الدال على جهل فاعل ذلك، قال ابن القيم: « وهذا الضرب من النّاس قد تعلّق بنصوص من الرجاء، واتكل عليها، وتعلق بها بكلتا يديه، وإذا عُوتب على الخطايا والانهماك فيها، سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء، وللجهّال من هذا الضرب من النّاس في هذا الباب غرائب وعجائب كقول بعضهم:

وَكَثِّر ما استطعت من الخطايا ... إذا كان القدوم على كريم.

وقول الآخر: التنزّه من الذنوب جهل بسعّة عفو الله. وقال الآخر: ترك الذنوب جراءة على مغفرة الله واستصغار»[1].

والحق أنّ كلا طرفي الأمر ذميم، فالذي يحقق السناء والزكاء للمجتمع، إنّما هي وسطية الإسلام، من غير غلو ولا جفاء.

ثالثا_ التوكل على الله ﷻ:

من أعظم ثمرات الإيمان بالله جلّ ثناؤه؛ التوكل عليه، وقد ذكر العلماء له تعريفات عديدة، اختلفت عباراتها واتحد معناها، ومنها ما ذكره ابن القيم حيث قال: «التوكل حركة ذات الإنسان في الأسباب بالظاهر والباطن، وسكون إلى المسبب وركون إليه بحيث لا يضطرب قلبه معه، ولا تسكن حركته عن الأسباب الموصلة إلى رضاه»[2].

فالتوكل حسب التعريف لا ينافي الأخذ بالأسباب، بل إنّه لا يصح إلاّ مع القيام بها، وقد نقل ابن القيم الإجماع على ذلك حيث قال: «وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب، فلا يصح التوكل إلاّ مع القيام بها، وإلاّ فهو بطالة وتوكل فاسد»[3].

وقد فرضه الله تعالى على عباده، حيث أمر به في مواضع عديدة من كتابه العزيز، ومنها قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[آل عمران:122]، وقوله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[المائدة: 23].

---

(1) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن قيم الجوزية، ت: محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد – مكة المكرمة ، ط:1، 1429 هـ، (ص: 22).

(2) مدارج السالكين، ابن القيم، (2/ 116).

(3) المصدر نفسه، (2/ 117).

إنّ للتوكل أثر عظيم في التزكية، فهو يطهّر العبد من الصفات الدنيئة، ومن ذلك الجبن، ويحمله على الشجاعة، فإن سُئل عن علم نطق بالحق ولم يخش في الله لومة لائم؛ لأنّه موقن أنّ كل شيء بيد الله ﷻ، أسوته في ذلك سيد المتوكلين ﷺ، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «**حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النّار، وقالها محمد ﷺ**، حين قالوا: ﴿ **إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ** ﴾ [آل عمران: **173**]»(1).

والتوكل على الله ﷻ يُطهّر العبد من الكسل، ويحمله على العمل؛ إذ التوكل لا ينفي الأسباب، فعن عمر رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**لو أنّكم تتوكلون على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا**»(2)، قال الملا علي القاري في شرحه للحديث: « «تغدو» أي: تذهب أول النهار. «خماصا»: ... جمع خميص أي: جياعا. «وتروح» أي: ترجع آخر النهار. «بطانا»: ... جمع بطين وهو عظيم البطن، والمراد شباعا، وفي قوله: «تغدو» إيماء إلى أن السعي بالإجمال لا ينافي الاعتماد على الملك المتعال، كما قال تعالى جل جلاله: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ** ﴾ [العنكبوت: 60]، فالحديث للتنبيه على أن الكسب ليس برازق، بل الرازق هو الله تعالى، لا للمنع عن الكسب، فإن التوكل محله القلب فلا ينافيه حركة الجوارح...» (3).

فالحديث يبين حقيقة التوكل؛ إذ إن صاحبه حريص على بذل الأسباب، كالتبكير في سبيل تحقيق المنى، مع اعتماد القلب على المولى جل وعلا، ولا يخفى ما في ذلك من تزكية للفرد والجماعة، وترسيخ للمفاهيم الصحيحة التي تنعكس إيجابا فتؤدي إلى البذل والعطاء.

ومن آثار التوكل في التزكية، أنّه يحقق أعلى مراتبها، فيطهّر القلب من علائق الشرك، ويرسّخ قدم المؤمن في مقام التوحيد، فالتوكل هو كمال التوحيد والعبادة الخالصة؛ ولذلك جمع القرآن بينهما في مثل قوله ﷻ: ﴿ **إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ** ﴾[الفاتحة: 4]، وقوله جلّ ثناؤه: ﴿ **وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ**

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿ **إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ** ﴾ [آل عمران: 173]، رقم: 4563، (6/ 39).

(2) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، رقم: 4164، (2/ 1394)، والترمذي، كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم: (2344)، (4/ 573)، وقال: «حديث حسن صحيح».

(3) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن محمد الملا القاري، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط:1، 1422هـ - 2002م، (8/ 3320).

كُلُّهُۥ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[هود: 123]، ومثله في القرآن كثير، قال ابن تيمية: «قد جمع بين العبادة والتوكل في عدة مواضع لأنّ هذين يجمعان الدين كله...» (1).

فالتوكل يبثّ الإيمان في النفوس، ويثبّتها عند الشدائد، ويرفع همتها نحو المعالي، وينفي عنها درن النّفاق، وهذا ما يظهر واضحا جليّا في موقف الصحابة رضي الله عنهم في غزوة الأحزاب حين وعدهم النبيﷺ بالفتوح، ثم جاءهم العدو من كل حدب وصوب، فبرز توكلهم ليظهر ثباتهم وإيمانهم، قال الله جلّ ثناؤه عنهم: ﴿ **وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا** ﴾[الأحزاب: 22]. وأما أهل النفاق فقد كانوا على خلاف ذلك، قال الله تعالى عنهم: ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا** ﴾ [الأحزاب: 12].

كما أن التوكل يزكي النفس من الاعتماد على الأسباب لوحدها؛ لأنّها لا تأتي بالشيء استقلالا، مما يقوي الصلة باللهﷻ فيفتح على العبد من فضائله، وينصره حال ضعفه، ويرزقه حال حاجته، فيقوى إيمانه ويكون زكيا رشيدا، وتأمل حال إبراهيمعليه السلام حين أراد به قومه كيدا، فما كان منه إلاّ أن قال حين ألقي في النّار: «**حسبي الله ونعم الوكيل**» (2)، فجاءه الفرج.

ومن آثار التوكل في تحقيق التزكية؛ أنّه يطهر القلب من التعلق بالبشر ويرفع همته للتعلق برب البشر، وقد كان هذا المعنى حاضرا في حياة الصحابة رضي الله عنهم، ظاهرا في يومياتهم؛ حيث استفادوا من وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنه: «...**إذا سألت فاسأل الله**» (3)، وقوله: «...**ولا تسألوا الناس شيئا**»، فكان السوط يسقط من أحدهم فلا يقول لأحد ناولني إيّاه (4). وهذا ما يحقّق غنى النفس فتترفع عن التطلع عما في أيدي النّاس، قال النبي ﷺ: «**ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله**»(5)، وأَعْظِم بهذا زكاء، ولو تحقق هذا المفهوم في حياتنا لتخلصنا من كثير من المظاهر السلبية، كالسرقة والغش والرّشوة والطمع والتسوّل...

---

(1) أمراض القلوب وشفاؤها، ابن تيمية، (ص: 43).

(2) يدل عليه حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**كان آخر قول إبراهيم حين ألقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل**»، أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿ **إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ** ﴾ [آل عمران: 173]، رقم: 4564، (6/ 39).

(3) أخرجه الترمذي في سننه: 2516، (4/ 667)، وصححه الألباني.

(4) أخرجه أحمد مسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم: 108، (2/ 721).

(5) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، رقم: 1469، (2/ 122)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر، رقم: 1053، (2/ 729).

وبهذا يُعلم أنّ الإيمان بالله ﷻ أساس التزكية؛ لأنّه يحمل على الخير ويجنّب الإنسان الشر، كما يحمل على الإيمان بأركان الإيمان الأخرى.

المطلب الثاني: دور الإيمان بالملائكة والكتب والرسل في تحقيق التزكية

بعد أن بيّنت دور الإيمان بالله ﷻ في تحقيق التزكية، سأوضح من خلال هذا المطلب دور الإيمان بالملائكة والكتب والرّسل في تحقيقها، وقد ارتأيت جمعها في مطلب واحد لوجود نوع صلة بينها؛ إذ إنّ الملائكة رسل الله جلّ ثناؤه إلى أنبيائه ورسله، والرّسل عليهم السلام حملة الكتب إلى خلقه.

الفرع الأول: دور الإيمان بالملائكة في تحقيق التزكية

الملائكة خلق من مخلوقات الله جلّ ثناؤه، لهم أجسام نورانية لطيفة قادرة على التشكل والتمثل والتصور بالصور الكريمة، ولهم قوى عظيمة، وقدرة كبيرة على التنقل، وهم خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الله ﷻ، قد اختارهم الله عز وجل واصطفاهم لعبادته والقيام بأمره، فلا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون[1]. والإيمان بالملائكة أصل من أصول الإيمان، لا يصح إيمان عبد إلا به.

والإيمان بالملائكة له دور في تحقيق التزكية، وذلك من خلال إدراك المؤمن أنّ الله جلّ ثناؤه أوكل له من يسجل عليه حركاته وسكناته، قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿10﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿11﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[الانفطار: 10 _12]، قال ابن كثير: « وإن عليكم لملائكة حفظة كراما فلا تقابلوهم بالقبائح فإنّهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم»[2].

وقد أشار سيد قطب إلى السرّ في ذكر الملائكة بكونهم كراما، حيث قال: «وأن عليه حفظة كراما كاتبين يعلمون ما يفعله، ليرتعش ويستيقظ ويتأدب، وهذا هو المقصود، ولما كان جو السورة جو كرم وكرامة، فإنه يذكر من صفة الحافظين كونهم.. ﴿كِرَامًا﴾؛ ليستجيش في القلوب إحساس الخجل والتجمل بحضرة هؤلاء الكرام، فإنّ الإنسان ليحتشم ويستحيي وهو بمحضر الكرام من الناس أن يسف أو يتبذل في لفظ أو حركة أو تصرف... فكيف به حين يشعر ويتصور أنه في كل لحظاته وفي كل حالاته في حضرة حفظة من الملائكة ﴿كِرَامًا﴾ لا يليق أن يطّلعوا منه إلاّ على كل كريم من الخصال والفعال؟! إن القرآن ليستجيش في القلب البشري أرفع المشاعر

---

(1) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، مجموعة من المؤلفين، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – السعودية، ط:1، 1421هـ، (ص: 99) (بتصرف يسير).

(2) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (344/8).

بإقرار هذه الحقيقة فيه، بهذا التصور الواقعي الحي القريب إلى الإدراك المألوف...»[1]. فإذا أخذ الإيمان بالملائكة مأخذه من قلب المسلم كان له أثر عظيم في تزكية النفس، وهل التزكية إلا ما أورده ــ رحمه الله ــ في كلامه السابق.

وقد جاء وصف الملائكة بأربع صفات وهي: الحفظ، والكرم، والكتابة، والعلم، وهي في أغلبها صفات تحمل معاني التزكية والطهارة، وقد أشار ابن عاشور أن هذه الصفات عمدة كل من يقوم بعمل للأمة في الإسلام من الولاة وغيرهم، فإنهم حافظون لمصالح ما استحفظوا عليه، وأول الحفظ الأمانة وعدم التفريط، فلا بدّ فيهم من الكرم وهو زكاء الفطرة؛ أي طهارة النّفس[2]، فمن استحضر هذه المعاني الجلية وُفّق للخير والصلاح.

والمؤمن ينال من استغفار الملائكة ودعائهم ما يكونوا سببا في ثباته على طريق التزكية، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [غافر: 7]، قال السعدي: «وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جدًا، أن الملائكة الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان، فالمؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم.

ثم ولما كانت المغفرة لها لوازم لا تتم إلا بها ــ غير ما يتبادر إلى كثير من الأذهان، أن سؤالها وطلبها غايته مجرد مغفرة الذنوب ــ ذكر تعالى صفة دعائهم لهم بالمغفرة، بذكر ما لا تتم إلاّ به، فقال: ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ﴾ فعلمك قد أحاط بكل شيء، لا يخفى عليك خافية، ولا يعزب عن علمك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ورحمتك وسعت كل شيء، فالكون علويه وسفليه قد امتلأ برحمة الله تعالى ووسعتهم، ووصل إلى ما وصل إليه خلقه. ﴿ فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ ﴾من الشرك والمعاصي ﴿ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ ﴾ باتباع رسلك، بتوحيدك وطاعتك. ﴿ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ أي: قهم العذاب نفسه، وقهم أسباب العذاب»[3].

وممّا يبرز دور الإيمان بالملائكة في لزوم سبيل التزكية أنّ الله ﷻ ثبّت أهل بدر بملائكته الكرام، وأعانهم بهم على عدوهم، قال تعالى: ﴿ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [الأنفال: 12].

(1) ظلال القرآن، سيد قطب، (6/ 3850).
(2) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (30/ 181).
(3) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 732).

الفرع الثاني: دور الإيمان بالكتب في تحقيق التزكية

الإيمان بالكتب السماوية يقتضي التصديق الجازم بأنها من عند الله عز وجل، قال ﷻ: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران: 2_ 4]، فأخبر اللهﷻ أنه أنزل هذه الكتب المذكورة وهي: التوراة، والإنجيل، والقرآن من عنده، فمنه بدأت لا من غيره، ولذا توعّد في نهاية السياق من كفر بآيات اللهﷻ بالعذاب الشديد، ومن ثمّ فإنّ المؤمن يحمله خوفه من العذاب الشديد على ضرورة العمل بهذه الكتب، والتي نسخها القرآن الكريم وهيمن عليها، وبذلك تزكو نفسه ويصلح حاله، وقد جاءت آيات كثيرة تبين أن مقصد إنزال القرآن الكريم إنما هو تحقيق الهداية، قال جلّ ثناؤه: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:1]، وقالﷻ: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ ﴾ [البقرة:184]، والهداية تعني التمييز بين الخير والشر، ومعرفة الحلال من الحرام، وإلى هذا أشار السمرقندي، حيث قال: «قوله عز وجل: ﴿ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾؛ أي بياناً لهم من الضلالة، للمتقين الذين يتقون الشرك والكبائر والفواحش، فهذا القرآن بيان لهم من الضلالة، وبيان لهم من الشبهات، وبيان الحلال من الحرام »(1).

وقد جاء التأكيد في آية أخرى على دور القرآن في هداية النّاس، قالﷻ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ﴾ [الإسراء: 9]، فهو المرشد إلى طريق الحق، المبعد عن طرق الغواية؛ لتتحقق تزكية الفرد والجماعة، كما أنه جاء تبيانا لكل شيء حتى تصلح حياة الناس وتتطهر البشرية من الأدران، قال ﷻ: ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [النحل: 89]، قال ابن مسعود ﷺ: «أُنزل في هذا القرآن كل علم، وكل شيء قد بيّن لنا في القرآن»(2).

وممّا يبين دور الإيمان بالقرآن الكريم في التزكية؛ أثره في ذلك الجيل الفريد، فقد ربّاهم النبيﷺ تربية قرآنية متكاملة، فكانوا يستمعون القول فيتبعون أحسنه، لذلك فعل القرآن فعله في نفوسهم، فخرجوا من بيئتهم المحدودة، وعصبيتهم الجاهلية، إلى سعّة الإيمان، فكسروا بذلك الأغلال، وقوّضوا إمبراطوريات عصرهم، وأضحوا

(1) بحر العلوم، السمرقندي، (1/ 22).

(2) ينظر: جامع البيان، الطبري، (279/17).

سادة الأمم، بعد أنّ كانوا مجرّد رعاة للإبل والغنم، وقد أكّد الله جلّ ثناؤه هذا الدور المنوط بالقرآن الكريم فقال: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[إبراهيم: 1]، وقد أثبت واقع المسلمين عبر الزمن أنهم أصبحوا بتمسكهم بالقرآن أرقى الأمم، وبتخلفهم عنه وأخذهم بما عند الأمم من ضلال، أخسّ الأمم.

هذا بيان لأثر الإيمان بالقرآن الكريم في التزكية على وجه العموم، وكذلك كان شأن الكتب السابقة، فقد جاءت لهداية النّاس، قال جلّ ثناؤه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ ﴾[المائدة: 44]، وقال أيضا: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ ﴾[المائدة: 46]، فالإيمان بها على الوجه المطلوب قد حقّق لأتباعها زمن نزولها وقبل تحريفها التزكية المطلوبة.

الفرع الثالث: دور الإيمان بالرّسل عليهم السلام في التزكية

سبق وبيّنت أن دور الأنبياء عليهم السلام هو تزكية النّفوس؛ لذا فإنّ الإيمان بهم يقتضي إتباعهم، وبذلك تتحقق التزكية، قال ابن القيم: «فإنّ تزكية النفوس مُسلَّم إلى الرّسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاَّهم إيّاها، وجعلها على أيديهم دعوة وتعليما وبيانا وإرشادا ... فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم ... فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلاّ من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم...»(1).

فإذا كان هذا شأن كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنّ خاتمهم ﷺ أحق بهذا الدور، فقد جعله الله عز وجل قدوة وأسوة حسنة فقالﷻ: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب:21]، قال سيد قطب: «وإنها لتزكية وإنه لتطهير ذلك الذي كان يأخذهم به الرسولﷺ تطهير للضمير والشعور، وتطهير للعمل والسلوك، وتطهير للحياة الزوجية، وتطهير للحياة الاجتماعية، تطهير ترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح، ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح، وترتفع به من رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيماني، ومن دنس الربا والسحت إلى طهارة الكسب الحلال...إنها تزكية شاملة للفرد والجماعة ولحياة السريرة وحياة الواقع، تزكية ترتفع بالإنسان وتصوراته عن الحياة كلها وعن نفسه ونشأته إلى آفاق النور التي يتصل فيها بربه، ويتعامل مع الملأ الأعلى ويحسب في شعوره وعمله حساب ذلك الملأ العلوي الكريم»(2).

---

(1) مدارج السالكين، ابن القيم، (356/2).

(2) في ظلال القرآن، سيد قطب، (6/ 3560).

وقد دأب النبيﷺ على تزكية نفوس أصحابه رضي الله عنهم، فقد كان يحثّهم على خصال الخير ويحذرهم من خصال الشر، وهما ركنا التزكية، فحين سئلﷺ عن أعظم المهمات توجّه جوابه إلى معاني التزكية، فعن أبي عمرو – وقيل أبي عمرة – سفيان بن عبد اللهﷺ قال: «**قلت** يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسال عنه أحداً غيرك، قال: «**قل آمنت بالله ثم استقم**» »[1]. وهذا من جوامع الكلم، فقد تضمن ما ذكرت، والمؤمن الحقيقي عليه أن يحقّق صدق المتابعة، وبذلك تزكو نفسه، والنبيﷺ ركّز على هذا الجانب كغيره من الرّسل، فإذا تغلّغل الإيمان بهم في قلب العبد ظهر ذلك في حركاته وسكناته، وفي أقواله وأفعاله.

المطلب الثالث: دور الإيمان باليوم الآخر والقضاء والقدر في تحقيق التزكية

للإيمان باليوم الآخر والقضاء والقدر أثر بالغ في التزكية؛ إذ لا يصح إيمان عبدٍ إلاّ بهما، ويأتي هذا المطلب ليبيّن أثرهما على صلاح العبد وزكائه.

الفرع الأول: دور الإيمان باليوم الآخر في تحقيق التزكية

اهتم القرآن الكريم والسنة النبوية باليوم الآخر اهتماما كبيرا، فلا تكاد تخلو سورة من سور الكتاب العزيز من التذكير به، ولعظيم أهميته فقد ربط اللهﷻ بينه _ أي الإيمان باليوم الآخر _ و بين الإيمان بوحدانيته في عديد من الآيات، منها قوله جلّ ثناؤه: ﴿ **لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ** ﴾ [البقرة: 176]، وكقولهﷻ: ﴿ **ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ** ﴾[الطلاق: 2]، وَردّ الله جلّ ثناؤه على الجاهلين إنكارهم له، وأمر نبيه أن يقسم على أنه حق، فقالﷻ: ﴿ **قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [التغابن: 7].

وذكر اللهﷻمن أحوال يوم القيامة، وما أعدّه لعباده المتقين من ثواب، وما أعدّه للعاصين من عقاب، حتى يتحرك فيهم جانب الخوف والرجاء، فيبتعدوا عن الشر ويقبلوا على الخير، وهذه هي التزكية القائمة على التخلية والتحلية، وفي هذا الصدد يقول السعدي: «معرفة ذلك اليوم حقيقةَ المعرفة يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء، اللذين إن خلا القلب منهما خرب كل الخراب، وإن عُمر بهما أوجب له الخوفُ الانكفاف عن المعاصي، والرجاءُ تيسير الطاعة وتسهيلها، ولا يتمّ ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التي يُخاف منها وتُحذر، كأهوال القبر وشدته وأحوال المواقف الهائلة وصفات النار، وبمعرفة تفاصيل الثواب والعقاب، فيعرف بذلك فضل الله وعدله

(1) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، رقم: 38، (1/ 65).

وحكمته»[1]، ويقول أيضا: «إن الإيمان بالبعث والجزاء أصل صلاح القلب، وأصل الرغبة في الخير، والرهبة من الشر اللذين هما أساس الخيرات»[2].

إنّ منهج القرآن والسنة في تزكية النّفس قائم على التذكير باليوم الآخر، وربط ذلك بالحثّ على الفضائل والتحذير من الرذائل، وأعظم الفضائل التي تتزكى بها النّفس؛ إخلاص العبادة لله جلّ وعلا. وأعظم الرذائل التي تتدنس بها؛ الإشراك بهﷻ، لذلك نجد أن القرآن قد ربط في الكثير من الآيات بين التحذير من الشرك وبيان عقابه، قال تعالى: ﴿ **إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ** ﴾ [المائدة: 72].

ونفس المنهج اعتمده النبيﷺ فالسنة شارحة للقرآن، فعن جابرﷺ، قال: «أتى النبيﷺ رجل فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ فقال: «**من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئا دخل النار**»[3].

كما نجد أنّ اللهﷻ ربط اليوم الآخر بالتحذير من الكبائر التي تُفسد على النّاس حياتهم، وتنشر بينهم العداوة والبغضاء والآفات الفتاكة كالقتل والزنا... قال تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ⁽٦٨⁾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ⁽٦٩⁾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا** ﴾[الفرقان: 68 _70]، فانظر كيف بيّن الله تعالى عقاب الواقعين في هذه الآثام حتى يبتعد المؤمن عنها، وفتح باب التوبة للواقع فيها وبشّره بعظيم الأجر والثواب، وفي ذلك تطهير للمجتمع من هذه الآفات التي ما حلّت بقوم إلاّ أفسدته.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «جاء رجل فقعد بين يدي رسول اللهﷺ فقال: يا رسول الله، إنّ لي مملوكين يَكْذِبُونَنِي وَيَخُونُونَنِي وَيَعْصُونَنِي، وأشتمهم، وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك، وعصوك، وكذبوك، وعقابك إياهم في الكفة الأخرى فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم، كان فضلاً لك، وإن كان عقابك**

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 37).

(2) المصدر نفسه، (ص29).

(3) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، ومن مات مشركا دخل النار، رقم 93، (94/1).

إياهم فوق ذنوبهم عاقبتهم أكثر مما يستحقون أُقْتُص لك منهم الفضل أخذوا منك الفرق» فتنحى الرّجل، وجعل يهتف ويبكي، فقال له رسول اللهﷺ:« **أما تقرأ قول الله تعالى:** ﴿ **وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ** ﴾[الأنبياء: **47**]»، فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد لي ولهؤلاء خيراً من مفارقتهم، أشهدك أنهم كلهم أحرار»(1).

ومن الصفات الذميمة التي جاء الإسلام لمحاربتها وتطهير النفس منها صفة الجبن والانهزامية في مواطن الجهاد، لذلك حذّر اللهﷻ من ترك النفير، وتوعّد بالعذاب من وقع في ذلك، قالﷻ: ﴿ **إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [التوبة:39]، قال القرطبي: «وهذا تهديد ووعيد مؤكّد في ترك النّفير»(2). وجعل النبيﷺ الفرار يوم الزحف من الموبقات التي تُهلك صاحبها وتدخله النّار، فعن أبي هريرة ﷺأنّ رسول اللهﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» قيل: يا رسول الله، وما هنَّ؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق، وأكل مال اليتيم وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»(3)، والمقصود بالموبقات المهلكات التي تقضي على صاحبها وتورده النّار(4).

وكم ذكّر النبيﷺ صحابته بالنعيم المقيم الذي أعدّه اللهﷻ لأهل الإيمان من عباده، ليبعث فيهم روح الشجاعة والإقدام، ففي غزوة بدر قال للصحب الكرام رضي الله عنهم: «**قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض**»، قال: عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «**نعم**»، قال: بخ بخ، فقال رسول اللهﷺ: «**ما يحملك على قولك بخ بخ؟**» قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاءة أن أكون

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده، رقم: 26401، (43/ 406)، والترمذي في السنن، كتاب تفسير سورة الأنبياء، باب: ومن سورة الأنبياء، رقم: 3165، (5/ 320)، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، (مكتبة المعارف، - السعودية، ط: 1، 1421 هـ - 2000م)، رقم: 2290، (2/ 565).

(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (8 /90).

(3) أخرجه البخاري، كتاب الوصايا، باب ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ﴾ [النساء/ 10]، رقم 2766، (10/4)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم: 89، (92/1).

(4) ينظر: شرح صحيح البخارى، ابن بطال، (10/ 202).

من أهلها، قال: «**فإنك من أهلها**»، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل»(1).

بل إنّ الإيمان باليوم الآخر يزكي عقل الإنسان وفكره، فلا يتركه إمعة يقلّد غيره تقليدا أعمى، فقد حذّر الله ﷻ من ذلك وربط هذا التحذير باليوم الآخر، فقال: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾ [البقرة:166-167].

والمنهج الإسلامي في التزكية بالتذكير باليوم الآخر لا يقتصر على التحذير من المساوئ فحسب، بل يبعث جانب الرجاء والطمع فيما يناله العبد المؤمن يوم القيامة، وذلك بإحسانه إلى الآخرين وإيصال الخير لهم، قال الله جلّ ثناؤه: ﴿**سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[آل عمران 133_134].

فلك أن تتخيل وقع هذه الآية على قلوب أهل الإيمان والخشية ممن تتوق نفوسهم إلى جنة عرضها السماوات والأرض، وحتى لا يبقى كلامي نظريا، فإن واقع الصحابة يُصدّقه، فعن أنس رضي الله عنه قال:« كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلا،وكان أحبّ أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت: ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [آل عمران:92]، قال أبو طلحة يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾، وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: « **بخ! ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه»(2).

---

(1). أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة بدر، رقم: 4046، (5/ 95)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم: 1901، (1509/3).

(2) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم: 1461، (119/2)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل الصدقة والنفقة على الأقارب، رقم 998، (693/2).

ولم يكن ذلك خاصا به فقط، بل كانت حالة شائعة في جيل فريد مشبّع بالإيمان، فعن ابن عمرﷺ قال: «حضرتني هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:92]، فذكرت ما أعطاني الله فلم أجد شيئا أحب إلي من مرجانة جارية لي رومية، فقلت: هي حرة لوجه الله »[1]، وبهذا يتضح أن المؤمن باليوم الآخر تزكو نفسه فتنطلق إلى التفكير في الآخرين ونفعهم، ولا يقتصر نفعه على البشر فحسب، بل يمتدُّ إلى الحيوان كما في القول المأثور عن عمر بن الخطاب ﷺ: «لو ماتت شاة على شط الفرات ضائعة لظننت أن الله تعالى سائلي عنها يوم القيامة»[2]، فقد حمل الإيمان بهذا اليوم صاحبه إلى الإحسان إلى النّاس، بل وحتى إلى الحيوان، ولك أن تتخيل مجتمعا انغرست فيه هذه الأسس كيف يكون حاله!

وإجمالا فإنّ الإيمان بالله واليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب هو الموجّه الحقيقي لسلوكِ الإنسانِ إلى سُبل الخير، وليس هناك أي قانون من قوانين البشر يستطيع أن يجعله سويًا مستقيمًا كما يفعل الإيمان باليوم الآخر، ومن أراد التحقق من ذلك فلينظر لحال من جحده، فبضدها تتبين الأشياء، وقد بين القرآن حال المكذب به واصفا له بالمتعدي الأثيم، قال ﷻ: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ⑩ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ⑪ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ⑫ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المطففين: 10ــ 13]، ومعنى ﴿مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾؛ أي فاجر جائر متجاوز في الإثم منهمك في أسبابه.

وقد بيّن الله ﷻ في آية أخرى بعض الآثام التي وقع فيها هذا الصنف، فقال: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ⑩ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ⑪ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ⑫ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ⑬ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ⑭ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [القلم: 10ـ15]، فهذه صفات سيئة تدل على قسوة في قلبه، ونقص في عقله، ولؤم في طبعه.

وقال جلّ وعلا أيضا في وصف حال المكذّب بيوم القيامة: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ① فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ② وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الماعون: 1ـ3]، «ومعنى: ﴿يَدُعُّ

(1) ينظر: حسن التنبه لما ورد في التشبه، نجم الدين الغزي، ت: لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين طالب، دار النوادر، سوريا، ط:1، 1432 هـ - 2011 م، (3/ 388).

(2) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط:1، 1416هـ_1996م)، (1/ 53)، وإسناده ضعيف.

﴿ ٱلۡيَتِيمَ ﴾؛ أي: يدفع اليتيم عن حقه، ويظلمه»[1]. «وقوله: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴾؛ أي: لا يطعم بنفسه، ولا يأمر به غيره»(2)، فالتكذيب بيوم القيامة يورث القسوة، قال الطاهر ابن عاشور في تفسير لهذه الآيات: « الاستفهام مستعمل في التعجيب من حال المكذبين بالجزاء، وما أورثهم التكذيب من سوء الصنيع... فمعنى الآية عطف صفتي: (دع اليتيم)، و(عدم إطعام المسكين) على جزم التكذيب بالدين، وهذا يفيد تشويه إنكار البعث بما ينشأ عن إنكاره من المذام ومن مخالفة للحق، ومنافيا لما تقتضيه الحكمة من التكليف، وفي ذلك كناية عن تحذير المسلمين من الاقتراب من إحدى هاتين الصفتين بأنهما من صفات الذين لا يؤمنون بالجزاء، وجيء في ﴿يُكَذِّبُ ﴾، و ﴿يَدُعُّ ﴾، و ﴿ يَحُضُّ ﴾ بصيغة المضارع لإفادة تكرر ذلك منه ودوامه، وهذا إيذان بأن الإيمان بالبعث والجزاء هو الوازع الحق الذي يغرس في النفس جذور الإقبال على الأعمال الصالحة حتى يصير ذلك لها خلقا إذا شبّت عليه، فزكت وانساقت إلى الخير بدون كلفة ولا احتياج إلى أمر، ولا إلى مخافة ممن يقيم عليه العقوبات، حتى إذا اختلى بنفسه وأمن الرقباء جاء بالفحشاء والأعمال النكراء»(3).

من خلال النّقل السابق يتضح دور الإيمان باليوم الآخر في تحقيق تزكية الإنسان، حيث إنّه يغرس في نفسه استحضار رقابة الله جلّ ثناؤه، فيجتنب المعصية ويقبل على الطاعة، وبذلك يلتزم بالتزكية تخلية وتحلية.

الفرع الثاني: دور الإيمان بالقضاء والقدر في تحقيق التزكية

القضاء والقدر هو النظام المحكم الذي وضعه الله جلّ ثناؤه لهذا الوجود، والقوانين العامة والسنن التي ربط الله بها الأسباب بمسبباتها(4)، وله أهمية بالغة «فهو من أسنى المقاصد والإيمان به قُطْب رحى التوحيد ونظامه، ومبدأ الدين المبين وختامه، فهو أحد أركان الإيمان، وقاعدة أساس الإحسان، التي يرجع إليها، ويدور في جميع تصاريفه عليها... ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:54]» (5).

ونظرا لأهمية الإيمان بالقضاء والقدر في تزكية الفرد، فقد كان الرسولﷺ مربياً ومزكياً لنفوس أصحابه به، وتتجلى هذه التزكية في الوصايا التي أوصى بهاﷺ أصحابه رضوان الله عليهم، ومن ذلك ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول اللهﷺ: «**المؤمن القوي، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير احرص على**

(1) جامع البيان، الطبري، (24/ 629).

(2) تفسير القرآن، السمعاني، (288/6).

(3) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (30/ 565).

(4) العقائد الإسلامية، سيد سابق، دار الكتاب العربي – بيروت، د ت ط، (ص: 95).

(5) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن قيم الجوزية، ت: محمد بدر الدين النعساني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط:1، 1398هـ/1978م، (ص: 2).

ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»(1).

في هذا الحديث يبين الرسولﷺ أنّ من أراد نيل محبّة اللهﷻ ورضوانه فعليه أن يبادر إلى تقوية إيمانه ومجاهدة نفسه، وطلب القوة في العلم والجسم، وغير ذلك من عناصر القوة النافعة التي تتضافر جميعها لتكوين شخصية المسلم الذي يحبه الله تعالى، ولكي يحظى العبد بذلك لا بدّ له من الأخذ بالوصايا النبوية الواردة في هذا الحديث: وهي أن يحرص على ما ينفعه، ويطلب العون من الله جلّ ثناؤه ولا يعجز، وأن يسلم أمره للهﷻ فيما قدّر له، فلا يسخط ولا يشتكي من المصائب، ولا يدع للشيطان مدخلاً بقوله: «لو أني فعلت كذا وكذا»؛ لأنّ (لو) تجلب الحسرة والأسى، وتزيد اللّوعة، وتورث القلق والاضطراب، ولن يستطيع العبد إعادة ما فات، ولا إحياء من مات مهما تحسّر، وإنما سيجلب لنفسه الكآبة، ولجسمه الأمراض والآلام، ويتعرض لغضب الله تعالى، باعتراضه على قدره، فالعلاج العملي أن يقول: «قدّر الله وما شاء فعل»، مُعلِناً استسلامه لأمر الله جلّ ثناؤه ورضاه بقضائه، وأن يُعَوّد لسانه على هذا القول كلما ناله شيء يكرهه.

ومن آثار الإيمان بالقضاء والقدر في التزكية؛ أنه يربي النّفس على القناعة والرضا بما قسم الله تعالى، قال النبيﷺ: «**إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخُلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم**»(2). «في هذا الحديث من الفقه: أنّ رسول اللهﷺ ذكر هذا مداويًا به القلوب، فعلّمها كيف تصنع، ووصف لها الدواء، فقال: «**إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق**»، يعني: فثار له، أو خاف على نفسه نوع اعتراض أو تسخط، فليتدارك ذلك بأن ينظر إلى من دونه ممن قد فضله الله عليه...فتطمئن نفسه، ويزول عنه العارض الخبيث، ويدل عليه قوله: «**فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم**»(3)، «فإذا اتبع المسلم هذه الوصية النبوية، فإنّه سيعرف قدر النّعمة ويرضى بما قسم الله له، وينال القناعة، ويحظى بالسعادة ولو كان مُبتلى بالفقر أو المرض أو المصائب المختلفة؛ لأنّه إن كان فقيراً لا يملك وفرة من المال، فلينظر إلى من ابتلي بالفقر المدقع والجوع الشديد، وإن كان مريضاً يشكو من بعض الآلام، فلينظر إلى من ابتلي بعاهة أو مرض مزمن خطير، وهكذا يبقى دائماً مقدّراً للنعمة، راضياً بما قسم الله له، شاكراً صابراً، ولو أخذ المسلمون اليوم بهذه الوصية النبوية لسعدت أحوالهم، واستقامت أوضاعهم، وعرفوا الثمرة الحقيقية للإيمان بالقضاء

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم: 2664، (2052/4).

(2) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب: لينظر إلى من هو أسفل منه، ولا ينظر إلى من هو فوقه، رقم: 6490، (102/8).

(3) الإفصاح عن معاني الصحاح، يحي بن هبيرة، ت: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، السعودية، 1417هـ، (7/ 272).

والقدر، وسارعوا إلى التنافس في التقوى والعمل الصالح والتقرب إلى الله، عوضاً عن التنافس على حطام الدنيا الزائل»[1].

ومن تأمل عقيدة القدر التي جاء بها الإسلام وجد لها ثماراً كبيرة طيبة، كانت ولازالت سبباً في صلاح الفرد والأمة، ومنها:

تخفيف الجزع عند المصيبة وعدم البطر عند تكاثر النعم؛ فخير ما يعصم الإنسان من البطر والطغيان عند النعمة، ويصرفه عن الحزن المهلك واليأس القاتل عند نزول البلاء؛ أن يؤمن بأنّ ما وقع له من خير أو شر، قد جرت به المقادير، وقضت به مشيئة الله سبحانه وحكمته، فلا تذهب نفسه حسرات على ما فات، ولا يفقد رشده فرحا وغرورا على ما آتاه الله من نِعَم، وفي هذا يقول الله ﷻ: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: 23]، ولا شك أنّ هذا يبعث في النّفس السكينة والاطمئنان، ويبعدها عن القلق والاضطراب، قال ابن مسعود ﵁: «لأن أعضّ على جمرة أو أقبض عليها حتى تبرد في يدي أحبّ إليّ أن أقول لشيء قضاه الله: ليته لم يكن»[2]-[3].

فبسلوك هذا المنهج يبتعد المؤمن عن الطغيان؛ لأنّه يعلم أنّ ما أصابه من نعم وحسنات فمن الله ﷻ، لا بذكائه وحسن تدبيره، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: 53]، فلا يكون حاله حال قارون الذي بغى على قومه واستطال عليهم بما أعطاه الله من كنوز وأموال، قال جلّ ثناؤه: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿76﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿77﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص: 76-78].

كما أنّ المؤمن بالقضاء والقدر يرضى بالمصائب التي تقع عليه؛ لأنّه يعلم أنها بقدر وأن الصبر عليها أجره عظيم، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿156﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن

(1) منهج الإسلام في تزكية النفس وأثره في الدعوة إلى الله، أنس أحمد كرزون، (ص: 131).
(2) أخرجه أبو داود في الزهد، رقم: 128، (ص: 137)، وابن بطة في الإبانة الكبرى، رقم: 1595، (4/ 150).
(3) منهج الإسلام في تزكية النفس وأثره في الدعوة إلى الله، أنس أحمد كرزون، (ص: 125) (بتصرف يسير).

رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 156_ 157]، وهذا ما يجعله في خير دائم كما قال النبيﷺ: «**عجبا لأمر المؤمن، إن أمر المؤمن كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء فشكر فكان خيرا، وإن أصابته ضراء فصبر، كان خيرا**»(1).

ومن ثمرات الإيمان بالقدر؛ غرس الشجاعة في النّفس، وتحليتها بالجود والسخاء، فالمؤمن بهذا الرّكن يعتقد أنّ الله تعالى هو الذي يحي ويميت، وأن الآجال والأرزاق بيدهﷻ، والإنسان مهما بذل جهده فلن يحظى بأكثر من عمره، ولن ينال أكثر من رزقه الذي قُدّر له، وبهذا يندفع المؤمن ويتخلى عن الجبن والخور، مرددا قوله جلّ ثناؤه: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[التوبة: 51]، فكيف يستقر الخوف في قلبه، وكيف يشح أو يبخل في الإنفاق فيما أمره الله؟ وهو يعلم أنّ رزقه مقسوم(2)، بل إنّ الإيمان بالقضاء والقدر يحمل صاحبه على كسب الحلال فلا يتعدى إلى الحرام؛ لأنّه يمتثل قول النبيﷺ: «**إنّ روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستوفي رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب**»(3).

ومن الثمرات التي تنال بالإيمان بهذا الرّكن؛ سلامة الصدر من الأحقاد والحسد؛ لأنّ المؤمن يعلم أنّ حسد النّاس على ما آتاهم الله من فضله، إنّما هو في حقيقته سخط على الأقدار، فالواجب عليه أن يرضى بما قدر اللهﷻ له من الرزق ويقنع به، ولا يتطلع إلى دنيا الآخرين، فإن ذلك لن يغير من المقدور شيئا، ولن يجلب في نفسه إلاّ الحسرات(4).

وخلاصة هذا المبحث أنّ الإيمان يحقق التزكية، ولكل ركن منه أثر في ذلك؛ فالإيمان باللهﷻ أصل كل زكاء ونماء؛ لأنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه؛ لذا سمى اللهﷻ التوحيد زكاة، وفي المقابل فقد سمىﷻ الشرك رجسا، ووصف المشركين بالنجاسة، فدل ذلك أن الطهارة والتزكية في التوحيد الخالص لله جل وعلا ويظهر أثر الإيمان بالملائكة في تحقيق التزكية، من خلال إدراك المؤمن أنّ الله جلّ ثناؤه أوكل له من يسجل عليه حركاته وسكناته، وقد وصفهم الله بأربع صفات وهي: الحفظ، والكرم، والكتابة، والعلم، وهذه صفات تحمل معاني التزكية والطهارة، وهي قوام كل من رام إصلاح غيره. وأما الإيمان بالكتب والرّسل فيقتضي العمل بما أمروا به من خير وصلاح. ويعتبر الإيمان باليوم الآخر الموجّه الحقيقي لسلوكِ الإنسانِ، وليس هناك أي قانون من قوانين البشر يستطيع أن يجعل العبد سويًا مستقيمًا كما يفعل الإيمان باليوم الآخر، وقد

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم: 2999، (2295/4).

(2) منهج الإسلام في تزكية النفس وأثره في الدعوة إلى الله، كارزون، (ص: 124) (بتصرف).

(3) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، (10/ 26).

(4) المرجع السابق، (ص: 126) (بتصرف).

بين القرآن أن المعرض عنه متعد آثم، وقد أثبت الواقع دموية الإلحاد. وأما الإيمان بالقضاء والقدر فله آثاره الطيبة، كانت ولازالت سبباً في صلاح الفرد والجماعة، ومن ذلك؛ تخفيف الجزع عند المصيبة، وعدم البطر عند تكاثر النعم، وبذلك تتحقق الخيرية للعبد، كما أن الإيمان بالقدر يغرس الشجاعة في النّفس، ويحقق أيضا سلامة الصدر من الأحقاد والحسد.

ومعلوم أنّ الإيمان لابدّ أن تصحبه العبادات التي يتقرب بها العبد من ربهﷻ، فما دور العبادات في تحقيق التزكية؟ هذا ما سيأتي بيانه في المبحث الموالي.

المبحث الثاني: دور العبادات في تحقيق التزكية

العبادة **لغة:** «التذليل، من قولهم: «طريق معبّد»؛ أي مذلّل... والعبادة والخضوع والتذلّل والاستكانة قرائب في المعاني»[1]. وأما من حيث **الاصطلاح:** «فهي اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة» [2].

فمفهوم العبادة واسع يشمل الدين كلّه، غير أني سأركز على العبادات الفعلية والقولية، باعتبارها شعائر ظاهرة، وفيما يلي بيان ذلك:

المطلب الأول: دور العبادات الفعلية في تحقيق التزكية

من أعظم العبادات الفعلية، أركان الإسلام وركائزه، ولكل واحد منها أثر في تحقيق التزكية، وإليك بيان ذلك:

الفرع الأول: دور الصلاة والزكاة في تحقيق التزكية

ربط الله تعالى في كتابه العزيز بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في كثير من الآيات، قال الراغب: «وقَلّما حثّ الله تعالى على إقامة الصلاة أو مدح بها، إلاّ قرن بها إيتاء الزكاة، فبهما يتمُّ الإيمان»[3]، لذا أوردتهما معا.

وللصلاة والزكاة أثر كبير في تزكية الفرد والمجتمع؛ إذ الصلاة يغلب فيها حقّ الله ﷻ، وفي الزكاة يغلب حقّ النّاس. ويَلْحَق بالصلاة والزكاة المفروضة؛ الصلاة والصدقة المستحبّة، قال تعالى عن أهل الإيمان: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ [الذاريات:17- 19]، قال ابن عاشور: «إنّ ما ذُكر من أعمالهم دال على شدّة طاعتهم لله ابتغاء مرضاته، ببذل أشد ما يُبذل على النّفس وهو شيئان؛ أولهما: راحة النّفس في وقت اشتداد حاجتها إلى الرّاحة وهو اللّيل كله وخاصة آخره، إذ يكون فيه قائم اللّيل قد تعب واشتد طلبه للراحة، وثانيهما: المال الذي تشحّ به النّفوس غالبا، وقد تضمنت هذه الأعمال الأربعة أصلي إصلاح النّفس وإصلاح النّاس، وذلك جماع ما يرمي إليه التكليف من الأعمال، فإنّ صلاح النّفس تزكية الباطن والظاهر، ففي قيام اللّيل إشارة إلى تزكية النّفس باستجلاب رضا الله تعالى، وفي الاستغفار تزكية

---

(1) المخصص، علي بن سيده المرسي، ت: خليل جفال، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط:1، 1417هـ 1996م، (96/13).

(2) رسالة العبودية، ابن تيمية، ت: محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – بيروت، ط:7، 1426هـ، 2005م، (ص: 149).

(3) تفسير الراغب، الراغب الأصفهاني، (173/1).

الظاهر بالأقوال الطيبة الجالبة لمرضاة الله عز وجل، وفي جعلهم الحق في أموالهم للسائلين، نفع ظاهر للمحتاج المظهر لحاجته، وفي جعلهم الحق للمحروم نفع المحتاج المتعفّف عن إظهار حاجته الصابر على شدة الاحتياج»(1).

من خلال النّقل السابق، يتضح دور هاتين العبادتين العظيمتين في تزكية الفرد والمجتمع، ومن خلال ما سيأتي سأبين بعض الآثار التي تطبعها كل عبادة:

أولا _ الصلاة:

الصلاة من أهم أسس التزكية؛ لذا جعلها الله تعالى مفتاح الفلاح في قوله ﷻ: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿1﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ** ﴾ [المؤمنون:1_2]، كما جعل التزكية أساس الفلاح في قوله تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** ﴾[الشمس: 9]، وربط بينهما ليبيّن أنّ الصلاة من وسائل التزكية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿14﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى** ﴾ [الأعلى:14_15]؛ ومن هنا تبرز أهمية الصلاة في تزكية الفرد والجماعة، وذلك من خلال تخليتهم من الرذائل، وتحليتهم بالفضائل.

فأمّا من حيث التخلية من النقائص سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، فإنّ الله تعالى قال: ﴿ **اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ** ﴾ [العنكبوت:45]، فمن مقاصد الصلاة تطهير الإنسان من الذنوب والمعاصي.

ونظرا لأهمية الصلاة في تحقيق التزكية، فقد فهم قوم شعيب عليه السلام ذلك، فقالوا على وجه الإنكار: ﴿ **يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾ [هود:87]، فقولهم: ﴿ **أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ** ﴾ معناه: «ألما كنت مصليا تجاوزت إلى ذم شرعنا وحالنا؟ فكأن حاله من الصلاة جسرته على ذلك فقيل: أمرته، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ** ﴾[العنكبوت:4]»(2).

---

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (348/26).

(2) المحرر الوجيز، ابن عطية، (3/ 200).

وقد أوضح النبي ﷺأثر الصلاة في التطهير من الذنوب والخطايا بمثال ضربه فقال: «**أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟**» قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: «**فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا**»(1)، وفي بيان الحكمة من التمثيل بالنهر أبدع ابن هبيرة في ذلك حيث قال: «في هذا الحديث من الفقه أن رسول اللهﷺ أقام الصلوات الخمس في غسل الذنوب مقام الماء في غسل الأوساخ، وإنما ضرب المثل بالنهر؛ لأن النهر لجريته لا يقف فيه الماء الأول الذي اغتسل به في المرة الأولى، وإنما يتجدد عند كل مرة من الاغتسال ماء جديد.

فشبّه رسول الله ﷺالصلوات الخمس بالمرات الخمس في الاغتسال، وأن تلك المرة الأولى أزالت ما وجدته من الخطايا بإزالة ذهبت بها الجرية، ثم جاءت الغسلة الثانية فغسلت ما عساه تجدّد، ثم ذهبت به الجرية، ثم جاءت الغسلة الثالثة كذلك، فكانت الغسلات ماحية ما يتجدد بين كل غسلتين من الذنوب.

وهذا لأن الذنوب إنما تصدر عن الأعضاء، أعضاء الآدمي التي يستعملها في الصلاة فيكون غسل ما نظر إليه نفسه، ونطق بلسانه، وبطش بيديه، ومشى برجليه بأن شغل كلًا من ذلك في عبادة ربه مرة بعد مرة، وكان ذلك ماحيًا لآثار الخطايا.

وإنما ضرب المثل بالماء؛ لأن الماء هو الماحي للكتابة، وقد سبق أن الكاتبين يكتبان حركات العبد وأنفاسه، فكانت الصلوات مزيلة ما يرقمانه كما يزيل الماء أثر الكتابة المكتوبة بالمداد»(2).

فهذا التكرّر يجعل العبد في صلة دائمة بالله سبحانه، وبذلك فالصلاة هي المنبّه الذي يذكر الإنسان بخالقه وما يجب عليه نحوه من عبادة وشكر خمس مرات في اليوم، كلّما انقضى جزء من اليوم انطلق صوت الأذان يدعو المؤمنين إلى الصلاة، فيتركون ما بأيديهم من أشغال، وما بأفكارهم من مشاغل، وينطلقون نحو مصدر النداء، يؤدون شعيرة الله ويرجون رحمته، ويتطهرون بأدائها ممّا قد يكون أصابهم من معصية وآثام، وبذلك يحصل لهم من التزكية والتربية ما يصلح حالهم وحياتهم(3).

هكذا حال المؤمن لا يقطع الحبل الممدود من الله ﷻ إليه، ولا يعزف عن أدائها؛ لأنها تزرع فيه قيما عديدة، منها:

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، رقم: 528، (1/ 112)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضيع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا، رقم: 667 (462/1).

(2) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، (6/ 200).

(3) العبادة وأثرها في تربية النفس الإنسانية، عبد العزيز المحيمد، وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد، السعودية، ط:1، 1424 هـ، (ص:165) (بتصرف).

أنّها تعلّمه الانضباط وتجنّبه العشوائية، قال ابن باديس: «في ربط الصلاة بالأوقات، تعليم لنا لنربط أمورنا بالأوقات، ونجعل لكل عمل وقته: فللنوم وقته، وللأكل وقته، وللراحة وقتها، ولكل شيء وقته، وبذلك يضبط الإنسان أمر حياته، وتطرد له أعماله، ويسهل عليه القيام بالكثير من الأعمال.

أمّا إذا ترك أعماله غير مرتبطة بوقت، فإنّه لابدّ أن يضطرب عليه أمره، ويتشوش باله، ولا يأتي إلاّ بالعمل القليل ويحرم لذة العمل، وإذا حرم لذة العمل أصابه الكسل والضجر فقل سعيه، وكان ما يأتي به من عمل على قلته وتشويشه بعيدا عن أي إتقان، وقد كان النبي ﷺ مُقسِّماً لزمانه على أعماله، وفيه القدوة الحسنة؛ فقد روى عياض في (الشفا) عن علي رضي الله عنه قال: «**فكان– ﷺ– إذا آوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: فجزءاً لله، وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس؛ فيرد ذلك على العامة بالخاصة، ولا يدخر عنه شيئاً؛ فكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه، وقسمته على قدر فضلهم في الدين: منهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج؛ فيتشاغل بهم، ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة مسألته عنهم، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم. ويقول: ليبلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبّت الله قدميه يوم القيامة، لا يذكر عنده إلاّ ذلك، ولا يقبل من أحد غيره، يدخلون رواداً ولا يتفرقون إلاّ عن ذواق ويخرجون أدلة**»(1)–(2).

ومن صور النّظام الذي ترسمه الصلاة؛ مبدأ الجماعة الذي يدل على الصفاء والرّحمة، كما قال النبيﷺ: «**الجماعة رحمة والفرقة عذاب**»(3)؛ لذلك أمر بها فقال: ﴿ **وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ** ﴾[البقرة:43]، وبيّن النبيﷺ فضل صلاة الجماعة على صلاة الفذِّ، فقال: «**صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده خمسة وعشرين جزءا**»(4).

هذا الاجتماع الذي يتكرر خمس مرات في اليوم والليلة، يؤدي فيه المؤمنون فريضة الصلاة على هيئة جماعية، وصفوف منظّمة، وحركات تعبدية، وأدعيّة موحدة، لا شك أنّ لهذا دوره الفعلي في تأليف وتجميع الأفراد، مع ترسيخ للمشاعر الأخوية القائمة على وحدة المعتقد، ثم تأتي صلاة الجمعة لتجمع المسلمين في دائرة أوسع مرة في كل أسبوع، وصلاة العيدين مرتين في السنة وهو اجتماع لمناسبات دينية سعيدة، وصلاة الاستسقاء تجمع النّاس

---

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: 1362، (3/ 26).

(2) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس، (ص: 136).

(3) أخرجه أحمد في المسند، رقم: 18449، (30/ 390)، وحسّنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط:1، 1415 هـ – 1995م)، رقم: 667، (2/ 272).

(4) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب وجوب صلاة الجماعة، رقم: 645، (131/1).

كلّما حلّت بهم ضائقة الجفاف، فيجتمعون على دعاء الله ورجائه والتطلّع إلى رحمته، ويتراحمون بينهم حتى ينالون ذلك، وهذا ما يؤكد أنّ هذه الصلوات تجمع النّاس في السراء والضراء، وتنشر فيهم ثقافة الاهتمام بالآخر[1]، ولا شك أنّ الاجتماع المنشود هو اجتماع القلوب الذي يؤثر فيه اجتماع الأبدان، لذلك كان النبيﷺ يقول: «**لتُسون صفوفكم، أو ليخالفن الله بين وجوهكم**»[2].

وقد حرص النبيﷺ على صفوف الجماعة منذ البدايات الأولى للإسلام حين جمعهم في بيت الأرقم بن أبي الأرقم، ليجمع شملهم أكثر عندما بنى أول مسجد صلى الصحابة فيه الجمعة، فَعَلاَ إيمانهم، واكتمل إخاؤهم، واجتمعوا خلف إمام واحد هو الإمام الأعظم، والرسول الأكرمﷺ، ليقتدي به الجميع، فيتزكى بذلك المجتمع.

ومن الجوانب التي تطبعها الصلاة أيضا: الصبر وتحمل المشاق؛ فمن عظمت صلته بربه عظم تأييد الله ﷻ له، ومن أيّده ربه فرّج عنه همومه، وأعانه على تحمل المصاعب؛ لهذا قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[البقرة: 45]، وقد ذكر النبي ﷺ عن الأنبياء عليهم السلام: « **وكانوا إذا فزعوا، فزعوا إلى الصلاة**»[3]، ولما استخلف النبيﷺ أبا بكرؓ للصلاة، فهم الصحب الكرام أحقيته بالإمامة الكبرى وتحمل المشاق.

ومن الجوانب التي تُعنى الصلاة بتزكيتها؛ ما يتعلق بالجانب النفسي، إذ تبعث الراحة في النّفوس، قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[الرعد: 28]، فالصلاة تشتمل على ذكر الله جلّ ثناؤه وتُحقِّقُه، كما قال تعالى:﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: 14]، قال القنوجي: «أي لتذكرني، فإن الذكر الكامل لا يتحقق إلا في ضمن العبادة والصلاة، أو المعنى لتذكرني فيهما لاشتمالهما على الأذكار»[4]. وثبت في الحديث أن النبيﷺ قال: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[5]، وكان يقول لبلالؓ: «**قم**

---

(1) ينظر: العبادة وأثرها في تربية النفس الإنسانية، عبد العزيز المحيمد، (ص:142) (بتصرف).

(2) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف عند الإقامة وبعدها، رقم:717، (1/ 145).

(3) هذا جزء من حديث فيه ذكر لقصة لأحد الأنبياء مع قومه، حين أصابهم بلاء، أخرجه أحمد في المسند، رقم: 23927، (39/ 349)، قال شعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

(4) فتح البيان في مقاصد القرآن، القنوجي، (220/8).

(5) أخرجه النسائي في سننه، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم 3939، (7/ 61)، وحسّنه الألباني في مشكاة المصابيح (المكتب الإسلامي – بيروت، ط:3، 1985م)، رقم: 5261، (3/ 1448).

يا بلال، فأرحنا بالصلاة»[1]، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تتحقق تزكية المجتمع ما لم تستقر الحالات النفسية لمجموع أفرادها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

ثانيا_ الزكاة:

الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام، واسمها يدل على مضمونها، فاللّفظ مأخوذ من الزكاء وهو النماء والطهارة والبركة؛ إذ القصد منها تزكية النفس من الشح، وتزكية المال، وتزكية المجتمع من مظاهر الأنانية، وغرس قسم التعاون والتكافل، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 103]، «فالآية الكريمة تشير إلى فائدتين عظيمتين من فوائد الزكاة هما: الطهارة والتزكية، والحق أنّه من الصعوبة الفصل بين هاتين الفائدتين، وذكر كل واحدة منهما على حده، فهما خصلتان متكاملتان، ليس بسبب التقارب وما يشبه الترادف بين اللفظتين في المعنى فحسب، ولكن للتداخل في آثارهما، فكلاهما ينطبق على المؤمن المزكي وزكاته، فالطهارة تشمل نفس المزكي وماله، وكذلك التزكية فهي للنّفس والمال في وقت واحد...» [2]، وقد بيّن ابن عاشور المعنى المتحقق من الطهارة والتزكية من خلال هذه الآية، حيث قال: «فقوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ إشارة إلى مقام التخلية عن السيئات. وقوله: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ إشارة إلى مقام التحلية بالفضائل والحسنات. ولا جرم أن التخلية مقدمة على التحلية. فالمعنى أن هذه الصدقة كفارة لذنوبهم ومجلبة للثواب العظيم»[3]. فالآية تبين أن الزكاة من أهم وسائل التزكية، قال السعدي: «وفيها أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها؛ لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها»[4].

وبيّن الله جلّ ثناؤه أنّ من صفات الأتقياء إيتاء الزكاة، فقال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿17﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: 17_18]، فثمرة التقوى الحقيقية هي دوام الإنفاق، وبذلك يتخلى العبد عن جملة من الصفات الدنيئة، ومنها الشح الذي يعتبر من أسباب هلاك المجتمعات، وهذا ما يدلّ عليه قولهﷺ: «**اتّقوا الشحّ؛ فإنّ الشحّ أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلّوا محارمهم**»[5].

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه، باب في صلاة العتمة، رقم: 4987، (337/7)، وصححه شعيب الأرنؤوط.

(2) سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، حسين شرفه، (ص: 426).

(3)التحرير والتنوير، ابن عاشور، (11/ 23).

(4) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص:350).

(5) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم: 2578، (4/ 1996).

ولئن كان المزكي لنفسه مستحقا للفلاح كما دلّ عليه قوله ﷻ: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾[الشمس: 9]، فإنّ أداء الزكاة يحقق هذا الفلاح؛ بتخليص الإنسان من الشح، فيستحق هذا الوصف، قال ﷻ: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [التغابن:16]، «وقد استحق الأنصار هذا الوصف بعد أن آثروا إخوانهم من المهاجرين مع ما كان بهم من خصاصة، فقال الله ﷻ في مدحهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[الحشر:9]» (1).

ومن آثار الزكاة في التزكية، أنّها تطبع الفرد على صفات حسنة، ومن ذلك الشعور بروح الانتماء للجماعة والاهتمام بأمورها، والمشاركة الفعّالة في كل ما يخدمها، فهي بذلك تُحقّق الأهداف والغايات العامة بين مختلف شرائحها فقراء وأغنياء، فالزكاة تزكية وتطهير لنفس الغني وماله، كما أنّها تزُكي نفس الفقير وتطهرها من آفاتها كالحسد والحقد، وبذلك استحقت هذه العبادة أن يشق لها اسم من التزكية فتسمى زكاة.

ومن آثار الزكاة أنها اختبار عملي لاستجابة المؤمن لأمر ربه جلّ ثناؤه، فالله سبحانه هو الخالق المنعم على الإنسان، وهذا المال جعله الله تعالى وديعة بين يدي الإنسان ينفقه في مرضاة مولاه، ويؤتي الفقير حقّه الواجب منه، قال تعالى: ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ ﴾ [النور: 33]، وهكذا تُحقّق الزكاة أهدافها في تقوية الإيمان، وتعميق عقيدة التوحيد في النفس التي هي الأساس الأول للتزكية، وتكون الزكاة برهانا على إيمان صاحبها واستجابته لأمر الله ﷻ مصداقا لقوله ﷺ: «...**والصدقة برهان** ...»(2).

ومن الصفات الحسنة التي تطبعها الزكاة، المحبة والألفة بين الناس، فالضعيف حين يرى أنّ الغني وقف إلى جنبه يحبّه، ويحبّ المجتمع الذي ينتمي إليه، وبذلك تزول مظاهر الشحناء والبغضاء.

كما أنّ الزكاة تعلمنا أن نعطي لكل ذي حق حقّه، وألا نتقاعس في أداء ذلك، وهذا ما يجعل المجتمع منظّما.

(1) سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، حسين شرفه، (ص: 427).
(2) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم: 223، (203/1).

الفرع الثاني: دور الصوم في تحقيق التزكية

الصوم من أعظم أركان الإسلام التي تغرس في المسلم الفضائل وتبعده عن الرذائل، فتتحقق فيه التزكية وتنتقل من الفرد إلى الجماعة، فالحكمة من مشروعيته إنّما هي تحقيق التقوى، قال المولى جلّ وعلا: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة:183]، وحقيقة التقوى فعل المأمور واجتناب المحظور، وهذه هي التزكية؛ ولهذا وصى النبيﷺ أحد الصحابة بقوله: «**عليك بالصوم فإنّه لا مثل له**»[1]، لما يحققه من آثار عظيمة نذكر منها:

أنّه يغرس في الإنسان الإخلاص للهﷻ واستشعار مراقبته له؛ وذلك أنّ الصائم يمسك عن المفطرات طول يومه، من فجره إلى أفول شمسه، فما الذي يحمله على عدم تعاطي ما ينقض صومه؟ إنّه استشعار رقابة اللهﷻ، وهذا ما يغرس فيه الإخلاص، وَأَعْظِم بذلك زكاء؛ إذ به يرتقي إلى مرتبة الإحسان التي إذا انتشرت في المجتمع صار المُوجِّه له هو خوف الله جلّ ثناؤه، والطمع في مرضاته، فتغيب بذلك مظاهر الغش والظلم والأنانية والتعدي على الآخر.

ومن أثار الصوم أنّه يربي النفس على الصبر، هذه العبادة العظيمة التي وعد اللهﷻ أهلها بالأجر العظيم، فقال جلّ شأنه: ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ** ﴾ [الزمر: 10]، كما وعدهم بالرحمة والهداية فقال: ﴿ **وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ** ﴾ [البقرة:155_157]، « والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، وتجتمع الثلاثة في الصوم؛ فإنّ فيه صبرا على طاعة الله، وصبرا عما حرّم الله على الصائم من الشهوات، وصبرا على ما يحصل للصائم فيه من ألم الجوع والعطش وضعف النفس والبدن، وهذا الألم الناشئ من أعمال الطاعات يثاب عليه صاحبه...»[2]؛ لذا جاء في الحديث القدسي: «**كل عمل ابن آدم له إلّا الصوم، فإنّه لي وأنا أجزي به...** »[3].

---

(1) أخرجه ابن خزيمة، (صحيح ابن خزيمة، أبو بكر بن خزيمة، ت: محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي – بيروت، د ت ط)، باب فضل الصيام وأنه لا عدل له من الأعمال، (2/ 913)، وصحّحه الألباني في الصحيحة، رقم: 1937، (4/ 573).

(2) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، ابن رجب الحنبلي، دار ابن حزم، ط: 1، 1424هـ/2004م، (ص: 150).

(3) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب ما يذكر في المسك، رقم: 5927، (164/7).

كما أنّ الصوم يبعد الإنسان عن الشهوات؛ إذ صلاح الصيام مربوط بذلك، فهو وسيلة لضبط النفس وإطفاء نار شهوتها وتضييق مسالك الشيطان، ولهذا قال النبيﷺ: «**الصوم جُنّة**»[1]، وأوصى به الشباب الذي لا يقدر على الزواج فقال: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنّه له وجاء** »[2]، فالحديث يبين أنّ هذه العبادة علاج فعّال للآفات التي تواجه الشباب، وذلك ما يحقّق تزكية هذه الفئة، ولا يخفى ما للشباب من دور في بناء الأمة وتطوّرها، فالصوم يخلّيهم من جملة الصفات التي تقتل فيهم الإباء والعزم والهمّة، وتجعلهم أجسادا بلا أرواح، كالنّظر المحرم الذي يجر إلى الزنا عياذا باللهﷻ، والذي يسبب الأدواء واختلاط الأنساب؛ لذا قال النبيﷺ:«**من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة**»[3].

كما أنّ الصوم يبعد المسلم عن البذاءة والفحش، حيث أوصى النبيﷺ بذلك فقال: «**الصيام جنة فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم مرتين**»[4]، «ففي هذا الحديث وصية جليلة وتربية عظيمة للمسلم، كي يزكي نفسه ويطهرها من أعمال السفهاء والطائشين، ويرتفع بها إلى مصاف الأزكياء والأطهار»[5]، فصلاح صومه منوط بذلك، كما قال النبيﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»[6].

ومن آثاره أنّه يبعث على مكارم الأخلاق، كالحلم والأناة وكظم الغيظ وعدم الانتصار للنفس، وهذه صفات المتقين، كما قال الله جلّ ثناؤه: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[آل عمران: 134].

ومن ثمار الصوم أيضا أنّه يطهر النّفس من الشّح والبخل، ويربيها على الجود والكرم؛ ذلك أنّ الصائم يحسّ بالبطون الخاوية، فتنطلق نفسه للجود عليها، أسوته في ذلك نبيناﷺ، حيث: «**كان أجود النّاس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريلعليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان، حتى ينسلخ، يعرض**

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده، رقم: 8045، (146/8)، وصححه أحمد شاكر.

(2) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم، رقم: 5066، (3/7).

(3) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم: 6474، (100/8).

(4) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب فضل الصوم، رقم: 1894، (24/3).

(5) سهام الإسلام، عبد اللطيف القنطري الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط:1 1400 هـ - 1980 م، (ص:104).

(6) أخرحه البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم، رقم: 1903، (26/3).

عليه النبيﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريلعليه السلام، كان أجود بالخير من الريح المرسلة»[1]، قال ابن القيم: «وأي حسن يزيد على حسن هذه العبادة التي تكسر الشهوة، وتقمع النّفس، وتحي القلب وتفرحه، وتُزهّد في الدنيا وشهواتها، وتُرغّب فيما عند الله، وتذكّر الأغنياء بشأن المساكين وأحوالهم، وأنهم قد أخذوا بنصيب من عيشهم، فتعطف قلوبهم عليهم، ويعلمون ما هم فيه من نعم الله فيزدادوا له شكرا، وبالجملة فعون الصوم على تقوى الله أمر مشهور، فما استعان أحد على تقوى الله وحفظ حدوده واجتناب محارمه بمثل الصوم، فهو شاهد لمن شرعه وأمر به بأنّه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، وأنّه إنّما شرعه إحسانا إلى عباده ورحمة ولطفا بهم، لا بخلا عليهم برزقه، ولا مجرد تكليف وتعذيب خال من الحكمة والمصلحة، بل هو غاية الحكمة والرّحمة والمصلحة، وإنّ شرع هذه العبادات لهو من تمام نعمته عليهم ورحمته بهم»[2].

ومن آثاره أنّه يُعلّم الإنسان أن يتسابق إلى الخيرات، وهذا ما يظهر من خلال مضاعفة الحسنات فيه، وكذا من تصفيد الشياطين وإغلاق أبواب النّار، وفتح أبواب الجنان، مع ما يقوم به منادي الخير من دعوة أهله لذلك كما جاء في الحديث: «**إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفّدت الشياطين ومردة الجن، وغلّقت أبواب النار فلم يفتح منها باب، وفتّحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب، وينادي مناد: يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر، ولله عتقاء من النار، وذلك كل ليلة**»[3]، ويظهر هذا الجانب أيضا في إخفاء ليلة القدر وحثّ النّاس على تحرّيها بالعمل الصالح.

الفرع الثالث: دور الحج في تحقيق التزكية

للحج دور مهم في تزكية النفوس، وتجريدها من عوامل الضعف، وتعليمها معالي الأمور، كما أنّه تزكية للمجتمع، فللحج فوائد أجملها فيما يلي:

أنّه يعلم الإخلاص، فأول ما يبدأ به الحاج بعد النية؛ التلبية، وهي شعار التوحيد وإخلاص العبادة للهﷻ، فقد جاء في حديث جابر بن عبد اللهرضي الله عنه في صفة حج النبيﷺ، أنّه قال: «**فَأَهَلَّ بالتوحيد: لبيك اللّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**»[4]. ويتجلى هذا الإخلاص في كل ما يقوم به العبد من تجرّد من المخيط، وسعي بين الصفا والمروة، وذبح للهﷻ وصرف الدعاء له.

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب أجود ما كان النبيﷺ يكون في رمضان، رقم: 1902، (26/3).

(2) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم، (2/ 3).

(3) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الصوم، باب ما جاء في فضل شهر رمضان، رقم: 682، (57/3). وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، رقم: 1960، (1/ 611).

(4) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبيﷺ، رقم: 1218، (2/ 886).

كما يُعلّم التقوى، وذلك من خلال تعظيم شعائر الله جلّ ثناؤه، فتتولّد في النفس التقوى، كما قال المولى ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج:32]، وقال عن الهدي: ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الحج: 35].

كما يحمل العبد على الإكثار من ذكر الله تعالى، وذلك منذ خروجه من منزله وصولا إلى محلّ حجّه، فلا يكاد يفتر لسانه عن الذكر والدعاء، بل أُمر به حتى بعد قضائه لمناسكه؛ لتكون حالة دائمة له، فالذّكر حياة القلوب، وحال الذي لا يذكر كحال السمك خارج الماء، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة: 200].

كما أنّ الحج يزكي النفس من العصبية ومظاهر الكبر والتفاخر؛ إذ يجتمع فيه المسلمون من أقطار الدنيا، متباينة ألسنتهم، متباعدة أوطانهم، قد نكّسوا وراءهم كل الرّايات القومية، وخلّفوا كل الشعارات العصبية، يقفون في مكان واحد ويلبسون لباسا واحدا، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلاّ بالتقوى.

ومن آثاره أنّه يُعلم الإنسان أن يوازن بين أمور الدنيا وأمور الآخرة؛ إذ إنّ من أهم مقاصده تحقيق سعادة الدنيا بحصول جملة من منافعها، كالتجارة والتعارف وتبادل الخبرات... إضافة إلى تحقيق سعادة الآخرة بمغفرة الذّنب ومرضاة الرّب، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ [الحج:28].

قال ابن كثير: «قال ابن عباس رضي الله عنه: «﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾، منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضوان الله، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والربح والتجارات»، وكذا قال مجاهد، وغير واحد: «إنّها منافع الدنيا والآخرة»[(1)]، وممّا يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾[البقرة: 198]، وهذا هو المنهج الذي يريد القرآن أن يُرسّخه في شخصية المسلم، كما قال تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (5/ 414).

مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[القصص:77].

كما يُذكّر الحجّ بزوال الدنيا، وهذا ما يحمل العبد على عدم الاغترار بها؛ فلباس الإحرام يذكر بالكفن، والوقوف بعرفة، وكشف الرؤوس، واختلاف الأجناس، يذكرنا بالوقوف في أرض المحشر، وممّا يبيّن هذه الصلة الوثيقة أنّ الله جلّ ثناؤه وجّه عباده إلى الرّبط بين رحلة الحج، والرحلة إلى الدار الآخرة بقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: 196] (1).

كما تأمر الآية بترك الآثام من فسوق وعصيان، وقد بين النبي ﷺ أجر من خلّى نفسه من هذه الصفات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حجّ البيت فلم يرفث، ولم يفسق رجع كما ولدته أمه**»(2)، وفي المقابل فإنّ الحج يحلي العبد بصفات حسنة، كالصبر والحلم والأناة، ومحبة الخير للآخرين ونفعهم... وهذه حقيقة التزكية، تخلية وتحلية.

وفي الحج تظهر القدوة الصالحة، ويتبادل الناس الخبرات، حيث يجمع الفاضل المتصف بالأخلاق الحميدة، والغِرَّ الجاهل ذا الطباع الرديئة، فإذا رأى الأول ما هو عليه، تبدو له عيوبه فيبتعد عنها ويقتبس الخصال الحسنة، كما أنّ هذا المشهد الحافل لا يخلو من فضلاء برزوا في كل فنّ، ممّا يجعله فرصة لتلاقح الأفكار والخبرات، ومن قرأ كُتب التاريخ واطلع على ما وقع في هذا المجْمَع من المناظرات العلمية، والمباحثات الفنية التي انكشفت عن فتح باب كثير من المغلقات يدرك هذا، وإذ أَذْكُر القدوة فلا يخفى دوره في صلاح الأمة، وقد جعل النبيﷺ الحج فرصة ليبرز أثر القدوة في حياة الجماعة، فكان يقول: «**لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه**»(3)، وجعل منه ملتقى علميا يتلقى فيه النّاس ما ينفعهم فيبلغونه لغيرهم، حيث قام بالخَيْفِ من

---

(1) ينظر: منهج الإسلام في تزكية النفس وأثره في الدعوة إلى الله، أحمد كارزون، (ص:216) (بتصرف).

(2) أخرجه أحمد في مسنده، رقم: 10274، (192/16)، وصحّحه شعيب الأرنؤوط.

(3) أخرجه مسلم، كتاب الحجّ، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا، وبيان قوله ﷺ: «**لتأخذوا مناسككم**»، رقم: 1297، (943/2).

منى[1]، فقال: «**نَضَّرَ الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، وَرُبَّ حامل فقه ليس بفقيه**»[2].

كما أنّ الحج يعلم النّفس تحمّل المشاق، وذلك من خلال بذل المال، والصبر على مفارقة الأهل والخلاّن، إضافة إلى تحمل أتعاب السفر...كل ذلك في سبيل الله تعالى؛ لذا اعتبره النبيﷺ نوعا من الجهاد في سبيل اللهﷻ، فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: «**قلت** يا رسول الله، ألا نغزو ونجاهد معكم؟ فقال: «**لكن أحسن الجهاد وأجمله الحج، حج مبرور**»، فقالت عائشة «فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول اللهﷺ»[3].

يتضح مما سبق أن اللهﷻ جعل الصلاة والزكاة والصيام والحجّ شعائر كبرى للإسلام لما لها من دور عظيم في تحقيق تزكية الفرد والجماعة، بتخليتهم من الصفات الدنيئة، وتحليتهم بالصفات الحميدة.

المطلب الثاني: دور العبادات القولية في تحقيق التزكية

من خصائص العبادات في الإسلام أنّها متنوعة، فأساسها جميعا مرتبط بالقلب، إلا أنّها تشغل الجوارح، فتظهر في أفعال الإنسان وأقواله، وقد سبق بيان أثر العبادات الفعلية في تحقيق التزكية، وفيما يلي بيان لأثر العبادات القولية، ومنها:

الفرع الأول: دور الدعاء في تحقيق التزكية

للدعاء منزلة عظيمة ومكانة عالية، وقد أوردته في مقدمة العبادات القولية؛ لأنّه أصل العبادة كما جاء في الحديث الصحيح: «**الدعاء هو العبادة**»[4]؛ لذا فإنّ العبد ينبغي أن يلجأ إلى اللهﷻ بدعائه أن يزكي نفسه.

---

(1) الْخَيْفُ ما ارتفع عن مجرى السيل، ومسجد منى يسمى بالخيف؛ لأنّه في سفح جبل. ينظر: غريب الحديث، إبراهيم بن إسحاق الحربي، ت: سليمان إبراهيم العايد، جامعة أم القرى – مكة المكرمة، ط:1، 1405هـ، (2/ 831).

(2) أخرجه ابن ماجه، باب من بلغ علما، رقم: 3660، (1/ 84)، وأخرجه أبو داود في السنن، باب فضل نشر العلم، رقم: 3660، (3/ 322)، وأخرجه الترمذي، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، رقم: 2656، (5/ 33)، وقال: «حديث زيد بن ثابت حديث حسن».

(3) أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب حج النساء، رقم: 1861، (3/ 19).

(4) أخرجه ابن ماجه، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، رقم: 3828، (2/ 1258)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم: 1479، (2/ 76)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة، رقم: 2969، (5/ 211)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

والمتأمل في كتاب الله تعالى يقف على هذا الجانب، فإنّ أول دعاء في القرآن الكريم: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: 5]، والمسلم يكرّره على الأقل سبعة عشر مرة في اليوم حسب عدد الركعات المفروضة، وهذا الدعاء يتضمن معنى التزكية؛ إذ الهداية لا تتحقق إلاّ بالتخلية والتحلية، والمؤمن مطالب أن يسأل ربه الهداية، فعن أبي هريرةﷺ فيما يرويه الرسولﷺ عن ربه عز وجل أنّه قال: «**يا عبادي كلكم ضال إلاّ من هديته فاستهدوني أهدكم**»(1)، ومما يدل على أهمية الدعاء في التزكية ما يلي:

الدعاء يخلص النفس من جملة الأمراض التي تحول دون تزكيتها، ومن ذلك مرض الكبْر الذي يعتبر من أفسد الأمراض للقلوب، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر: 60]، قال الشوكاني: « والآية الكريمة دلّت على أنّ الدعاء من العبادة؛ فإنه سبحانه وتعالى أمر عباده أن يدعوه، ثم قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾، فأفاد ذلك أنّ الدعاء عبادة، وأن ترك دعاء الرّب سبحانه استكبار، ولا أقبح من هذا الاستكبار، وكيف يستكبر العبد عن دعاء من هو خالق له ورازقه، وموجده من العدم، وخالق العالم أجمع، ورازقه، ومحييه، ومميته، ومثيبه، ومعاقبه؟! فلا شك أنّ هذا الاستكبار طرف من الجنون، وشعبة من كفران النّعم»(2).

كما أنّ الدعاء يحلي النّفس بالتوكل على اللهﷻ؛ ذلك أنّ الداعي حال دعائه مستعين بالله تعالى، مُفَوّض أمره إليه وحده دون سواه. ثم إنّ التوكل لا يتحقق إلاّ بالقيام بالأسباب المأمور بها، فمن عطّلها لم يصح توكله، والدعاء من أعظم هذه الأسباب إن لم يكن أعظمها، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (84) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [يونس: 84_86]، قال أبو السعود: «في ترتيب الدعاء على التوكل تلويح بأنّ حق الداعي أن يبني دعاءه على التوكل على الله، فإنّه أرجى للإجابة»(3).

(**1**) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم: 2577، (1994/4).

(2) تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين، محمد بن علي الشوكاني، دار القلم - بيروت – لبنان، ط:1، (ص: 33).

(3) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د ت ط، (4/ 670).

ومن شروط قبول الدعاء؛ المأكل والمشرب والملبس الحلال، كما ورد في الحديث عن أبي هريرةﷺ، قال: قال رسول اللهﷺ: «**إنّ الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ [المؤمنون:51]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [البقرة:172]، قال: وذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمدّ يده إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام، وملبسه حرام، فأنى يستجاب لذلك؟**»(1).

في الحديث لفتة بديعة، حيث إنّ ظاهر الرّجل الداعي يُحلّيه بجملة من أنواع العبودية؛ فالدعاء عبادة، والسّفر والتضرع والجزع إلى الله جلّ ثناؤه، وإظهار الحاجة ومدّ اليد إليه كلها من آداب الدعاء وأسباب قبوله، إلاّ أنّ دعاءه لم يُقبل! والسبب المانع هو انغماسه في الحرام، وبهذا يتضح أنّ الدعاء يستوجب التحلي بالفضائل، والتخلي أيضا عن الرذائل، وهذه حقيقة التزكية.

كما أنّ الدعاء يبعث في النفس علو الهمّة؛ فالداعي يأوي إلى ركن شديد يُنزل به حاجاته، ويستعين به في كافة أموره، وبهذا يقطع الطمع ممّا في أيدي الخلق، فيتخلص من أسرهم، ويتحرر من رقِّهم، فيظل مهيب الجناب موفور الكرامة، وهذا رأس الفلاح وأسّ النجاح، قال ابن تيمية: «وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته لقضاء حاجته ودفع ضرورته، قويت عبوديته له، وحرّيته ممّا سواه؛ فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له، فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه»(2).

وممّا يُظهر علو الهمة في دعاء الأزكياء، ما ذكره اللهﷻ عن عباد الرحمان، حيث قال تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾ [الفرقان:74]، فلو سألوا اللهﷻ أن يجعلهم من المتقين لكان دعاء حسنا، إلاّ أنّ علو همتهم حملهم على سؤال الأحسن، فقالوا: ﴿ **وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾.

وقد علّمنا النبيﷺ الاتصاف بعلو الهمة في دعائنا، فقال: «**إنّ في الجنة مائة درجة، أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فإنّه أوسط الجنة**

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، 1015، (702/2).

(2) رسالة العبودية، ابن تيمية، (ص: 86).

وأعلى الجنة» [1]، ويظهر ذلك من خلال حثّه على طلب أعلى الجنان، ولن يتحقق ذلك إلاّ بالتزكية على أكمل وجه، فَتَبَايُن النّاس في مراتبهم على حسب تباينهم في درجة تحقيقهم للتزكية.

وممّا يبين أثر الدعاء في تحقيق التزكية؛ أنّه سلامة من العجز، ودليل على الكياسة، فعن أبي هريرةﷺ أنّ النبيﷺ قال: «**أعجز النّاس من عجز عن الدعاء، وأبخل النّاس من بخل بالسلام**»[2].

ولأهمية الدعاء في تحقيق التزكية لجأ إبراهيمﷺ إلى اللهﷻ سائلا أن يبعث للناس رسولا يعلمهم ويزكيهم، وقد كان النبيﷺ يكثر من الدعاء بزكاة النفس قائلا: «**اللّهم آت نفسي تقواها وزكّها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها**»[3]، وكان من دعائه أيضا: «**اللّهم اهدني لأحسن الأعمال والأخلاق لا يهدي لأحسنها إلاّ أنت، وقني سيئ الأعمال وسيئ الأخلاق لا يقي سيئها إلاّ أنت**»[4]، وعن عبد الله بن عمروﷺ أن رسول اللهﷺ كان يدعو فيقول: «**اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى**»[5]، وعند أبي داوود من حديث الحسن بن علي قال: « **علمني جدي أن أقول في دعاء الوتر: اللّهم اهدني فيمن هديت**»[6].

وعندما تختلط الأمور فلا يميز الإنسان بين معالم التزكية وطرق الغواية لتشابهها بسبب الفتن، علّمنا النبيﷺ أن نكثر من هذا الدعاء: «**اللّهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، هدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنّك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»[7].

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، يقال: هذه سبيلي وهذا سبيلي، رقم: 2790، (4/ 16).

(2) أخرجه الطبراني في الأوسط، رقم: 5591، (5/ 371)، وصحّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (مكتبة الدليل_ السعودية، ط:4، 1418 هـ - 1997 م)، رقم: 799، (ص: 397).

(3) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، رقم: 2722، (2085/4).

(4) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الافتتاح، باب الدعاء بين التكبيرة والقراءة، رقم: 896، (2/ 129)، وأحمد في المسند، رقم:803، (1/ 516)، وصحّحه أحمد شاكر.

(5) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، رقم: 2721، (2087/4).

(6) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب قنوت الوتر، رقم: 1425، (2/ 563)، وصححه شعيب الأرنؤوط.

(7) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل، رقم: 770، (534/1).

ومن أهم معالم التزكية سلامة القلوب تجاه عباد الله؛ لذا نجد أهل الإيمان يحرصون على اللّجوء إلى الله ﷻ بالدعاء أن يطهّر الله جلّ ثناؤه قلوبهم، كما قال تعالى مبينا وصفهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

وقد علّمنا الله عز وجلّ أن نسأله أسباب الثبات على التزكية، فذكر دعاء عباده الأتقياء: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:8]، وكان الرسول ﷺ كما ورد من حديث أنس رضي الله عنه، يكثر أن يقول «**يا مُقَلِبَ القلوب ثبّت قلبي على دينك**»، فقلت: يا نبي الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم إنّ القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء**»[1]، وعند ابن ماجه من حديث عبد الله بن سرجس: «**أنّ النبي كان يتعوذ إذا سافر من الحُورِ بعد الكُور**»[2]، «والحور أي؛ النقصان، والكور الزيادة، وتروى الْكَوْن، يريد الرجوع عن الاستقامة بعد أن كان عليها»[3].

وكان ﷺ يدعو لصحابته رضوان الله عليهم، ومن ذلك دعاؤه لأنس رضي الله عنه وكان خادمه، فدعا له النبي ﷺ: «**اللّهم أطل عمره وأكثر ماله وولده، واغفر له**»[4]، ولا شك أنّ دعاء النبي ﷺ لأنس رضي الله عنه أن يطيل عمره مربوط بالصلاح، فقد سُئل عليه الصلاة والسلام: من خير الناس؟ قال: «**من طال عمره، وحَسُنَ عمله**»[5]، كما أنّ دعاءه له بالمال والولد مربوط بذلك أيضا، فقد ثبت في الحديث: «**نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح**»[6]، حتى ينفقه ويزكّيه، فتزكو نفسه.

---

(1) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله ﷺ، رقم: 3834، (2/ 1260)، والترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، رقم: 2140، (4/ 449)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، رقم: 528، (ص: 253).

(2) أخرجه ابن ماجه، كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا سافر، رقم: 3888، (2/ 1279)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا خرج مسافرا، رقم: 3439، (5/ 498)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(3) غريب الحديث، عبد الرحمن ابن الجوزي، ت: عبد المعطي أمين القلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان، ط:1، 1405 – 1985، (2/ 303).

(4) أخرجه الطبراني في الأوسط، رقم 507، (1/ 162).

(5) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في طول العمر للمؤمن، رقم: 2330، (4/ 566)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(6) أخرجه أحمد في المسند رقم: 17763، (29/ 299)، وصحّحه شعيب الأنؤوط.

وللدعاء أهمية عظيمة في تزكية البيوت وتربية الأبناء؛ ليعود ذلك بالنّفع على صلاح المجتمع، قال الله تعالى عن عباد الرحمان: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[الفرقان: 74]، وفي هذا الدعاء تتحقق التزكية بأعلى مراتبها؛ إذ فيه الحرص على تزكية النّفس والبيت، ثم الحرص على تزكية المجتمع، وتأمل حال الخليل إبراهيم عليه السلام كيف يسأل ربه أن يقيه وذريته من الشرك، ويطهّرهم منه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾[إبراهيم: 35]، وقد فرّ عليه السلام بدينه طالبا مواطن الهداية والتزكية، ثم سأل ربه أيضا أن يزكي ذريته: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات: 99_100] وسأل ربه أن يُوفِّقه للصلاة لما لها من دور في تزكية النفوس، وأن يُصلح له ذريته، فقال: ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ [إبراهيم: 40]، وكذلك زكريا عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران: 38].

الفرع الثاني: دور قراءة القرآن الكريم في تحقيق التزكية

القرآن الكريم كتاب هداية أنزله الله تعالى لتزكية النّاس، فوصفه بالنور والهدى والروح؛ إذ إنّه ينوّر القلب ويبعث فيه الحياة، ويُحلِّيه بالفضائل، ويُطهره من الرذائل، وبذلك يكون العبد صالحا مُصلحا، والقرآن له أثر في التزكية من حيث تلاوته، وتدبره، والعمل به.

فأما من حيث التلاوة، فإنّ لها أثرا بليغا في المستمع؛ لذلك كان النبي ﷺ يكثر من تلاوة القرآن، فعن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه، قال: «**رأيت النبي ﷺ يقرأ وهو على ناقته أو جمله، وهي تسير به، وهو يقرأ سورة الفتح _ أو من سورة الفتح _ قراءة لينة يقرأ وهو يرجع**»(1)، وكان يحثّ على أن يتلى عليه، فعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «قال لي رسول الله ﷺ: «**اقرأ علي**»، قلت: أقرأ وعليك أنزل؟ قال: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**»، قال: فافتتحت سورة النساء، فلما بلغت: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ

(1) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح؟، رقم: 4281، (5/ 147)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ذكر قراءة النبي ﷺ سورة الفتح يوم فتح مكة، رقم: 794، (1/ 547).

شَهِيدًا ﴾**[النساء:41]** فرأيت عينيه تذرفان، فقال لي: «**حسبك**»[1]، وقال لأبي موسىﷺ: « **لو رأيتني وأنا أسمع لقراءتك البارحة لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود**»[2].

ونظرا لتأثير القرآن الكريم في النّفوس، فقد أمر اللهﷻ نبيهﷺ أن يُبلّغه لأهل الشرك، فقال: ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ** ﴾[التوبة:6]، وفعلا فقد كان للقرآن الكريم أثر عظيم في نفوس المشركين، ومن ذلك أنهم كانوا يجتمعون أمام بيت أبي بكرﷺ يسمعون لقراءته، بل إنهم لم يتمالكوا أنفسهم حين سمعوا النبيﷺ يقرأ سورة النجم، فما كان منهم إلاّ أن سجدوا[3]؛ لذلك كان كبراؤهم يتواصون بعدم سماع القرآن خوفا أن يؤثر فيهم، فيُطهّر قلوبهم من أدرانها، قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾[فصلت: 26]، وقال أيضا: ﴿ **وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [الأنعام: 26].

وممّا يدل على أثر تلاوة القرآن الكريم أو سماعه على تزكية النفوس، ما حدث للنجاشي وبطارقته حين سمعوا القرآن، فقد جاء في حديث جعفر بن عبد المطلب الطويل: «أنّ النجاشي قال له: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدرا من (كهيعص)، فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة»[4]. وقد أنزل الله فيهم: ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾[المائدة: 83][5].

ومثل ذلك حَدَث لجبير بن مطعمﷺ، حيث قال: «**سمعت النبيﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما سمعته يقرأ:** ﴿ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿35﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿36﴾ أَمْ**

(1) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب البكاء عند قراءة القرآن، رقم: 5056، (197/6).

(2) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، رقم: 793، (1/ 546).

(3) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب: فاسجدوا لله واعبدوا، رقم: (4863)، (8/ 480).

(4) أخرجه أحمد في المسند، رقم: 1740، (2/ 358)، قال أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(5) ينظر: أسباب نزول القرآن، علي بن أحمد الواحدي، ت: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام، ط:2، 1412 هـ - 1992 م، (ص: 203).

﴿عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ٣٧ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[الطور: 38] كاد قلبي يطير»[1]. فتأمل كيف تؤثر تلاوة القرآن الكريم على النفوس، فتكون سببا في صلاحها.

ومن آثار تلاوة القرآن الكريم أنها تبعد الشيطان وحزبه، وقد جاءت أدلة كثيرة تدل على ذلك منها: ما روي في فضل تلاوة بعض الآيات والسور التي تقي من الشياطين، كآية الكرسي، فعن أبي هريرةﷺ، قال: «وكلني رسول الله ﷺبحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته، فقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ– فذكر الحديث –، فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبيﷺ: «**صدقك وهو كذوب ذاك شيطان**»[2].

وقد جاء أيضا في السنة النبوية أن قراءة سورة البقرة تبعد كيد الشيطان، فعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول اللهﷺ قال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إنّ الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**»[3].

وكذلك الشأن بالنسبة لقراءة المعوذتين، فعن أبي سعيد الخدريﷺ قال: «**كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فلما نزلتا أخذ بهما وترك ما سواهما**»[4].

وتلاوة القرآن الكريم تبعد القارئ عن أهل الشرِّ، فإنّهم لا يقوون على سماعه، كما قال تعالى:﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: 46]؛ لذلك أمر اللهﷻ نبيهﷺ أن يجاهد به هؤلاء فقال:﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: 52].

ولاشك أنّ القراءة المطلوبة هي القراءة التي يصحبها التدبر، ولا يخفى أثره في تحقيق التزكية؛ لذا أمر الله جلّ ثناؤه به فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: 40]، ومعنى تدبر

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾، [ق/ 39]، رقم: 4854، (6/ 140).

(2) أخرجه البخاري، باب إذا وكل رجلا، فترك الوكيل شيئا فأجازه الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز، كتاب الوكالة، رقم: 2311، (101/3).

(3) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، وجوازها في المسجد، رقم: 780، (539/1).

(4) أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين، رقم: 2058، (4/ 395)، وقال: «وهذا حديث حسن غريب».

القرآن: تأمل معانيه والتفكر في حكمه، وتبصر ما فيه من الآيات، وهو من أعظم العبادات وأنفعها للعبد، قال ابن القيم: « فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر في معاني آياته »[1]؛ لأن ذلك موصل إلى زكاء القلب، وذكاء العقل، فمن خلال التدبر تتجلى المعاني العظيمة في كتاب الله تعالى، فتتحقق الهداية، والمعرفة بالسنن الإلهية، مما يوصل العبد إلى التحلي بمكارم الأخلاق، والتخلي عن رذيلها، فيستحضر حال قراءته استقامة نوح ومصابرته، وتوكّل إبراهيم ومراقبته، وصبر أيوب ومناجاته، ودعاء يونس وافتقاره، وملك سليمان وعلمه، وأمانة يوسف وتمكينه، ورعاية موسى وتأييده، وزهد عيسى وتجرّده، ودعوة محمدﷺ ورحمته وجميل أخلاقه؛ لذلك كان النبيﷺ ينهى عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث، قال الثعالبي: «اعلم رحمك الله تعالى أن تدبر القرآن كفيل لصاحبه بكل خير، وأما الهذرمة[2] والعجلة، فتأثيرها في القلب ضعيف، قال النووي رحمه الله: وقد كره جماعة من المتقدمين الختم في يوم وليلة، ويدل عليه ما رويناه بالأسانيد الصحيحة في سنن أبي داود، والترمذي، والنسائي وغيرها، عن عبد الله بن عمرو بن العاصي، قال: قال رسول اللهﷺ: «**لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث**»[3]-[4]؛ لأن القصد هو التدبر، قال الحافظ ابن حجر: «من أمعن في البحث عن معاني كتاب الله، محافظا على ما جاء في تفسيره عن رسول اللهﷺ وعن أصحابه الذين شاهدوا التنزيل، وحصل من الأحكام ما يستفاد من منطوقه ومفهومه، وعن معاني السنة وما دلّت عليه كذلك، مقتصرا على ما يصلح للحجة منها، فإنه الذي يُحمد وينتفع به، وعلى ذلك يحمل عمل فقهاء الأمصار من التابعين فمن بعدهم»[5].

ومن آثار التدبر؛ أنّه يوصل العبد إلى معالم الخير وأسبابه فيعمل بها، كما يُبَصّره بمعالم الشر وأسبابه فيبتعد عنها، قال القاسمي في معرض حديثه عن أسباب السعادة: «ومنها أن يعرف تفاصيل أسباب الشرّ والخير، ويكون له بصيرة في ذلك بما شهده في العالم، وما جرّبه في نفسه وغيره، وما سمعه من أخبار الأمم قديما وحديثا، ومن أنفع ما في ذلك: تدبّر القرآن، فإنّه كفيل بذلك على أكمل الوجوه، وفيه أسباب الخير والشر جميعا مفصّلة مبينة، ثم

---

(1) مدارج السالكين، ابن القيم، (450/1).

(2) الهذرمة: كثرة الكلام، وهذرم الرجل في كلامه هذرمة إذا خلط فيه، ويقال للتخليط: الهذرمة، ويقال: هو السرعة في القراءة والكلام والمشي. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، (12/ 606).

(3) أخرجه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في كم يستحب يختم القرآن، رقم: 1347، (1/ 428)، وأبو داود، باب في كم يقرأ القرآن، رقم: 1390، (2/ 54)، والترمذي، كتاب القراءات، رقم: 2949، (5/ 198)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(4) الجواهر الحسان، الثعالبي، (268/2).

(5) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، (13/ 267).

السنة فإنها شقيقة القرآن وهي الوحي الثاني، ومن صرف إليهما عنايته، اكتفى بهما من غيرهما، وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما، حتى كأنك تعاين ذلك عيانا»[1].

ومن آثاره أنّه يحقق الإيمان ويقوّيه في نفس الإنسان، وذلك من خلال إعمال فكره في آيات الله تعالى، كما يوقفه على فهم أمثال القرآن، فيحصل له العلم النافع، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: 43].

كما يوقفه ذلك على وجوه الإعجاز، مما يورثه خشية الله جل وعلا، قال ابن كثير: « ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونا ظاهرة وخفية؛ من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[هود: 1]»[2]، وهذا ما يوصله إلى العلم والعمل واليقين، قال ابن القيم: «فإنّ كل من تدبره أوجب له تدبّره علما ضروريا، ويقينا جازما أنه حق وصدق، بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق، وأن الذي جاء به أصدق خلق الله وأبرهم وأكملهم علما وعملا ومعرفة، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء:82]، وقال أيضا: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[محمد: 25]، فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان، وعلمت علما ضروريا يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية؛ من الفرح والألم، والحب والخوف، أنه من عند الله تكلم به حقا، وبلّغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد، فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد، وبه احتجّ هرقل على أبي سفيان حيث قال له: «فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا، فقال له: وكذلك الإيمان، إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد»[3].

وقد أشار الله تعالى إلى المعنى السابق في قوله ﷻ: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: 49]، وفي قوله جلّ ثناؤه: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[سبأ: 6].

---

(1) محاسن التأويل، القاسمي، (39/2).

(2) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (199/1).

(3) مدارج السالكين، ابن القيم، (437/3).

الفرع الثالث: دور ذكر الله ﷻ في تحقيق التزكية

للذكر منزلة عظيمة في تحقيق التزكية، فهو سبب للنصرة على أهل التدسية، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال: 46]، وقد ربط الفلاح به كما ربطه بالتزكية، وهذا ما يبيّن أنّه من أهم وسائلها، ويظهر ذلك من خلال ما يلي:

الذكر يبعد عن الإنسان كيد الشيطان، والذي يعد أهم مانع لحصول التزكية؛ لذا أمر الله ﷻ بذكره والاستعاذة به، ليقي العبد شر عدوه، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [فصلت: 36]، وعن أبي هريرة ﷺأن النبي ﷺ قال: «**من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به، إلا أحد عمل عملا أكثر من ذلك**»[1].

وقد جاء في حديث طويل، في وصايا يحي عليه السلام لبني إسرائيل: «**وآمركم بذكر الله كثيرا، ومثل ذكر الله كمثل رجل طلبه العدو سراعا في أثره حتى أتى حصنا حصينا فأحرز نفسه فيه، وكذلك العبد لا ينجو من الشيطان إلا بذكر الله**»[2]، قال ابن القيم: « فلو لم يكن في الذكر إلاّ هذه الخصلة الواحدة، لكان حقيقا بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى؛ فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلاّ بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده فإذا غفل وثب عليه وافترسه، وإذا ذكر الله تعالى انخنس عدو الله وتصاغر وانقمع حتى يكون كالذباب؛ ولهذا سُمي الوسواس الخناس؛ أي يوسوس في الصدور، فإذا ذكر الله تعالى خنس أي كف وانقبض، وقال ابن عباس رضي الله عنه: «الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس»[3]–[4]،

(1) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التهليل رقم: 6403، (85/8)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم: 2691، (4/ 2071).

(2) أخرجه أحمد في مسنده، رقم: 17800، (29/ 336)، وابن خزيمة في صحيحه، باب ذكر تمثيل الصائم في طيب ريحه بطيب ريح المسك، إذ هو أطيب الطيب، رقم: 1895، (914/2)، والحاكم في المستدرك، كتاب الصوم، رقم: 1534، (1/ 582)، وقال: «صحيح على شرط البخاري ومسلم».

(3) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، رقم: 34774، (7/ 135)، وأبو داود في الزهد، رقم: 337، (ص: 295).

(4) الوابل الصيب، ابن القيم، (ص:37).

ومن آثار ذكر الله عز وجل أنّه يوصل العبد للانتفاع بآيات الله ﷻ، ويفتح قلبه لفهمها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: 191_190].

كما أنّ ذكر الله جلّ ثناؤه يغرس شجرة الإيمان في القلب، ويغذيها وينميها، وكلما ازداد العبد ذكراً لله ﷻ قوي إيمانه، قال تعالى مبيّنا حال المؤمنين: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: 2]، قال الثعالبي في تفسيره لهذه الآية: «واعلم أن الإنسان مطلوب بطهارة نفسه، وتزكيتها، وطرق التزكية وإن كثرت، فطريق الذكر أسرع نفعا، وأقرب مراما، وعليه درج أكثر مشائخ التربية... والذكر ضد النسيان، والمطلوب منه عمارة الباطن بالله تعالى في كل زمان، ومع كل حال؛ لأن الذكر يدل على المذكور لا محالة، فذكره ديدنا يوجب المحبة له، والمعرفة به، والذكر وإن اختلف ألفاظه ومعانيه، فلكل معنى من معانيه اختصاص بنوع من التحلية والتخلية، والتزكية...»[1].

وممّا يؤكد علاقة الذكر بالإيمان؛ أنّ المنافقين أبعد الناس عنه، قال ﷻ في وصفهم: ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: 142]؛ «لامتلاء قلوبهم بالرياء، فإن ذكر الله تعالى وملازمته لا يكون إلاّ من مؤمن ممتلئ قلبه بمحبة الله وعظمته»[2].

و في ذكر الله جلّ ثناؤه تقوية لقلب المؤمن في المواطن العصيبة، ومعونة له في جميع الأمور؛ لذلك حين بعث الله عز وجلّ موسى وأخاه هارون عليهما السلام إلى فرعون أوصاهما بالإكثار من ذكره، فقال: ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾[طه: 41]، قال السعدي: ﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ «أي: لا تفترا، ولا تكسلا عن مداومة ذكري بل استمرًّا عليه، والزماه كما وعدتما بذلك: ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ [طه: 33]، فإن ذكر الله فيه معونة على جميع الأمور، يسهلها، ويخفف حملها»[3].

---

(1) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي، (3/ 113).

(2) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 211).

(3) المصدر نفسه، (ص: 506).

ومن المواقف العصيبة التي تستدعي ذكر الله ﷻ؛ مجابهة العدو، فالذكر يعين على الثبات ورباطة الجأش، لذا أوصى الله جلّ ثناؤه المؤمنين بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال: 45]، وفي توجيه معنى الذكر في الآية قال بعض المفسرين: أي «اذكروا الله عند جزع قلوبكم، فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائد»[1].

وقد أمر الله جلّ ثناؤه في الآية السابقة بالإكثار من ذكره تعالى، وهذا ما يبيّن أهمية هذه العبادة في جميع الأحوال، فهي سبيل الفلاح، فعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾، يقول: «لا يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حدًّا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال عذرٍ، غيرَ الذكر، فإن الله لم يجعل له حدًّا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على عقله، فقال: ﴿ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ ﴾ [النساء: 103]، بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسرِّ والعلانية، وعلى كل حالٍ»[2].

ومن ثماره أنّه يعين النفس على الصبر؛ لذا قرنه الله ﷻ به، قال جلّ ثناؤه: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾[طه: 130]؛ «أي: فاصبر على ما يقولون من الذم لك والتكذيب بما جئت به، واشتغل عنهم واله بطاعة ربك وتسبيحه، أول النهار وآخره وفي أوقات الليل وأدبار الصلوات، فإنّ ذكر الله تعالى مسلّ للنفس، مؤنس لها، مهون للصبر»[3].

كما أنّ ذكر الله تعالى يبعد الإنسان عمّا يَنْجرُّ عن اللسان من مفاسد تحول دون تزكية الإنسان، فإن لم يشغل لسانه بذكر الله عز وجل، اشتغل لسانه بغير ذلك من اللغو والخوض الباطل، والغيبة والفحش؛ لأن العبد لابدّ له أن يتكلم، فإن لم يتكلم بذكر الله تعالى وذكر أوامره، تكلم بهذه الأمور، قال ابن القيم: «إن في الاشتغال بالذكر اشتغالاً عن الكلام الباطل من الغيبة واللغو ومدح الناس وذمهم وغير ذلك، فإن الإنسان لا يسكت البتة: فإما لسان ذاكر، وإما لسان لاغ، ولا بدّ من أحدهما، فهي النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وهو

(1) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (8/ 23).
(2) أخرجه الطبري في تفسيره، (9/ 164).
(3) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 807).

القلب إن لم تسكنه محبة الله عز وجل سكنه محبة المخلوقين ولا بدّ، وهو اللسان إن لم تشغله بالذكر شغلك باللغو، وما هو عليك ولا بدّ»(1).

وصفوة القول أنّ العبادة تشمل كل ما يحبه الله ويرضاه، وتعتبر العبادات الفعلية من وسائل تحقيق التزكية، وعلى رأسها؛ شعائر الإسلام الظاهرة، فالصلاة مفتاح الفلاح؛ حيث تطبع في المسلم صفات الخير كالانضباط، وتغرس فيه مبدأ الجماعة، وتعلّمه الصبر وتحمل المشاق، وتبعث في نفسه الراحة والاطمئنان. وأما الزكاة فاسمها يدل على مضمونها، إذ القصد منها تزكية النفس من الشح، وتقوية رابطة التعاون، والشعور بروح الانتماء للجماعة، وتطهير نفس الفقير من الحسد والحقد، وهكذا تُحقّق الزكاة أهدافها في تقوية الإيمان وتعميق عقيدة التوحيد في النفس التي هي الأساس الأول للتزكية.

ويعتبر الصوم من أعظم أركان الإسلام التي تغرس في المسلم الفضائل، وتبعده عن الرذائل، فالصوم يثمر الإخلاص لله ﷻ واستشعار مراقبته، كما يربي النفس على الصبر، ويبعد المسلم عن البذاءة والفحش، ويبعث على مكارم الأخلاق، كالحلم والأناة، وكظم الغيظ، وعدم الانتصار للنفس، ويطهر النّفس من الشّح والبخل، ويربيها على الجود والكرم، كما يعلم الإنسان التسابق إلى الخيرات.

وأما الحج فيطبع في النفس الصفات الحميدة، ومنها الإخلاص، والتقوى، ويحمل العبد على الإكثار من ذكر الله المولى جلّ وعلا، ويزكي النفس من العصبية ومظاهر الكبْر والتفاخر، كما يذكّر بزوال الدنيا، وفيه تظهر القدوة الصالحة، كما يعلم النّفس تحمّل المشاق.

وللعبادات القولية دور مهم في تحقيق التزكية، وأعظمها الدعاء، حيث يخلص النفس من الكِبر، ويحلي النّفس بالتوكل على الله ﷻ، ويحمل صاحبه على أكل الحلال، ويبعث في النفس علو الهمّة، وهو سلامة من العجز، ودليل على الكياسة، ولأهميته في تحقيق التزكية لجأ إبراهيم عليه السلام إلى الله سائلا أن يبعث للناس رسولا يعلمهم ويزكيهم، وقد كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء بزكاة النفس وطهارتها.

وأما قراءة القرآن الكريم، فلها أثر بليغ في القارئ والمستمع؛ لذلك كان النبي ﷺ يكثر من تلاوة القرآن، ويحبّ أن يتلى عليه، وممّا يدل على أثر تلاوة القرآن أو سماعه على تزكية النفوس؛ ما حدث للنجاشي وبطارقته من التأثر حين سماعهم لكلام الله ﷻ، فكان ذلك سببا في زكاء نفوسهم.

ويعتبر الذكر من أنفع الأدوية للقلب، وقد ربط الفلاح به كما ربطه بالتزكية، وهذا ما يبين أنّه من أهم وسائلها، حيث يبعد كيد الشيطان، فينتفع العبد بآيات الرحمان، وهو المعين على أصعب الأمور، يسهلّها ويخفف

---

(1) الوابل الصيب، ابن القيم، (ص: 82).

حملها، ومن ثماره أنّه يحلي النفس بالصبر؛ لذلك قرنه الله تعالى به في القرآن، كما أنّ ذكر الله ﷻ يبعد الإنسان عما ينجر عن اللسان من مفاسد تحول دون تزكية الإنسان.

هذه بعض آثار العبادات في تحقيق التزكية، فما دور الأخلاق، وما أهميته في ترسيخ هذا المقصد في النفوس؟ هذا ما سيأتي بيانه في المبحث الموالي.

المبحث الثالث: دور الأخلاق في تحقيق التزكية

الأخلاق **لغة:** جمع خلق؛ ويعني السجيّة والطبع والمروءة والدين(1). وأمّا **اصطلاحا** فقد عرّفها الغزالي بقوله: «عبارة عن هيئة في النّفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية»(2).

وقال عنها عبد الكريم زيدان: «بأنّها مجموعة من المعاني والصفات المستقرة في النّفس، وفي ضوئها وميزانها يحسن الفعل في نظر الإنسان أو يقبح، ومن ثمّ يقدم عليه أو يحجم عنه»(3).

والأخلاق الحسنة من أهم ما تتحقق به التزكية؛ لأجل هذا كان من أهم مقاصد مبعث النبيﷺ تحسين الأخلاق والحثّ عليها؛ لتتحقق وظيفته القائمة على التزكية والتعليم.

والأخلاق الحسنة كثيرة يصعب استيعابها، وكل خلق حسن له أثر في تزكية الفرد والجماعة، غير أني سأقتصر على ما ورد فيه النّص الشرعي ببيان أثره في تحقيق التزكية، وقد وقفت في ذلك على آيات بيّنت أن التحلي بالآداب الفاضلة، **كالعفة، وإحسان الظن والالتزام بآداب الاستئذان،** أخلاق تبعث النقاء في القلوب، وتزكي الفرد والجماعة، وسأجعل لكل أدب ممّا سبق مطلبا أجلي فيه دوره في تحقيق التزكية من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة، وفيما يلي بيان ذلك:

المطلب الأول: دور العفة في تحقيق التزكية

من الآداب العظيمة والأخلاق الجليلة التي تحقق التزكية؛ العفة، ومعناها في **اللغة:** «الكفّ عمّا لا يحلّ ولا يجمل. وعَفَّ عن المحارم والأَطْماع الدَّنية يَعِفُّ عِفَّةً... وعَفٌّ، أَي كَفَّ وتَعَفَّفَ، واسْتَعْفَفَ وأَعَفَّه اللَّهُ... والاسْتِعْفاف: طلب العَفَافِ وهو الكَفُّ عن الحرام...»(4).

وأمّا في **الاصطلاح** فعرّفها الراغب بقوله: «العِفَّةُ: حصول حالة للنّفس تمتنع بها عن غلبة الشّهوة، والمتَعَفِّفُ: المتعاطي لذلك بضرب من الممارسة والقهر...»(5).

---

(1) ينظر: القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز أبادي، ت: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط: 8، 1426هـ - 2005 م، (ص: 1137).

(2) إحياء علوم الدين، الغزالي، (3/ 53).

(3) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط: 9، 1423 هـ 2002، (ص: 79).

(4) لسان العرب، ابن منظور، (9/ 253).

(5)المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، (ص: 573).

وقال الجرجاني: «العفة هيئة للقوة الشهوية متوسطة بين الفجور، الذي هو إفراط هذه القوة، والخمود الذي هو تفريطها، فالعفيف من يباشر الأمور على وفق الشرع والمروءة»(1).

فالتعاريف الاصطلاحية تبين العلاقة الوطيدة بينها وبين المعنى اللغوي؛ إذ إنّ ضابط العفة يرتبط بالكفّ عما **حرّم الله**ﷻ، والابتعاد عما **لا يجمل**، وهو ما عُبّر عنه بمباشرة الأمور وفق **الشرع والمروءة**.

فما حرّمه الشرع يجب التعفّف عنه، وما كان جائزا غير أن الأولى تركه لما ينجرّ عنه من وقوع الحرج، ومخالفة المروءة، كالتعفف عن السؤال رغم الحاجة الملحّة، فهذا ممّا يستحب، وسأبرز ما تعلّق بالعفة الواجبة، مستعينا بنصوص الكتاب والسنة النبوية.

فالعفة الواجبة تشمل ترك كل ما حرّمه الله جلّ ثناؤه من الشهوات، ومن أخطرها؛ شهوة البطن، والفرج، فالتعفّف عنها يوصل إلى تحقيق التزكية.

الفرع الأول: دور التعفف عن شهوة البطن المحرّمة في تحقيق التزكية

يقصد بالتعفف عن شهوة البطن؛ الابتعاد عن أكل الحرام، والاكتفاء بالطيب الحلال، وقد أمر الله جلّ جلاله بذلك فقال: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ** ﴾[البقرة: 171]، ولفظ الطيب من الألفاظ ذات الصلة بالتزكية.

وبيّن الله جلّ ثناؤه للمؤمنين على وجه الاقتداء أن أكل الحلال، والتعفف عن الحرام ممّا أمر به أنبياؤه ورسله عليهم الصلاة والسلام فقال: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ** ﴾[المومنون:51]، وفي أمرهم بذلك دليل على أنّ التعفف عن أكل الحرام من أعظم ما تتحقق به التزكية.

وممّا يؤكد الصلة الوثيقة بين التعفف عن أكل الحرام والتزكية؛ أنّ الله جلّ وعلا لا يقبل دعاء عبد نبت لحمه من حرام، والدعاء من أهم وسائل التزكية كما تقرّر في موضعه، والدليل على عدم استجابة الدعاء لمن تخلى عن هذا الخلق العظيم، قول النبيﷺ: « **أيها الناس، إنّ الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال:** ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ** ﴾[المومنون:51] وقال: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ**

---

(1) التعريفات، الجرجاني، (ص: 151).

﴿ تَعۡبُدُونَ ﴾[البقرة:171]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟»(1).

وبهذا يعلم أنّ الالتزام بالطيبات في المأكل والمشرب والملبس يحقق للعبد التزكية، وهو دليل على الإقرار بمظهر من مظاهر تكريم الله تعالى للإنسان، كما قال جلّ وعلا: **﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾** [الإسراء: 70]، ولا يقر بفضل الله ﷻ عليه إلا من امتلأ قلبه لذة وسرورا، ونعيما وحبورا.

وقد جاء التصريح بدور هذا الأدب في تحقيق الطهارة والنماء، وذلك في قصة أهل الكهف، قال تعالى: **﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴾**[الكهف: 19]، فقوله: **﴿ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا ﴾**؛ أي: أَحلُ وأَطْهر(2)، وفي طلبهم هذا دليل على أهمية أكل الحلال في إصلاح النّفوس وتزكيتها؛ «لأنّ الطيب أزيد للعقول **وأصلح للأنفس وأنفع**؛ ولذلك جعل الله أرزاق البشر ما هو أطيب وألين، لما يزيد ذلك في العقول والفهم، وجعل لغيرهم من الدواب كل خشن خبيث، لما ليس لهم عقول يحتاج إلى ما يزيد لها فيها، وأصل الزكاء: النماء والزيادة»(3).

مما سبق يُعلم أنّ الالتزام بهذا الأدب من صفات أهل التزكية؛ إذ إنّهم يتفقدون مأكلهم ومشربهم وملبسهم، ويتورعون عن الحرام، قال أبو طالب المكي: « وقد وصف المؤمنين أولي الهدى والتوحيد، وذوي الرّحمة والرشد، بحسن التفقد في الطعمة فقال: **﴿ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴾** [الكهف:13]؛ يعني بشهادتهم بالتوحيد، فكان من قيامهم حسن تفقدهم في المأكول، ومراقبتهم للواحد في قولهم: **﴿ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ ﴾**؛ يعني أيها أحلّ

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم: 2703، (2/ 703).

(2) ينظر: جامع البيان، الطبري، (638/17).

(3) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، (152/7).

وأفضل، فأمروا رسولهم بتحري الحلال، إذ قاموا لذي الجلال والإكرام لما أمرهم بأكله، إذ قدمه على الأعمال الصالحة في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾[المومنون:51]»(1).

ويدخل في التعفف عن أكل الحرام؛ ترك المعاملات المحرّمة كالربا والرشوة، فإنها مؤذنة بالمحق وزوال البركة، وهذا ما ينافي التزكية التي تحمل معنى الزيادة والنماء، قال الله جلّ ثناؤه عن الربا: ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة: 276]، والمحق يتحقق في الدنيا بزوال البركة، كما يتحقق في الآخرة بحصول العذاب؛ إذ لا ينفع لحم نبت من حرام، فعن أبي هريرةﷺ أنّ رسول اللهﷺ قال: «**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرءوا:** ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴾[الكهف: 105]»(2).

كما يدخل في التعفف عن أكل الحرام؛ ضرورة حفظ مال اليتيم، والتصرف فيه على الوجه الشرعي، قال تعالى: ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ ﴾ [النساء:6]، قال القرطبي: «بين الله تعالى ما يحل لهم من أموالهم، فأمر الغني بالإمساك وأباح للوصي الفقير أن يأكل من مال وليه بالمعروف»(3). وتوعّد الله جلّ ثناؤه آكل مال اليتيم بغير حق بالعذاب فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴾ [النساء: 10].

(1) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، أبو طالب المكي، (2/ 296).

(2) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴾ [الكهف/105]، رقم: 4729، (6/ 93)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم: 2785، (4/ 2147).

(3) جامع أحكام القرآن، القرطبي، (5/ 41).

الفرع الثاني: دور التعفف عن شهوة الفرج المحرمة في تحقيق التزكية

التعفف عن شهوات الفرج المحرّمة من الأمور التي تندرج ضمن خلق العفة، ويكون ذلك بالابتعاد عن الزنا والطرق الموصلة إليه كإطلاق البصر في الحرام.

والمتتبع للنصوص الشرعية يقف على التصريح بدور غض البصر، وحفظ الفرج، والستر في تحقيق التزكية، سواء ما تعلق بالفرد أو الجماعة، ومن هنا يأتي أمر الله جلّ ثناؤه بحفظهما من الحرام وبيان ثمرة ذلك، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[النور: 30]، فجاء الأمر في الآية بغض الأبصار ثم بحفظ الفروج، وذلك لما في إطلاق البصر من خطر يوصل إلى الوقوع في الفواحش؛ «لأن النظر بريد الزنا ورائد الفجور، والبلوى فيه أشدّ وأكثر، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه»[1]، «فحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر، أو هو الخطوة التالية لتحكيم الإرادة ويقظة الرقابة، والاستعلاء على الرغبة في مراحلها الأولى، ومن ثم يجمع بينهما في آية واحدة بوصفهما سبباً ونتيجة، أو باعتبارهما خطوتين متواليتين في عالم الضمير وعالم الواقع كلتاهما قريب من قريب»[2].

ولما كان الغض التام لا يمكن جيء في الآية بحرف (من) وهو للتبعيض إيماء إلى ذلك؛ إذ من المفهوم أن المأمور بالغض فيه هو ما لا يليق تحديق النظر إليه، وذلك يتذكره المسلم من استحضاره أحكام الحلال والحرام في هذا الشأن، فيعلم أن غض البصر مراتب: منه واجب ومنه دون ذلك، فيشمل غض البصر عما اعتاد الناس كراهية التحقق فيه، كالنظر إلى خبايا المنازل، بخلاف ما ليس كذلك؛ ولهذا أعقب حكم الاستئذان بهذه الآيات التي تضمنت آداب ما تقتضيه المجالسة بعد الدخول، وهو أن لا يكون الداخل إلى البيت محدقا بصره إلى امرأة فيه، بل إذا جالسته المرأة غض بصره واقتصر على الكلام، ولا ينظر إليها إلا النظر الذي يعسر صرفه[3].

وجاء في السنة النبوية ما يبيّن أن المنهي عنه هو إتباع النظر، حيث قال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**لا تتبع النظرة النظرة، فإنّ الأولى لك، وليست لك الثانية**»[4]، وهذا النّصح والتوجيه من النبي ﷺ وسلم لعلي رضي الله عنه يدل على أهمية التحلي بهذا الخلق العظيم، حتى تتحقق للإنسان التزكية التي تؤهله لنيل محبة الله عز وجل والقيام

---

(1) الكشاف، الزمخشري، (235/3).

(2) في ظلال القرآن، سيد قطب، (2512/4).

(3) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (203/18) (بتصرف).

(4) أخرجه أبو داود في سننه، باب ما يؤمر به في غض البصر، رقم: 2149، (2/ 246)، والترمذي في سننه، باب ما جاء في نظر المفاجأة، رقم: 2777، (5/ 101)، قال شعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح».

بنفع الناس، فتنتقل التزكية من الفرد إلى الجماعة، ليحظى صاحبها بالفلاح، وهذا ما تحقق لعليﷺ، فقد قال النبيﷺ في حقه يوم خيبر: «**لأعطين الراية غدا رجلا يفتح على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**»(1)، فكان مفتاحا للخير، ونال في زمانه شرف خلافة الأمة، وتحقق له الفوز بالجنة ببشارة النبيﷺ.

وقد بينت الآية السابقة ثمرة غض البصر وحفظ الفرج بقوله تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ** ﴾ أي «أطهر وأطيب، وأنمى لأعمالهم، فإن من حفظ فرجه وبصره، طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم، الذي تطمع إليه النفس وتدعو إليه، فمن ترك شيئا لله، عوضه الله خيرا منه.

ومن غض بصره عن المحرم، أنار الله بصيرته، ولأن العبد إذا حفظ فرجه وبصره عن الحرام ومقدماته، مع داعي الشهوة، كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سماه الله حفظا، فالشيء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه في مراقبته وحفظه، وعمل الأسباب الموجبة لحفظه، لم ينحفظ، كذلك البصر والفرج، إن لم يجتهد العبد في حفظهما، أوقعاه في بلايا ومحن...ثم ذكرهم بعلمه بأعمالهم، ليجتهدوا في حفظ أنفسهم من المحرمات» (2).

وقد أتبع الله جلّ ثناؤه أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم بأمر النساء أيضا فقال: ﴿ **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [النور:31]، والنساء يدخلن في لفظ المؤمنين غير أن إفرادهن بالخطاب له حكمته، وقد أرجع القرطبي ذلك إلى أنهن زدن على الرّجال أحكاماً تخصهن، وهي النهي عن إبداء زينتهن إلاّ ما استثنى الله تعالى، والأمر بإرخاء خمرهن على جيوبهن، والنهي عن كل فعل يلفت النظر إلى زينتهن، وينبه النّاس عليها(3).

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب ما قيل في لواء النبيﷺ، رقم: 2976، (4/ 54)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ، رقم: 2404، (4/ 1871).

(2)تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 566).

(1) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (226/6).

وأضاف ابن عاشور وجها آخر حيث قال: «لما كان هذا الأمر قد يظن أنه خاص بالرجال لأنهم أكثر ارتكاباً لضده، وقع النص على هذا الشمول بأمر النساء بذلك أيضا»[1].

والملاحظ في هاتين الآيتين أن الله ﷻ قدّم الرّجال على النساء في الأمر بغض البصر وحفظ الفروج، لكنه قدّم في بداية نفس السورة النساء على الرّجال في ذكر عقوبة الزنا وذلك في قوله جلّ ثناؤه تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[النور: 2]؛ «فالرّجال هم الأجرأ في إرسال نظراتهم -غالباً- بحثاً عن المحاسن والمفاتن في الوجوه والأجسام، والمرأة بطبعها حيية، وهي المسؤولة أولاً وأخيراً عن تجاهل هذه النظرات بغضها لبصرها، أو بتأجيج هذه النظرات من خلال الرد بنظرة الرضا والسماح بالنظر المحرم، بما يثير كوامن الفتنة في صدور الرجال مما قد يوقع في الزنا، وبذلك كان الحظر من جهتها أشد؛ فهي الناظرة والمنظورة، وهنا يظهر هذا الإعجاز البياني النفسي في الحديث عن كلا النوعين، فالبلاغة هي مطابقة المقال لمقتضى الحال، وكل كلمة في هذه الأحكام جاءت في موضعها الأليق بها، المطابق لحال المخاطبين، الذي لو ذهبت هذه الكلمة من موضعها، أو غُيّرت لذهب الرونق وفسد المعنى»[2]، والنهي الرباني عن إبداء الزينة دال على أن كل فعل من أفعال المرأة يثير شهوات الرجال ويحرك غرائزهم، فهو محرم سداً للذرائع خشية الوقوع في الزنا -والعياذ بالله-، ومن هنا نعرف حكمة الشارع في نهيه عن الخلوة المحرمة بالمرأة ومصافحتها، وسفرها دون زوج أو محرم، وعن الاختلاط غير المشروع والتبرج وغير ذلك، فكلّها وسائل تؤدي إلى نتيجة حتمية مروّعة بحق تماسك المجتمع ورقي ثقافته ونهوض رايته.

وهذه الأخلاق من غض للبصر، وحفظ للفرج، والتزام بالستر محققة لزكاء القلب، «والزكاء إما التنمية أو الطهارة، والطهارة منتهية إلى النمو أيضا، ولا نمو في الإنسان أكمل وأفضل من أن يفتح الله ﷻ عليه باب ما خُلق لأجله من العبادة، وكمالها أن يجد العابد حلاوتها، ويزيل عنه تعب الطاعة وتكاليفها الشاقة عليه، وهذا المقام هو الذي أشار إليه صلى الله عليه وسلم بقوله: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[3]، وقوله: «**أرحنا يا بلال**»»[4]، فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج؛ ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد عظيمة الخطر، جليلة القدر؛ إحداها: حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه، فمن ترك شيئا لله

---

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (18/ 205).

(2) آيتا غض البصر من سورة النور دراسة تحليلية بيانية، جهاد النصيرات، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، ع:1/1430هـ، (ص:99).

(3) سبق تخريجه. ينظر: (ص:118).

(4) الكاشف عن حقائق السنن، الطيبي، (7/ 2278). والحديث سبق تخريجه. ينظر: (ص:118).

عوضه الله عز وجل خيرا منه، والعين رائد القلب، ومتى عاد الرائد بالنظر إلى الحرام تعب القلب وشقي بذلك، وصدق القائل:

وَكُنْتَ مَتَى أَرْسَلْتَ طرفك رائدا ... لِقلبكَ يوما أتعبتك المناظر
رَأَيْتَ الَّذِى لا كُلَّهُ أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر.

وأمّا إذا كفّ الرائد عن ذلك استراح القلب، ولم يبتلى بما تبتلى به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له، فإنّ القلب لا بدّ له من التعلق بمحبوب، فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده، فلا بُدَّ أن ينعقد قلبه لغيره. الفائدة الثانية في غض البصر: نور القلب وصحة الفراسة، قال الكرماني: «من عمّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وكفّ نفسه عن الشهوات، وغض بصره عن المحارم، واعتاد أكل الحلال لم تخطئ له فراسة».

وقد ذكر الله سبحانه قصة قوم لوط وما وقعوا فيه، ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[الحجر: 75]، وهم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرم والفاحشة، وقال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: 35]، وسر هذا الخبر: أن الجزاء من جنس العمل، فمن غض بصره عما حرم الله عز وجل عليه، عوضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالى، وهذا أمر يحسّه الإنسان من نفسه، فإن القلب كالمرآة، والهوى كالصدأ فيها، فإذا خلصت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صورة الحقائق كما هي عليه، وإذا صدئت لم ينطبع فيها صورة المعلومات، فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته، فيعطيه الله تعالى بقوته سلطان النصرة، كما أعطاه بنوره سلطان الحجة، فيجمع له بين السلطانين، ويهرب الشيطان منه، ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذُل النَّفْسِ وضُعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه، فإنّه سبحانه جعل العزّ لمن أطاعه والذل لمن عصاه، قال الله جلّ ثناؤه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: 8]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: 139]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: 10][1].

(1) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم، (1/ 48_49) (بتصرف).

وقد بيّن الله عز وجلّ في آية أخرى أن الستر والتزام الآداب الشرعية في مخاطبة الرجال للنساء يعود بطهارة القلب وزكائه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[الأحزاب: 53].

فهذه الأخلاق تحقق السمو في مراتب التزكية، وتعود بالخير على الفرد والجماعة، «فالإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف، لا تُهاج فيه الشهوات في كل لحظة، ولا تستثار فيه دفعات اللّحم والدم في كل حين، فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهي إلى سُعار شهواني لا ينطفئ ولا يرتوي، والنظرة الخائنة والحركة المثيرة والزينة المتبرجة، والجسم العاري... كلها لا تصنع شيئاً إلاّ أن تهيج ذلك السعار الحيواني المجنون، وإلا أن يفلت زمام الأعصاب والإرادة، فإما الإفضاء الفوضوي الذي لا يتقيد بقيد، وإما الأمراض العصبية والعقد النفسية الناشئة من الكبح بعد الإثارة، وهي تكاد أن تكون عملية تعذيب، وإحدى وسائل الإسلام إلى إنشاء مجتمع نظيف هي الحيلولة دون هذه الاستثارة، وإبقاء الدافع الفطري العميق بين الجنسين سليماً، وبقوته الطبيعية، دون استثارة مصطنعة، وتصريفه في موضعه المأمون النظيف»[1].

وإذ التزم المسلم بهذه الأخلاق تحققت له التزكية فيتحقق له الفلاح؛ لذا ختمت الآيتين بقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:31]، والفلاح كما يقول الراغب: «الظفر وإدراك البغية، وذلك ضربان: دنيوي وأخروي: فالدنيوي: الظفر بالسعادات التي تطيب بها الحياة الدنيا وهو البقاء والغنى والعز، والأخروي: وذلك أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل ... قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: 14]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: 9]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: 1]»[2]، «وقد ذكر الله هذه الأخلاق عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدل على أن التزكي هو باجتناب ذلك»[3].

إن عدم التعفف عن شهوات البطن والفرج المحرمة يوقع العبد في الخبائث، فيحول ذلك دون تزكيته؛ لذا بين الله سبحانه وتعالى أنّ الخبيث والطيب لا يستويان، ثم أمر بتقواه، وذلك بالتعفّف عن الخبائث، وذكر في ختام ذلك، أنّ المنتفع بهذه الموعظة هم أولوا الألباب من أصحاب القلوب والعقول الزكية الطاهرة، فتلك طريق أهل الفلاح، قال

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب، (2511/4).

(2) المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، (ص: 644).

(3) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم، (1/ 49).

جلّ ثناؤه: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف:100]، ففي الآية بيان أنّ تَزيُن الخبائث وكثرتها لا ينفع، وذلك نهي عن الاغترار بها، فعاقبتها إلى محق وزوال، بخلاف الطيب الحلال، فعاقبته إلى زكاء ونماء، وهذا ما يبيّن أهميته.

ولأهمية الطيبات في تحقيق التزكية، بذل النبيﷺ جهده لبيانها، حتى يأخذ النّاس بها، وفي المقابل حذّر من نقيضها، وقد ذكر الله حال الأزكياء من أهل الكتاب، ممن أدركوا نبوته ﷺ وآمنوا به والتزموا هديه، فتحلوا بالطيبات وتخلوا عن الخبائث، وتخلصوا من الأغلال الحائلة دون زكاة نفوسهم، فاتبعوا النبيﷺ، وناصروه ورفعوا قدره، واستناروا بنوره، فكانت النتيجة تحقق الفلاح لهم، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[الأعراف:157].

المطلب الثاني: دور حسن الظن والالتزام بأدب الاستئذان في تحقيق التزكية

آثرت أن أجمع بين حسن الظن والالتزام بآداب الاستئذان لوجود علاقة بينهما؛ فقد أورد الله جلّ ثناؤه قصة الإفك في سورة النور، وأمر بإحسان الظن كعلاج لهذه الآفة التي تفسد المجتمع وتقضي على لحمته، ثم أمر بلزوم آداب الاستئذان، والمتأمل في هذا التسلسل يتضح له أنّ حسن الظن مما يحتاج إليه المسلم في تعامله مع إخوانه، سواء في مثل ما حدث في قصة الإفك، أو في حال لم يؤذن له بالدخول بعد الاستئذان، وكل ذلك مما يزكي الفرد والجماعة، ومن خلال ما سيأتي سأبين دور هذه الأخلاق في تحقيق التزكية.

الفرع الأول: دور حسن الظن في تحقيق التزكية

يستحسن بداية أن أوضح معنى حسن الظن، فأما من حيث **اللغة؛ فالحُسْن** نقيض القبح، والمحاسن خلاف المساوي(1)، والظن «شك ويقين، إلا أنه ليس بيقين عيان إنما هو يقين تدبر... وجمع الظن الذي هو الاسم ظنون»(2).

---

(1) ينظر: الصحاح، الجوهري، (5/ 2099).

(2) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، (10/ 8).

أما اصطلاحا: فالظّنّ «تجويز أمرين في النّفس لأحدهما ترجيح على الآخر»(1). وبهذا فإن **حسن الظّنّ** ترجيح جانب الخير في المؤمن على جانب الشّرّ.

وحسن الظن بالآخرين خلق رفيع حثّ الإسلام عليه ورغّب فيه، قال جلّ ثناؤه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات:12]، والنهي عن سوء الظن أمر بضده؛ إذ لا تتحقق تزكية الفرد والجماعة بضياع هذه القيمة العظيمة.

ولأهمية حسن الظن بالآخرين جعله الله ﷻ علامة على قوة الرابطة الأخوية، فهي بمثابة الجسد الواحد، لذا قال جلّ ثناؤه في معرض الرد على أهل الإفك، موجّها أهل الإيمان ممن اغترّ بكلامهم: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ [النور: 12]، قال الطبري: «وقال: ﴿بِأَنفُسِهِمۡ﴾؛ لأن أهل الإسلام كلهم بمنزلة نفس واحدة، لأنهم أهل ملة واحدة»(2).

هذا الشعور الذي يجعل المسلم يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه دليل على زكاء القلب وطهارته، وبذلك تتحقق تزكية المجتمع بالتزامه بهدي القرآن والسنة اللّذان جاءا لتحقيق رابطة الأخوة، بتحلية المجتمع بكل الأخلاق الحسنة، وتخليته من الصفات الدنيئة التي تفرق شمله وتضعف قوته، وتفقده دوره الريادي، وقد أبدع الشنقيطي في بيان هذا المعنى حيث قال: «ومن هدي القرآن للتي هي أقوم؛ هديه إلى أن الرابطة التي يجب أن يعتقد أنها هي التي تربط بين أفراد المجتمع، وأن ينادى بالارتباط بها دون غيرها إنما هي دين الإسلام، لأنه هو الذي يربط بين أفراد المجتمع حتى يصير بقوة تلك الرابطة جميع المجتمع الإسلامي كأنه جسد واحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، فربط الإسلام لك بأخيك كربط يدك بمعصمك، ورجلك بساقك، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**إن مثل المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»(3).

ولذلك يكثر في القرآن العظيم إطلاق النفس وإرادة الأخ تنبيها على أن رابطة الإسلام تجعل أخا المسلم كنفسه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ [البقرة: 84]، أي لا تخرجون إخوانكم، وقوله:

---

(1) أحكام القرآن، ابن العربي، (4/ 156).

(2) جامع البيان، الطبري، (19/ 128).

(3) أخرجه البخاري، كتاب الآداب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم: 6011، (8/ 10)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم، 2586، (4/ 1999).

﴿ لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُومِنُونَ وَٱلْمُومِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور: 12]، أي بإخوانهم على أصح التفسيرين، وقوله: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [الحجرات: 11]، أي إخوانكم على أصح التفسيرين، وقوله: ﴿ وَلَا تَاكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [البقرة: 188]، أي لا يأكل أحدكم مال أخيه، إلى غير ذلك من الآيات، ولذلك ثبت في الصحيح عنه ﷺأنه قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(1).

وبعد أن أمر الله سبحانه وتعالى بضرورة إحسان الظن، ودحض إفك المنافقين حين تكلموا في عرض عائشة رضي الله عنها، بيّن الله جلّ ثناؤه أن التزكية إنّما تحصل بفضله فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور:21]، «والتزكية هنا بمعنى تزكية العقل والنفس، وامتلائها طهرا وعفافا وإيمانا؛ أي أنّه لولا فضل الله تعالى بالموعظة والهداية، وتربية النفوس بالتقوى، ورحمته بهدايتكم وقبولكم للحق، وتجنيبكم مخاوف الشيطان، ما طهر منكم من أحد أبدا»(2)، وهذا ما يشير إلى أنّ من طرق تحقيق التزكية إحسان الظن بالآخرين.

ثم جاء الأمر بعد ذلك بالعفو والصفح والإحسان لمن وقع في الإفك من أهل الإيمان، وإن أساؤوا الظن قال عز وجلّ: ﴿ وَلَا يَاتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُوتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: 22]، قال ابن عباس: « كان ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد رموا عائشة بالقبيح وأفشوا ذلك وتكلموا فيها، فأقسم ناس من أصحاب النبي ﷺ منهم أبو بكر أن لا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من هذا ولا يَصِلُوه، فقال: لا يقسم أولوا الفضل منكم والسَّعة أن لا يصلوا أرحامهم، وأن لا يعطوهم من أموالهم، كالذي كانوا يفعلون قبل ذلك، فأمر الله أن يُغْفر لهم ويُعْفى عنهم»(3).

---

(1) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، (3/ 41).

(2) زهرة التفاسير، محمد بن أب زهرة، دار الفكر، بيروت _ لبنان، د ت ط، (10/ 5167).

(3) فتح البيان في مقاصد القرآن، القنوجي، (9/ 189).

وهذا ما يبرز دور خلق العفو والإحسان في تحقيق تزكية الفرد والجماعة، وأنّه علاج فعّال لمن وقع في سوء الظن من أهل الإيمان بعد الاعتراف بالخطأ، وقد ربط الله ﷻ عفوه بتحقيق هذه الخصال الدّالة على رحمة الإنسان، فالرّاحمون يرحمهم الرحمان كما جاء في الحديث[1].

ثمّ توعد الله ﷻ من استمر في التكلم في أعراض النّاس بالظنون الكاذبة بالعذاب، وبين أن أهل الخبث يجتمع بعضهم ببعض، كما أن أهل التزكية يجتمع بعضهم ببعض، فقال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (23) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: 23_ 26].

الفرع الثاني: دور الالتزام بآداب الاستئذان في تحقيق التزكية

بعد أن عالج الله ﷻ قضية الإفك وحثّ على حسن الظن والعفو والصفح لمن اعترف بالخطأ من أهل الإيمان كما مرّ بيانه، جاءت الآيات الموالية لتذكر جملة من الآداب المتعلّقة بالزيارة وأحكامها، وما ينبغي أن يصاحبها من حسن الظن والتماس الأعذار للآخرين، وذكرت أنّ الثمرة المرجوة من الالتزام بهذه الآداب إنّما هي حصول التزكية، قال الله جلّ ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (27) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور:27 _ 28]. «والاستئناس من الأنس، وهو أن يستأذن أهل البيت في الدخول عليهم، مخبرا بذلك من فيه، وهل فيه أحد؟ وليؤذنهم أنّه داخل عليهم، فليأنس إلى إذنهم له في ذلك، ويأنسوا إلى استئذانه إيّاهم»[2]، «وهذا يتضمن في معناه ومغزاه، النهي عن التجسس والتحسس، وظن السوء، وأنّه يجب أن يظن خيرا»[3]؛ ذلك أن سوء الظن من أكبر العقبات في طريق

---

(1) أخرجه أبو داود، باب في الرحمة، رقم: 4941، (4/ 285)، وأخرجه الترمذي، باب ما جاء في رحمة المسلمين، رقم: 1924، (4/ 324)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(2) جامع البيان، الطبري، (149/19).

(3) زهرة التفاسير، أبو زهرة، (5175/10).

تزكية الفرد والمجتمع كما مرّ آنفا، وهو طريق للتجسس والكلام في أعراض النّاس، قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: 12]، والمراد ب (الظن) هنا: الظن المتعلق بأحوال الناس، ثمّ جاء النهي عن التجسس؛ لأنه من آثار سوء الظن[1]، ثم جاء النهي عن الغيبة التي هي من كبائر الذنوب وهي أثر من آثار سوء الظن والتجسس، وقد بين النبيﷺ آثاره الوخيمة، محذرا منها لما ينجر عنها من انهدام صرح الأخوة، فيحول ذلك دون تحقيق التزكية، فعن أبي هريرةﷺ قال سمعت رسول اللهﷺ يقول: «**إياكم والظن فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم** »[2].

وبعد أن أمر الله بالاستئذان أمر بإلقاء التحية على أهل البيت المقصود، ليكتمل الاستئناس فقال: ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾، وهو أن يقول السلام عليكم أدخل، ولا يجوز دخول بيت غيرك إلاّ باستئذان لهذه الآية، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ؛ أي: أفضل من أن تدخلوا بغير إذن[3]، ولقد كان النبيﷺ إذا أراد أن يدخل بيتا سلَّم ثلاث مرات[4]، ثم قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ «أي تذكرون أنكم مؤمنون وأن الله تعالى أمركم بالاستئذان حتى لا يحصل لكم ما يضركم، وبذلك يزداد إيمانكم وتسموا أرواحكم»[5]، فدلّت هذه الآيات أن المتصف بهذه الآداب يرتقي في مراتب التزكية، فيزداد إيمانه.

---

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (26/ 251) (بتصرف).

(2) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، رقم: 6064، (4/ 5)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، رقم: 2563، (4/ 1985).

(3) التفسير الوسيط، الواحدي، (3/ 315) (بتصرف يسير).

(4) أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثا، رقم: 6244، (8/ 54).

(5) أيسر التفاسير، أبو بكر لجزائري، (3/ 563).

وقد بين النبيﷺ أن التسليم على الناس طريق لتحقيق الإيمان، حيث قال «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»(1).

والسلام يحمل كل المعاني الجميلة، فكأنه عهد بالالتزام بالفضائل من الأخلاق وترك مساوئها، وهذه حقيقة التزكية.

ولئن كانت التزكية تحمل معنى النمو والارتفاع والزيادة، فإنّ السلام سبيل لتحقيق ذلك، فعن أبي الدرداءﷺ قال: « **قال رسول اللهﷺ**: «**أفشوا السلام كي تعلوا**»(2)؛ لذلك كان السبّاق إلى السلام له مزيّة فضل تدل على حصول التزكية في قلبه، والتي توصله للقرب من ربه، فعن أبي أمامة الباهليﷺ قال: « قال رسول اللهﷺ: «**إن أولى النّاس بالله، من بدأهم بالسلام**»(3)، وهذا دليل على حسن الخلق وتحقق صفة الألفة، وبذلك يكتمل إيمان العبد، فعن أبي سعيد الخدريﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: «**أكمل الناس إيمانا أحاسنهم أخلاقا، الْمُوَطَّئُونَ أَكْنَافًا، الذين يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ، وليس منا من لا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ**»4.

وقد عرف عبد الله بن سلامﷺ صدق النبيﷺ، وأن دعوته دعوة طاهرة زكية من خلال جملة الأخلاق التي دعا إليها، ومنها إلقاء السلام، حيث قال: «**لما** قدم النبيﷺ المدينة انجفل النّاس قبله، وقيل: قدم رسول الله، قدم رسول الله، قدم رسول الله، ثلاثا، فجئت في النّاس لأنظر، فلما تبيّنت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته تكلم به أن قال: «**يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»(5).

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سببا لحصولها، رقم: 54، (74/1).

(2) عزاه المنذري إلى الطبرني، ولم أجده لا في الأوسط ولا في الكبير (الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، زكي الدين المنذري، ت: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية – بيروت، ط:1417،1هـ)، رقم: 4092، (3/ 286)، قال المنذري: «رواه الطبراني بإسناد حسن».

(3) أخرجه أبو داود، باب في فضل من بدأ السلام، رقم: 5197، (7/ 493)، قال شعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح».

(4) أخرجه الطبراني في الأوسط، رقم: 4422، (4/ 356)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم: 751، (378/2).

(5) أخرجه ابن ماجه، باب ما جاء في قيام الليل، رقم: 1334، (2/ 360)، وأخرجه الترمذي، رقم: 2485، (4/ 652)، وقال: «هذا حديث صحيح».

وقد بيّن الله ﷻ في ختام الآيات السابقة التي جاءت في بيان آداب الزيارة أن الإنسان ينبغي أن يكون سمحا كريما محسنا الظن بإخوانه، فإن طلبوا منه الرجوع فليرجع فإن ذلك موصل لزكاء قلبه، قال تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: 28]، قال ابن عاشور: «وفي هذا أدب عظيم وهو تعليم الصراحة بالحق دون المواربة ما لم يكن فيه أذى، وتعليم قبول الحق؛ لأنّه أطمن لنفس قابله من تلقي ما لا يدرى أهو حق أم مواربة، ولو اعتاد الناس التصارح بالحق بينهم لزالت عنهم ظنون السوء بأنفسهم»(1).

وقد فهم الصحابة رضي الله عنهم أثر العمل بهذه التوجيهات في حصول التزكية، فاجتهدوا غاية جهدهم في سبيل ذلك، فعن أنس ﷺ قال: «قال رجل من المهاجرين: لقد طلبت عمري كله في هذه الآية فما أدركتها: إن أستأذِنَ على بعض إخواني فيقول: ارجع فأرجع وأنا مغتبط لقوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: 28]»(2).

من خلال ما سبق يتضح أنّ من أعظم الفوائد التي تتحقق بلزوم حسن الظن والتزام آداب الاستئذان؛ سلامة اللسان من الطعن في الأعراض، وتلك خصلة من خصال أهل الزكاء.

وبعد عرض بعض ما يتعلق بأثر هذه الأخلاق في تحقيق التزكية، يتبادر إلى الذهن سبب تخصيصها بالتصريح دون غيرها، والجواب ينبني بالرجوع إلى بعض ما سبق وربطه بما سيأتي، فقد مرّ معنا أن الالتزام بآداب الاستئذان يبعث في النفوس حسن الظن، فيلتمس العبد ذلك لإخوانه وهذا ما يجعله إنسانا عادلا، يحب أن يُعامِل الناس كما يحب أن يُعامَل، لا كحال المطففين: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين:3]، والعدل قوام الصلاح، وتتفرع عنه الكثير من الفضائل.

والالتزام بآداب الزيارة وغض البصر وحفظ الفرج دليل على خلق الأمانة. والعدل والأمانة قوام الملك، ولا يتحقق الصلاح إلا بهما؛ لذا جاء الأمر بالحفاظ عليهما، وبيّن الله أن ذلك مما يرتضيه لنا، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58].

---

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (18/ 200).

(2) فتح البيان في مقاصد القرآن، القنوجي، (9/ 197).

كما أنّ غض البصر وحفظ الفرج دليل على الحياء، وهو من أهم دلائل حصول التزكية، ففي الحديث: «**والحياء شعبة من الإيمان**»(1)، وقد كان النبيﷺ شديد الحياء وهو قدوة المزكين، وربط الحياء بالإسلام فقال: «**إن لكل دين خلقا، وخلق الإسلام الحياء**»(2)، وعرّف أعلى مراتبه بقوله: «**استحيوا من الله حق الحياء**»، **قال: قلنا: يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله، قال:** «**ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء**»(3)، وهذا المعنى الشامل للحياء يتحقق فيما سبق؛ فحفظ الرأس يراد به حفظ البصر وحفظ الأذن واللّسان، وفي حسن الظن المتحقق بالتماس الأعذار حال رفض الاستقبال بعد الاستئذان، حفظ للسان من آفاته التي تحول دون تزكية العبد نفسه، خاصة وأن الاشتغال بذكر عيوب الناس حائل دون استقامة النّفس وصلاحها، وفي طلب الاستئذان وعدم دخول البيوت حال عدم وجود أهلها، مانع من التجسس وفيه حفظ للأذن، وأمّا الأمر بغض البصر ففيه حفظ له.

وأما حفظ البدن فيتحقق بعدم أكل الحرام كما يتضمن حفظ الفرج وقد مرّ معنا الأمران، وسبق بيان تحريم الوسائل المفضية إلى الوقوع في الزنا كإطلاق البصر وعدم الستر.

وأما تذكر الموت والبلى، فقد بيّنت آية الكهف مطلب الفتية بضرورة استقصاء الحلال الذي يعتبر دليلا على التزكية، وأوضحت تأكيد الفتية على ضرورة الاحتراز حال البحث عن الطعام الحلال مخافة أن يتفطن لهم الأعداء فيفتنوهم عن دينهم، فيرجعوا عن طريق التزكية إلى طريق التدسية، ولن يفلحوا بعدها أبدا، وفي ذلك تذكير بالوقوف بين يدي الله تعالى، كما أن آيتي الاستئذان وغض البصر وحفظ الفرج تضمنت الإشارة إلى ذلك حيث ختمت الأولى بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ [النور:28]، وختمت الثانية بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ [الأحزاب:30]، وفيه إشارة واضحة إلى تذكر رقابة الله واستحضار الوقوف بين يديه، وقد ختمت الآية الموالية بالحث على التوبة وبيان أنها سبيل الفلاح، وفيها تذكير بما أعده الله للمتقين، ولا يتورع عن أكل الحرام والنظر إليه والوقوع في الفواحش إلا من أراد الآخرة، وترك زينة الدنيا، وبهذا يتحقق الحياء.

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، رقم: 9، (1/ 11)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، رقم: 35، (1/ 63).

(2) أخرجه ابن ماجة في سننه، باب الحياء، رقم: 4181، (2/ 1399)، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم: 940، (2/ 616).

(3) أخرجه الترمذي في سننه، رقم: 2458، (4/ 637)، وقال: «هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث أبان بن إسحق عن الصباح بن محمد».

هذه الصفات الثلاث: العدل والحياء والأمانة من أهم مقومات من رام تزكية نفسه، أو سعى لتزكية غيره، ولما كان من أهم مقاصد البعثة تزكية النّاس، كانت هذه الصفات مما تميّز به نبيناﷺ، فكانت تُعرف به، فإذا ذُكرت ذُكر معها حتى يتبين حدّها وماهيتها.

وفي غض البصر وحفظ الفرج والستر وأكل الحلال دليل على العفة، وقد بين الغزالي أنّ لها فروعا كثيرة منها: «منها السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع»(1)، ومن فوائد غض البصر التي سبق بيانها: الحكمة وقوة البصيرة وكذا قوة القلب وشجاعته، وبذلك تكتمل الصفات التي اعتبرها علماء السلوك والتزكية أمهات الأخلاق، وهي الحكمة والشجاعة والعفّة والعدل، والباقي فروعها، قال الغزالي: «ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلاّ رسول اللهﷺ، والنّاس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه، فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول اللهﷺ، وكل من جمع كمال هذه الأخلاق، استحق أن يكون بين الخلق ملكاً مطاعاً، يرجع الخلق كلهم إليه ويقتدون به في جميع الأفعال، ومن انفك عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها، استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد، فإنّه قد قرب من الشيطان اللعين المبعد فينبغي أن يُبعد، كما أن الأول قريب من الملك المقرب فينبغي أن يُقتدى به ويتقرب إليه، فَإِنَّ رسول اللهﷺ لم يبعث إلا ليتمم مكارم الأخلاق، وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: 15]، فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين، وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة، والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة، والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال، فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29] إشارة إلى أن للشدة موضعا، وللرحمة موضعا، فليس الكمال في الشدة بكل حال، ولا في الرحمة بكل حال، فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه وبيان أركانه وثمراته وفروعه»(2).

يتبين من خلال ما سبق أنّ تخصيص هذه الأخلاق بالتنصيص على حصول التزكية بها، لما لها من آثار تنتج عنها أمهات الأخلاق التي ترتبط بها.

---

(1) إحياء علوم الدين، الغزالي، (3/ 55).

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وخلاصة الفصل أنّ وسائل التزكية تعود إلى الإيمان والعبادات والأخلاق؛ فالإيمان بالله ﷻ أصل كل زكاء ونماء؛ لأنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه وتعالى، ولكل ركن من أركان الإيمان دور مهم في الارتقاء بالنّفس البشرية.

ومن آثار الإيمان وثماره أنّه يوصل إلى عبادة الله جلّ ثناؤه، والعبادات بدورها تزيد الإنسان طهرا ونماء؛ فشعائر الإسلام الظاهرة مفتاح الخير وأساس النّجاح، حيث تطبع في المسلم الصفات الحميدة، وتخلصه من الصفات الدنيئة. كما أن العبادات القولية تسهم في ذلك.

ولا تتحقق التزكية إلا إذا تحلى العبد بالأخلاق الحسنة، وقد جاءت النصوص الشرعية في بيان أثر خلق العفة، وإحسان الظن والالتزام بآداب الاستئذان في تحقيق التزكية، وتعتبر هذه الأخلاق أصل تنبثق منها جميع الأخلاق الأخرى؛ لذا خصّت ببيان أثرها في تحقيق التزكية.

هذا بيان لوسائل التزكية في القرآن والسنة، فما الموانع التي تحول دون تحقيقها؟ هذا ما سيأتي بيانه في الفصل الموالي.

الفصل الثاني

موانع التزكية في القرآن والسنة.

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: فتنة الشيطان وأعوانه.

المبحث الثاني: الاغترار بالدنيا.

المبحث الثالث: الكبر والحسد.

المبحث الرابع: الجهل والتقليد الأعمى.

ذكر المهتمون بشأن التزكية جملة من الموانع التي تحول دون تحقيقها، واعتمدوا في استنباطها على تتبع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، واستقراء حال المكذبين، ويأتي هذا الفصل ليبين أهم تلك الموانع، من خلال أربعة مباحث؛ خصّصت الأول لمانع الشيطان وأعوانه، يليه مانع الاغترار بالدنيا، ثم مانع الكبر والحسد، لأختم ببيان مانع الجهل والتقليد الأعمى، وتفصيل ذلك فيما يلي:

المبحث الأول: فتنة الشيطان وأعوانه

سأحاول من خلال هذا المبحث بيان سعي الشيطان وأعوانه لصدّ النّاس عن بعض أسباب التزكية التي سبق ذكرها، معتمدا على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي جاءت في هذا السياق، وذلك من خلال مطلبين؛ أبين في الأول خطورة الشيطان وأعوانه على الإنسان، ثم أستعرض في المطلب الموالي أساليب الشيطان وأعوانه للصدّ عن التزكية، وفيما يلي بيان ذلك:

المطلب الأول: خطورة الشيطان وأعوانه على الإنسان

إن الشيطان أخطر عدو للإنسان، وقد بيّن الله ﷻ ذلك وحذّر منه، قال جلّ ثناؤه: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: 168]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴾ [القصص: 15]، وهذا غاية في التحذير، ومثله في القرآن كثير.

وقد استهدف الشيطان وأعوانه في المقام الأول أنبياء الله ﷻ ورسله عليهم السلام نظرا لوظيفتهم القائمة على تزكية النّاس، وهذا ما يظهر خطورته على غيرهم؛ لذا حذّر الأنبياء منهم، وفيما يلي بيان ذلك:

الفرع الأول: عداوة الشيطان وأعوانه لأنبياء الله ورسله عليهم السلام

إنّ عداوة الشيطان للإنسان قديمة متجذّرة، تعود إلى خلق آدم عليه السلام؛ حيث رفض إبليس أمر ربّه ﷻ بالسجود لآدم عليه السلام، كما دلّ عليه قوله جلّ ثناؤه: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ [الأعراف: 12].

وبعد أن نال الشيطان اللّعنة جزاء لإعراضه وتكبّره، توعّد بالسعي لإضلال بني آدم وإبعادهم عن معالم التزكية، ﴿ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[الإسراء: 62].

واستهدف بداية آدمعليه السلام وزوجه، متظاهرا بالنّصح لهما، فأكلا من الشجرة التي نهاهما الله سبحانه وتعالى عنها، قال جلّ وعلا: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝20 وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: 21].

وبعد أنّ أخرج الله سبحانه وتعالى آدمعليه السلام من الجنّة إلى الأرض، بذل الشيطان نفسه في إفساد أحوال بني آدم وإبعادهم عن الحق، فتربّص بالأنبياء والرّسل عليهم السلام باعتبارهم منبعا لنشر الصفاء، وممّا يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج: 52]، قال الطبري: «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ إلاّ إذا تلا كتاب الله، وقرأ، أو حدّث وتكلّم، ألقى الشيطان في كتاب الله الذي تلاه وقرأه، أو في حديثه الذي حدّث وتكلم. ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾؛ يقول تعالى: فيذهب الله ما يلقي الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويبطله...وقوله: ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ يقول: ثم يخلص الله آيات كتابه من الباطل الذي ألقى الشيطان على لسان نبيه...»(1).

فهذه الآية واضحة في سعي الشيطان لإفساد دعوة الرّسل عليهم السلام، بإلقاء حديثه في كلامهم؛ ليوهم النّاس أنّه من وحي الله سبحانه وتعالى، إلاّ أنّ الله جلّت قدرته يُحكم آياته، فيفشل بذلك مشروع الشيطان.

وممّا يبرز سعي إبليس للإضرار بالأنبياء والرسل عليهم السلام ما أورده الله جلّ ثناؤه في قصة يوسفعليه السلام، حيث كان لإبليس دور في إشعال نيران الحسد في قلوب إخوته؛ كل ذلك ليعزله عن الجو الإيماني في كنف والده يعقوب عليهما السلام، وبعد أن تحقّق له جانب من مشروعه بما فعله إخوته من إلقائه في الجبّ، عاد مرّة أخرى فزيّن الفحشاء لامرأة العزيز حتى يوقع يوسفعليه السلام في شراكها، إلاّ أنّ الله سبحانه وتعالى صرف عنه السوء لإخلاصه، قال جلّ ثناؤه: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: 24].

ولم يتوقف كيد الشيطان ومحاولات إضراره بنبي الله يوسفعليه السلام، فأراد إبقاءه في السجن حين أنساه اللجوء إلى ربّه، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ

(1) جامع البيان، الطبري، (18/ 668).

﴿رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: 42]، قال الطبري: «وهذا خبرٌ من الله جل ثناؤه عن غفلة عَرَضت ليوسف من قِبَل الشيطان، نسي لها ذكر ربه الذي لو به استغاث لأسرع بما هو فيه خلاصه، ولكنه زلَّ بها فأطال من أجلها في السجن حبسَه، وأوجع لها عقوبته»(1).

ولم يختلف الأمر بالنسبة لأيوب عليه السلام، فقد سعى الشيطان للإضرار به، ومما يبيّن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [ص: 41]، وفي مسّ الشيطان لأيوب عليه السلام أقوال كثيرة لأهل التفسير، غير أنّ أكثرها بعيد عن المعنى المراد، قال ابن عاشور: «وتأولوا ذلك على أقوال تتجاوز العشرة وفي أكثرها سماجة، وكلها مبني على حملهم الباء في قوله: ﴿بِنُصۡبٍ﴾ على أنها باء التعدية لتعدية فعل مسني، أو باء الآلة مثل: ضربه بالعصا، أو يؤول النصب والعذاب إلى معنى المفعول الثاني من باب أعطى.

والوجه عندي: أن تحمل الباء على معنى السببية بجعل النصب والعذاب مُسببين لمس الشيطان إيّاه؛ أي مسني بوسواس سببه نصب وعذاب، فجعل الشيطان يوسوس إلى أيوب بتعظيم النصب والعذاب عنده، ويلقي إليه أنه لم يكن مستحقا لذلك العذاب؛ ليلقي في نفس أيوب سوء الظن بالله أو السخط من ذلك.

أو تحمل الباء على المصاحبة، أي مسني بوسوسة مصاحبة لضر وعذاب، ففي قول أيوب أني مسني الشيطان بنصب وعذاب كناية لطيفة عن طلب لطف الله به، ورفع النصب والعذاب عنه بأنهما صارا مدخلا للشيطان إلى نفسه، فطلب العصمة من ذلك على نحو قول يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: 33]»(2).

ولقد جنّد الشيطان في حربه لأنبياء الله صلى الله عليه وسلم ورسله عليهم السلام أعوانا ليصدوا عن السبيل بما يوحيه بعضهم إلى بعض، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ [الأنعام: 112].

(1) جامع البيان، الطبري، (16/ 111).
(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (23/ 270).

وقد جاء تأكيد هذه العلاقة الوطيدة بين الشيطان وأعوانه في سبيل إطفاء معالم التزكية في قولهﷻ: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام: 121].

فالآية واضحة في بيان الولاية القائمة بين الشيطان ومن سلك سبيله؛ إذ يخرجهم من النور إلى الظلمات، قال عزّ وجل: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[النحل: 63]، فبينهم وبين الشيطان مناسبة طبيعية في أوصافهم وأخلاقهم وأعمالهم، لذا يؤزهم إلى المعاصي أزا، ويزين لهم القبائح(1)، ويدعوهم لحرب الحق وأهله، ويعدهم بالنصر ثم يُخلف كما في غزوة بدر، قالﷻ: ﴿ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾[الأنفال: 48].

ولقد كان أتباع الشيطان حربا على رسل الله عليهم السلام وأتباعهم، وجاءت الكثير من النصوص الشرعية المبيّنة لذلك، قال تعالى: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [يس: 30].

الفرع الثاني: الأمر بالاستعاذة من الشياطين في القرآن والسنة

نظرا لعداوة الشياطين للإنسان وسعيهم للحيلولة دون تزكيته، فقد تضافرت نصوص الوحيين في الحثّ على الاستعاذة منهم، ومن ذلك أنّ الله جلّ ثناؤه حكى عن موسى عليه السلام أن القوم لما خوفوه بالقتل قال: ﴿ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ﴾ [الدخان: 20]، وقال في آية أخرى: ﴿ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [غافر: 27]، فأعطاه الله تعالى مراده، فأفنى عدوه وأورثه أرضهم وديارهم.

وقال الله جلّ ثناؤه عن امرأة عمران: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: 36]،

(1). ينظر: روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:3، 1403هـ/1983م، (ص:261).

«﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أي: عوذتها بالله عز وجل، من شر الشيطان، وعوذت ذريتها، وهو ولدها عيسى عليه السلام»(1).

فاستعاذتها من الشيطان يبين خطورته في إضلال بني آدم، وهذا من العناية التامة بالأبناء حتى يتربوا على منهج التزكية؛ لذا كان من وصايا النبي ﷺ كما في حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: «**قال رسول الله ﷺ: ما يمنع أحدكم أن يقول حين يجامع أهله: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإن قضى الله ولدا لم يضره الشيطان**»(2).

وأمر الله تعالى محمدا عليه الصلاة والسلام بالاستعاذة مرة بعد أخرى فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [المؤمنون: 97_98]، وقال جلّ ثناؤه: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: 1_2]، وقال أيضا: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ﴾ [الناس: 1_4] قال الرازي: «فهذه الآيات دالة على أن الأنبياء عليهم السلام كانوا أبدا في الاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن»(3).

وقد كان النبي ﷺ يستعيذ من الشيطان ممتثلا أمر ربه سبحانه وتعالى، فعن ابن جبير بن مطعم عن أبيه، قال: رأيت رسول الله حين دخل في الصلاة، قال: «**الله أكبر كبيرا، الله أكبر كبيرا**» ثلاثا، «**الحمد لله كثيرا**» ثلاثا، «**سبحان الله بكرة وأصيلا**» ثلاث مرات «**اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه**»(4)

كما كان النبي ﷺ يوصي صحابته بالاستعاذة من الشيطان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال أبو بكر: يا رسول الله مرني بشيء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال:«**قل اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب**

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (2/ 34).

(2) أخرجه البخاري،كتاب الوضوء، باب: التسمية على كل حال وعند الوقاع، رقم: (141)، (1/ 291)، ومسلم، كتاب النكاح، باب: ما يستحب أن يقوله عند الجماع، رقم: (1434)، (2/ 1058).

(3) مفاتيح الغيب، الرازي، (1/ 77).

(4)أخرجه سنن ابن ماجه، باب الاستعاذة في الصلاة، رقم: 807، (2/ 8)، وأبو داود، باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك، رقم: 775، (1/ 206). وقال شعيب الأرنؤوط: «حسن لغيره».

والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه، قال: قله إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك»(1).

فحثّهﷺ على الاستعاذة من الشيطان يبيّن خطورته؛ إذ إنّ له طرقا للإيقاع ببني آدم، وهذا ما سيأتي بيانه في المطلب الموالي.

المطلب الثاني: أساليب الشيطان وأعوانه للمنع من التزكية

للشيطان وأعوانه حيل وأساليب يسعون من خلالها لإبعاد النّاس عن طريق التزكية، وقد بيّن اللهﷻ ذلك محذّرا من خطواته فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾[النور:21]، والمقصود بالخطوات طرائقه ومسالكه وما يأمر به(2)، قال رشيد رضا: «الخطوات جمع خُطوة، وهما ما بين قدمي من يخطو بنقلهما في المشي؛ أي: لا تسيروا سيره وتتبعوا سبله... وسبل الشيطان وخطواته هي كل أمر يخالف سبيل الحق والخير والمصلحة، وهي ما عبّر عنه بالسبل في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: 153]، فذكر تعالى أن له سبيلا واحدة سماها صراطا مستقيما؛ لأنها أقرب طريق إلى الحق والخير والسلام، وأن هناك سبلا متعددة يتفرق متبعوها عن ذلك الصراط وهي طرق الشيطان»(3) التي يستعملها لإبعاد النّاس عن التزكية، ومن أبرزها ما يلي:

الفرع الأول: تزيين الباطل

من أساليب الشيطان في السعي لإضلال بني آدم تزيين الباطل، وهو الأسلوب الذي استعمله مع آدم وحواء عليهما السلام حتى يوقعهما في الأكل من الشجرة التي نهاهما اللهﷻ عنها، يدل على ذلك قولهﷻ: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖ ﴾ [الأعراف: 21_22]، قال مقاتل: «وَقاسَمَهُما

---

(1) أخرجه الدارمي في سننه (ت: حسين الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، السعودية، ط: 1، 1412 هـ - 2000 م)، باب: ما يقول إذا أصبح، رقم: 2731، (3/ 1760)، والترمذي، باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى، رقم: 3392، (5/ 334)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(2) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (6/ 30).

(3) تفسير المنار، رشيد رضا، (2/ 207).

يعني حلف بِاللَّه لهما ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ إنها شجرة الخلد من أكل منها لَمْ يمت، فكان إبليس أول من يحلف بِاللَّه كاذبا ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ يعنى زيّن لهما الباطل ...وحلف عَلَى قوله فغرهما بهذه اليمين»[1].

وبعد أن كان الشيطان سببا في إخراج آدمعليه السلام وزوجه من الجنة، توعّد أن يسعى في إفساد ذريتهما عن طريق تزين الباطل لهم: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[الحجر:39_40]، قال الطبري في تفسيره للآية: «لأحسننّ لهم معاصيك، ولأحبّبنها إليهم في الأرض...ولأضلَّنهم عن سبيل الرشاد...إلاّ من أخلصته بتوفيقك فهديته، فإن ذلك ممن لا سلطان لي عليه ولا طاقة لي به»[2].

ولتحقيق التزكية حثّ الرسلُ عليهم السلام على أسبابها، لكن الشياطين زينّوا للناس الابتعاد عنها، وأعظم ما دعا إليه الرسل عليهم السلام؛ توحيد الله سبحانه وتعالى وهو أهم ما تزكو به النفوس، وقد قُوبلوا بحرب ضروس من الشيطان وأعوانه؛ ليمنعوا حصول الطهر والنّماء، وينشروا الرِّجس والخسران، فأعمل الشيطان حيله ليوقع بني آدم في الشرك، وذلك بتزينه لهم، فتحقق ذلك لأول مرة في قوم نوحعليه السلام، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما وُدّ كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف، عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم، أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت»[3].

وقد جاء في رواية أخرى التصريح بتزيين الشيطان لهم الوقوع في عبادة الأصنام، حيث عزا السمعاني لمحمد بن كعب القرظي قال: «هذه الأسماء أسماء قوم صالحين قبل نوح، فلما ماتوا زين الشيطان لأبنائهم ليتخذوا أشخاصا على صورهم، فيكون نظرهم إليها حثا لهم على العبادة، ثم إنهم عبدوها من بعد لما تطاول لهم الزمان»[4].

وقد جاء في حديث عياض المجاشعيرضي الله عنه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إنّ ربي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم ممّا علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبدا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم**

(1) تفسير مقاتل بن سليمان، (2/ 32).
(2) جامع البيان، الطبري، (17/ 103).
(3) سبق تخريجه. ينظر: (ص: 75).
(4) تفسير القرآن، السمعاني، (6/ 59).

أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللت لهم، وأَمَرَتْهُم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ...»[1]، ومعنى اجتالتهم؛ أي: صرفتهم عن مقتضى الفطرة الأصلية[2]

وهذا ما فعله الشيطان بقوم سبأ؛ حيث زيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن أعظم ما تتحقق به التزكية، وأوقعهم في طرق التدسية، قال تعالى عنهم: ﴿ **وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ** ﴾ [النمل:24].

وقد أقسم الله عز وجلّ في سورة الشمس على فلاح من زكى نفسه، وخيبة وخسران من دساها، وذكر نموذجا من نماذج التدسية ممثلا في قوم ثمود، وكثيرا ما يُذكر ثمود وعاد في القرآن الكريم مقترنين، وقد بيّن ﷻ أنّ من الموانع التي حالت بينهم وبين إتباع الحق؛ تزيين الشيطان لهم، قال جلّ ثناؤه: ﴿ **وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ** ﴾[العنكبوت:38]؛ «فالتزيين: التحسين، والمراد: زيّن لهم أعمالهم الشنيعة فأوهمهم بوسوسته أنّها حسنة... والصدّ: المنع عن العمل، والسبيل هنا: ما يُوصل إلى المطلوب الحق، وهو السعادة الدائمة، فإنّ الشيطان بتسويله لهم كُفْرَهُم قدّ حَرَمَهُم من السعادة الأخروية، فكأنّه منعهم من سلوك طريق يبلغهم إلى المقر النافع. والاستبصار: البصارة بالأمور... والمعنى: أنهم كانوا أهل بصائر، أي عقول فلا عذر لهم في صدهم عن السبيل»[3].

وقد بيّن الله عز وجلّ أنّ فرعون قد زُيّن له سوء عمله، فكان ذلك سببا في صدّه عن السبيل، قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ** ﴾ [غافر:37]، وقد ذهب بعض المفسرين إلى القول بأن الشيطان هو من زيّن له سوء عمله[4]، قال السعدي:«﴿ **وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ** ﴾

---

(1). سبق تخريجه. ينظر: (ص:23).

(2) ينظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، ت: محيي الدين ميستو، أحمد السيد، يوسف بديوي، محمود بزال، دار ابن كثير، بيروت، ط: 1، 1417 هـ - 1996 م، (6/ 712).

(3) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (20/ 249).

(4) ينظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، (9/ 30)، الكشاف، الزمخشري، (4/ 167)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، (3/ 212)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، ت: أحمد الخراط، دار القلم. دمشق، د ت ط، (9/ 483)، فتح القدير، الشوكاني، (4/ 564).

فزين له العمل السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويحسنه، حتى رآه حسنًا ودعا إليه وناظر مناظرة المحقين، وهو من أعظم المفسدين، ﴿وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ الحق، بسبب الباطل الذي زين له»(1).

فالآية تشير إلى أنّ تزيين الباطل سبب للصدّ عن سبيل الله ﷻ، وهو ما وقع فيه المشركون، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾[الأنفال:48]، وقال أيضا: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد:33].

ولمَّا كان من أهم ما تتحقق به التزكية الأعمال الصالحة؛ فإنّ الشيطان **يزيّن نقيضها**، لينحرف أتباعه عن التزكية إلى الضلالة، قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: 63]، «وتزيين الشيطان أعمالهم كناية عن المعاصي، فمن ذلك عدم الإيمان بالرسل...ومنها الابتداعات المنافية لما جاءت به الرسل عليهم السلام، مثل ابتداع المشركين البحيرة والسائبة، والمقصود: أن المشركين سلكوا مسلك من قبلهم من الأمم التي زين لهم الشيطان أعمالهم»(2).

ومن الأمور التي يزيّنها الشيطان ليوقع النّاس في الضلال؛ الحياة الدنيا وشهواتها، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: 212]، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنّ المزين هو الشيطان(3).

وبسبب تعلق المشركين بالدنيا أوقع الشيطان في قلوبهم الخوف من الفقر، فكان ذلك من أسباب قتلهم لأبنائهم كما بيّنه الله ﷻ في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾[الإسراء:31]، وفعلهم هذا كان بتزيين الشيطان لهم، يبيّن ذلك قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ﴾[الأنعام:137].

---

(1) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 738).

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (194/14).

(3) ينظر: تفسير القرآن، السمعاني، (1/ 212).

وتزيين الشيطان للإنسان أعمال السوء قد يجعله يرى القبيح حسنا، فيحسن الظن بنفسه، وذلك من أخطر الموانع التي تحول دون تزكية النّفس، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾[فاطر: 8].

الفرع الثاني: التشكيك وبثّ الخوف في النّفوس

ومن أساليب الشيطان ليبعد الناس عن التزكية، **بثّ الشك في النفوس**، وأعظم ما يركز عليه ما تعلّق بذات الله ﷻ، وهذا من أخطر الأساليب التي يعتمدها، فعن أبي هريرة ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا، حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته**»[1].

كما يبذل الشيطان وسعه لتشكيك النّاس في اليوم الآخر حتى يوقعهم في الكفر، يدلّ على ذلك قوله جلّ ثناؤه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [الزخرف:61_ 62]، قال ابن عطية: «قوله: فَلَا تَمْتَرُنَّ أي قل لهم يا محمد لا تشكون فيها. وقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾ إشارة إلى الشرع، ثم أمره بتحذير العباد من الشيطان وإغوائه ونبههم على عداوته»[2].

ومن أساليب الشيطان وأعوانه لزرع الشك في النفوس **بثّ الشبه**، حتى يوقع النّاس في الفتن، ويبعدهم عن وسائل التزكية، قال الله تعالى مبيّنا ذلك: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ ﴾[آل عمران:7]، «وهو حال أهل القصد الفاسد الذين يريدون القدح في القرآن، فلا يطلبون إلاّ المتشابه لإفساد القلوب ...وليس طلبهم لتأويله لأجل العلم والاهتداء بل لأجل الفتنة»[3].

وقد سطَّر القرآن الكريم بعضا من الشبه التي كانوا يلقونها لإضلال النّاس، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام: 121]، روى الطبري بسنده عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ

(1) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنده، رقم:3271، (4/ 122).

(2) المحرر الوجيز، ابن عطيّة، (5/ 62).

(3) تفسير المنار، رشيد رضا، (3/ 147).

﴿لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾: «يقولون: ما ذبح الله فلا تأكلوه، وما ذبحتم أنتم فكلوه! فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾»(1).

فلاحظ كيف ركّزوا على إلقاء الشبه ليوقعوا النّاس في أكل الحرام، ويبعدوهم عن أكل الحلال الذي يعتبر من أسباب التزكية.

كما أنّ الشيطان وأعوانه يبثون **الخوف في النّفوس** ليبعدوها عن الطاعة ويوقعوها في المعصية، ومن ذلك قول أهل الضلال للنبيﷺ ومن معه: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ [آل عمران: 173]، حتى يصدوهم عن الجهاد في سبيل الله جلّ ثناؤه، فحذّرهم الله سبحانه وتعالى من حيل الشيطان بقوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175]، قال الطبري: «يعني بذلك تعالى ذكره: إنما الذي قال لكم، أيها المؤمنون:﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ فخوفوكم بجموع عدوّكم ومسيرهم إليكم، من فعل الشيطان ألقاه على أفواه من قال ذلك لكم، يخوفكم بأوليائه من المشركين -أبي سفيان وأصحابه من قريش- لترهبوهم، وتجبنوا عنهم»(2).

وقد نفذ الشيطان من هذا المدخل إلى نفوس أهل الجاهلية فأوقعهم في الشرك بالله سبحانه وتعالى، حيث كانوا يستعيذون بالجن خوفا منهم، قال جلّ ثناؤه مبيّنا ذلك: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا﴾[الجن: 6]، قال ابن كثير: «كانوا إذا نزلوا واديا أو مكانا موحشا من البراري وغيرها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان، أن يصيبهم بشيء يسوؤهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم، ﴿فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا﴾؛ أي: خوفا وإرهابا وذعرا»(3).

كما أنّ الشيطان يخوِّف الناس من الفقر حتى يبعدهم عن الإنفاق في سبيل الله سبحانه وتعالى؛ لذا أمر الله جلّ ثناؤه بالإنفاق، وحذّر من العوارض التي تمنع من ذلك وعلى رأسها الشيطان، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم

(1) جامع البيان، الطبري، (80/12).
(2) المصدر نفسه، (7/ 416).
(3) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (8/ 239).

بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿267﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:267 _ 268]، ومما جاء في سبب نزول الآية ما رواه ابن أبي حاتم بإسناده عن البراء ﷺقال: «نزلت فينا،كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله بقدر كثرته وقلته، فيأتي رجل بالقِنْوِ[1]، فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصّفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع جاء فضرب بعصاه، فسقط منه البسر والتمر فيأكل، وكان أناس ممن لا يرغبون في الخير يأتي بالقِنْوِ الحَشَفِ[2] والشِّيصِ[3]، فيأتي بالقنو قد انكسر فيعلقه، فنزلت: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ ﴾، قال: لو أن أحدكم أهدي له مثل ما أعطى ما أخذه إلا على إغماض وحياء، فكنا بعد ذلك يجيء الرجل منا بصالح ما عنده»[4].

وقد علَّق صاحب الظلال على ما ورد في سبب نزول الآية أنّها «تشير إلى حالة واقعة في المدينة وترينا صفحة تقابل الصفحة الأخرى التي خطّها الأنصار في تاريخ البذل السمح والعطاء الفياض، وترينا أنّ الجماعة الواحدة تكون فيها النّماذج العجيبة السامقة، والنّماذج الأخرى التي تحتاج إلى تربية وتهذيب وتوجيه لتتجه إلى الكمال! كما احتاج بعض الأنصار إلى النهي عن القصد إلى الرديء من أموالهم، الذي لا يقبلونه عادة في هدية إلاّ حياء من ردّه، ولا في صفقة إلاّ بإغماض فيه أي؛ نقص في القيمة! بينما كانوا يقدمونه هم لله!

ومن ثم جاء هذا التعقيب: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾؛ غني عن عطاء النّاس إطلاقاً، فإذا بذلوه فإنما يبذلونه لأنفسهم فليبذلوه طيباً، وليبذلوه طيبة به نفوسهم كذلك، ﴿ حَمِيدٌ ﴾ يتقبل الطيبات ويحمدها ويجزي عليها بالحسنى.. ولكل صفة من الصفتين في هذا الموضع إيحاء يهزّ القلوب، كما هزّ قلوب ذلك الفريق من الأنصار فعلاً، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ ﴾ .. وإلاّ فالله غني عن الخبيث الذي تقصدون إليه فتخرجون منه صدقاتكم! بينما هو سبحانه يحمد لكم الطيب حين تخرجونه، ويجزيكم عليه جزاء الراضي الشاكر، وهو الله الرازق الوهّاب.. يجزيكم عليه جزاء الحمد، وهو الذي أعطاكم إيّاه من قبل! أي إيحاء! وأي إغراء! وأي تربية للقلوب بهذا الأسلوب العجيب!

ولما كان الكفّ عن الإنفاق، أو التقدم بالرديء الخبيث، إنما ينشأ عن دوافع السوء، وعن تزعزع اليقين فيما عند الله، وعن الخوف من الإملاق الذي لا يساور نفساً تتصل بالله، وتعتمد عليه، وتدرك أن مَرَدَ ما عندها إليه..

(1) القِنْو: العِذْق بِمَا فِيهِ مِنَ الرُّطَب، وجمعه: أَقْناء. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، (4/ 116).
(2) الحَشَف: اليَابِس الفاسِد مِنَ التَّمْرِ. ينظر: المصدر نفسه: (1/ 391)
(3) الشِّيصُ: التَّمر الّذي لَا يَشْتَدُّ نَوَاه ويَقْوى، وقد لَا يكونُ لَهُ نَوىً أَصلا. ينظر: المصدر نفسه: (2/ 518).
(4) جامع البيان، الطبري، (6/ 434).

كشف الله للذين آمنوا عن هذه الدوافع لتبدو لهم عارية؛ **وليعرفوا من أين تنبت النفوس وما الذي يثيرها في القلوب.. إنّه الشيطان..** ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ **الشيطان يخوفكم الفقر،** فيثير في نفوسكم الحرص والشح والتكالب، والشيطان يأمركم بالفحشاء؛ والفحشاء كل معصية تفحش أي تتجاوز الحد، وإن كانت قد غلبت على نوع معين من المعاصي ولكنها شاملة، وخوف الفقر كان يدعو القوم في جاهليتهم لوأد البنات وهو فاحشة، والحرص على جمع الثروة كان يؤدي ببعضهم إلى أكل الربا وهو فاحشة.. على أنّ خوف الفقر بسبب الإنفاق في سبيل الله في ذاته فاحشة.. وحين يعدكم الشيطان الفقر ويأمركم بالفحشاء، يعدكم الله المغفرة والعطاء: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ »[1]. ولا يستوي أهل المغفرة والعطاء بأهل البخل والفحشاء.

الفرع الثالث: الصدّ عن الطاعات

لما كانت الطاعات التي يتقرب بها العبد من ربه سبحانه وتعالى من أعظم ما تتحقق به التزكية، فإن الشيطان وأعوانه يبذلون وسعهم لمنع النّاس عنها، ومن ذلك صدّهم عن تحكيم شريعة الله جلّ ثناؤه باعتبارها من مقتضيات الإيمان بربوبيته سبحانه وتعالى؛ لذا فإنّ الشيطان أزلّ أهل الزيغ فتحاكموا إلى الطاغوت، قال جلّ ثناؤه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النساء: 60]، قال القاسمي في تفسيره لهذه الآية: «ووصفهم بادعاء الإيمان بالقرآن وبما أنزل من قبله؛ لتأكيد العجيب من حالهم وتشديد التوبيخ والاستقباح، ببيان كمال المباينة بين دعواهم المقتضية حتما للتحاكم إلى الرسول، وبين ما صدر عنهم من مخالفة الأمر المحتوم ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ الداعي إلى الطغيان بالحكم على خلاف المُنَزَّلِ إليك و المُنَزَّلِ على من قبلك... والمراد به هاهنا ما سوى كتاب الله وسنة رسوله، من الباطل ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟﴾ في جميع تلك الكتب ﴿أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي يتبرؤوا منه؛ لأنه تحاكم على خلاف ما أنزل الله في كتبه فيعصونه ويطيعون الشيطان ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي من الجن والإنس ﴿أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ عن الحق والهدى»[2].

ولما كان العلم من أهم الطاعات التي تتحقق بها التزكية، وضدّه الجهل، وأعظم الجهل ما تعلق بالله سبحانه وتعالى، فإن الشيطان وأعوانه يبثون ذلك ليكون عائقا عن حصول الاستقامة، لذا أمر إبراهيم عليه السلام والده باتباعه؛ لما آتاه

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب، (1/311_312).

(2) محاسن التأويل، القاسمي، (3/ 193).

الله ﷻ من العلم، وحذّره من الشيطان الذي يحول دون ذلك، فقال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾[إبراهيم:43_44].

وبهذا يتضح أنّ عدم العلم سبب لإعراض بعض أتباع الشيطان عن الحق، وممّا يؤكد ذلك قوله ﷻ عنهم: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 24].

ويُضاف إلى جهل هؤلاء **مجادلتهم لأهل الحق بغير علم**، ومن أسباب ذلك الشيطان أيضا، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[الحج: 3_4]، «والمعنى أنه: يُخاصم في قدرة الله، ويزعم أنّه غير قادر على البعث بغير علم في ذلك، إنما يقوله بإغواء الشيطان وطاعته إيّاه، وهو قوله: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ﴾ [الحج: 3]، قال ابن عباس: «المريد المتمرد على الله»، ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[الحج: 4]، قال ابن عباس: «قضى الله أن من أطاع إبليس أضله ولم يرشده، وجرّه إلى عذاب السعير»»(1). وقد جاء التحذير من اتباع سبيل الذين لا يعلمون، كما قال الله ﷻ لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يونس: 89].

ومن أعظم الأعمال التي تتحقق بها التزكية؛ الدعاء والتضرع إلى الله ﷻ؛ لذا يبذل الشيطان وسعه ليصدّ العبد عن ذلك، كما فعل بأهل الزيغ فابتعدوا عن أسباب الفلاح، ووقعوا في أسباب الشقاء بسبب إعراضهم وقسوة قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام:43].

ولمّا كانت الصلاة والذكر مما يحقق التزكية، فإنّ الشيطان يصدّ عنها بما يستعمله من وسائل خبيثة، ومن ذلك الخمر والميسر، وقد بين الله ﷻ ذلك فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:91].

---

(1) التفسير الوسيط، الواحدي، (3/ 259).

وباعتبار التزكية سبيلا للفلاح، وأداء الصلاة في المساجد من طرق تحقيقه، يظهر ذلك من خلال نداء المؤذن: (حي على الفلاح)، فإنّ الشيطان وأعوانه يصدُّون الناس عن بيوت الله سبحانه وتعالى، وهذا ما فعله المشركون حين صدوا أهل الإيمان عن أطهر بقعة، قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأنفال:34].

وربط الله تعالى الفلاح أيضا بالخشوع في الصلاة فقال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون:1_ 2]؛ لذا فإنّ الشيطان يسعى ليذهب عن الإنسان خشوعه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان له ضراط حتى لا يسمع الأذان، فإذا قضي الأذان أقبل، فإذا ثوّب أدبر، فإذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه، فيقول: اذكر كذا وكذا** – لما لم يكن يذكر قبل ذلك–»(1).

وقد بيّن الله سبحانه وتعالى حسرة الظالم يوم القيامة، وذلك بسبب اتباعه للشيطان الذي صدّه عن الذكر، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾[الفرقان: 27 ـ 29]، وجاء التأكيد في آية أخرى على دور الشيطان في الصدِّ عن ذكر الله جلّ ثناؤه، قال تعالى: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المجادلة: 19].

وقد أمر الله عز وجل بالاستعاذة من الشيطان عند إرادة قراءة القرآن، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل:98_ 100]، ومن الأوجه التي أوردها ابن القيم في سبب الأمر بالاستعاذة عند قراءة القرآن قوله: «ومنها أن الشيطان يجلب على القارئ بخيله ورَجله، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن، وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن، فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله عز وجل منه»(2).

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب السهو، باب يفكر الرجل الشيء في الصلاة، رقم: 1222، (62/2)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان رقم: 389، (291/1).

(2) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم، (93/1).

وقد اتبع أعوان الشيطان نفس المسلك فبذلوا وسعهم لصدِّ الناس عن سماع القرآن الكريم، قالﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾[فصلت:26]، وألصقوا بالنبيﷺ التهم حتى يُنفِّروا الناس عن منبع التزكية، ومن ذلك وصفهم له بالجنون، قال جلّ ثناؤه: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾[الحجر:6]، ووصفهم له بالسحر، قال تعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾[ص:4]، ووسموا القرآن بكونه أساطير الأولين: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾[الفرقان: 4_5].

كل هذا ليصدوا الناس عن الصراط المستقيم، وتلك طريقتهم التي يشتركون فيها مع أهل الانحراف، كالمنافقين فقد قال اللهﷻ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴾ [النساء:61]، وبين الله جلّ ثناؤه مقصدهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأعراف:45].

وبهذا يُعلم أنّ أولياء الشيطان يصدون عن السبيل، ويريدونها حياة عوجاء، وهم مع ذلك قد زيّن الشيطان ضلالهم فظنوه حسنا، قال تعالى: ﴿ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾[الرعد:33]، وقالﷻ: ﴿ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ (37) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ (38) وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴾[الزخرف:36_39]، قال ابن القيم: «أخبر سبحانه أن الشيطان يصدّ قرينه ووليّه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنّته، ويحسب هذا الضالُّ المصدودُ أنّه على طريق هدىً، حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر: يا ليت بيني وبينك بعدَ المشرقين، فبئس القرين كنتَ لي في الدنيا! أضللتَني عن الهدى بعد إذ جاءني، وصددتَني عن الحقّ، وأغويتَني حتّى هلكتُ، وبئس القرين أنت لي اليوم!»(1)، وهؤلاء تدحرجوا في مراتب الخسران، حتى وصلوا إلى أسفل سافلين، قال تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا (103) ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ [الكهف: 103_ 104]، وقد يتحقق لهؤلاء نصيب من الهداية والتزكية، لكن

---

(1) الجواب الكافي لمن سال عن الدواء الشافي، ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، المغرب، ط:1، 1418هـ - 1997م ، (ص:94).

الشيطان يصدهم عن ذلك ويزين لهم بحيله طريق الغواية، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ [محمد:25].

ولما كان من محاسن الأخلاق أكل الحلال، وهو من أسباب التزكية، فقد أمر الله ﷻ به ثم حذّر من الشيطان الذي يسعى ليمنع العبد من التزكي فيأمره بما يدنس نفسه، وبين أن له خطوات وطرائق يسعى من خلالها ليوقع العبد في الشقاء، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة:168_ 169]
«وخطوات الشيطان: طرائقه وأعماله التي يأمر بها؛ منها: الإساءة في تحصيل الرزق والكسب السيء»(1).

ومن الأخلاق التي بين الله أنها سبب للتزكية غض البصر وحفظ الفروج، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ [النور:30]؛ لذا يسعى الشيطان ليوقع الناس في نقيض ذلك، فعن حذيفة، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة فمن تركها من خوف الله أثابه جل وعز إيمانا يجد حلاوته في قلبه**»(2).

ومن الأخلاق التي تنشر الطهر والنقاء، الكلمة الطيبة؛ لذا يبذل الشيطان وسعه لينزغ بين الناس فيصدّهم عنها حتى يفسد أخوتهم، قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴾ [الإسراء:53]؛ لذا نجد يعقوب عليه السلام تفطن لكيد الشيطان وسعيه لبث الفرقة والخلاف بين الإخوة فنصح يوسف قائلا: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [يوسف: 5]، وقد نجح الشيطان في إيقاع إخوته في الشراك، قال يوسف عليه السلام ممتنا بنعم ربه ﷻ عليه، مبينا ما فعله الشيطان بإخوته: ﴿ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ ﴾ [يوسف: 100].

(1) حسن التنبه لما ورد في التشبه، نجم الدين الغزي، ت: بإشراف نور الدين طالب، دار النوادر، سوريا ، ط:1، 1432 هـ – 2011 م ، (252/6).

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الرقاق، رقم، 7875، (4/ 349)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

وقد جاء في السنة النبوية بيان حرص الشيطان لإفساد الأخوة والصدّ عنها، ومن ذلك ما جاء في تحذير النبيﷺ في حجّة الوداع قال: «**ألا إنّ الشيطان قد أَيِسَ أن يعبده المصلون، ولكن في التحريش بينكم** »[1].

وذكر النبيﷺ بذل الشيطان جهده لإفساد العلاقة الزوجية فعن جابر ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم، فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئا، قال: ويجيء أحدهم، فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله، قال: فيدنيه منه – أو قال: فيلتزمه – ويقول: نعم أنت أنت، قال أبو معاوية مرة: فيدنيه منه**» [2].

كل ما سبق ذكره من الطاعات وجميل القربات ممّا يسعى الشيطان إلى صدّ النّاس عنه، وإيقاعهم في خلافه، حتى يبعدهم عن معالم التزكية.

الفرع الرابع: التمنية وإشاعة الأخبار الكاذبة

من أساليب الشيطان لإضلال بني آدم تمنيتهم، ويقصد بذلك ما يبثه من الأماني والوعود الكاذبة، وقد توعد بذلك حين قال: ﴿ **وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ** ﴾ [النساء: 120]، «قوله: ﴿ **وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ** ﴾... يشعر بأنه لا حيلة له في الإضلال أقوى من إلقاء الأماني في قلوب الخلق، وطلب الأماني يورث شيئين: الحرص والأمل، والحرص والأمل يستلزمان أكثر الأخلاق الذميمة، وهما كالأمرين اللازمين لجوهر الإنسان، قالﷺ: «**يهرم ابن آدم ويشب معه اثنان الحرص والأمل**»[3].

والحرص يستلزم ركوب أهوال الدنيا وأهوال الدين فإنه إذا اشتد حرصه على الشيء فقد لا يقدر على تحصيله إلا بمعصية الله وإيذاء الخلق، وإذا طال أمله نسي الآخرة وصار غريقا في الدنيا فلا يكاد يقدم على التوبة، ولا يكاد يؤثر فيه الوعظ فيصير قلبه كالحجارة أو أشد قسوة»[4].

وقد بيّن اللهﷻ أنّ وعود الشيطان وأمانيه لا تقوم على حق، بل إنها مجر سراب خادع، قال تعالى: ﴿ **يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا** ﴾ [النساء: 120].

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً، رقم: 2812، (4/ 2166).

(2) أخرجه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً، رقم: 2813، (4/ 2167).

(3) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم: 12142، (19/ 189)، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين». ومسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا، رقم: 114، (2/ 724) بلفظ: "المال والعمر".

(4) مفاتيح الغيب، الرازي، (223/11).

وذكر الله جلّ ثناؤه أن الشيطان سيتبرأ من أتباعه يوم القيامة، ويظهر لهم حقيقة وعوده، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم:22].

ومن حبائل الشيطان ليبعد الناس عن التزكية؛ **إشاعة الأخبار الكاذبة والطعن في الأعراض البريئة، وإثارة الفتن**؛ لذا حذّر الله ﷻ منه عقب بيان براءة عائشة رضي الله عنها، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور:21]، وفي هذا تعليم للمسلم أن من أسباب التزكية؛ التثبت من الأخبار، والتحذير من الوقوع في أعراض الناس، فالشياطين تسعى جهدها لنشر الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾[النساء:27].

وخلاصة هذا المبحث أنّ الشيطان أخطر عدو للإنسان، وقد ذكر الله ﷻ ذلك وحذّر منه؛ لأنّه يحول بين العبد وتزكية نفسه. وللشيطان أعوان في مهمته يوحي بعضهم إلى بعض، فبينهم وبين وليّهم مناسبة طبيعية في أوصافهم وأخلاقهم وأعمالهم. ولقد أدرك الأنبياء والصالحون خطورة الشيطان وأعوانه، وسعيهم لأبعاد الناس عن التزكية، فحذّروا منهم واستعاذوا بالله ﷻ من شرهم.

وللشيطان وأعوانه حيل وأساليب يسعون من خلالها لإبعاد النّاس عن طريق التزكية، ومن ذلك تزيين الباطل، و التشكيك وبثّ الخوف، والصدِّ عن الطاعات، بالإضافة إلى التمنية وإشاعة الأخبار الكاذبة.

ومن حبائل الشيطان التي يستخدمها لإضلال النّاس؛ تزيين الدنيا لهم، وهي من أكبر العوائق في طريق الصلاح، وهذا ما سيأتي بيانه في المبحث الموالي.

المبحث الثاني: الاغترار بالدنيا

من أشد الموانع التي تحول دون تزكية الإنسان نفسه؛ الاغترار بالدنيا والتعلّق بشهواتها، كحُبِّ المال والسعي لنيل الشرف والرياسة، فكثيرا ما تكون هذه البلايا سببا في ردّ الحق وعدم قبوله، وقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة في بيان خطورة الدنيا، وذكرت نماذج لمن اغتروا بمُتَعِها فكان ذلك سببا في انحرافهم، وهذا ما سأبيّنه من خلال مطلبين:

المطلب الأول: خطورة الدنيا وشهواتها

وردت الكثير من النصوص الشرعية في بيان خطورة الدنيا وشهواتها كحُبِّ الرياسة والشرف، والتعلّق بالمال، وفتنة النساء...؛ إذ تحول بين المنكبّ عليها وتزكية نفسه، وفيما يلي بيان ذلك:

الفرع الأول: التعلّق بالدنيا سبب في الغفلة والانحراف

من خصائص الحياة الدنيا أنّها تستميل النّفوس إلى التعلّق بها، وتغرّر بصاحبها، قال تعالى: ﴿ **وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ** ﴾ [آل عمران: 185]، وكم كانت فتنة الدنيا سببا في الغفلة عن آيات الله ﷻ، قال جلّ ثناؤه: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ** ﴾[يونس:7].

وقد بيّن الله ﷻ أنّ الغفلة تسبب فساد القلب وزوال نور الهداية عنه، فلا ينتفع بوسائل التزكية، ومن الأسباب الموصلة لذلك التعلّق بالعاجلة ونسيان الآجلة، قال تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ (107) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ** ﴾ [النحل:107_108].

وقد يكون تأثير الدنيا على النفوس من جهة التّعلق ببعض علومها والاغترار بذلك، ممّا يؤدي أيضا إلى مرض الغفلة الذي يحول دون طهارة النّفس ونمائها، وهذا الصنّف هو المقصود من قوله تعالى: ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ** ﴾ [الروم:7]، فحُبُّ الدنيا وتعلّقهم بها جعلهم لا يعتبرون ولا يرتدعون، قال

أبو حامد الغزالي: «وأما الجاحدون والغافلون والمغترون بلامع السراب من زهرة الدنيا فإنهم لا يبصرون ولا يسمعون؛ لأنهم عن السمع معزولون، وعن آيات ربهم محجوبون»(1).

ونظرا للصّلة الوطيدة بين الاغترار بالدنيا ومرض الغفلة، أمر اللهﷻ نبيّهﷺ بالإعراض عن هؤلاء المتعلقين بظاهر العلم الذي لا يتعدى حدود شهواتهم الفانية، قال تعالى: ﴿ **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿29﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ** ﴾[النجم:29_30].

وأمر الله جلّ ثناؤه نبيّهﷺ أن يحبس نفسه مع المؤمنين وأن يجلس إليهم، وأن لا يلتفت إلى أهل الغفلة ممن اغتروا بالحياة الدنيا، حيث قالﷻ: ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾[الكهف:28].

وفي توجيه النبيﷺتربية لأمته، فمتى تخلّت عن هذه الوصية أُصيبت بداء الغفلة، وقد جاء في السنّة النبوية ما يبيّن وقوعها فيه آخر الزمان، فيكون ذلك مانعا من ارتقائها في مراتب التزكية، فيضيع دورها الرّيادي المنوط بها، وفوق ذلك تتكالب الأمم عليها وتستبيح بيضتها، فعن ثوبانﷺ عنه قال: قال رسول اللهﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**» فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال:«**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن**». **فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال:» حب الدنيا وكراهية الموت**»(2).

قال الطيبي: «يوشك أن تتداعى عليكم بعضهم بعضا؛ ليقاتلوكم ويكسروا شوكتم ويغلبوا على ما ملكتموه من الديار والأموال، كما أن الفئة الأكلة تتداعى بعضهم بعضا إلى قصعتهم التي يتناولونها من غير ما بأس ولا مانع ... فيستفرغوا ما في صحفتكم من غير ما تعب ينالهم أو ضرر يلحقهم أو بأس يمنعهم ... والغُثاء؛ ما يحمله السيل من القماش، شبّههم بذلك لقلة عنائهم ودناءة قدرهم وخفة أحلامهم، وقول القائل: «وما الوهن؟» سؤال عن نوع الوهن، أو كأنه أراد من أي وجه يكون ذلك الوهن؟ فقال: «**حب الدنيا**»، يريد أن حب البقاء في الدنيا

(1) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، (2/ 246).

(2) أخرجه أبو داود في سننه، باب في تداعي الأمم على الإسلام، رقم: 4297، (6/ 355)، وحسنه شعيب الأرنؤوط.

وكراهية الموت يدعوهم إلى إعطاء الدنية في الدين واحتمال الذل من العدو، نسأل الله العافية فقد ابتلينا به وكأنه نحن المعنيون بذلك»(1).

هذا الحديث عَلَم من أعلام النبوة، وتأمل بما ختم الطيبي كلامه فقد ذكر أنّ الأمة ابتليت بذلك، وهذا الكلام ذكره عن زمانه؛ أي القرن السابع للهجرة، فكيف الحال بأمة الإسلام اليوم؟ وقد تحقّق فيها تشبيه النبيﷺ لها بقصعة الطعام كناية على أنّها أرض خير وبركة، هذا وقد قيل يوم كانت أرض الإسلام صحراء قاحلة إن تعطّلت رحلة الشتاء والصيّف ذاق النّاس بأس الجوع والفاقة، فصارت بلاد الإسلام اليوم تدرّ عسلا ولبنا بما تحويه من خيرات باطنية تشمل مختلف المعادن ومواد الطاقة، دون أن نُغفل تعدد تضاريسها وتباين مناخها، وكثرة إطلالاتها على المضايق البحرية والمحيطات، أضف إلى ذلك سلامتها من الكوارث العاتية، كالزلازل والبراكين...، كما أنّها أكثر الأمم عددا وأشدّها فتوة وشبابا، إلاّ أن الوهن أصابها؛ فصارت خيراتها تُساق بكل يسر وسهولة إلى أعدائها، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وقد أوتيت ــ كما بين الحديث ــ من جهة تعلّقها بالدنيا ونسيان الآخرة.

وبسبب الغفلة يحصل الانحراف، وهو نتيجة حتمية للتعلّق بالدنيا وشهواتها، قال جلّ ثناؤه: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ [الإسراء:83]، فهذه الآية إشارة إلى سبب وقوع الضالين في أودية الضلال، وهو حب الدنيا وإيثارها على الأخرى، وكفران نعمه تعالى بالإعراض عن شكرها، والجزع واليأس من الفرج عند مسّ شر قضى عليهم، وكل ذلك مما ينافي عقد الإيمان(2).

وتأمل خطاب الله تعالى لأهل الضلال يوم القيامة منكرا عليهم إعراضهم عن التزكية التي جاء بها الرّسل مع بيان سبب ذلك، قالﷻ: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾[الأنعام: 130]، قال الطبري: «﴿ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾؛ يعني: زينة الحياة الدنيا، وطلب الرياسة فيها والمنافسة عليها، أن يُسْلِمُوا لأمر الله فيطيعوا فيها رسله، فاستكبروا وكانوا قوما عالين، فاكتفى بذكر الحياة الدنيا من ذكر المعاني التي غرّتهم وخدعتهم فيها؛ إذ كان في ذكرها مكتفى عن ذكر غيرها، لدلالة الكلام على ما تُرك ذكره»(3).

(1) الكاشف عن حقائق السنن، الطيبي، (11/ 3393).

(2) محاسن التأويل، القاسمي، (6/ 499) (بتصرف).

(3) جامع البيان، الطبري، (12/ 123).

والكثير من أهل الانحراف إنّما اغتروا بالحياة الدنيا فصارت غاية مطلبهم، فضيّعوا تزكية نفوسهم، فلم يكن لهم في الآخرة من نصيب، قال تعالى: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ [البقرة: 200]؛ لأنهم باعوا الباقية بالفانية فأعدّ اللهﷻ لهم عذابا شديدا:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: 86]، قال الطبري: «فأخبر جل ثناؤه أنّ هؤلاء هم الذين اشتروا رياسة الحياة الدنيا على الضعفاء وأهل الجهل والغباء من أهل ملتهم، وابتاعوا المآكل الخسيسة الرديئة فيها بالإيمان، الذي كان يكون لهم به في الآخرة – لو كانوا أتوا به مكان الكفر – الخلود في الجنان، وإنما وصفهم الله جل ثناؤه أنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة؛ لأنهم رضوا بالدنيا بكفرهم بالله فيها، عوضا من نعيم الآخرة الذي أعده الله للمؤمنين، فجعل حظوظهم من نعيم الآخرة بكفرهم بالله، ثمنا لما ابتاعوه به من خسيس الدنيا»(1).

وعلى عكس هؤلاء فإن أهل التزكية يسألون الله عز وجل أن يؤتيهم في دنياهم ما يعينهم على صلاحهم، كما يسألون اللهﷻ أنّ يجازيهم في الآخرة بما يجازي به عباده المتقين، قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة:201].

والفرق بينهما واضح؛ فالصنف الأول يطلبون حظَّ الدنيا مطلقا، لا يبالون أكانت شهواتهم وحظوظهم حسنة أم سيئة، ولا يميّزون بين نافع وضار، فباستيلاء حُبِّ الدنيا عليهم لم يكن للآخرة وما أعدّه الله فيها للمتقين من الرضوان موضعا من نفوسهم يرجون ويدعون الله عليه.

وأما الصنف الثاني فيسألون حسنة الدنيا، والمقصود بذلك ما كان حلالا طيبا، ولا يغفلون عن الآخرة، فشتان بين الفريقين.

الفرع الثاني: التعلق بالدنيا سبب للصدّ عن سبيل اللهﷻ

قد لا يتوقف التعلّق بالدنيا على غفلة وانحراف صاحبها عن معالم التزكية حتى يصل به الحال إلى الصدّ عن طريق الهداية، وهذا ما بيّنه المولىﷻ في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾[إبراهيم: 3]. « و ﴿ يَسْتَحِبُّونَ ﴾ بمعنى يحبون، فالسين والتاء للتأكيد مثل استقدم واستأخر. وضمن يستحبون معنى يؤثرون؛ لأن المحبة تعدت إلى الحياة الدنيا

(1) جامع البيان، الطبري، (2/ 316).

عقب ذكر العذاب الشديد لهم، فأنبأ ذلك أنهم يحبون خير الدنيا دون خير الآخرة»[1]، ومعنى ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ «أي: أنهم لم يكتفوا بحُبِّ الدنيا على الآخرة فقط، ولم يكتفُوا بالسَّيْر في طريق الشهوات والملذَّات وتخريب ذواتهم، بل تمادَوْا في الغي وصَدُّوا غيرهم عن سبيل الله...

ثم تأتي مرحلة جديدة: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يبغون شريعة الله مُعْوجة لتحقق لهم نزواتهم. وهكذا نجد ثلاث مراتب للضلال، استحباب الحياة الدنيا على الآخرة؛ والصَّد عن سبيل الله؛ وتشويه المنهج كي يُكرِّهوا الناس فيه.

ويصف الحق سبحانه هؤلاء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ﴾ أي: أن أصحاب المرتبة في الضلال هم مَن استحبَّوا الحياة الدنيا على الآخرة، والذين توغَّلوا في الضلال أكثرَ فهم الذين يصدون عن سبيل الله؛ أما الذين توغلَّوا أكثر فأكثر فَهُم الذين يُشوِّهون في منهج الله لتنفير الناس منه، أو ليحقق لهم نزواتهم، وهكذا ساروا إلى أبعد منطقة في الضلال»[2].

ويُضاف إلى فعلهم هذا سيئات أخرى، ومن ذلك الاستهزاء بأهل الإيمان، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[البقرة:212].

كما أنّ اغترارهم بالفانية يوقعهم في الاستهزاء بآيات الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾[الأعراف:51].

ولخطورة التعلق بالدنيا أورد القرآن والسنة نماذج لمن اغتروا بها فكان ذلك مانعا من تزكيتهم، وهذا ما يأتي بيانه في المطلب الموالي.

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (13/ 184).

(2) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم ــ مصر، د ت ط، (12/ 7432).

المطلب الثاني: نماذج لمن اغتروا بالحياة الدنيا

أورد القرآن الكريم والسنّة النبوية بعض النماذج التي صدّها تعلّقها بالدنيا عن أنوار الهداية، فَبْتُلُوا بعمى البصيرة، والمقصد من ذكر حال هؤلاء اجتناب طريقهم.

والتعلق بالدنيا قد يكون من جهة حُبِّ الشرف والرياسة، كما قد يكون من جهة حُبِّ المال والشهوات، وقد سطر القرآن الكريم والسنة النبوية نماذج لكل نوع:

الفرع الأول: نماذج لمن اغتروا بالرياسة والشرف

ذكر القرآن الكريم والسنة النبوية نماذج عديدة لمن امتنعوا عن التزكية بسبب حُبِّ الرياسة والشرف، ومن هؤلاء **فرعون ومن شايعه**، حيث أعرضوا خوفا على سلطانهم، ﴿ **قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ** ﴾[يونس:78]، فقولهم: ﴿ **أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا** ﴾، قال السدي: «لتصدنا عن آلهتنا، وفي هذا ما يدل على أنهم انقطعوا عن الدليل وعجزوا عن إبراز الحجّة، ولم يجدوا ما يُجيبون به عما أورده عليهم، بل لجؤوا إلى ما يلجأ إليه أهل الجهل والبلادة، وهو الاحتجاج بما كان عليه آباؤهم من الكفر، وضمّوا إلى ذلك ما هو غرضهم وغاية مطلبهم وسبب مكابرتهم للحق وجحودهم للآيات البينة وهو الرياسة الدنيوية التي خافوا عليها وظنوا أنها ستذهب عنهم إن آمنوا»(1).

وقالوا أيضا: ﴿ **أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ** ﴾ [المؤمنون:47]؛ «أَنِفُوا أن يؤمنوا ويتبعوا موسى وهارون وينقادوا لهما وبنو إسرائيل عبيد لهم؛ ولهذا قيل: «إن فرعون لما أراد متابعة موسى وتصديقه شاور هامان وزيره، فقال: «بينما أنت إله تُعبد تصير عبدا تَعبد غيرك» فأبى العبودية واختار الرياسة والإلهية»(2).

وقد كانت الرياسة وحب الشرف سبب استنكاف **صناديد قريش** عن اتباع النبيﷺ، وعلى رأس هؤلاء أبو جهل، فقد سأله المسور بن مخرمة قائلا: «يا خال، هل كنتم تتهمون محمدا قبل أن يقول ما قال؟ فقال: يا ابن أختي! والله لقد كان محمد فينا صادقا وهو شاب، يدعى الأمين، فما جربنا عليه كذبا قط، قال: يا خال! فما لكم لا تتبعونه؟! قال: يا ابن أختي تنازعنا نحن وبنو هاشم **الشرف**، فأطعموا وأطعمنا، وسقوا وسقينا، وأجاروا وأجرنا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي فمتى ندرك مثل هذه؟»(3).

---

(1) فتح البيان في مقاصد القرآن، القنوجي، (6/ 105).

(2) غاية الأماني في الرد على النبهاني ، أبو المعالي محمود الألوسي، ت: أبو عبد الله الداني، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية ، ط:، 1422هـ- 2001م، (1/ 171).

(3) أخرجه ابن إسحاق في السير والمغازي (ت: سهيل زكار، دار الفكر – بيروت، ط:1، 1398هـ /1978م)، (ص: 190).

يلاحظ من كلام أبي جهل تصريحه بالمنافسة الشديدة التي كانت بين عشيرته وبني هاشم لأجل إدراك أعلى مراتب الشرف، وقد ظهر له أنّ بنبوة محمدﷺ قد حاز هؤلاء ما لا يمكن إدراكه. ومما يؤكد امتناعه عن قبول الحق لأجل هذا الغرض قول الأخنس بن شريق له يوم بدر: «يا أبا الحكم! أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا؟ فقال أبو جهل: ويحك! والله إن محمدا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟»(1).

قال الألوسي: «وهذا ما منع هرقل وأضرابه من ملوك الكفار، الذين علموا نبوة النبي المختار، وتيقنوا من صدقهﷺ وأقروا بذلك باطنا، وأحبوا الدخول في دينهﷺ، لكنهم خافوا على ملكهم، فهذا داء أرباب الملك والولاية والرياسة، وقلّ من نجا منه إلاّ من عصم الله»(2).

وممن حرص على الدنيا والرياسة فيها **اليهود**، فكان ذلك من الموانع التي حالت دون حصول التزكية لهم، قال تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: 96]، ومعنى الآية: «لتجدن أشد الناس حرصا على الحياة في الدنيا، وأشدهم كراهة للموت، اليهود... وإنما وصف الله جل ثناؤه اليهود بأنهم أحرص الناس على الحياة، لعلمهم بما قد أعد لهم في الآخرة على كفرهم بما لا يقر به أهل الشرك، فهم للموت أكره من أهل الشرك الذين لا يؤمنون بالبعث، لأنهم يؤمنون بالبعث، ويعلمون ما لهم هنالك من العذاب. والمشركون لا يصدقون بالبعث ولا العقاب، فاليهود أحرص»(3).

وقد نصب اليهود العداوة لأهل الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ [المائدة: 82]، ومن الأسباب التي حملتهم على ذلك حرصهم الشديد على الشرف والرياسة، قال القنوجي: «إن اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا وطلب الرياسة، ومن كان كذلك كان شديد العداوة للغير»(4).

وقد ذكر الله ﷻ إعراض الكثير عن القرآن فقال: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [فصلت: 3_4]،«وإعراضهم يحتمل وجهين:

---

(1) أخرجه الطبري في تفسيره، رقم: 13193، (11/ 333).

(2) غاية الأماني في الرد على النبهاني، الألوسي، (1/171).

(3) جامع البيان، الطبري، (2/ 369، 371).

(4) فتح البيان في مقاصد القرآن، القنوجي، (4/ 34).

أحدهما: أي: أعرضوا عن التفكر فيه والتأمل. والثاني: أعرضوا عن إتباعه بعدما تأملوا فيه وتفكروا، وعرفوا أنه حق وأنه من الله تعالى، لكنهم تركوا إتباعه عنادًا منهم ومكابرة؛ حذرا عن ذهاب الرياسة»[1].

وتأمل طريقة المفسدين المعرضين تجد أن كثيرا منهم اقترن بحُبِّ الرياسة والجاه، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[الأنعام:123]، فالمقصود بالأكابر: الرؤساء المترفين[2]، وقد أوضح الزجاج سبب ميولهم للفساد فقال: «لأن الأكابر ما هم فيه من الرياسة والسَّعةِ أدعى لهم إلى المكر والكفر، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الشورى:27]»[3].

وهؤلاء المترفون معارضون لكل إصلاح، ناكبون عن طريق التزكية، تاركون لأسبابها كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: 116]، «أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي: لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعقدوا هممهم بالشهوات، واتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والترف، من حب الرياسة والثروة، وطلب أسباب العيش الهنيء، ورفضوا ما وراء ذلك ونبذوه وراء ظهورهم»[4].

وعلى رأس أهل الظلم **المنافقون** المتعاونون على محاربة معالم التزكية، التاركون لأسبابها كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأداء الزكاة، العاملون بضد ذلك، قال تعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[التوبة: 67]، «وقبض الأيدي: كناية عن الشح، وهو وصف ذم لدلالته على القسوة، لأن المراد الشح على الفقراء»[5].

---

(1) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، (9/ 59).

(2) ينظر: التفسير الوسيط، الواحدي، (2/ 319).

(3) معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج ، ت:عبد الجليل شلبي عالم الكتب – بيروت، ط:1، 1408 هـ - 1988 م، (2/ 288).

(4) الكشاف، الزمخشري، (2/ 437).

(5) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (10/ 254).

فالأصل في المنافقين ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن فعلوا ذلك فرغبة في الشرف والرياسة، كحال ابن سلول حيث كان كل يوم جمعة يقوم خطيبا في المسجد يأمر باتباع النبيﷺ، ولم يكن ما في قلبه يظهر إلا لقليل من الناس ــ إن ظهر ــ، وكان معظّما في قومه، كانوا قد عزموا على أن يُتوِّجوه ويجعلوه مثل الملك عليهم، فلما جاءت النبوة بطل ذلك فحمله الحسد على النفاق[1]، فلما فاته ما أراد، تظاهر بالإيمان والنصح ليستدرك ما فاته من المكانة والشرف.

كما أن الأصل في المنافقين عدم الإنفاق على الفقراء، لحبهم لأسباب الثروة والعيش الهنيء، فإن فعلوا ذلك فرغبة في الشرف والمكانة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: 38]، قال الماتريدي: «قيل: إنها نزلت في الذين يسعون في معاداة رسول الله ﷺ، ويخرجون معه ينفقون أموالهم مراءاة للناس، يطلبون بذلك الرياسة»[2].

«وكم بقي على الباطل وهو يعلم أنه باطل بهذه الذريعة ــ أي حب الرياسة والشرف ــ من طوائف هذا العالم في سابق الدهر ولاحقه، فمنهم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر، ومنهم من حبسه عن الخروج إلى السنة من البدعة، وإلى الرواية الصحيحة من الرأي البحت»[3]، قال الزمخشري: «فأهل الزيغ كان فيهم من لم يصدّه عن الإسلام إلا داء واحد: وهو حب الرياسة، وكفى به داء عضالا»[4]، «ولولا مانع الكبر والحسد، والرياسة والمعاداة في الكفار، لكانت الرسل أحبّ إليهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم، ولما زال هذا المانع من قلوب أتباعهم، كانت محبتهم لهم فوق محبة الأنفس والأهل والمال»[5].

ولصعوبة هذا الداء فإنه يبتلى به حتى العلماء والعبّاد وقلّ من ينجو منه، قال الطِّيبي: «وهو من أضر غوائل النفس، وبواطن مكائدها، يبتلى به العلماء والعباد، والمشمرون عن ساق الجد لسلوك طريق الآخرة، فإنهم مهما قهروا أنفسهم، وفطموها عن الشهوات، وصانوها عن الشبهات، عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة، الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير، وإظهار العلم والعمل، فوجدت مخلصًا من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق، ولم تقنع باطلاع الخالق تبارك وتعالى، وفرحت بحمد الناس، ولم تقنع بحمد الله وحده، فأحب مدحهم وتبركهم بمشاهدته وخدمته وإكرامه وتقديمه في المحافل، فأصابت النفس في ذلك أعظم

(1) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (7/ 280) (بتصرف).
(2) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، (3/ 182).
(3) فتح البيان في مقاصد القرآن، القنوجي، (6/ 105).
(4) الكشاف، الزمخشري، (3/ 282).
(5) الطب النبوي، ابن القيم، (ص: 204).

اللذات وأعظم الشهوات، وهو يظن أن حياته بالله تعالى وبعبادته، وإنما حياته هذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دركها العقول الناقدة ... وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصدّيقون، ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حبّ الرياسة»(1)، وقد بين النبيﷺ خطورة هذا الداء محذرا منه فقال: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»(2). وبهذا يعلم خطورة هذا الداء المانع من تحقيق التزكية.

الفرع الثاني: نماذج لمن اغتروا بالمال والشهوات

إذا كان حُبُّ الرياسة والشرف قد أضل كثيرا من النّاس، فإنّ حُبَّ المال والشهوات من أخطر الموانع التي تحول دون التزكية، وقد وقع فيه **فرعون** كما وقع في حبّ الشرف والرياسة، قال الله جلّ ثناؤه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس:88]، قال ابن عاشور: «ولما كانت النعمة مغرية بالطغيان لأهل الجهالة والخباثة جعل موسى إمداد فرعون بالنعمة مغريا لفرعون بالاسترسال على الإعراض عن الدين، فكان دعاء موسى عليهم استصلاحا لهم وتطلبا لإيمانهم بوسائل التشديد عليهم، ولكن الله علم من قلوبهم ما لم يعلمه موسى وقضى عليهم بالاستئصال...»(3). وذكر أنّ اللام في قوله:﴿ لِيُضِلُّوا۟ ﴾ هي لام العاقبة وعزا ذلك لأهل التحقيق، فالمعنى: «إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فضلوا بذلك وأضلوا»(4).

وهذا ما جعل **قارون** يستطيل على قومه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ [القصص: 76].

وقد نصحه أهل الإيمان من قومه كما قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ (76) وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: 76_77]، غير أنّه لم ينتفع بذلك واستمرّ في ظلمه وطغيانه، و:﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: 78].

---

(1) الكاشف عن حقائق السنن، الطيبي، (11/ 3375).

(2) أخرجه الترمذي، رقم: 2376 (4/ 588)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»..

(3) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (11/ 268).

(4) ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

فالآيات السابقة واضحة في أنّ الاغترار بالدنيا سبب في الطغيان، وهذا ما ذكره اللهﷻ في قوله: ﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾[الشورى:27]، وهذه الآية نزلت من أجل قوم من أهل الفاقة من المسلمين تمنوا سعة الدنيا والغنى(1) فبيّن الله جلّ ثناؤه لهم أنّه يصرف الرّزق بحكمة، ولو بسط لهم لغفلوا عن طاعة الله، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا، فأوجبت لهم الوقوع فما تشتهيه نفوسهم، ولو كان معصية وظلما(2).

وهذا الذي أهلك **بني إسرائيل** فباعوا الآخرة بالدنيا، خوفا من بطلان مأكلهم وأموالهم التي تصير إليهم من قومهم؛ ولذا خاطبهم الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران:116]، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ قال ابن عباس:«يريد قريظة والنضير»، ﴿ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ أي: لن تدفع عنهم الضَّرَرَ إذا نزل بهم أموالُهم ولا أولادُهم، خُصَّا بالذكر؛ لأنهما مُعتَمَد ما يقع به الاغترارُ، فإذا لم يغنيا، فغناء مَن دونهما أبعد، وقال الزجّاج: «لأن رؤساء اليهود مالوا إلى الأموال في معاندتهم النبيﷺ، وإنما قامت لهم الرياسة، واكتسبوا الأموالَ بمعاندته، والدليل على ذلك: قوله تعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾[البقرة:79]»(3)، والآية عامة في كل من صرفته متع الدنيا من مال وشهوات عن التزكية، قال الطبري: «وهذا وعيد من الله عز وجل للأمَّة الأخرى الفاسقة من أهل الكتاب ... ولمن كان من نظرائهم من أهل الكفر بالله ورسوله»(4).

ولأجل المال باع أهل التدسية شرفهم، وهذا ما كان عليه **أهل الجاهلية**، وقد نهاهم اللهﷻ عن هذا الفعل الشنيع فقال: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [النور:33].

(1) ينظر: جامع البيان، الطبري، (21/ 535).

(2) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 759) (بتصرف يسير).

(3) التفسير البسيط، أبو الحسن علي الواحدي، عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.ط: الأولى، 1430 هـ ، (523/5).

(4) جامع البيان، الطبري، (4/ 58).

وكم كان المال سببا في فساد الكثير، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴾ [الإسراء: 83]، فالآية تبين أنّ أهل التدسية يغترون بالدنيا غنى وفقرا، فإذا أوتوا منها أعرضوا عن الطاعة، وإذا منعوا أصابهم اليأس والقنوط، ولهذا كان النبيﷺ يوصي قائلا: «**بادروا بالأعمال سبعا هل تنظرون إلا إلى فقر منس، أو غنى مطغ، أو مرض مفسد، أو هرم مفند، أو موت مجهز، أو الدّجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر**»(1).

فالحديث يبيّن أنّ أهل الغفلة يفسدهم الفقر ويطغيهم الغنى، بل إنّهم ليبيعون دينهم لأجل حطام الدنيا وهذا ما ذكره النبيﷺ عن فتن آخر الزمان، حيث قال: «**بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**»(2).

ونظرا للمآل المخزي الذي يصاحب المتعلّق بالدنيا، كان النبيﷺ يستعيذ منها دبر كل صلاة، فيقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر**»(3)، وكان يعلّم الكلمات السابقة للصحابة الكرام، فعن سعد بن أبي وقاصﷺ، قال: «**كان النبي ﷺيعلمنا هؤلاء الكلمات، كما تعلم الكتابة...**»(4).

وصفوة القول أنّ الحياة الدنيا تستميل النّفوس إلى التعلّق بها، فتكون سببا في الغفلة والانحراف، وقد أورد القرآن بعض النماذج التي صدها تعلّقها بالدنيا عن أنوار الهداية فبلوا بعمى البصيرة، ومن هؤلاء فرعون ومن شايعه؛ حيث غرّته الرياسة وحب الشرف فاستنكف عن قبول الحق وعلا وتجبر، وكذلك كان حال صناديد قريش وعلى رأسهم أبو جهل، وهذا ما منع هرقل و أضرابه من ملوك الكفار، الذين علموا نبوة النبي المختار، وتيقنوا من صدقهﷺ وأقروا بذلك باطنا، لكنهم خافوا على ملكهم، ومن خلال حرص اليهود على الدنيا والرياسة عادوا أهل الإيمان، كما كان ذلك سببا في معاداة أبي بن سلول للنبيﷺ، ولخطورة حب الرياسة والشرف، فإنّه لا يسلم منه حتى بعض العلماء ممن لم ينتفعوا بعلمهم.

وإذا كان حب الرياسة والشرف قد أضل كثير من النّاس، فإن حب المال من أعظم الموانع أيضا، وهذا ما جعل قارون يستطيل على قومه، ولأجل المال با ع أهل التدسية شرفهم، وهذا ما كان عليه أهل الجاهلية، حيث يكرهون فتياتهم على البغاء طلبا لعرض الدنيا.

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في المبادرة بالعمل، رقم: 2306، (4/ 552)، قال: « هذا حديث حسن غريب».

(2) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، رقم: 186، (1/ 110).

(3) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب ما يتعوذ من الجبن، رقم: 2822، (4/ 23).

(4) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب التعوذ من فتنة الدنيا، رقم: 6390، (8/ 83).

ونظرا لخطورة التعلق بالدنيا فقد كان النبيﷺ يستعيذ منها، ويبين خطورتها حتى لا نغتر بها.

ومن المفاسد التي تنجر عن التعلّق بالدنيا وشهواتها؛ الحسد والكبر، وهو من أشد موانع التزكية، وسأخصص المبحث الموالي لبيان ذلك.

المبحث الثالث: الكبر والحسد

من أعظم الصوارف عن التزكية الكبر والحسد، وقد أوردتهما معا لتلازمهما؛ إذ إنّ الحسد منشؤه من الكبر، وهو ما حمل الشيطان على حسد آدمعليه السلام؛ حيث ظهر له أنّه خير منه، وهذا هو التكبر بعينه.

ويأتي هذا المبحث ليبين تأثير هذين المريضين في حصول التزكية، من خلال مطلبين، خصصت الأول لبيان خطورة الكبر والحسد، بينما يأتي المطلب الموالي لإيراد نماذج لمن ابتعدوا عن التزكية بسبب الكبر والحسد.

المطلب الأول: مفهوم الكبر والحسد وخطرهما

يأتي هذا المطلب ليجلّي معنى الكبر والحسد، كما يتطرق إلى بيان خطرهما على تزكية الفرد والجماعة، وذلك من خلال فرعين:

الفرع الأول: مفهوم الكبر والحسد

أولا _ مفهوم الكبر:

الْكِبْرُ من حيث **اللغة** يراد به العظمة وكذا الْكِبْرِيَاءُ، والتَّكَبُّرُ والِاسْتِكْبَارُ التَّعَظُّمُ، وأَكْبَرتُ الشيء أي اسْتَعْظَمْتُه، واستكبر الشيء: رآه كبيرا وعَظُمَ عنده[1].

وأما من حيث **الاصطلاح** فعرّفه الراغب بقوله: «الكبر الحالة التي يتخصّص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره. وأعظم التّكبّر، التّكبّر على الله بالامتناع من قبول الحقّ والإذعان له بالعبادة»[2].

وقد جاء بيان معنى التكبر في قوله صلىﷺ: «**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»[3]، «ومعنى بطر الحق إبطاله مأخوذ من قول العرب ذهب دمه بِطْرًا أو بَطَرًا، أي باطلاً...وَغَمطُ الناس معناه استحقار الناس واستهانتهم»[4].

فكل من احتقر غيره أو رأى أنّه أرفع قدرا منه، أو ردّ الحق لصغر قائله أو عدم وجاهته، فهو متكبر.

---

(1) ينظر: مختار الصحاح، زين الدين الرازي، ت: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية _ بيروت، ط:5، 1420هـ _ 1999م، (ص: 265). لسان العرب، ابن منظور، (5/ 126).

(2) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، (ص: 697).

(3) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم: 147، (1/ 93).

(4) المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، (1/ 303).

ثانيا: مفهوم الحسد:

الحسد **لغة** يراد منه تمنّي زوال نعمة الغير. يقال: حَسَدَه يَحْسُدُهُ حُسوداً. قال الأخفش: وبعضهم يقول: يحسِده بالكسر. قال: والمصدر حسدا بالتحريك وحسادة[1].

ونفس المعنى الوارد في اللغة ينطبق على المعنى **الاصطلاحي**، حيث عرّفه الراغب بقوله: «الحسد تمنّي زوال نعمة من مستحق لها، وربما كان مع ذلك سعي في إزالتها»[2].

وقال الكفوي بقوله: «والحسد: اختلاف القلب على الناس لكثرة الأموال والأملاك»[3].

وقد بيّن ابن تيمية سبب الحسد فقال: «والتحقيق أن الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود»[4].

والكبر والحسد من أخطر الآفات التي تحول دون تزكية الإنسان، وفي الفرع الموالي بيان ذلك.

الفرع الثاني: خطورة الكبر والحسد

يعتبر الكبر والحسد من أخطر الموانع التي تحول دون تزكية الفرد والمجتمع، وهذا ما ذكره غير واحد من أهل العلم، قال ابن تيمية: «من أسباب عدم قبول الحق وجود مانع من حسد أو كبر في النفس، وهو تصور باطل، وسببه عدم غنى النّفس بالحق فتعتاض عنه بالخيال الباطل، فيمنعها ذلك من الانقياد»[5].

وأرجع تلميذه ابن القيم موانع التزكية وأركان الكفر إلى أربعة: «الكبر والحسد والغضب والشهوة؛ فالكبر يمنع الانقياد، والحسد يمنع قبول النصيحة وبذلها، والغضب يمنع العدل، والشهوة تمنع التفرّغ للعبادة، فإذا انهدم ركن الكبر سهل عليه الانقياد، وإذا انهدم ركن الحسد سهل عليه قبول النصح وبذله، وإذا انهدم ركن الغضب سهل عليه العدل والتواضع، وإذا انهدم ركن الشهوة سهل عليه الصبر والعفاف والعبادة، وزوال الجبال عن أماكنها أيسر من زوال هذه الأربعة عمن ابتلي بها، ولا سيما إذا صارت هيئات راسخة وملكات وصفات ثابتة، فإنّه لا يستقيم له معها عمل البتة ولا تزكو نفسه مع قيامها بها، وكلما اجتهد في العمل أفسدته عليه هذه الأربعة، وكل الآفات متولدة منها، وإذا استحكمت في القلب أرته الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، والمعروف في صورة المنكر، والمنكر في صورة المعروف، وقربت منه الدنيا، وبعدت عنه الآخرة، وإذا تأملت كفر الأمم رأيته ناشئا منها،

---

(1) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، (2/ 465) (بتصرف يسير).

(2) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، (ص: 234).

(3) الكليات، الكفوي، (ص: 408).

(4) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (10/ 111).

(5) قاعدة جامعة في توحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة واستعانة، أحمد ابن تيمية، ت: عبد الله البصيري، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط: 1، 1418هـ/1997م، (ص: 79).

وعليها يقع العذاب، وتكون خفّته وشدّته بحسب خفّتها وشدّتها، فمن فتحها على نفسه فتح عليه أبواب الشرور كلها عاجلا وآجلا، ومن أغلقها على نفسه أغلق عنه أبواب الشرور، فإنها تمنع الانقياد والإخلاص والتوبة والإنابة وقبول الحق ونصيحة المسلمين والتواضع لله ولخلقه»(1).

يُلاحظ من كلام ابن القيم أنّه استفتح موانع التزكية، بالكبر والحسد، وقد بيّن خطورتها مع إدراجه للموانع الأخرى، معتبرا إيّها سببا في الإعراض عن قبول الحق، وهو ما أكّد عليه رشيد رضا، حيث قال: «فالكبر والحسد يصرفان المدنس بهما عن التأمل فيما يُدعى إليه والحرص على استبانة الحق ... ويشغلانه بما يكون من شأنه مع الداعي له إلى الشيء، فيعزّ على المستكبر والحاسد أن يكون تابعا لغيره وهو يرى نفسه أجدر بالإمامة منها بالقدوة، أو بما سلبه استقلال الفكر وصحة النظر»(2).

وكلام من سبق مبني على استقراء واقع المكذبين، كما أورده القرآن والسنة، فإذا تأملنا مثلا سورة البقرة، نجد أنّ الله ﷻ ذكر فيها أصناف الناس: متقين وكافرين ومنافقين؛ فجاء ذكر القسم الأول ودعا النّاس إلى سلوك الطريق الذي يتحررون به من الكفر والنّفاق، ويكونون به من المتقين فعمَّ وخص في الدعوة، وكان المضمون الرئيسي الذي بيّنه القسم الأول: أنّ التوحيد والعبادة والإيمان والعمل الصالح هي الطريق إلى التقوى والتزكية، وأن نقض العهد وقطع ما أمر الله به أن يوصل، والإفساد في الأرض هو الطريق إلى الكفر والنفاق، وأن بداية ذلك كله: الكبر والحسد والمعصية، فهذه موانع من سلوك أسس الفلاح، الذي تعلق بالقسم الأول(3).

والصفات المانعة من التزكية كالحسد والكبر، التصقت بالكفار والمنّفقين، وقد مثّل الله بذكر استنكاف المنافقين عن قبول الحق، وأورد قصة إبليس مع آدم عليه السلام، كما فصّل في ذكر أخلاق بني إسرائيل، والقاسم المشترك بين هؤلاء؛ اتصافهم بهذه الموانع، فكان ذلك حجابا حائلا دون سلوكهم طريق التزكية؛ لأنّ الحسد «داء كامن في النفس، حيث يرى الحاسد المحسود قد فُضّل عليه، وأوتي ما لم يؤت نظيره، فلا يدعه الحسد أن ينقاد له ويكون من أتباعه، وهل منع إبليس من السجود لآدم إلاّ الحسد؟! فإنّه لما رآه قد فُضّل عليه ورُفع فوقه، غصّ بريقه، واختار الكفر على الإيمان بعد أن كان بين الملائكة»(4)، واجتمع إلى جانب حسده؛ اتصافه بالكبر، فكثيرا ما تكون هاتان الصفتان متلازمتان، وقد بين الله أنّ استكباره كان سببا في كفره، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا

(1) الفوائد، ابن القيم، (ص: 105).

(2) تفسير المنار، رشيد رضا، (8/ 37).

(3) الأساس في التفسير، سعيد حوّى، دار السلام – القاهرة، ط: 6، 1424 هـ، (359/1) (بتصرف).

(4) ينظر: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم الجوزية، ت: محمد أحمد الحاج، دار القلم– السعودية ط:1، 1416هـ - 1996م، (1/ 244).

لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 34]، وبهذا يُعلم أنّ رأس الكفر قد ساقه إلى حتفه؛ حسده وتكبره، وهو شأن كثير من أهل الكفر والعناد، وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة تبين هذا الأمر وتُجلّيه.

ومع إدراك الشيطان لعظمة اللهﷻ إلاّ أن ذلك لم ينفعه بسبب حسده وكبره، وكذلك الشأن بالنسبة لكل حاسد متكبر، فرغم إبصارهم الآيات، إلاّ أنّ طمس البصيرة يحجبهم عن الانتفاع بها، ومع أنّهم يسمعون لكنهم لا يَرْعوون ولا يهتدون سبيلا، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ⑦ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الجاثية:7_ 8]، فكما أن القرآن لا يمسّه إلاّ بدن طاهر كما قال تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:79]، فكذلك هدايات القرآن لا تتحقق إلاّ للقلب الطاهر المشّع بالتقوى، فالقلب لا تدخله حقائق الإيمان إذا كان فيه ما ينجّسه من كبر وحسد، قال تعالى:﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: 41].

المطلب الثاني: مظاهر الكبر والحسد ونماذجهما

مما يوضّح دور الكبر والحسد في المنع من التزكية مظاهرهما المخزية التي تعود بالفساد، وقد تمثّلها كثير من المنحرفين، فكان ذلك سببا في زيغهم، وفيما يلي بيان ذلك:

الفرع الأول: مظاهر الكبر والحسد

أولا_ مظاهر الكبر:

المتكبرون متلبسون بصفات دنيئة تُظْهِر عُلُوَّهم واستكبارهم، ومن ذلك **ترك الانقياد للحق**، وهذا أول مظاهر الاستكبار، وفيه وقع الشيطان حين رفض أمر ربهﷻ، قال جلّ ثناؤه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 34].

وقد يصاحب ترك الانقياد للحق **إنكاره والتكذيب به**، قال الله جلّ ثناؤه عن المشركين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات:35]. وقال جلّ ثناؤه: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:22].

ومن مظاهر الكبر **احتقار النّاس وازدراؤهم**، وهو ما وقع فيه المترفون ممن حاربوا الرسل عليهم الصلاة والسلام. وكل هذه المظاهر قد تضمّنها قول النبيﷺ«**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»[1].

وقد فصّل الزحيلي في ذكر صفات المتكبرين، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ** ﴾[الأعراف:146]، حيث قال: «هؤلاء المتكبرون من صفاتهم أولا: أنهم لا يؤمنون بأي آية تدل على الحق وتثبته إذ لا تفيد الآيات إلا من كان مستعدا للفهم وقبول الحق، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿96﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ** ﴾[يونس: 96- 97].

وثانيا: أنهم يبتعدون عن طريق الهدى والرشاد، وهي الطريق الممهدة المؤدية إلى النجاة، فإذا رأى أحدهم هذه السبيل لا يسلكها ويسلك غيرها، وهذا عن تعمد وعناد، وقد يكون بعضهم عن جهل، وحكم الفريقين واحد.

وثالثا: أنهم إذا ظهر لهم سبيل الغي والضلال والفساد، بادروا إليه مسرعين، بما تزينه لهم أهواؤهم ونفوسهم الأمارة بالسوء، وهذا سلوك شر مما سبقه، ثمّ علل مصيرهم إلى هذه الحال بعلة ثابتة وهي تكذيبهم بآيات الله المنزلة على رسله، وغفلتهم عن النظر بما فيها، وإعراضهم عن العمل بها... »[2]. وهذه المظاهر جميعا عوائق في طريق التزكية.

ثانيا_ مظاهر الحسد:

من أهم مظاهر الحسد: **العدواة والبغضاء**؛ حيث إن الحاسد ينصب العداء للمحسود، ومن أبرز الدلائل على ذلك أنّه يسوؤه ما يحصل له من خير، ويفرح لما يصيبه من ضنك، قال اللهﷻ: ﴿ **إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا** ﴾ [آل عمران: 120]، قال ابن عطية: « وذكر تعالى «المس في الحسنة» ليبين أن بأدنى طروء الحسنة تقع المساءة بنفوس هؤلاء المبغضين، ثم عادل ذلك بالسيئة بلفظ الإصابة وهي عبارة عن التمكن، لأن الشيء المصيب لشيء فهو متمكن منه أو فيه، فدل هذا المنزع البليغ على شدة

---

(1) سبق تخريجه. ينظر: (ص:193).

(2) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر – بيروت، دمشق، ط: 2، 1418هـ، (9/ 92).

العداوة؛ إذ هو حقد لا يذهب عند الشدائد، بل يفرحون بنزول الشدائد بالمؤمنين، وهكذا هي عداوة الحسد في الأغلب، ولا سيما في مثل هذا الأمر الجسيم الذي هو ملاك الدنيا والآخرة...»(1).

فالحسد يظهر من خلال العداوة والبغضاء، وهذا ما يؤدي إلى التنازع والتخاصم واستغراق العمر في إزالة النعمة بالحيل والدعاية وهتك الستر، وكل هذه الأمور موانع لحصول التزكية.

ومن مظاهر الحسد **محبة زوال النعم عن المحسود**، والواقعون في ذلك مراتب، أخطرهم من يحب زوال تلك النعمة وإن كان ذلك لا يحصل له وهذا غاية الحسد، «وقد نبّه القرآن الكريم على أعظم النعمة التي حُسِدَ عليها المسلمون عامة، والرسولﷺ خاصة، وهي نعمة الإسلام ونعمة الوحي وتحصيل الغنائم. فأهل الكتاب حسدوا المسلمين على الإسلام في قوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: 109].

والمشركون حسدوا رسول اللهﷺ على نعمة الوحي إليه، كما في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء:54]...» (2).

ومما يُظهر حسد الشخص **تكبره على غيره**، وإحساسه أنّه أفضل منه، وهكذا كان حسد أكثر الكفار لرسول اللهﷺ إذ قالوا: ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ [ص:8]، «أنكروا أن يختصّ بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم، كما قالوا: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف:31]، وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوّة من بينهم ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ ﴾ من القرآن، يقولون في أنفسهم: إما وإما. وقولهم إنْ هذا إلّا اخْتِلاقٌ كلام مخالف لاعتقادهم فيه يقولونه على سبيل الحسد ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ بعد فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد»(3).

وستتضح مظاهر الكبر والحسد أكثر من خلال النماذج التي سأوردها في الفرع الموالي.

---

(1) المحرر الوجيز، ابن عطية، (1/ 498).

(2) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، (9/ 163).

(3) الكشاف، الزمخشري، (4/ 74).

الفرع الثاني: نماذج للمعاندين بسبب الكبر والحسد

أورد القرآن الكريم والسنة النبوية نماذج لمن امتنعوا عن التزكية بسبب كبرهم وحسدهم، ومن هؤلاء **قوم نوح** عليه السلام؛ حيث تعلّلوا بعدم الإيمان؛ لأنّ أتباعه ـحسبهم ـ من أرذال القوم وضعفائهم، استكبارا منهم وإعراضا، قال تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود:27]، و:﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء:111]، قال البقاعي في بيان منشأ حجّتهم هذه: «قالوا منكرين لاتباعه استناداً إلى داء الكبر الذي ينشأ منه بطر الحق وغمط النّاس؛ أي احتقارهم: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ ﴾؛ أي لأجل قولك هذا وما أثبته أوصافك والحال أنه قد اتبعك الأرذلون؛ أي المؤخرون في الحال والمآل، والأحوال والأفعال، فيكون إيماننا بك سبباً لاستوائنا معهم...»(1).

وكذلك كان شأن **قوم عاد**، فقد حملهم تكبرهم على الإعراض عن الحق، فجحدوا آيات الله جلّ ثناؤه، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[فصلت:15].

وقد أبدع الطاهر بن عاشور في بيان أثر هذه الخصلة الذميمة في انحرافهم عن نور الهداية، حيث قال: «فأمّا عاد فمنعهم من قبول الهدى استكبارهم، والاستكبار: المبالغة في الكبر؛ أي التعاظم واحتقار الناس، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل: استجاب، والتعريف في الأرض للعهد؛ أي أرضهم المعهودة، وإنما ذكر من مساوئهم الاستكبار؛ لأن تكبرهم هو الذي صرفهم عن اتباع رسولهم، وعن توقع عقاب الله، وقوله: ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ زيادة تشنيع لاستكبارهم، فإنّ الاستكبار لا يكون بحق، إذ لا مبرر للكبر بوجه من الوجوه؛ لأن جميع الأمور المغريات بالكبر من العلم والمال والسلطان والقوة وغير ذلك، لا تبلغ الإنسان مبلغ الخلو عن النقص، وليس للضعيف الناقص حق في الكبر؛ ولذلك كان الكبر من خصائص الله تعالى، وهم قد اغتروا بقوة أجسامهم وعزّة أمتهم وادعوا أنهم لا يغلبهم أحد، وهو معنى قولهم: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾، فقولهم ذلك هو سبب استكبارهم؛ لأنه أورثهم الاستخفاف بمن عداهم، فلما جاءهم هود بإنكار ما هم عليه من الشرك والطغيان عظم عليهم ذلك؛ لأنهم اعتادوا العجب بأنفسهم وأحوالهم فكذَّبوا رسولهم، فلما كان اغترارهم بقوتهم هو باعثهم على الكفر، وكان قولهم: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ دليلا عليه، خُصّ بالذكر، وإنما عطف بالواو مع أنه كالبيان لقوله: ﴿ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى

---

(1) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، (14/ 63).

﴿ ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ إشارة إلى استقلاله بكونه موجب الإنكار عليهم؛ لأن قولهم ذلك هو بمفرده منكر من القول، فذكر بالعطف على فعل «استكبروا»؛ لأن شأن العطف أن يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، ويعلم أنه باعثهم على الاستكبار بالسياق»(1).

ولم يختلف حال **قوم ثمود** عن عاد، قال ﷻ: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿75﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأعراف:76]، قال السعدي: «حملهم الكبر أن لا ينقادوا للحق الذي انقاد له الضعفاء»(2).

وعلى الحال نفسه كان **قارون وفرعون وهامان**، قال تعالى: ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴾ [العنكبوت:39]، وقد أدّى بهم استكبارهم إلى جحد الحق رغم يقينهم به، قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل:14]، قال الطبري: «﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا ﴾ يقول: وكذبوا بالآيات التسع أن تكون من عند الله... ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ قال: استيقنوا أن الآيات من الله حق، فلم جحدوا بها؟ قال: ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾...يعني بالظلم: الاعتداء، والعلو: الكبر، كأنه قيل: اعتداء وتكبرا»(3).

ولم يكن تكبر فرعون سببا مانعا من عدم قبول الحق فحسب، بل أوصله إلى أسوء الدركات؛ حيث ادعى الربوبية، وذلك غاية الضلال والخسران.

كما كان الكبر والحسد مانعا من تزكية كثير من المخالفين، وعلى رأسهم **اليهود**، فعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: «كان يهود قريظة والنضير وفدك وخيبر يجدون صفة النبي ﷺ عندهم قبل أن يبعث، وإن دار هجرته بالمدينة، فلما ولد رسول الله ﷺ قالت أحبار يهود: ولد أحمد الليلة، هذا الكوكب قد طلع، فلما تنبأ قالوا تنبأ أحمد، قد طلع الكوكب، كانوا يعرفون ذلك ويقرون به ويصفونه، فما منعهم إلا الحسد والبغي»(4).

---

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (24/ 256).

(2) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 295).

(3) جامع البيان، الطبري، (19/ 436).

(4) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى، ت: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 1410هـ-1990م، (1/ 127).

قال ابن القيم: «فإنهم _أي اليهود _ إنما قصدوا تلك الناحية لما كانوا وُعدوا به من ظهور رسول الله ﷺ، وكانوا يقاتلون المشركين من العرب، فيستنصرون عليهم بالإيمان برسول الله ﷺ قبل ظهوره، ويعدونهم بأنه سيخرج نبي نتبعه، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله عز وجل نبيه ﷺ سبقهم إليه من كانوا يحاربونهم من العرب، فحملهم الحسد والبغي على الكفر به وتكذيبه»[1].

وقد بين الله ﷻ معرفتهم للحق وكتمانهم له وإعراضهم عنه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:147]، وبسبب كتمانهم للحق لم تتحقق لهم التزكية، قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فما الذي منعهم من قبول الحق وكتمانه، بل والسعي لصد الناس عنه؟ إنّه الحسد والاستكبار، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ [البقرة:109].

والحسد والكبر صفة متجذرة فيهم، فقد عارضوا الأنبياء عليهم السلام من قبل بسبب ذلك، بل وقاتلوهم وقتلوا بعضا منهم، قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ [البقرة:87]، «وهذا الدّاء هو الذي منعهم من الإيمان بعيسى ابن مريم، وقد علموا أنه رسول من عند الله جاء بالبينات والهدى، فحملهم الحسد على أن اختاروا الكفر على الإيمان، وأطبقوا عليه وهم أمة فيهم الأحبار والعلماء والزهاد والقضاة والملوك والأمراء، هذا وقد جاء المسيح بحكم التوراة ولم يأت بشريعة تخالفها ولم يقاتلهم، وإنما أتى بتحليل ما حرّم عليهم تخفيفا ورحمة وإحسانا، وجاء مكمّلا لشريعة التوراة، ومع هذا اختاروا الكفر على الإيمان، فكيف يكون حالهم مع نبي جاء بشريعة مستقلة ناسخة لجميع الشرائع؟ وقد أفصح عن قبائحهم، ونهاهم عن فضائحهم، فكيف لا يملك الحسد والبغي قلوبهم؟ وهذا السبب وحده كاف في رد الحق، عند أصحاب القلوب المريضة»[2].

وبسبب تمكّن الكبر والحسد من قلوبهم فهم أشدّ الناس عداوة لمعالم التزكية؛ لذا قلّ فيهم من استفاق عن غيّه زمن النبي ﷺ، حتى أنّ القاسمي ذكر أنّهم لم يبلغوا عشرة أنفس، وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق[3]، وهم أقلّ عداوة مقارنة بغيرهم، بسبب عدم توغل الكبر والحسد في قلوبهم، وممّا يدل على ذلك قوله

---

(1) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم، (2/ 366).

(2) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم، (1/ 245).

(3) ينظر: محاسن التأويل، القاسمي، (2/ 488).

تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[المائدة:82].

والداعي نفسه حمل كثيرا من المشركين من **كفار قريش** على الإعراض عن التزكية، والمجادلة بغير علم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[غافر:56]، والمعنى كما ذكر المراغي: «إنه ما يحملهم على تكذيبك إلا ما في صدورهم من الكبر والحسد لك، وما هم ببالغي إرادتهم فيه، فإنّ الله قد أذلهم»[(1)].

وقد فصّل ابن عاشور في حال كفار قريش أكثر معتمدا على الآية السابقة، مدعّما ذلك بأدلّة أخرى، حيث قال: «ذكرت الآية ما تكنّه صدور المجادلين من أسباب جدالهم بغير حق، ليعلم الرسول ﷺدخيلتهم فلا يحسب أنهم يكذبونه تنقصا له ولا تجويزا للكذب عليه، ولكن الذي يدفعهم إلى التكذيب هو التكبر عن أن يكونوا تبعا للرسولﷺ ووراء الذين سبقوهم بالإيمان ممن كانوا لا يعبؤون بهم، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:33] .... والمعنى من قوله: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ ما يحملهم على المجادلة في آيات الله إلاّ الكبر على الذي جاءهم بها، وليست مجادلتهم لدليل لاح لهم، وقد أثبت لهم الكبر الباعث على المجادلة بطريق القصر لينفي أن يكون داعيهم إلى المجادلة شيء آخر غير الكبر على وجه مؤكد، فإنّ القصر تأكيد على تأكيد لما يتضمنه من إثبات الشيء بوجه مخصوص مؤكد، ومن نفي ما عداه»[(2)].

وقد وصل الحال بصناديد قريش أن طلَبوا من رسول اللهﷺ أن يُخَصِّص لهم مجلسا، وللفقراء مجلسا يُجالسهم فيه، منعًا من التلاقي بين الفريقَيْن، وذلك بسبب كبر نفوسهم؛ فعن سعد، قال: «كنا مع النبي ﷺستة نفر، فقال المشركون للنبيﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ

(1) تفسير المراغي، مصطفى المراغي، (24/ 83).

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (24 /172) (بتصرف).

ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ »[1].

وجاء في رواية أخرى أنّهم: «وجدوا رسولﷺ مع صهيب، وبلال وعمار وخباب قاعدًا في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبيﷺ حقروهم، فأتوه فخلوا به، وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسا، تعرف لنا به العرب فضلنا، فإنَّ وُفُود العرب تأتيك، فنسْتحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا، فاقعد معهم إنْ شئتَ... فنزل جبرائيل الْعَلَيْهِ بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام:52]»[2]، وقد بين الله أن استكبارهم كان سببا في بعدهم عن الحق، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [الصافات:35].

كما كانت هذه الصفات مانعا من قبول الحق لدى من سبق ذكرهم، فقد كانت مانعا من تزكي **المنافقين** وعلى رأسهم زعيمهم عبد الله ابن أبي، فقد كان مظهرا لطاعة النبي ﷺوالإيمان به، وكان كل يوم جمعة يقوم خطيبا في المسجد يأمر باتباع النبي ﷺ، ولم يكن ما في قلبه يظهر إلاّ لقليل من النّاس ـإن ظهر ـ وكان معظما في قومه، كانوا قد عزموا على أن يُتوجوه ويجعلوه مثل الملِك عليهم، فلما جاءت النبوة بطل ذلك فحمله الحسد على النّفاق[3].

وهذه الصفات ليست مختصة بزمن دون آخر، بل هي سنة اللهﷻ في كثير من المكذبين، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ (123) وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴾ [الأنعام:123_124]، فاحتجاج هؤلاء الكبراء بعدم اتباع آيات اللهﷻ، إنّما هو ناتج عن تكبرهم وحسدهم،

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاصﷺ، رقم: 2413، (4/ 1878).

(2) أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، باب مجالسة الفقراء، رقم: 4127، (2/ 1382)، وصحّحه الألباني، في صحيح السيرة النبوية، (ص: 223).

(3) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (7/ 280) (بتصرف).

يشهد لذلك قولهم: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾، وقد عاملهم الله بنقيض حالهم، فأعقبهم بعد تكبرهم ذلة وصغارا، وتلك حال وليّهم حين طرده الله بفعل تكبره: ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف:13].

وبالتأمل في النماذج السابقة يتبين أنّ أهل الكفر ملّة واحدة، وأنّهم يتوارثون الشر وأساليب محاربة الحق، كما يتوارث أهل العلم ميراث النبوة وأساليب الهداية، وكما اجتمع أولياء الشيطان على إطفاء نور التزكية مستندين إلى الحسد والكبر، فقد اجتمع عباد الرحمن على نشره، حالهم كما وصفهم الله ﷻ: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر:9]، وقوله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان:63].

وحتى يتمايز أولياء الرحمن عن أولياء الشيطان أمرهم الله ﷻ بعد أن بيّن صفة الكبر المتجذّرة في قلوب أعدائهم، بأن يستعيذوا بالله من شرّ الشيطان وحبائله، فقال: ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر:56]، وهذا الخطاب موجّه للنبي ﷺ ويشمل أمته، وقد سبقه خبر موسى عليه السلام وكيف استعاذ بالله جلّ وعلا من كل متكبر منكر ليوم الحساب، قال ﷻ: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ (26) وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر:26_27].

وصفوة القول أنّ الكبر والحسد يصرفان عن التزكية؛ لأنهما يمنعان من قبول الحق، فصاحبهما غالبا يرى نفسه أفضل من غيره وأحق بالنعم منه، والأمثلة في ذلك كثيرة؛ فإبليس حسد آدم عليه السلام واستكبر عليه فكفر، وقوم نوح عليه السلام رفضوه وبطروا الحق فردوا دعوته، وقوم عاد كانوا أشد تكبرا، فصرفوا عن اتباع رسولهم، وكذلك قوم ثمود، حملهم تكبرهم عن الإعراض عن آيات الله ﷻ، ولم يختلف الأمر مع قارون وفرعون وهامان، وأما اليهود فقد وجدوا صفة النبي ﷺ عندهم، فلما بعثه الله من العرب حسدوه واستكبروا، فبغوا عليه وكذّبوه وحاربوه جريا على عادتهم، ونفس الداعي حمل كفار قريش إلى تكذيب الرسول ﷺ، والصدّ عن دعوته...

وهؤلاء المتكبرون في الحقيقة ساروا على سنن من قبلهم، وألغوا عقولهم، فوقعوا في الجهل والتقليد الأعمى، وهي موانع أيضا من تحقق التزكية، وهذا ما سأتناوله في المبحث الموالي.

المبحث الرابع: مانع الجهل والتقليد الأعمى

الجهل والتقليد الأعمى من أكثر موانع التزكية، ويأتي هذا المبحث ليبيّن ذلك من خلال مطلبين، خصصت الأول لبيان مفهوم الجهل والتقليد الأعمى مع إيراد خطرهما بشيء من الاختصار، وأما المطلب الموالي فأوردت فيه نماذج للممتنعين عن التزكية بسبب الجهل والتقليد الأعمى، وفيما يلي بيان ذلك:

المطلب الأول: مفهوم الجهل والتقليد الأعمى وخطرهما

يتناول هذا المطلب مفهوم الجهل والتقليد الأعمى مع إبراز العلاقة بينهما، بالإضافة إلى بيان خطرهما على تزكية الفرد والجماعة، وذلك من خلال فرعين:

الفرع الأول: مفهوم الجهل والتقليد الأعمى

أولا_ مفهوم الجهل:

بالنسبة لمعنى الجهل **لغة** فقد ذكر ابن فارس «أن الجيم والهاء واللام أصلان: أحدهما خلاف العلم، والآخر الخفة وخلاف الطمأنينة. فالأول الجهل نقيض العلم... والثاني قولهم للخشبة التي يحرك بها الجمر مجهل. ويقال استجهلت الريح الغصن، إذا حركته فاضطرب... وَالْمَجْهَلَةُ: الأمر الذي يحملك على الجهل»(1).

وأما من حيث **الاصطلاح** فقد عرّفه الراغب بذكر أنواعه حيث قال: «الجهل على ثلاثة أضرب:

الأول: وهو خلوّ النفس من العلم، هذا هو الأصل، وقد جعل ذلك بعض المتكلمين معنى مقتضيا للأفعال الخارجة عن النظام، كما جعل العلم معنى مقتضيا للأفعال الجارية على النظام.

والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقّه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقادا صحيحا أو فاسدا، كمن يترك الصلاة متعمدا...»(2).

والمانع من التزكية هو الجهل بالله جلّ ثناؤه، وبأحكامه وحِكَمِها، فإنّ من جهل شيئا عاداه وخالفه.

ثانيا _ مفهوم التقليد الأعمى:

التقليد **لغة** مأخوذ من قَلَدَ والقاف واللام والدال أصلان صحيحان، يدل أحدهما على تعليق شيء على شيء وليه به، والآخر على حظ ونصيب. فالأول التقليد: تقليد البُدْنة، وذلك أن يعلِّق في عنقها شيء ليعلم أنها

---

(1) مقاييس اللغة، ابن فارس، (1/ 489).

(2) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، (ص: 209).

هدي، ومنه وضع الشيء في العنق محيطاً به، ويسمى ذلك الشيء قلادة، والجمع قلائد. والأصل الآخر: القلد: الحظ من الماء. يقال: سقينا أرضنا قلدها، أي حظها. وسقتنا السماء قلدا كذلك، أراد حظا...
ثم استعمل بعد ذلك في تفويض الأمر إلى الشخص واتباعه في كل ما يقول[1].

وأما من حيث **الاصطلاح**، فأكثر من اعتنى بمصطلح "التقليد" علماء الأصول، وقد تعددت تعاريفهم، إلا أنها ترجع في نهايتها إلى أنّه أخذ قول الغير أو العمل به من غير حجّة ولا دليل، قال الغزالي في المستصفى: «التقليد هو قبول بلا حجّة»[2]. وقال الآمدي: «العمل بقول الغير من غير حجّة مُلزمة»[3].

والذي ينبغي التنبيه إليه أنّ هؤلاء تناولوا المصطلح من جهة بيان مراتب الناس مع الأحكام الشرعية، ولا يتعلق به ذم إذا أخذ العامي بقول أهل العلم الأمناء، بل هو واجبه؛ لأنّه لا يقوى على الفهم والاستنباط، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:7].

فالتقليد المذموم هو التقليد في الباطل، وهو الذي عابه الله ﷻ على الكفار[4]، وهو المقصود بالتقليد الأعمى.

الفرع الثاني: خطورة الجهل والتقليد الأعمى

يعتبر الجهل والتقليد الأعمى من أشدّ الأمراض فتكا بالقلوب، وبينهما ترابط؛ فكثيرا ما يكون الجهل سببا في التقليد، وممّا يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[الأعراف:138]، فالجهل سبب في رغبتهم في تقليد ومحاكاة غيرهم، ولم تتغير طباعهم التي ورثوها أيام الاستعباد، فكان حالهم كما وصف الله ﷻ في قوله ﷻ: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[الزخرف:54].

ولما تعلّل المشركون زمن النبي ﷺ باتباع الآباء والأجداد في عبادتهم للأصنام، ردّ الله ﷻ عليهم مبيّنا جهلهم، قال جلّ ثناؤه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا

(1) ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، (5/ 19)، لسان العرب، ابن منظور، (3/ 367).

(2) المستصفى، أبو حامد الغزالي، ت: حمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية_ بيروت، ط:1، 1413هـ - 1993م، (ص: 370).

(3) الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن الآمدي، ت: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي_ بيروت، ط:2، 1406هـ، (4/ 221).

(4) ينظر: التفسير الوسيط، مجموعة من العلماء، (1/ 258).

يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:170_171].

مما سبق يتبين أنّ الجهل هو السبب الرئيس في وقوع التقليد، وهو أكثر مانع من قبول الحق، قال ابن تيمية: «والأسباب المانعة من قبول الحق كثيرة جدا فمنها: الجهل به، وهذا السبب هو الغالب على أكثر النفوس، فإن من جهل شيئا عاداه وعادى أهله»(1)، وممّا يؤكد ذلك قوله تعالى عن المشركين: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: 39].

وقد سبق الحديث عن ذم الجهل وأهله في معرض بيان أهمية العلم(2)؛ لذلك أكتفي بهذا القدر تجنبا للتكرار المخلّ.

والجهل كما تقرر يؤدي غالبا إلى التقليد الأعمى، ولخطورته فقد حضَّ القرآن والسنة على تخليص الإنسان منه، وانتهجا في ذلك أسلوبين؛ الأول يتمثل في مخاطبة العقل لبيان شناعة هذا الداء، ويظهر ذلك من خلال الكثير من الآيات التي بيّنت للمشركين عدم انتفاعهم بتقليد من ضل عن سواء السبيل، كقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الدخان:8]، فقد وصف الله تعالى في هذه الآية الكريمة قدرته العظيمة على الإحياء والإماتة، بينما الأسلاف الغابرون لا يملكون شيئاً من ذلك، بل هم أموات، فما أبعد الميت عن نفع نفسه، فضلاً عن نفع غيره

وأمّا الأسلوب الثاني فيتمثل في بيان عاقبة المقلدين لغيرهم في الباطل، فمآل هؤلاء الحسرة والندامة يوم القيامة، مع ما يصاحبهم من عذاب أليم، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: 166_167]، وقال تعالى فيهم:

---

(1) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم، (1/ 244).

(2) ينظر: (ص:73).

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴾[الأحزاب:66_76][1].

وجاء في السنّة النبوية النهي الشديد عن تقليد أهل الضلالة وبيان عاقبة ذلك، فعن ابن عمرﷺ، قال: قال رسول اللهﷺ: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[2]، وهذا الحديث يتضمن التحذير من التشبه بأعداء الله تعالى، وقد بين النبيﷺ في موطن آخر أنّ من معالم آخر الزمان ما يلحق أمة الإسلام من الركون إلى الأعداء والتشبه بهم فيما لا ينفع، وتلك لعمري مصيبة تحلّ بها فتفقدها دورها الريادي، لتنقلب من متبوعة إلى تابعة، فعن أبي سعيد رضي الله عنه، أن النبيﷺ، قال: «**لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه**»، **قلنا يا رسول الله: اليهود، والنصارى قال**: «**فمن؟**»[3].

هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد تحقق ما أخبر به النبيﷺ؛ حيث تخلّفت الأمة بسبب وقوعها في هذا المنحدر عن الارتقاء في مراتب التزكية، فصارت تابعة بعد أن كانت متبوعة، ومن طرق علاجها بيان خطورة الجهل والتقليد الأعمى عن طريق إيراد نماذج للمعاندين بسبب ذلك، وهذا ما سيأتي بيانه في المطلب الموالي.

المطلب الثاني: نماذج للمعاندين بسبب الجهل والتقليد الأعمى

سأورد من خلال هذا المطلب نماذج لمن ابتعدوا عن التزكية بسبب الجهل أو التقليد الأعمى، مدعما ذلك بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

الفرع الأول: نماذج للمعاندين بسبب الجهل

يعتبر الجهل من معوقات الاستقامة على دين الله تعالى، وقد في جاء القرآن الكريم والسنة النبوية الكثير من النماذج التي صدّها عن الحق جهلها بحكم التشريع وأسراره، **فقوم نوح عليه السلام** أعرضوا عن قبول الحق بدعوى أنّ الضعفاء هم أتباعه، فطلبوا أن يطردهم، فوصفهم نوحعليه السلام بالجهل قائلا: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هود:29].

---

(1) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود بن أحمد الرحيلي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية_ المدينة المنورة، ط:1، 1424هـ، 2004م، (1/ 161) (بتصرف).

(2) أخرجه أبو داود، باب في لبس الشهرة، رقم: 4031، (4/ 44)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم: 6149، (2/ 1059).

(3) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم: 3456، (4/ 169).

وكان الجهل سببا مانعا من تزكي **قوم لوط** عليه السلام، يدل على ذلك قوله: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل:54_55].

وكذلك الشأن بالنسبة **لقوم هود** عليه السلام، فقد دعاهم إلى تزكية نفوسهم من درن الشرك، فكان جوابهم أن: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأحقاف:22]، فردّ عليهم واصفا إياهم بالجهل: ﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [الأحقاف:23]، قال الطبري:«﴿ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ مواضع حظوظ أنفسكم، فلا تعرفون ما عليها من المضرّة بعبادتكم غير الله، وفي استعجال عذابه»(1).

ولم تنتقل عبادة الأصنام إلى **العرب في الجاهلية** إلاّ بعد ذهاب العلم وانتشار الجهل، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف، عند سبإ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم، أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك **وتنسخ العلم عبدت**»(2).

ولما اشتغل جملة من المعرضين عن الحق بما أدركوه من ظاهر الحياة الدنيا وعلمها المتعلّق بها، وجهلوا حقيقة ما خلقوا لأجله؛ انحرفوا عن معالم التزكية، فوصفهم الله سبحانه وتعالى بعدم العلم، قال تعالى: ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[الروم:6_7]، وهذا حال المكذبين ممن انخدعوا بالعلوم الكونية وتوقفوا عند حدودها، ووصفوا الرسل عليهم السلام بأبشع الأوصاف، مستهزئين بهم، فحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [غافر:83].

---

(1) جامع البيان، الطبري، (22/ 126).

(2) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾، رقم: 4920، (6/ 160).

وقد توافق أكثر المكذبين على ردّ الحق بسبب جهلهم بتعاليم الرّسل العالية، وإرشاداتهم السامية، فكانوا يطالبون بالمعجزات حتى يؤمنوا، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:37]، وقد حكم الله عليهم بعدم الإيمان مهما جاءهم من الآيات، وذلك بسبب جهلهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام:111].

وجهلهم راجع إلى تعطيلهم لوسائل الإدراك، قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:18]، وتعطيلهم لهذه الوسائل راجع إلى فساد قلوبهم؛ لذا لم ينتفعوا بالآيات الشرعية والكونية، فالنبات الطيب لا يزكوا إلاّ في الأرض الطيبة، فعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبيﷺ قال: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**»(1).

فحال الناس مع ما جاء به النبيﷺ من العلم الذي تحصل به السعادة متباين كما دلّ الحديث، فمنهم من ينتفع وينفع، ومن النّاس من حالهم كأرض لا تمسك الماء ولا تنبت الزرع، فهؤلاء لفرط جهلهم لم ينتفعوا ولم ينفعوا.

الفرع الثاني: نماذج للمعاندين بسبب التقليد الأعمى

يعتبر التقليد الأعمى من الموانع التي تحول دون تزكي أهل الضلال، وهو داء قديم في منشأه، احتجّ به أهل التدسية من الأمم السابقة، وتوافقت كلمتهم على ذلك، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:23].

وذكر الله تعالى أنّ أعداء الرّسل: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم:10]، وجاء في العديد من الآيات أنّ هذه المقولة قيلت للرّسل

(1) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، رقم: 79، (1/ 27)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبيﷺ من الهدى والعلم، رقم: 2282، (4/ 1787).

عليهم السلام، **فقوم نوح**ﷺ قالوا: ﴿ **مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ** ﴾ [المؤمنون:24].

وقال **قوم هود**ﷺ: ﴿ **أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ** ﴾ [الأعراف:70].

وهي نفس **مقالة قوم صالح**ﷺ: ﴿ **قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ** ﴾ [هود:62].

وقالها **قوم إبراهيم**ﷺ لما أنكر عليهم عبادة الأصنام، ﴿ **قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ** ﴾ [الأنبياء: 53]، ولما خاطب عقولهم بقوله: ﴿ **هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ** ﴾[الشعراء: 72_73]، كان جوابهم: ﴿ **بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ** ﴾ [الشعراء:74].

وبمثل هذا اعترض **قوم شعيب**ﷺ: ﴿ **قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ** ﴾ [هود:87].

وقال **بنو إسرائيل** لموسىﷺ: ﴿ **أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ** ﴾ [يونس:78].

وعلى سنن السابقين مشى **مشركو قريش**، حيث كانت التقاليد والعادات الموروثة تتحكم في عقائدهم، لذا انهارت القيم والأخلاق، واختلّت الموازين والأعراف، فكان الواقع يرفض كل المسلمات والبديهيات، ولا يقبل سوى ما كان عليه الآباء والأجداد(1).

وقد بيّن الله جلّ ثناؤه في العديد من الآيات احتجاج هؤلاء بهذه الحجّة الواهية، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا**

---

(1) ينظر: منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي، (1/ 478).

يَهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: 170]، وقالﷻ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [لقمان:21]، وقال أيضا: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[الزخرف:24].

فالمكذبون لم ينظروا إلى الدعوة بعين الإنصاف والتدبر، وإنّما نظروا إليها بالجحود والجمود والاستسلام المطلق لتلك التقاليد والعادات الموروثة عن الآباء والأجداد، وحججهم تلك لا تستند إلى دليل من نقل أو عقل، فالآيات السابقة بينت المناظرة التي دارت بين أهل التزكية وأهل التدسية؛ حيث لجأوا إلى تقليد الآباء وظنوا أنه منجيهم؛ لإحسانهم الظن بهم، فحكم اللهﷻ بينهم بقوله: ﴿ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة:170]، وفي موضع آخر: ﴿ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان:21]، وفي موضع آخر: ﴿ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ ﴾[الزخرف:24]، فبيّن بطلان هذه الحجّة وأنها لا تنجي من عذاب الله تعالى؛ لأنها تقليد من ليس عنده علم ولا هدى من الله.

والمعنى ولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير يقلدونهم، ولو كانوا لا علم عندهم ولا هدى يقلدونهم أيضا! وهذا شأن من لا غرض له في الهدى ولا في اتباع الحق، إن غرضه بالتقليد إلاّ دفع الحق والحجّة إذا لزمته؛ لأنه لو كان مقصوده الحق لتبعه إذا ظهر له، وقد جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم، فلو كنتم ممن يتبع الحق لأتبعتم ما جئتكم به، فأنتم لم تقلدوا الآباء لكونهم على حق، فقد جئتكم بأهدى مما وجدتموهم عليه، وإنما جعلتم تقليدهم جنة لكم تدفعون بها الحق الذي جئتكم به[1]، «فهذا سندهم الوحيد، وهو دليلهم الفريد، إنه التقليد الجامد الذي لا يقوم على علم، ولا يعتمد على برهان، بل ولا حتى على تفكير أو روية، إن هذا الموقف إنّما هو استجابة لدعوة إبليس، فهم مصرون على السير في هذا الطريق، ووراء تقليد الآباء حتى دخول نار جهنم»[2].

وقد تعطلت حواس هؤلاء بفعل التقليد الأعمى، فأصروا على عبادة الأصنام ولم ينتفعوا بدعوة الحق كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾[الأعراف:198] فالخطاب للنبيﷺ وأصحابه، والمتحدث عنهم المشركون، فإنهم مع هذه البراهين ومع هذه الأدلة الحسية التي تفيد أنها لَا تضر ولا تنفع، وأنها دون من يعبدها حسا ومشاهدة، وأنهم لَا ينصرون أحدا ولا ينصرون أنفسهم، مع كل

---

(1) ينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، (4/ 173) (بتصرف يسير).

(2) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي، (1/ 482).

هذا عاكفون على أصنامهم يعبدونها، وإذا سمعوا دعوة الحق أعرضوا عنها؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا﴾؛ أي لَا يسمعوا سماع وعي وإدراك وتأمل، بل هم معرضون.

وشُبّهت حالهم في عدم تدبر القول، بعدم السماع، باعتبار أن سماعهم الحسي لَا جدوى فيه، إذ لَا يتدبرون، بل على قلوبهم أقفالها، وصَوَّر سبحانه وتعالى حالهم فقال عز من قائل: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾؛ أي أنهم بعد أن يستمعوا إلى الهدى مشدوهين متحيرين، يأخذهم نور الحق حيث يفكرون ويتدبرون ولكن لَا يلبثون أن يغلبهم التقليد وزيف الباطل، فيترددون وتصيبهم حيرة بين ماضٍ ألفوه، وحق بزغ نوره فغلب ضياؤه، فعميت أعينهم عن أن ترى، وقد صوّر الله سبحانه وتعالى بهذه الجملة السامية: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾؛ أي تراهم ينظرون إليك، وما تدلي به من بينات باهرة، وأمارات للحق ظاهرة، ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي إبصار تأمل وتدبر في آياته، فهم المبصرون الذي لَا يرون، والناظرون الذين لَا يعرفون ما ينظرون إليه، فهم في حيرة أدّت إلى ضلالهم[1].

ونظرا لتعطيلهم لحواسهم وركونهم للتقليد الأعمى، فقد شبّههم اللهﷻ بالأنعام التي لا تعي من نداء الرّاعي إلا صوته، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (170) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:170_171]؛ «فمثل هادي الذين كفروا وداعيهم إلى الحق، وهم لا يعقلون، كمثل الراعي الذي ينعق بماشيته، ويصيح بها، ليكفّها عن الرعي في مرعى وَخِيم يضرها، وكما أن البهائم لا تعي من الراعي إلا صوت الدعاء والنداء، دون أن تفهم غرضه وهو كفُّهم عن المرعى الوخيم العاقبة، فَعَدُم تمييزها، فكذلك هؤلاء المقلدون، لم يدركوا من هاديهم وداعيهم إلى الحق ومُحذّرهم من الباطل سوى الدعاء والنداء، لانهماكهم في التقليد الذي أغلق عقولهم، فلم تدرك ما يقول، وكما أن البهائم وقعت في المرعى الوخيم العاقبة – بجهلها – فكذلك هؤلاء، وقعوا في مهاوي الردى، بإعراضهم عن الهدى»[2].

وقد بيّن الله تعالى لهم عاقبة جملة من اليهود ممن تشبثوا بمثل هذه المقالة، فعاقبهم الله جلّ ثناؤه بجنس فعلهم، فلما انصرفوا عن الحق بسبب التقليد الأعمى والانغماس في النجاسات، لعنهم اللهﷻ ومسخهم قردة وخنازيرا،

(1) زهرة التفاسير، أبو زهرة، (6/ 3040) (بتصرف يسير).

(2) التفسير الوسيط، مجموعة من العلماء بإشراف الأزهر، (1/ 260).

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة:60]؛ أي وجعل منهم من يشبه القردة في التقليد الأعمى، والخنازير في الانغماس في كل ما هو قذر جزاء وفاقا(1).

وحال **المنافقين** لم يختلف على من سبق، حيث حجبهم ظلام التقليد عن نور الهداية، فأمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف، بخلاف أهل التزكية فقد اعتمدوا على إعمال نور البصيرة، فوُفقوا لمعالم الهداية؛ لذا ألحق الله كل صنف بنظيره، فقال في شأن المنافقين: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة:67]، وقال في شأن المؤمنين: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:71]، قال الرازي: « قوله في صفة المنافقين بعضهم من بعض يدل على أن نفاق الأتباع، كالأمر المتفرع على نفاق الأسلاف، والأمر في نفسه كذلك؛ لأن نفاق الأتباع وكفرهم حصل بسبب التقليد لأولئك الأكابر، وبسبب مقتضى الهوى والطبيعة والعادة، أما الموافقة الحاصلة بين المؤمنين فإنما حصلت لا بسبب الميل والعادة، بل بسبب المشاركة في الاستدلال والتوفيق والهداية، فلهذا السبب قال تعالى في المنافقين: ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ وقال في المؤمنين: ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾»(2).

وإذا كان غالب التقليد يقع عن جهل، فإنّه يمكن أن يقع بعد العلم، كحال أبي طالب، حيث كان يقول للنبيﷺ:

ودعوتني وزعمت أنك ناصحي ... فلقد صدقت وكنت قدمًا أمينًا

وعرضت دينًا قد علمت بأنه ....من خير أديان البرية دينًا

لولا الدمامة أو أخادن سبة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينا(3)

ومع علمه وإقراره بنبوة النبيﷺ إلاّ أنّ التقليد حمله على الموت مشركا، فحين حضرته الوفاة، دخل عليه النبيﷺ وعنده أبو جهل، فقال: «**أي عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزالا يكلمانه، حتى قال آخر شيء كلمهم

(1) التفسير الوسيط، مجموعة من العلماء بإشراف الأزهر، (2/ 1105) (بتصرف).

(2) مفاتيح الغيب، الرازي، (16/ 100).

(3) ينظر: تفسير مقاتل، مقاتل بن سليمان، (1/ 556).

به: على ملة عبد المطلب...»[1]، قال القرطبي عند تفسير قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾[النحل:39]: «ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ليبين لهم الذي يختلفون فيه، والذي اختلف فيه المشركون والمسلمون أمور: منها البعث، ومنها عبادة الأصنام، ومنها إقرار قوم بأن محمدا حق ولكن منعهم من اتباعه التقليد، كأبي طالب»[2].

وخلاصة هذا المبحث أنّ التزكية تحجب بالجهل والتقليد الأعمى، والأول سبب للثاني؛ لأن الجاهل في الغالب يعمد إلى تقليد غيره، فهو غير محيط بأحكام الشريعة، ومن جهل شيئا عاداه وعادى أهله، هذه القاعدة مشى عليها أعداء الرّسل منذ القدم؛ إذ كانوا يحاجون أقوامهم _ أي الرسل _ بالحجّة والبرهان، لكنهم بسبب جهلهم وتعطيل وسائل الإدراك عندهم يرفضون الحق، فيتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ويقلدونهم في ضلالهم، ويستسلمون للتقاليد والعادات الموروثة عنهم، ومشركو قريش ساروا على سنتهم، فلم يحكموا عقولهم وتركوا أعراف أجدادهم تتحكم فيهم، فرفضوا المسلمات، واستندوا إلى الحجج الواهية، وإنّ منهم من اقتنع بنبوة النبيﷺ، لكن ظلام التقليد، وعار ترك ملة الآباء _ حسب زعمه _ منعه من السير في طريق الهداية.

وخلاصة الفصل أنّ للتزكية موانع كثيرة منها الشيطان وأعوانه؛ حيث إن لهم طرقا يسعون من خلالها لإبعاد النّاس عن طريق التزكية، بتزيين الباطل، والتشكيك وبثّ الخوف في النفوس، والصدِّ عن الطاعات، بالإضافة إلى التمنية وإشاعة الأخبار الكاذبة.

ومن حبائل الشيطان التي يستخدمها لإضلال النّاس؛ تزيين الدنيا لهم، وهي من أكبر العوائق في طريق الصلاح؛ إذ إنها تستميل النّفوس إليها، فتورّث الغفلة والانحراف، وذلك يقع بسبب الميل إلى الرياسة وحب الشرف، كما يحصل بسبب حب المال والشهوات.

ومن المفاسد التي تنجر عن التعلّق بالدنيا وشهواتها؛ الحسد والكبر، وبينهما صلة وثيقة؛ فالكبر يولّد الحسد، وقد أورد القرآن والسنة العديد من النماذج التي حال وقوعها في هذين المرضين من الاستقامة.

وهؤلاء في الحقيقة ساروا على سنن من قبلهم، فألغوا عقولهم، فوقعوا في الجهل والتقليد الأعمى، وهي موانع أيضا من تحقق التزكية، والأول سبب للثاني.

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم: 3884، (5/ 52)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، رقم:24، (1/ 54).

(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (10/ 106).

وَذِكْر القرآن الكريم والسنة النبوية لهذه الموانع مندرج في إطار التحذير منها، وبالابتعاد عنها يكون العبد وفُق إلى تخلية نفسه من عوامل الضعف والوهن. وبامتثاله بوسائل التزكية التي سبق بيانها يكون قد وفّق لتحلية نفسه بالفضائل، وبذلك تتحقق له التزكية القائمة على التخلية والتحلية، ولذلك آثار عاجلة وآجلة، وهذا ما سيأتي بيانه في الفصل الموالي.

الفصل الثالث

آثار التزكية في القرآن والسنة.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: آثار التزكية في الدنيا.

المبحث الثاني: آثار التزكية في الآخرة.

معرفة حقيقة التزكية والالتزام بتحقيق أسبابها، والابتعاد عن موانعها، يحقق آثارا عديدة وثمارا يانعة في الدنيا والآخرة، وقد أوردت بعضا منها في الفصل الخاص بوسائل التزكية، إلاّ أنّ الحديث عنها في ذلك الموضع كان مجرد إشارات لدور كل وسيلة في تحقيق التزكية المطلوبة من العبد في الدنيا، فهي ميدان الإيمان والعمل الصالح، وهذا ما يستدعي إفراد ثمرات التزكية بفصل خاص يتناول الآثار الدنيوية والأخروية، وذلك من خلال مبحثين:

المبحث الأول: آثار التزكية في الدنيا من خلال القرآن والسنة

سأتطرق من خلال هذا المبحث لبيان بعض آثار التزكية التي تتحقق في الدنيا، معتمدا على القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد جعلت هذه الآثار تحت جملة من المطالب، وتفصيل ذلك على النّحو التالي:

المطلب الأول: الانتفاع بالمواعظ والآيات وحصول الهداية

من أعظم ثمرات التزكية التي تتحقق للعبد في الدنيا الانتفاع بالمواعظ والآيات الشرعية والكونية، فيميز بين الخير والشر، وبين النّافع والضار، ثم يتمثّل ذلك فلا يأتي إلاّ ما حَسُن من الأقوال والأفعال والأخلاق والمعاملات، وتلك حقيقة التزكية؛ إذ إنّها تقتضي الالتزام بما جاء في القرآن والسنة أمرا وتركا، تحلية وتخلية، فيتحقق سلوك الطريق المستقيم، وتُزال عنه العقبات، وتُصرف عنه الموانع التي تحول دون بلوغه لمقصده. وفيما يلي بيان ذلك:

الفرع الأول: الانتفاع بالمواعظ والآيات

من أهم الثمار التي يجنيها المتزكي؛ **الانتفاع بالآيات الشرعية والكونية**، وقد بيّنت العديد من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية ذلك، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[الحجر:77]، وقال جلّ وعلا آمرا نبيهﷺبالتذكير، مبيّنا أهل الانتفاع: ﴿ **وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[الذاريات:55].

وأوضح في آية أخرى أن الناس في ذلك أصناف، فالمنتفعون هم أهل الفلاح ممن زكت نفوسهم، وأمّا أهل الشقاء فلا يرفعون به رأسا، ولا يقيمون له وزنا، قال تعالى: ﴿ **فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ (9) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (10) وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى (11) ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ (12) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (13) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (14) وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ** ﴾[الأعلى:9_15].

وقد علّمنا القرآن الكريم أنّ العبرة في الانتفاع ليست بكثرة النفوذ ولا ببسطة الجسم وسلامته، فقد أُوتي صناديد قريش ذلك، غير أنّهم أعرضوا، بينما انتفع الكثير من الضعفاء وكانوا أهلا للتزكية لسلامة قلوبهم وطهارتها، ومن هؤلاء ابن أم مكتوم الذي عاتب الله نبيه بشأنه فقال: ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (1) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ**

يَزَّكَّىٰٓ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ④ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ⑥ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ⑩ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ⑪ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ [عبس:1_12].

والحامل على إعراض هؤلاء تكبرهم، فقد مشوا على سنن من قبلهم، كحال فرعون ومن شايعه، فهؤلاء عن السماع مصرفون، وعن الهدى محجوزون، وقد أمر الله جلّ ثناؤه نبيه موسى عليه السلام بإبلاغهم الآيات، ثم ذكر أنّه سيصرفها عن المتكبرين، فدلّ هذا على أنّ أهل الانتفاع هم الأتقياء الأنقياء، قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ⑭⑤ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:145_146].

فطهارة القلب تجعل العبد يتبع أحسن ما يُدْعَى إليه، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر:18]، وأوضح في آية أخرى أنّ أهل الاستجابة هم أهل الإيمان، فهم الذين يستمعون استماع المستفيد أما غيرهم فجعلهم في حكم الأموات، قال عزّ وجل: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام:36]، قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمدﷺ: لا يكبُرنّ عليك إعراض هؤلاء المعرضين عنك، وعن الاستجابة لدعائك إذا دعوتهم إلى توحيد ربّهم والإقرار بنبوّتك، فإنه لا يستجيب لدعائك إلى ما تدعوه إليه من ذلك، إلاّ الذين فتح الله أسماعهم للإصغاء إلى الحق، وسهّل لهم اتباع الرُّشد، دون من ختم الله على سمعه، فلا يفقه من دعائك إياه إلى الله وإلى اتباع الحق إلا ما تفقه الأنعام من أصوات رُعاتها، فهم كما وصفهم به الله تعالى ذكره: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة:171]، ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾، يقول: والكفارُ يبعثهم الله مع الموتى، فجعلهم تعالى ذكره في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتًا، ولا يعقلون دعاء، ولا يفقهون قولا إذ كانوا لا يتدبرون حُجج الله، ولا يعتبرون آياته، ولا يتذكرون فينزجرون عما هم عليه من تكذيب رُسل الله وخلافهم»(1).

ولم يتوقف حال أهل التدسية عن عدم الانتفاع بالقرآن الكريم، بل حمل بعضهم لواء الصدّ عن سبيل الله عزّ وجل باتباع المتشابه من القرآن لإضلال الناس، وقد بين الله تعالى الفرق بين أهل التزكية ومن خالفهم في تعاملهم

(1) جامع البيان، الطبري، (11/ 341).

مع كتابه فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[آل عمران: 7]، والسالك طريق التزكية مأمور بالإعراض عن هؤلاء الخائضين في آيات الله تعالى لبث الشك والريب فيها، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأنعام:68]، فهؤلاء لا يتذكرون ولا يعتبرون، بخلاف أولوا التزكية، فهم أولوا العقول الصافية، والقلوب الطاهرة، فشتان بين الفريقين، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[الرعد:19].

وقد أوضح النبي ﷺ بمثال ضربه أصناف الناس مع الوحي، حيث قال: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فَعَلِمَ وعَلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**»(1). قال ابن القيم: «فشبه ﷺ العلم الذي جاء به بالغيث؛ لأن كلا منهما سبب الحياة، فالغيث سبب حياة الأبدان والعلم سبب حياة القلوب. وشبّه القلوب بالأودية كما في قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾[الرعد:17]، وكما أن الأرضين ثلاثة بالنسبة إلى قبول الغيث.

إحداها: أرض زكية قابلة للشراب والنبات، فإذا أصابها الغيث ارتوت ومنه يثمر النبت من كل زوج بهيج، فذلك مثل القلب الزكي الذكي، فهو يقبل العلم بذكائه فيثمر فيه وجوه الحكم ودين الحق بزكائه فهو قابل للعلم مثمر لموجبه وفقهه وأسرار معادنه.

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، رقم: 79، (1/ 27)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم، رقم: 2282، (4/ 1787).

والثانية: أرض صلبة قابلة لثبوت ما فيها وحفظه فهذه تنفع الناس لورودها والسقي منها والازدراع، وهو مثل القلب الحافظ للعلم الذي يحفظه كما سمعه، فلا تصرف فيه ولا استنبط، بل للحفظ المجرد فهو يؤدي كما سمع وهو من القسم الذي قال النبيﷺ: «**فَرُبَّ حامل فقه إلى من هو افقه ورُبَّ حامل فقه غير فقيه**»(1).

فالأول: كمثل الغني التاجر الخبير بوجوه المكاسب والتجارات فهو يكسب بماله ما شاء.

والثاني: مثل الغني الذي لا خبرة له بوجوه الربح والمكسب، ولكنه حافظ لما لا يحسن التصرف والتقلب فيه.

والأرض الثالثة: أرض قاع وهو المستوى الذي لا يقبل النبات ولا يمسك ماء، فلو أصابها من المطر ما أصابها لم تنتفع منه بشيء، فهذا مثل القلب الذي لا يقبل العلم والفقه والدراية، وإنما هو بمنزلة الأرض البوار التي لا تنبت ولا تحفظ، وهو مثل الفقير الذي لا مال له ولا يحسن يمسك مالاً...فاستوعب هذا الحديث أقسام الخلق في الدعوة النبوية ومنازلهم منها قسمان قسم سعيد وقسم شقي»(2).

فالقسم السعيد هم أهل التزكية، ومن أهم خصائصهم كما سبق الانتفاع بالآيات الشرعية، بالإضافة إلى ذلك فهم ينتفعون بالآيات الكونية الدَّالة على عظمة الله تعالى، ففي سورة الفرقان ذكر اللهﷻ بعض الآيات الكونية العظيمة، وهي السماء وما فيها من بروج وشمس وقمر، وتقلّب الليل والنهار، حيث قال:﴿ **تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿61﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا** ﴾[الفرقان:61_62]، ثم عقّب ذلك بذكر صفات عباد الرحمن، ممّا يدل أنّهم أهل الاتعاظ والاعتبار بما أودع الله جلّ ثناؤه في هذا الكون الفسيح، إذ لا يمرون على ذلك مرور من لا يرى ولا يسمع، بل يحملهم ذلك على تعظيمه وإفراده بالعبادة(3).

ومما يدل على انتفاعهم بالآيات الكونية ما ورد في بيان حالهم في سورة آل عمران، قال جلّ ثناؤه: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿190﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ** ﴾[آل عمران: 190_191].

---

(1) أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابتﷺ، باب من بلغ علما، رقم: 230، (1/ 84)، و أبو داود، باب فضل نشر العلم، رقم: 3660، (5/ 501)، والترمذي، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، رقم: 2656، (5/ 33)، وقال: «حديث زيد بن ثابت حديث حسن».

(2) زاد المهاجر إلى ربه، ابن القيم الجوزية، ت: محمد جميل غازي، مكتبة المدني – جدة، د ت ط، (ص: 55).

(3) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (19/ 65).

وأما أهل التدسية فكما لم ينتفعوا بالآيات الشرعية، لم تنفعهم الآيات الكونية، قال تعالى مبينا حالهم: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[يوسف:105].

بالإضافة إلى انتفاع من صفت قلوبهم بالآيات الشرعية والكونية، فهم ينتفعون بالآيات التي أيّد اللهﷻ بها رسله عليهم السلام، وهي المعجزات ودلائل النبوة، وأما أهل التدسية فلا يرفعون بذلك رأسا، ومما يظهر الفرق بين هؤلاء وهؤلاء قصة سحرة فرعون؛ فبعد أن أبصروا الحق ماثلا بين أعينهم، خالط الإيمان بشاشة قلوبهم، فانتفعوا بذلك، قال تعالى عنهم: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾[طه:70]. بينما ذهب فرعون مذهب التهديد والاتهام، وتلك وسيلة أهل الطغيان والضلال، ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾[طه:71].

وقد أعرض من قبل عن الآيات بعد أن أبصرها، واتهم موسى عليه السلام بالسحر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾[طه:56_57]، وبعد أن انهزم السحرة ورجعوا إلى الحق، فكان ذلك هو انتصارهم على الحقيقة، لم يكتف فرعون بتوجيه التهمة لموسىﷺ، بل اتهمهم جميعا، ثم هدّد السحرة بالعذاب، فما كان منهم بعد أن انتفعوا بالآيات إلاّ أن ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[طه:72_73].

وكذلك كان حال الرسل عليهم السلام مع أقوامهم، فمتبع لهم ومعرض، وذلك بحسب استعداد القلوب لتلقي الخير، فالقلوب الطاهرة تنتفع بالمواعظ فتقبل على نور الهداية، وأمّا غيرها فتتردى في دركات الضلالة، وهذا ما يتضح أكثر من خلال الفرع الموالي.

الفرع الثاني: حصول الهداية

سبق بيان أثر التزكية في الانتفاع بالمواعظ والآيات، وليس بعد ذلك إلاّ حصول الهداية والتوفيق لها، وهي من أعظم ثمرات التزكية، فأعظم ما تتزكى به النّفس؛ الإيمان بالله تعالى، ومن مقتضياته التسليم لأمره، وقد بيّن اللهﷻ تحقق الهداية لأهله، فقال: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[التغابن:11]، فالآية تبيّن أثر الرضا بقضائه وقدره في حصول الهداية، جاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنّه قال:

«﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يعني: يهد قلبه لليقين ...»[1]، وتلك نعمة لا ينالها إلاّ من حلّى نفسه بالإيمان، وطهّرها من التسخط وعدم الرضا بأقدار الله جلّ وعلا.

ويعدّ الوحي أيضا أساس التزكي؛ إذ به يُعرف الخير من الشرّ، وسبق بيان مقاصده المتمثلة في التزكية والتعليم، وقد بيّن الله ﷻ دور القرآن في تحقيق الهداية فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:2]، قال السمرقندي: «فهذا القرآن بيان لهم من الضلالة، وبيان لهم من الشبهات، وبيان الحلال من الحرام»[2]، وتلك وظيفة النبيﷺ أيضا، فهو المبين لمعاني القرآن الكريم بأقواله وأفعاله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:52]، والهداية الواردة في القرآن والسنة تتفرع إلى أربعة أنواع:

الأولى: الهداية العامة؛ وهي مرتبطة بالجانب الفطري، فالله سبحانه هدى خلقه إلى ما يُصلح معاشهم، وفطر نفوسهم على جلب المنافع والابتعاد عن المضار، ودليل هذا النّوع، قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ① ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[الأعلى:1_3]، وقد تعدّدت عبارات السلف في تفسير الهداية في هذه الآية، فقال بعضهم: هداهم لمعاشهم إن كانوا إنساً، ولمراعيهم إن كانوا وحشاً. وقال السدي: هدى الذَكَر كيف يأتي الأنثى. وقال غيره: وهدى الخلق للخروج من بطون أمهاتهم. وقال آخرون: أنّ الله هداهم للعمل[3]. واعتبر الطبري أنّ معنى الهداية في الآية عام، ولم يُخَصَّص من ذلك معنى دون معنى[4]، وهذا هو الصحيح، فلا تنافر بين المعاني السابقة؛ لذا فاللّفظ يحتملها جميعا.

يُلاَحظ أنّ هذا النوع مربوط في الآية بالخلق، وكذلك جاء في قوله تعالى:﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه:50]، ممّا يوضّح أنّ الهداية هنا عامة لجميع الخلق، تشمل المؤمن والكافر؛ لأنّها مرتبطة بمصالح معاشهم في الدنيا، وقد جعلها الله جلّ ثناؤه لجميع خلقه.

وأما النوع الثاني من الهداية؛ فهداية البيان والإرشاد للحق، وهي المقصودة بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[فصلت:17]، ويشمل هذا النوع كل من بلغته الدعوة.

---

(1) جامع البيان، الطبري، (23/ 421).

(2) بحر العلوم، السمرقندي، (1/ 22)..

(3) ينظر: النكت والعيون، الماوردي، (6/ 252).

(4) ينظر: جامع البيان، الطبري، (24/ 368).

وأما النوع الثالث فهداية التوفيق لسلوك طريق الحق، وهي المقصودة من دعاء المؤمن بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: 5].

وأما النوع الرابع؛ فيتمثّل في غاية هذه الهداية، وهو بلوغ الجنّة لأهل الإيمان، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[النحل:9]، ومن نكب عن الصراط المستقيم، فيهدى إلى النّار، قال تعالى: ﴿ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿22﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾[الصافات:22_23][1].

والذي يعنينا من هذه الأنواع كثمرة من ثمرات التزكية في الدنيا؛ النوع الثالث المتعلق بالتوفيق للخير، الذي يكون سبيلا للفلاح الأبدي في الآخرة؛ لأنّ هداية البيان والإرشاد متحققة لجميع المكلفين، فمن التزم بها وُفّق للخير، ومن أعرض عنها كالذي يمشي في ظلام دامس، فتضل به السُبل، ويتأرجح ذاهبا راجعا، آخذا ذات اليمين وذات الشمال، غير مُوفّق للوصول إلى مبتغاه، حاله كالأعمى وإن امتلك جارحة البصر، إلاّ أنّ الظلام الدامس حائل دون رؤيته، فلا يهتدي سبيلا، كذلك الشأن لمن أعرض عن تزكية نفسه، فيُصاب بالعمى وإن كان بصيرا، قال تعالى:﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[الحج:46].

ومن هنا يتضح أثر وصف الله للناكبين عن تزكية نفوسهم بهذا الوصف، حيث قال: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[فصلت:17]، وذلك جزاءً لبعدهم عن معالم الهداية، فأحاطت بهم الظلمات من كل جانب، ﴿ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ ﴾[النور:40]، وهذا حال كل من دسّى نفسه.

ولا سبيل لتبديد الظلمات إلاّ بالتزام الوحي، فمن أعرض عنه وقع في الضلالة، وممّا يبين ذلك ويجلّيه؛ حال النّاس قبل بعثة النبيﷺ، فقد كانوا في ظلام من الجهل بأنبياء الله وبشرعه، ومن الجهل بآيات الله في أنفسهم وفي الكون، ومن الجهل بنعم الله عليهم في أنفسهم بالعقل والفكر والاستعداد للخير والكمال، وفي العالم المسخّر لهم بما أودع فيه من مرافق العيش والعمران والحياة، ومن الجهل بقيمة أنفسهم الإنسانية، وكرامتها وحريتها، فلمّا بعث الله محمدا ﷺ، كان بقوله وبفعله وبسيرته، مُعرّفا للخلق بما كانوا يجهلون، فكان نورا سطع في ذلك الظلام الحالك

(1) ينظر: لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، شمس الدين السفاريني، مؤسسة الخافقين ومكتبتها – دمشق، ط:2، 1402 هـ - 1982 م، (1/ 334_ 335).

فبدّده عن البصائر، وكما أنّ النور الكوني يجلو الموجودات الكونية للأبصار، فكذلك كان محمد ﷺ ذلك النور الرباني، يجلو تلك الحقائق للبصائر.

وكما أنّ النور الكوني يُظهر الموجودات الكونية، فلا يُحرم منها إلاّ معدوم البصر، فكذلك كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم ذلك النور الرباني، مُجلّيا الحقائق للبشرية كلها، ولا يحرم من إدراكها إلا مطموسو البصائر، الذين زاغوا فأزاغ الله قلوبهم.

وكما كان محمد ﷺ نورا تنبعث من أقواله وأفعاله وسيرته الأشعة الكاشفة للحقائق، كذلك كان الكتاب الكريم الذي أنزله الله عليه، يبيّن بسوره وآياته وكلماته تلك الحقائق أجلى بيان، فبمحمد ﷺ وكتابه، تمّت نعمة الله تعالى على البشرية كلها بإظهار الطريق، وبقي نيل الهداية مرتبط بقدر سلوك طريقه والتزامه.

وقد جاء وصف النبي ﷺ بالنور، ووصف القرآن الكريم بأنّه مبين، وذلك في قوله جلّ ثناؤه: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿15﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة:15_16].

وفي آيات أخرى وصف القرآن بأنه نور، كقوله جلّ ثناؤه: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[التغابن:8]، ووصف الرسول ﷺ بأنه مبين، كقوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]؛ وهذا ليبين لنا الله تعالى؛ أنّ إظهار النبي ﷺ وبيانه، وإظهار القرآن وبيانه واحد، وقد صدقت عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلق النبي ﷺ فقالت: «**كان خلقه القرآن**»(1)_(2).

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده، رقم: 24601، (41/ 148)، وصححه شعيب الأرؤوط.

(2) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس، (ص: 330) (بتصرف يسير).

والمؤمن ينال من هذا النور على حسب تدرجه في مراتب التزكية علما وعملا، وعليه أن يضرع إلى الله ﷻ بالدعاء، كما جاء عن النبي ﷺ أنّه كان يقول: «**اللهم اجعل في قلبي نورا، وفي بصري نورا، وفي سمعي نورا، وعن يميني نورا، وعن يساري نورا، وفوقي نورا، وتحتي نورا، وأمامي نورا، وخلفي نورا، واجعل لي نورا**»(1).

فالمقبلون على الله تعالى بقلوبهم وجوارحهم، هدوا هداية إرشاد وتوفيق، فزادهم الله ﷻ هداية وتوفيقا، قال جلّ شأنه: ﴿**وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى**﴾[مريم:76]، وييسّر لهم طريق العبادة فلا يستثقلونها كحال المعرضين، قال تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ**﴾[البقرة:143].

أما الذين أعرضوا عن الاشتغال بتزكية نفوسهم وتطهيرها فسيخذلهم ويحرمهم من ذلك التيسير، ويختم على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فلا يهتدون بها لمنافعهم، قال تعالى عن حالهم:﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑥ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[البقرة:6_7]، فلم يستفيدوا من هداية الإرشاد، فعاقبهم الله جلّ ثناؤه بجنس فعلهم، جزاءً وفاقا، قال ﷻ: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾[الصف:5].

وبهذا يتأكد أنّ حصول النور الذي يوصل لطريق الهداية إنما يتحقق لمن شرح قلبه لتلقي الخير، فيزيده الله ﷻ انشراحا وتوفيقا، ومن أعرض عن ذلك ابتلاه الله تعالى بقسوة القلب وموته، فلا ينتفع بكتاب الله وذكره، وليس بعد ذلك إلا الحيرة والضلال، قال الله تعالى: ﴿**أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ [الزمر:22].

وضلال هؤلاء جاء نتيجة لركونهم للشيطان، فأبعدهم عن طريق الهداية بعد أن كان يعدهم ويمنيهم به، وأوقعهم في أعظم ما يدنّس النّفس ويدسيها.

«وأما المؤمنون فصار القرآن لهم هدى ورحمة...والرحمة المقارنة للهدى في حق المؤمنين عاجلة وآجلة، فأما العاجلة فما يعطيهم الله تعالى في الدنيا من محبة الخير والبر، وذوق طَعم الإيمان، ووجد حلاوته، والفرح والسرور

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه من الليل، رقم: 6316، (8/ 70)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم: 763، (1/ 525).

بأن هداهم الله تعالى لما اختلف فيه من الحق، فهم يتقلبون في نور هداه، ويمشون به في الناس، ويرون غيرهم متحيرا في الظلمات، فهم أشد الناس فرحا بما آتاهم ربهم من الهدى، قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:58]، فأمر سبحانه عباده المؤمنين المهتدين أن يفرحوا بفضله ورحمته، وقد دارت عبارات السلف على أن الفضل والرحمة هو العلم والإيمان والقرآن، واتباع الرسول، وهذا من أعظم الرحمة التي يرحم الله بها من يشاء من عباده، فإن الأمن والعافية والسرور، ولذة القلب ونعيمه وبهجته، وطمأنينته؛ مع الإيمان والهدى إلى طريق الفلاح والسعادة.

والخوف والهم والغم والبلاء والألم والقلق مع الضلال والحيرة، ومثل هذا بمسافرين أحدهما قد اهتدى لطريق مقصده، فسار آمنا مطمئنا، والآخر قد ضل الطريق فلم يدر أين يتوجه؟ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الأنعام:71].

فالرحمة التي تحصل لمن حصل له الهدى هي بحسب هداه، فكلما كان نصيبه من الهدى أتم كان حظه من الرحمة أوفر، وهذه هي الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين، وهي غير الرحمة العامة بالبر والفاجر، وقد جمع الله سبحانه لأهل هدايته بين الهدى والرحمة والصلاة عليهم، فقال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة:157]»(1).

من خلال ما سبق يُعلم أنّ الهدى هدى الله ﷻ، ولا يوفق لها إلاّ من تزكى من أدران الشرك والمعاصي، فمن فعل ذلك استحق الهداية، ومن اتخذ الشيطان وليّا، انحرف إلى طريق الغواية دون أن يشعر، قال تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[الأعراف:30]. قال الطبري: «إن الفريق الذي حق عليهم الضلالة، إنما ضلوا عن سبيل الله وجارُوا عن قصد المحجَّة، باتخاذهم الشياطين نُصراء من دون الله، وظُهراء، جهلا منهم بخطأ ما هم عليه من ذلك، بل فعلوا ذلك وهم يظنون أنهم على هدى وحق، وأن الصواب ما أتوه وركبوا»(2)، ولعمري إنّ هذه الحال التي

---

(1) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم، (2/ 911).

(2) جامع البيان، الطبري، (12/ 388).

تردى فيها هؤلاء لهي أسوء حال، حتى إنّهم من ضلالهم يخيل إليهم أنّهم مهتدون، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف:103_104].

ولما كان من طبع العبد أن يستأنس بمن يقتدي به حتى يزداد هداية، بين اللهﷻ آثار التزكية التي تتحقق بالإيمان والابتعاد عن الشرك، ومن تلك الآثار؛ حصول الهداية، ثمّ أوضح النموذج الأسمى الذي يقتدي المتزكي به، ممثّلا في أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، حتى قد دعي نبينا ﷺ على جلالة قدره ومقامه عند ربه إلى الاقتداء بمن سبقه من إخوانه، قالﷻ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام:90].

وبحصول الهداية تتحقق محبّة اللهﷻ لعبده، كما يتحقق الخير على المستوى الجماعي، فتقوى أواصر الأخوة، وذلك من أهم ثمرات التزكية، وهذا ما سيأتي في المطلب الموالي.

المطلب الثاني: نيل المحبة وحصول الأخوة

من آثار التزكية نيل المحبة، فالعبد المتقي ينال من محبّة الله تعالى على قدر ارتقائه في سلم التزكية، كما ينال محبّة أهل الإيمان، فيوضع له القبول، وقد وردت في ذلك نصوص كثيرة تفيد أنّ هذه المحبة خالصة لأهل الصفاء ممن تحلوا بصفات عديدة كالإيمان والإحسان والإنابة إلى الله والعناية بطهارة الباطن والظاهر والابتعاد عن المنكرات وفعل الطاعات والدفاع عن الحرمات وتعظيم الشعائر...، وليست المحبة لمن زعم ذلك بلسانه وخالف بقلبه وجوارحه، كحال اليهود حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[المائدة : 18]،فكذبهم الله بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة:18]، وذلك لأنهم لو أحبُّوه لأحبَّهم، ولو أحبَّهم لم يعذبهم، والدليل أنهم لم يحبوه، أنهم لم يؤمنوا به كما ينبغي، ولو آمنوا به لم يؤثروا عليه شيئاً، ولَمَّا لم يحبهم عذَّبهم بذنوبهم(1).

فالمحبة إنّما تحصل لمن اتبع سبيل الأنبياء؛ إذ وظيفتهم تزكية النّفوس، فمن سار على ركبهم نال محبة اللهﷻ، القائل في كتابه:﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران:34]، فالمؤمن الحقيقي يُجرّد اتباعه للحق، فيجتمع الإيمان فيه والعمل الصالح فتتزكى النّفس ويثمر ذلك في الدنيا آثارا عديدة أعظمها نيل محبة الله تعالى.

---

(1)ينظر: حسن التنبه لما ورد في التشبه، نجم الدين الغزي، ت: نور الدين طالب، دار النوادر، سوريا، ط:1، 1432 هـ – 2011 م، (1/ 35).

ومما يبرز دور التزكية في نيل محبة الله تعالى أنّ المتزكي محسن إلى غيره، وتلك صفة يحبها الله تعالى من عبده، قال تعالى: ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[البقرة:195]، فالمحبة رحمة من الله تعالى، ولا ينالها إلاّ الأتقياء ممن اتصفوا بصفة الإحسان، قال جلّ ثناؤه: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[الأعراف:56]،

«وإنما اختَص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم؛ لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان؛ لأن الجزاء من جنس العمل فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته،...فمن تقرب بالإحسان تقرب الله إليه برحمته، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته، والله سبحانه يحب المحسنين ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه، والإحسان ههنا هو فعل المأمور به، سواء كان إحسانا إلى الناس أو إلى نفسه، وأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله والإقبال عليه والتوكل عليه وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالا ومهابة وحياء ومحبة وخشية، فهذا هو مقام الإحسان كما قال النبيﷺ...«**أن تعبد الله كأنك تراه**»[1].

وإنما كتب الله رحمته ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف:156]، فكما أحسنوا جوزوا بالإحسان و﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[الرحمن:60].

وقد أكدّ اللهﷻ محبته لأهل الإحسان وبين بعض صفاتهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[آل عمران:134]، وهذه الصفات السابقة لم تتحقق لهم إلاّ بعد أن زكت قلوبهم من الأدران وتحلّت بجميل الصفات، فاستحقوا أن ينالوا بذلك محبة الله القائل:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[البقرة:222]، والإقبال على التوبة والطهارة دليل على التقوى التي شغلت حياتهم، فاستحقوا أن يكونوا أهل وفاء، وهم المعنيون بقوله تعالى:﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران:76].

وبسبب رسوخ الإيمان في قلوبهم فإنّهم يحبون كل حسن، ويبتعدون عن الصفات التي تجلب مقت الله سبحانه، كعدم الرضا بقضائه، والتكبر على خلقه وعدم الإنفاق عليهم، فهم يمتثلون قول الله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا

(1) التفسير القيم، ابن قيم الجوزية، (ص: 267)، والحديث سبق تخريجه. ينظر: (ص:83).

تَاسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٖ فَخُورٍ ﴿23﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[الحديد:24].

بل إنّهم يقدمون كل عزيز عليهم في سبيل الله سبحانه وتعالى حتى هانت عليهم نفوسهم في مقابل نصرة الحق وإعلاء كلمته، فاستحقوا أن يرتقوا في مراتب التزكية، ونالوا بذلك مزيد محبة، وهم المقصودون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾، وبهذه الصفات استحقوا ولاية الله تعالى وما يلحق بها من آثار كما جاء في الحديث القدسي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«**إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه...** »[1].

ومن ثمار نيل محبة الله تعالى **حصول القبول في الأرض، ونيل محبّة الأتقياء**، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[مريم:96]، ومعنى الآية: «إن الذين آمنوا بالله ورسله، وصدّقوا بما جاءهم من عند ربهم، فعملوا به، فأحلوا حلاله، وحرّموا حرامه ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾في الدنيا، في صدور عباده المؤمنين»[2]، ويسبق ذلك ما يناله المتزكي من محبة الله سبحانه وتعالى وملائكته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **إنّ الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال ثم يوضع له القبول في الأرض...**»[3].

ومن النماذج التي حصل لها القبول في الأرض الخليل إبراهيم عليه السلام، الذي دعا ربه بقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾[الشعراء:84]،قال الطبري: «واجعل لي في الناس ذكرًا جميلا وثناء حسنا، باقيا فيمن يجيء من القرون بعدي»[4]، فاستجاب له ربّه جلّ ثناؤه فجعله للناس إماما وخلّد ذكره في الدنيا كما قال

(1) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم: 6502، (8/ 105).

(2) جامع البيان، الطبري، (18/ 261).

(3) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم: 3209، (4/ 111)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حببه لعباده، رقم: 2637، (4/ 2030).

(4) المصدر السابق، (19/ 364).

تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[النحل:122]، قال ابن عطية: « (الحسنة) لسان الصدق وإمامته لجميع الخلق، هذا قول جميع المفسرين، وذلك أن كل أمة متشرعة فهي مقرّة أن إيمانها إيمان إبراهيم وأنه قدوتها وأنه كان على الصواب»(1).

والمقام نفسه حازه سيد الأزكياءﷺ، حين رفع الله ذكره فقال: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾[الشرح:4]، قال الرازي: «واعلم أنه عام في كل ما ذكروه من النبوة، وشهرته في الأرض والسموات... وأنه يذكر معه في الشهادة والتشهد، وأنه تعالى ذكره في الكتب المتقدمة، وانتشار ذكره في الآفاق، وأنه ختمت به النبوة، وأنه يذكر في الخطب والأذان ومفاتيح الرسائل، وعند الختم، وجعل ذكره في القرآن مقرونا بذكره: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾[التوبة:62]، ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[النساء:12]، ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾[النور:54]، ويناديه باسم الرسول والنبي، حين ينادي غيره بالاسم يا موسى يا عيسى، وأيضا جعله في القلوب بحيث يستطيبون ذكره وهو معنى قوله تعالى: ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾[مريم: 96]...»(2).

هذه المحبة والقبول التي ينالها المتزكي في الأرض سبب لحصول الأخوة وفيما يلي بيان لأثر التزكية في تحقيقها.

الفرع الثاني: حصول الأخوة

أعظم ما تتزكى به النفوس الإيمان باللهﷻ، ولا يتحقق كمال ذلك إلاّ بالمحبة الخالصة بين المؤمنين، وهذا ما بيّنه النبيﷺبقوله: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»(3)، قال القاضي عياض: «أي لا يتم إيمانكم ولا يكمل ولا تصلح حالكم في الإيمان إلا بالتحاب والألفة، ويعضده قوله بعد: « **ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم** »، وفيه حض على ما تقدم من إفشاء السلام على من عرف ومن لم يعرف، والسلام أول درجات البر، وأول خصال التآلف، ومفتاح استجلاب المودة، وفى إفشائه يمكن ألفة المسلمين بعضهم ببعض، وإظهار شعارهم المميز لهم بينهم، وإلقاء الأمن والطمأنينة بينهم، وهو معنى السلام، واستدراج محبة كافتهم، كما قالﷺ، ودليل

(1) المحرر الوجيز، ابن عطية، (3/ 431).

(2) مفاتيح الغيب، الرازي، (32/ 208).

(3) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سببا لحصولها، رقم: 54، (1/ 74).

التواضع والتواصل بسبب الإسلام، لا لغرض الدنيا، خلاف ما أنذر بهﷺ، آخر الزمان من كون السلام للمعرفة فيقطع سبب التواصل»(1).

وقد بين اللهﷻ في كتابه أنّ الإيمان رابطة قوية؛ تربط أواصر المجتمع المسلم، فتجعل أفراده إخوة فيما بينهم، ثم أمر بحماية هذه الرابطة من نوازع الخلاف، وذلك بإقرار مبدأ الإصلاح فقال:﴿ **إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ** ﴾[الحجرات:10]، نقل القاسمي في تفسيره عن الشهاب قال: «وتسمية المشاركة في الإيمان أخوّة تشبيه بليغ، أو استعارة؛ شبّه المشاركة فيه بالمشاركة في أصل التوالد، لأن كلّا منهما أصل للبقاء، إذ التوالد منشأ الحياة، والإيمان منشأ البقاء الأبديّ في الجنان»(2)، ونقل عن أحد العلماء أنّه قال: «بيّن تعالى أن الإيمان...يقتضي الأخوة الحقيقية بين المؤمنين، للمناسبة الأصلية، والقرابة الفطرية، التي تزيد على القرابة الصورية، والنسبة الولادية...فلا أقل من الإصلاح الذي هو من لوازم العدالة، وأحد خصالها، إذ لو لم يعدوا عن الفطرة، ولم يتكدروا بغواشي النشأة، لم يتقاتلوا، ولم يتخالفوا. فوجب على أهل الصفاء، بمقتضى الرحمة والرأفة والشفقة اللازمة للأخوة الحقيقية، الإصلاح بينهما، وإعادتهما إلى الصفاء»(3).

وقد ذكر الله تعالى حال الأزكياء بعد أن طهرت قلوبهم وصفت سرائرهم، فصاروا يحبون الخير لإخوانهم كما يحبونه لأنفسهم، بل وأكثر، قال تعالى:﴿ **وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ** ﴾[الحشر:9].

وقد نبّه القرآن الكريم إلى عظم هذه النعمة، وحثّ على التمسك بها وعدم الإتيان بأسباب زوالها، وذكّر بالحال التي كان عليها النّاس في الجاهلية، حين كانت معالم التزكية غائبة، فقالﷻ: ﴿ **وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ** ﴾[آل عمران:103].

---

(1) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، (1/ 304).

(2) محاسن التأويل، القاسمي، (8/ 529).

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وحذّر القرآن الكريم من صفات التدسية؛ لأنها تعود بالضرر على الأخوة الإسلامية، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[الحجرات:11].

وبيّن القرآن الكريم أن التخلي عن منبع التزكية يسوق إلى ظهور الخلافات، وانتشار العداوة والبغضاء، قال تعالى عن أهل الكتاب:﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾[المائدة:14]، قال ابن تيمية: «فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرّق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا؛ فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب...»(1).

وجاء في السنة ما يظهر أن التزكية في أعلى مراتبها لا تقف عند حدود محبة المؤمن لأخيه محبة عامة، بل ترفع الإنسان لدرجة أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، وقد بين النبيﷺذلك حين قال: «**لا يؤمن أحدكم، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(2)، قال الكرماني: «فإذا أردت معرفة الإيمان من نفسك، فانظر فإن اخترت لأخيك في الإسلام ما تختار لنفسك فقد اتصفت بصفة الإيمان، وإن فرقت بينك وبينه في إرادة الخير فلست على حقيقة الإيمان، فالمؤمن مشتق من الأمن؛ أي أنه يؤمن أخاه عن الضيم والشر، وإنما يصح منه هذا إذا ساوى بينه وبين نفسه، فأما إذا كان وصول الشر إلى أخيه أهون عليه من وصوله إلى نفسه، أو حصوله على الخير أكثر من حصول أخيه عليه، فلم يؤمنه أماناً تاماً»(3).

وقد بيّن النبيﷺ أثر التزكية في تحقيق الأخوة بين أهلها فقال: «**إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**» وشبك أصابعه(4).

---

(1) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (3/ 422).

(2) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم: 13، (1/ 12)، ومسلم، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، رقم: 45، (1/ 67).

(3) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (1/ 96).

(4) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيرهن رقم: 481، (1/ 103)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم: 2585، (4/ 1999).

وعن النعمان بن بشيرﷺ، قال: قال رسول اللهﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[1].

والنصوص في هذا الباب أكثر من أن تحصى، وفي العموم فإن للتزكية آثار عظيمة في الدنيا؛ إذ توصل العبد إلى الانتفاع بالمواعظ والآيات، وهذا ما يسوقه إلى الهداية والتوفيق، وبذلك تتحقق له السعادة، وينال محبة الله تعالى، كما يوضع له القبول في الأرض، كما أنّ التزكية توصل إلى ترسيخ الأخوة بين أبناء الأمة المؤمنة.

المطلب الثالث: تحقق الأمن والرّخاء وحصول السعادة

من آثار التزكية حصول الأمن والرخاء، ويقصد بالأمن؛ الاطمئنان على النّفس والعرض والمال، وأمّا الرخاء فيتمثل في تحقيق الاكتفاء في جانب الطعام وما به قوام البدن، وإذا اجتمعت هذه النّعم للعبد فقد حاز خير الدنيا، وهذا ما دلّ عليه قولهﷺ: «**من أصبح منكم معافى في جسده، آمنا في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا**»[2]. وبذلك تتحقق له السعادة، ويأتي هذا المطلب ليبيّ ذلك من خلال ما يلي:

الفرع الأول: حصول الأمن والرخاء

لقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة في بيان أثر التزكية في حصول الأمن والرخاء، فالعبد مطالب أن يتطهر من أدران الذنوب والمعاصي ويزكي نفسه بالتقرّب إلى الله جلّ ثناؤه، فيتحقق له وعده بالرزق الوفير والمتاع الحسن، قال تعالى: ﴿ **وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ** ﴾[هود:3]، فقوله: ﴿ **يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا** ﴾؛ أي: يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به وتنتفعون، ﴿ **إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ أي: إلى وقت وفاتكم ﴿ **وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ** ﴾ أي: يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره، ما هو جزاء لإحسانهم، من حصول ما يحبون، ودفع ما يكرهون[3]؛لذا كان الأنبياء والرسل يوصون أقوامهم بتزكية نفوسهم ويعدونهم بنزول الخير عليهم، فهذا نوحﷺ يخاطب قومه: ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿10﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿11﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا** ﴾[نوح:10_11]، فأمرهم أن يتركوا الذنوب، ويستغفروا الله منها، ﴿ **إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا** ﴾ كثير المغفرة لمن تاب واستغفر...ورغبهم أيضا، بخير الدنيا العاجل، فقال: ﴿ **يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم** ﴾ أي: مطرا متتابعا، يروي

(1) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم: 2586، (4/ 1999).

(2) أخرجه ابن ماجه في السنن، باب القناعة، رقم: 4141، (2/ 1387) ، و الترمذي في سننه، باب في التوكل على الله، رقم: 2346، (4/ 574) ، وقال:«حديث حسن غريب».

(3) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 376).

الشعاب والوهاد، ويحيي البلاد والعباد، ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي: يكثر أموالكم التي تدركون بها ما تطلبون من الدنيا وأولادكم، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ وهذا من أبلغ ما يكون من لذات الدنيا ومطالبها[1]، قال ابن عاشور:«وفي هذا دلالة على أن الله يجازي عباده الصالحين **بطيب العيش** قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل:97]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[الأعراف:96]، وقال: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾[الجن:16]»[2] .

وقال هود لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾[هود:52]، فالتزكية تحقق الأمن الغذائي فتكثر البركات وتعم الخيرات، كما تحقق النّصرة والتمكين، وذلك ما يظهر في قوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾.

وقد جمع الله جلّ ثناؤه بين هاتين النعمتين وصدّرهما بالأمر بتوحيده، وهو أعظم ما تتزكى به النفوس فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[قريش:3_4].

ووعد سبحانه وتعالى بتيسر الأرزاق وتحقيق العزة والتمكين لمن حقق توحيد الله ﷻ على أكمل وجه فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[النور:55]، «وهذا وعد عام في النبوة والخلافة وإقامة الدعوة، وعموم الشريعة، بنفاذ الوعد في كل أحد بقدره وعلى حاله»[3].

فنصرة الله ﷻ وتمكينه لعباده إنّما تكون بحسب قيامهم بواجب تزكية نفوسهم ومجتمعهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[محمد:7]، وحين بلغ الصحابة رضي الله عنهم المبلغ الأسمى في تزكية نفوسهم تحقق لهم وعد الله تعالى، فتحولوا من رعاة الإبل والغنم إلى سادة الأمم، وفتحت لهم

---

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 889).

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (29/ 199).

(3) المصدر نفسه، (3/ 412).

الأرض وجاءهم من خيراتها، قال ابن العربي: «وحقيقة الحال أنهم كانوا مقهورين فصاروا قاهرين، وكانوا مطلوبين فعادوا طالبين، وهذا نهاية الأمن والعزّ»(1).

وقد أمرهم الله جلّ ثناؤه أن يتذكروا الحال التي كانوا عليها، ويستشعروا النعمة التي صاروا إليها، فقالﷻ: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[الأنفال:26]، ثم نهى عن سبب زوال هذه النعم فقال:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الأنفال:27]، قال الطبري: «إن الله نهى المؤمنين عن خيانته وخيانة رسوله...»(2)، فالوقوع فيما يخالف أمر الله ورسوله خيانة لهما، وعدم القيام بأداء الحقوق خيانة للأمانة، وهذه الأمور تفسد النّفس وتدسيها، وتسبب ضيق العيش واختلال الأمن وتسلط الأعداء، ومن أعظم الأسباب الداعية إلى ذلك إيثار العاجلة على الآجلة والاغترار بالأموال والأولاد؛ لذا قال تعالى عقب نهيه عن الخيانة والإخلال بالأمانة: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[الأنفال:28].

ومما يبرز الأثر السلبي لخيانة الأمانة حال أهل الكتاب حين اغتروا بالعاجلة، واشتروا بعهد الله تعالى وأيمانهم ثمنا قليلا؛ فَحُرموا من التزكية، قال الله جلّ ثناؤه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[آل عمران:77]، ولو وقفوا عند حدود اللهﷻ لأتاهم الخير من كل مكان، قال جلّ ثناؤه:﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾[المائدة:66].

مما سبق يتضح أنّ أهل الإيمان السائرين في طريق التزكية يكلؤهم الله جلّ ثناؤه بعنايته، ويحرصهم بعينه التي لا تنام، وتأمل سيد الأزكياء عليه الصلاة والسلام، كيف منعه الله من كيد أعدائه، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾[المائدة:67]، وقد تحقق وعد الله له، فآمنه من الخوف في أحرج المواقف، فعن جابر بن عبد اللهؓ قال:« **غزونا مع رسول**

(1) أحكام القرآن، ابن العربي، (3/ 412).

(2) جامع البيان، الطبري، (13/ 483).

الله ﷺ غزوة قبل نجد، فأدركنا رسول الله ﷺ في واد كثير العضاه[1]، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة، فعلق سيفه بغصن من أغصانها، قال وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، قال: فقال رسول الله ﷺ:«إن رجلا أتاني وأنا نائم، فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي، فلم أشعر إلاّ والسيف صَلْتا[2] في يده، فقال لي: من يمنعك مني؟ قال قلت: الله، ثم قال في الثانية: من يمنعك مني؟ قال قلت: الله، قال: فشام السيف فها هو ذا جالس ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ»[3].

هذا الذي أوردته يوضّح أنّ الأمن يتحقق بقدر حصول التزكية، وهي حالة ينبغي أن تشمل غالب المجتمع، فالأمن لا يتمّ إلاّ إذا تحقق الإيمان كما أراده الله تعالى، وذلك باجتماع عمل القلب مع عمل الجوارح، فالمتزكي على الحقيقة هو الذي يبذل الأسباب الموصلة لهذه الحالة، ولا يعتمد عليها استقلالا، بل يتخذها أسبابا ويعلّق قلبه بمسببها، فيقبل عليه بالدعاء، ويحافظ عليها بشكرها وأداء حقوقها، وكل هذا مما نصّ عليه القرآن الكريم والسنة النبوية، فاتخاذ الأسباب سنة إلهية لا تحابي أحدا، قال ﷻ:﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اَسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ اِلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ اَللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[الأنفال:60].

والملاحظ أنّ الآية حثّت على اتخاذ القوة لمجابهة خطر الأعداء حفاظا على الأمن، والقوة التي تتحقق بها النصرة والتمكين تشمل القوة الإيمانية والعدّة المادية، فالمجتمع المسلم ينطلق من بثّ الإيمان في النفوس، وتهذيب الأخلاق، كما أنّه لا يُغفل القوة في جانبها المادي، ليحافظ على الأمن بكل الوسائل المشروعة.

ومن تلك الوسائل إقامة شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحصيل القوة الرادعة بتطبيق الحدود والعقوبات، وهذا لا يتأتّى إلا للمجتمع الطاهر الزكي، فيكون ذلك سببا في الحفاظ على طهارته من الآثام، والقيام بواجب الحفاظ على الأمن والإيمان، ولك أن تستشعر الآثار المترتبة عن تطبيق الحدود والعقوبات، قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِے اِلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِے اِلَالْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:179]، فالغاية من القصاص إقرار الأمن ونشر الاطمئنان، ودرأ العدوان والبغي، وإنقاذ الأبرياء من الهلاك، ولا يدرك ذلك إلاّ أولوا الألباب.

ما يقال هنا يقال أيضا في تشريع حدّ الزنا والقذف والسرقة وشرب الخمر والحرابة، وقد تحقق الأمن في أبهى صورة يوم كان المجتمع المسلم يطبق هذه الشرائع، وانعكست القضية حين تقهقر المسلمون في سُلْم التزكية فتخلوا

(1) العضاه: كل شجر له شوك مثل الطلح والسلم والسمر والسدر. ينظر: غريب الحديث، ابن قتيبة، (1/ 273).

(2) أي مجردا. يقال: أصلت سيفه: إذا جرده. والصلت: الأملس الواضح. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، (3/ 45) .

(3) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب توكله على الله تعالى، وعصمة الله تعالى له من الناس، رقم: 843، (4/ 1786).

عن التحاكم إلى شريعة ربّ العالمين، حتى انتشرت الجرائم المروعة انتشار النّار في الهشيم، ولم يسلم منها حتى الصغار! ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ومع اتخاذ الأسباب السابقة فإنّ المجتمع الطاهر لا يُغفل صدق اللّجوء إلى مسبب الأسباب، فيعلّق قلبه بالله تعالى، ويضرع بالدعاء إليه، كحال الأنبياء عليهم السلام، فهذا إبراهيم عليه السلام يدعو قائلا: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[البقرة:126].

ومن فوائد هذه الآية؛ أنّ إبراهيم عليه السلام ربط بين الأمن والرزق، وقدّم الأمن لأهميته؛ فبزواله يزول الرّزق ولا يستطاب إن وُجد. كما أنّه قرن هاتين النّعمتين بالإيمان، فدلّ هذا أنّ الشرك والعصيان سبب لزوالهما، وهذا ما حدث لكفار قريش حين أعرضوا عن تزكية نفوسهم، فسلبهم الله الأمن الغذائي والنّفسي، ليحلّ محلهما الجوع والخوف، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[النحل:112]، قال السعدي: «هذه القرية هي مكة المشرفة التي كانت آمنة مطمئنة لا يُهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجهلاء حتى إنّ أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه، فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم، والنعرة العربية، فحصل لها من الأمن التام ما لم يحصل لسواها وكذلك الرزق الواسع، كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقه، يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع الذي هو ضد الرغد، والخوف الذي هو ضد الأمن، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[آل عمران: 117]»(1).

وإذا كان إبراهيم عليه السلام قد ربط بين الأمن والإيمان، فكذلك الشأن بالنسبة لسيد الأزكياء ﷺ، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: «**كان رسول الله ﷺ إذا رأى الهلال قال: الله أكبر، اللّهم أهِلَّه علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، والتوفيق لما يحب ربنا ويرضى، ربنا وربك الله**»(2).

---

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 451).

(2) أخرجه الدارمي في سننه، باب ما يقال عند رؤية الهلال، رقم: 1834، (ص: 417) ، وأحمد في مسنده، رقم:1397، (2/ 179) ، ووقع فيه: « باليمن والإيمان» بدل: « بالأمن والإيمان»، وحسنه أحمد شاكر.

وقد أشار الطيبي إلى لفتة بديعة في شرحه لهذا الحديث حيث قال: «لما قدم في الدعاء قوله: «الأمن، والإيمان، والسلامة، والإسلام» طلب في كل من الفرقتين دفع ما يؤذيه من المضار، وجلب ما يرفقه من المنافع، وعبّر بـ: «الإيمان والإسلام» عنها دلالة على أنّ نعمة الإيمان والإسلام شاملة للنعم كلها، ومحتوية على المنافع بأسرها، فدلّ ذلك على عظم شأن الهلال حيث جعله وسيلة لهذا المطلوب، فالتفت إليه قائلا: «ربي وربك الله» مقتديا بأبيه إبراهيم حيث قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾[الأنعام:76]بعد قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ واللطف فيه أنه ﷺوسلم جمع بين طلب دفع المضار وجلب المنافع في ألفاظ يجمعها معنى الاشتقاق»[1].

وبهذا يتبين أن الدعاء وصدق اللجوء إلى الله جلّ جلاله لا يتحقق إلا لمن تزكى، وله أثار في إرساء الأمن والرزق، وتحقيق النصرة والتمكين، قال النبي ﷺ: «**إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم**»[2].

ولا يغفل المجتمع الطاهر عن مقابلة هذه النعم بالشكر المؤذن بالمزيد، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾[إبراهيم:7].

وليتضح أثر شكر هذه النعم في ازديادها بين الله تعالى لأهل مكة ما ساقه لهم من آلائه، ومن أعظمها حصول الأمن ورغد العيش، وأمرهم بتحقيق التزكية بالإيمان بالله وعبادته فقال: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾[قريش:3_4]، وساق لهم أمثلة عن حال الشاكرين وأمثلة عن المعرضين وآثار كل صنف، ومن ذلك ما أورده في سورة سبأ عن النعم التي آتاها الله سليمان وداود عليهما السلام حيث قال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[سبأ:10_ 13]،فقوله: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾، ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾، تعليم لقريش ومن بلغه هذا القرآن كيفية الحفاظ على النعم.

---

(1) الكاشف عن حقائق السنن، الطيبي، (6/ 1898).

(2) أخرجه النسائي في سننه، الاستنصار بالضعيف، رقم: 3178، (6/ 45)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، (2/ 409).

ثمّ أورد الله نموذجا للمعرضين ممثلا في قوم سبأ، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾[سبأ:17]، «فهذه الآيات قد استوعبت تاريخ أمة في سطور، وصورت لنا أطوارا اجتماعية كاملة في جمل قليلة أبدع تصوير، ووصفت لنا بعض خصائص الحضارة والبداوة في جمل جامعة»(1). وأوردت حال أهل سبأ المضادة لأحوال داود وسليمان عليهما السلام، إذ كان مثلا في إسباغ النعمة على الشاكرين، وكان أولئك مثلا لسلب النعمة عن الكافرين، وفيهم موعظة للمشركين حيث كانوا في بحبوحة من النعمة، فلما جاءهم رسول من المنعم عليهم يذكّرهم بربهم، ويوقظهم بأنهم خاطئون إذ عبدوا غيره، كذّبوه وأعرضوا عن النظر في دلالة تلك النعمة على المنعم المتفرد بالإلهية، فهذه القصة تمثيل أمة بأمة، وبلاد بأخرى، وذلك من قياس وعبرة، وهي فائدة تدوين التاريخ وتقلبات الأمم كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: 112، 113].

فسوق هذه القصة تعريض بأشباه سبأ، والمعنى: لقد كان لسبأ في حال مساكنهم ونظام بلادهم آية، والآية هنا: الأمارة والدلالة بتبدل الأحوال وتقلب الأزمان، فهي آية على تصرف الله ﷻ ونعمته عليهم فلم يهتدوا بتلك الآية فأشركوا به، وقد كان في إنعامه عليهم ما هو دليل على وجوده ثم على وحدانيته(2)، فأبوا إلاّ تدسية نفوسهم فأعقبهم بعد الأمن والرخاء عذابا استأصلهم به، وتركهم عبرة للمعتبرين.

وبهذا يعلم أنّ من أعرض عن شكر النّعمة سلب منه الأمن والرّخاء، ومن زكّى نفسه وعلم أنّ الخير بيد الله جلّ ثناؤه، فاعتصم به، جازاه الله ﷻ وكافأه، وقد ضرب الله جلّ وعلا في سورة الكهف مثلا برجلين، يمثل كل واحد منهما نموذجا لطائفة من النّاس، أحدهما اغتر بما عنده فدسّى نفسه، وأنكر حقيقة ما خُلق لأجله، وقابل النّعم بالكفر، وأما الآخر فقنع بما عنده، وزكا نفسه، وانطلق لسانه شاكرا لأنعم الله، مذكرا ناصحا لمن جحدها، فكانت عاقبة الشاكر حميدة، وعاقبة الكافر وخيمة، قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا

---

(1) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس، (ص: 398).

(2) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (22/ 165) (بتصرف يسير).

نَهَرًا ﴿33﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿34﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿35﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿36﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿37﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿38﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿39﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿40﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿41﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿42﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾[الكهف:32_43].

كما أورد الله ﷻ قصة قارون وكيف اغتر بماله، فكانت عاقبته العذاب، وقد نُصح من أهل النّقاء، فما رفع لذلك رأسا، بل جحد نعمة الله ﷻ عليه، وادعى أنّ ما بلغه من رخاء، إنّما هو بذكائه وفطنته، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿76﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿77﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿78﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿79﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿80﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾[القصص:76_81].

وفي هذا السياق يستشهد أيضا بقصة أصحاب الجنّة، حيث اتفقوا أن يمنعوا المساكين مما آتاهم الله، فعاقبهم الله جلّ ثناؤه بسلب النّعمة جزاء وفاقا، فمن لا يرحم لا يرحم، قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿17﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿18﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿19﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿20﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿21﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿22﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿23﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿24﴾

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾[القلم:17_25]، فتأمل كيف أصبحت كالصريم؛ أي هشيما يابسا[1]، بسبب عدم تطهير قلوبهم من البخل.

وهذا مثل ضربه الله جلّ ثناؤه لكفار قريش لعلهم يعتبرون، قال ابن عاشور: «فإن الازدهاء والغرور بسعة الرزق المفضيين إلى الاستخفاف بدعوة الحق وإهمال النظر في كنهها ودلائلها قد أوقعا من قديم الزمان أصحابهما في بطر النعمة وإهمال الشكر فجر ذلك عليهم شر العواقب، فضرب الله للمشركين مثلا بحال أصحاب هذه الجنة لعلهم يستفيقون من غفلتهم وغرورهم، كما ضرب المثل بقريب منه في سورة الكهف، وضرب مثلا بقارون في سورة القصص.

والبلوى حقيقتها: الاختبار وهي هنا تمثيل بحال المبتلى في إرخاء الحبل له بالنعمة ليشكر أو يكفر، فالبلوى المذكورة هنا بلوى بالخير فإن الله أمد أهل مكة بنعمة الأمن، ونعمة الرزق، وجعل الرزق يأتيهم من كل جهة، ويسر لهم سبل التجارة في الآفاق بنعمة الإيلاف برحلة الشتاء ورحلة الصيف، فلما أكمل لهم النعمة بإرسال رسول منهم ليكمل لهم صلاح أحوالهم ويهديهم إلى ما فيه النعيم الدائم فدعاهم وذكرهم بنعم الله أعرضوا وطغوا ولم يتوجهوا إلى النظر في النعم السالفة ولا في النعمة الكاملة التي أكملت لهم النعم.

ووجه المشابهة بين حالهم وحال أصحاب الجنة المذكورة هنا هو الإعراض عن طلب مرضاة الله وعن شكر نعمته.

وهذا التمثيل تعريض بالتهديد بأن يلحقهم ما لحق أصحاب الجنة من البؤس بعد النعيم والقحط بعد الخصب، وإن اختلف السبب في نوعه فقد اتحد جنسه، وقد حصل ذلك بعد سنين إذ أخذهم الله بسبع سنين بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة»[2]. وبهذا يتضح أثر التزكية في تحقيق الأمن النفسي والغذائي، ممّا يُسهم في القضاء على صور البؤس، ويدخل البشاشة على القلوب، فتتحقق السعادة، وفيما يلي بيان أثر التزكية في ذلك.

الفرع الثاني: حصول السعادة

من أهم آثار التزكية في الدنيا حصول السعادة والطمأنينة، وقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة في بيان ذلك، فأهل الإيمان والعمل الصالح قد وعدهم الله بالحياة الطيبة فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل:97]، قال

---

(1) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (8/ 196).

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (29/ 79).

الطبري: «فلنحيينه حياة طيبة بالقناعة، وذلك أن من قنعه الله بما قسم له من رزق لم يكثر للدنيا تعبه، ولم يعظم فيها نَصَبه، ولم يتكدّر فيها عيشه باتباعه بغية ما فاته منها وحرصه على ما لعله لا يدركه فيها»(1).

فهذه القناعة صورة راسخة في قلب المؤمن، تجعله يرضى بقضاء الله وقدره فيحصل له الخير كما قال النبي ﷺ: «**عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرا له**»(2).

وهذه الحالة متعلّقة بالإيمان كما بيّنه الحديث، فليس ذلك إلاّ للمؤمن، وقد جاء التأكيد على حصول السعادة لمن كانت هذه حاله، قال النبي ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا**»(3).

فالرضا بهذه الأركان يخلص العبد من التحسر على حطام الدنيا، حسرة تسلبه السعادة من قلبه، فلا يجزع حال الشدة ولا يمنع حال الرّخاء وتلك صفات أهل الزكاء ممن استحقوا السعادة والهناء، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿19﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ﴿20﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿21﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿22﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿23﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿24﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿25﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿26﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿27﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ﴿28﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ**﴾[المعارج:19_30].

فصفات هؤلاء السعداء هي عين ما يتزكى به العبد، بالقيام بأداء الصلاة والحرص على تطهير المال ببذله للفقراء والمحتاجين، والإيمان بالجزاء، والحرص على صفاء الأخلاق، ولكل واحدة من تلك الصفات أثر في سعادة القلب وانشراح الصدر، وقد استفتح الله بذكر الصلاة لما لها من أثر بليغ في حصول الاستقرار النفسي؛ لذا أمر الله بالاستعانة بها فقال: ﴿**وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ**﴾[البقرة:45]، وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر هرع إلى الصلاة، وثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»(4)، وكان يقول لبلال رضي الله عنه: «**قم يا بلال، فأرحنا بالصلاة**»(5)، وذلك لما تشتمل عليه من ذكر الله؛ لذا قال تعالى: ﴿**وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ**﴾[طه: 14]، قال القنوجي: « (لذكري) أي لتذكرني، فإن الذكر الكامل لا

---

(1) جامع البيان، الطبري، (17/ 291).

(2) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم: 2999، (4/ 2295).

(3) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، رقم: 34، (1/ 62).

(4) سبق تخريجه . ينظر: (ص:118).

(5) سبق تخريجه. ينظر: (ص:119).

يتحقق إلا في ضمن العبادة والصلاة، أو المعنى لتذكرني فيهما لاشتمالهما على الأذكار[1]، ومعلوم أثر الذكر في تحقيق الرّاحة النفسية، قال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[الرعد:28]، قال القنوجي: «أي تسكن عن القلق والاضطراب وتستأنس بذكره سبحانه بألسنتهم كتلاوة القرآن والتسبيح والتحميد والتكبير والتوحيد أو بسماع ذلك من غيرهم»[2].

وتأمل كيف عبر بالمضارع فقال: ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم ﴾ وهذا ما يبين أنّ الطمأنينة تتجدد بعد الإيمان حيناً بعد حين[3].

فاطمئنان القلب وانشراح الصدر إنّما يتحقق لمن أقبل على نور الهداية، فيجازيه الله جلّ ثناؤه بالسعادة، وييسر له السبيل فلا يأتي إلا ما حسن من الأفعال والأقوال، قال تعالى:﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾، وقال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[طه:123]، قال ابن عباس رضي الله عنه:«لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة»[4].

وفي المقابل فإنّ المعرض عن الإيمان، المبتعد عن ذكر الرحمن، يضطرب قلبه عند سماع ذكر الله وتوحيده، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[الزمر:45]، قال السمعاني:«﴿ ٱشْمَأَزَّتْ ﴾ أي: اضطربت»[5]. وبذلك يصاب القلب بالقسوة فتضل به السبل، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الزمر:22]، وينعكس ذلك على حياته فيعيش في تعاسة، قال تعالى:﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[طه:124]، قال ابن كثير:«﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء،

---

(1) فتح البيان في مقاصد القرآن، القنوجي، (8/ 220).

(2) المصدر نفسه، (7/ 53).

(3) ينظر: المصدر نفسه، (7/ 53).

(4)تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (5/ 322).

(5) تفسير القرآن، السمعاني، (3/ 92).

فإن قلبهما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة»[1].

وقد ضرب اللهﷻ مثلا يوضّح الفرق بين من اطمأن قلبه بالإيمان بالله، ومن لم يرفع بذلك رأسا، فوقع في أعظم ما يدنس النّفس، قال تعالى:﴿ **ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ** ﴾[الزمر:29]، فحال المشرك كعبد يملكه شركاء، يخاصم بعضهم بعضاً فيه، وهو بينهم موزع، ولكل منهم فيه توجيه، ولكل منهم عليه تكليف، وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج، ولا يستقيم على طريق، ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتعارضة.

وأما الموحد فحاله كعبد يملكه سيد واحد، وهو يعلم ما يطلب منه، فهو مستريح مستقر على منهج واحد من مصدر واحد فهما لا يستويان، فالذي يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين، ووحدة الاتجاه، ووضوح الطريق، والذي يخضع لسادة متشاكسين معذب لا يستقر على حال، ولا يرضي واحداً منهم فضلاً عن أن يرضي الجميع، وهكذا حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال، فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو الذي يسير في هذه الحياة على هدى، لأن قلبه وبصره معلقان بإله واحد، يستمد منه الهدى والتوجيه، ويعتصم بحبله، لا يزوغ عنه بصره، ولا يتجه إلى غير فكره، ويخدم سيداً كريماً غنياً قوياً واحداً، يعرف ماذا يرضيه فيفعله، ويعرف ماذا يغضبه فيجتنبه، وبذلك تجتمع الطمأنينة وتتوحد[2].

فالتزكية تثمر راحة واطمئنانا نتيجة الإيمان باللهﷻ ومحبة أهله وخاصته والبعد عن أعدائه، قال النبيﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار** »[3]. «وإنّما خص هذه الثلاث بهذا المعنى؛ لأنها لا توجد إلا ممن تنور قلبه بأنوار الإيمان واليقين، وانكشفت له محاسن تلك الأمور التي أوجبت له تلك المحبة التي هي حال العارفين»[4]، ومعنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات، وتحمل المشاق في رضا الله تعالى ورسولهﷺ،

---

(1) تفسير القرآن، السمعاني، (5/ 322).

(2) موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري، (2/ 1121).

(3) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم:16، (1/ 12)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم:43، (1/ 66).

(4) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، (1/ 212).

وإيثار ذلك على هوى نفسه وأعراض الدنيا، فمن وجد حلاوة الإيمان اطمأن به نفسه، وانشرح له صدره، وخالط لحمه ودمه»[1].

وتلك حال أهل الإيمان في كل زمان ومكان، يُنزّل الله في قلوبهم الرّاحة والسكينة، وأصلها كما قال ابن القيم الطمأنينة والوقار والسكون الذي ينزّله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، ويوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات، ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسولهﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب، كيوم الهجرة لما كان هو وصاحبه في الغار، والعدو فوق رءوسهم، لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما، قال تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾[التوبة:40].

وكيوم حنين حين ولوا مدبرين من شدّة بأس الكفار، لا يلوي أحد منهم على أحد، ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[التوبة:24].

وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكم الكفار عليهم، ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس، وحسبك بضعف عمر رضي الله عنه عن حملها – وهو عمر – حتى ثبّته الله بالصديق رضي الله عنه، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[الفتح:18][2]. فالآية صريحة في حصول السكينة لأهل التزكية، كما بيّنت أنّ الله تعالى أثابهم بنصره فتحقق لهم الأمن وزال الخوف من عدوهم.

وصفوة القول أنّ للتزكية آثار عديدة في الدنيا أعظمها الانتفاع بالمواعظ والآيات وحصول الهداية، وبذلك ينال العبد محبّة اللهﷻ. والتزكية تنتقل من الفرد إلى الجماعة، فتقوى بذلك أواصر الأخوة. ما يؤدي إلى انتشار الأمن والرخاء، وحصول السعادة والاطمئنان.

هذه بعض آثار التزكية في الدنيا، فما هي آثارها في الآخرة؟ هذا ما سأبينه في المبحث الموالي.

(1) الكاشف عن حقائق السنن، الطيبي، (2/ 444).

(2) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، (2/ 470) (بتصرف).

المبحث الثاني: آثار التزكية في الآخرة

سبق بيان أثر التزكية في تحقيق الفلاح في الدنيا،﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[الأعلى:17]، وخيرها منوط بتزكية النّفس وتطهيرها من الأدران، والاستقامة على طاعة الرحمن، وذلك خالص لأهل الإيمان، قال تعالى:﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[الشورى:36].

وعالم الآخرة تبدأ رحلته من ساعة رحيل العبد عن هذه الدنيا، فتظهر سعادة المؤمن عند سكرات الموت، وتخالطه في قبره، وتكون رائدا له عند الحساب، لتصل به إلى أعلى المراتب ببلوغ الجنة والتنعم برؤية وجه الله ﷻ، ويأتي هذا المبحث ليتناول أثر التزكية في كل مرحلة من هذه المراحل، وتفصيل ذلك كما يلي:

المطلب الأول: البشارة عند الاحتضار والأمن من عذاب القبر

حكم الله جلّ وعلا على كل مخلوق بالفناء، وتفرد بالعزّة والبقاء، قال تعالى:﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[القصص:88]، ويعتبر الموت فاصلا بين الدنيا والآخرة، والمؤمن عند معاينة سكراته يثبته الله وتحصل له البشارة، كما يسلم من عذاب القبر، وفيما يلي بيان ذلك:

الفرع الأول: حصول البشارة عند الاحتضار

من الآثار التي ينالها المتزكي عند الاحتضار نزول ملائكة الرّحمة عليه لتبشره بما يسرّه، قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿30﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿31﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾[فصلت:30_32]، فالمقصود بقوله:﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾؛ أي على عبادة الله تعالى وطاعته،﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾عند نزول الموت بهم[1]، «﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ فأنتم أهل الشهادة، ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ فأنتم أهل السعادة، وأبشروا بالجنّة التي هي دار الزيادة»[2].

---

(1) ينظر: جامع البيان، الطبري، 21/ 466).

(2) الكشف والبيان، الثعلبي، (23/ 294).

فهذه البشارة من أعظم آثار التزكية التي ينالها المؤمن عند الاحتضار، فيبشّره الملك بالذي يسرّه، ويُثبّتهُ بالقول الثابت أحوجَ ما يكون إليه[1]، فيزول الخوف عليه؛ لسابقة إيمانه وصبره، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[يونس:62_64].

ومن البشارة التي يتلقاها في الحياة الدنيا؛ بشرى الملائكة إياه عند خروج نفسه برحمة الله[2]، فتقول له: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾[الفجر:27_30][3].

والنّفس المطمئنة عامة في كل نفس مؤمن مخلص طائع كما قال القرطبي، وقد عزا للحسن البصري: « إنّ الله تعالى إذا أراد أن يقبض روح عبده المؤمن، اطمأنت النفس إلى الله تعالى، واطمأن الله إليها»[4]، ويشهد لذلك قول النبيﷺ:«**من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»، قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت، قال:** «**ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، كره لقاء الله وكره الله لقاءه**»[5]، «قال العلماء: معنى هذا الحديث عند الاحتضار والمعاينة، فحينئذ يُكشف الغطاء، فأهل السعادة يُبَشَّرون بما أعده الله لهم وأراده فيهم، وهو معنى محبّته لقاءهم، فيغتبطون ويسرون بذلك ويحبون الموت؛ لتحصيل تلك الكرامة.

وأهل الشقاوة كُشف لهم عن حالهم، فكرهوا الورود على ربهم لما تيقنوا من تعذيبه لهم، والله تعالى قد أبعدهم عنه وأراد بهم العذاب وهو معنى كُرْهُه لقاءهم»[6].

---

(1) ينظر: الداء والدواء، ابن القيم، (1/ 251).

(2) ينظر: جامع البيان، الطبري، (15/ 140).

(3) ذكر غير واحد من أهل التفسير أن هذا الكلام يقال عند الموت كما يقال أيضا يوم القيامة، ينظر على سبيل المثال: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 924).

(4) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (20/ 58).

(5) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم: 6507، (8/ 106)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، رقم: 2684 (4/ 2065).

(6) طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين العراقي، (3/ 263).

وبهذا يتبين أنّ حال المؤمن الزكي عند الموت، ليست كحال المدنس لنفسه بالكفر والعصيان، وممّا يؤكد ذلك ما رواه أبو هريرةﷺ، عن النبيﷺأنه قال: «**إنّ الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح، قالوا اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، قال فلا يزال يقال ذلك حتى تخرج، ثم يُعرج بها إلى السماء، فيُستفتح لها، فيقال من هذا؟ فيقال فلان، فيقولون مرحبا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، قال فلا يزال يقال لها حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل، وإذا كان الرجل السوء، قالوا اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغسّاق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال حتى يخرج، ثم يُعرج بها إلى السماء فيُستفتح لها، فيقال من هذا؟ فيقال فلان، فيقال لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة فإنه لا يُفتح لك أبواب السماء، فترسل من السماء، ثم تصير إلى القبر...**»(1).

يُلاحظ من خلال الحديث، أنّ العبد الذي زكى نفسه استحق أن يطمئن بسبب البشارة بالجنة، وأما من اتخذ الخبث سبيلا، فله الحسرة والنّكد، ولا يحظى بالبشارة الحسنة عند حلول الأجل، وقد بيّن الله تعالى في كتابه حال هذا الصنف، فقال جل وعلا: ﴿ **يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا** ﴾[الفرقان:21_22]، قال يحي بن سلام: « وهذا عند الموت»(2).

ولعظم ما ينزل على هؤلاء عند الاحتضار من معرفة حالهم، فإنّهم يتمنون الرّجوع ليستدركوا ما فات، فلا يُمكَّنُون، قال تعالى: ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿99﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾[المؤمنون: 99_100]، قال الطبري في تفسيره لهذه الآية: «حتى إذا جاء أحدَ هؤلاء المشركين الموتُ، وعاين نزول أمر الله به، قال: _لعظيم ما يعاين مما يَقْدم عليه من عذاب الله تندّما على ما فات، وتلهُّفا على ما فرّط فيه قبل ذلك، من طاعة الله ومسألته للإقالة-:﴿ **رَبِّ ٱرْجِعُونِ** ﴾ إلى الدنيا فردّوني إليها،﴿ **لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا** ﴾؛يقول: كي أعمل صالحا فيما تركت قبل اليوم من

(1) أخرجه ابن ماجه في سننه، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم: 4262، (2/ 1423)، و أحمد في مسنده، رقم: 8754، (8/ 414)، وصححه أحمد شاكر.

(2) تفسير يحيى بن سلام، ابن سلام، (1/ 475).

العمل فضيّعته، وفرّطت فيه»[1]، إلاّ أنّ ذلك لا يتحقق له، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: 100].

وبهذا يتبين أنّ التزكية أساس الثبات عند معاينة الموت، كما أنّ تدسية الإنسان نفسه سبب لحصول الشقاء.

الفرع الثاني: الأمن من عذاب القبر وتحصيل نعيمه

ثبت في الكتاب والسنة تقرير عذاب القبر ونعيمه على حسب حال العبد في دنياه، فمن كان زكيّا نجّاه الله ﷻ من فتنة القبر، ومن أتبع نفسه هواها أذاقه الله العذاب، قال تعالى مبينا مصير آل فرعون: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: 45_46]، قال السمرقندي: «والآية تدل على إثبات عذاب القبر؛ لأنّه ذكر دخولهم النّار يوم القيامة، وذكر أنّه تعرض عليهم النّار قبل ذلك غدواً وعشياً، ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يعني: يقال لهم يوم القيامة: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾»[2].

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**العبد إذا وُضع في قبره، وتولي وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فأقعداه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وسلم؟ فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدا من الجنة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فيراهما جميعا»، وأما الكافر – أو المنافق – فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلاّ الثقلين**»[3].

---

(1) جامع البيان، الطبري، (19/ 69).

(2) بحر العلوم، السمرقندي، (3/ 208).

(3) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب: الميت يسمع خفق النعال، رقم: 1338، (2/ 90).

وكان عثمانﷺإذا وقف على القبر بكى حتى يبل لحيته، فقيل له: « تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي من هذا؟» قال: « **إن رسول الله قال: «إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده شر منه» قال: وقال رسول اللهﷺ:« ما رأيت منظرا قط إلاّ ومنظر القبر أفظع منه»**(1).

فهذه أدلة واضحة في إقرار عذاب القبر أو نعيمه، والأمر منوط بتزكية الإنسان نفسه أو إهمالها، فالأتقياء يثبّتهم الله ويُيسِّر حالهم، ويملأ عليهم قبورهم نورا، ولذة وسرورا، قال تعالى:﴿ **يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ** ﴾[إبراهيم:27]، جاء في الحديث أنّ النبيﷺ، قال: «﴿ **يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ** ﴾، قال: **نزلت في عذاب القبر، فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، ونبيي محمدﷺ، فذلك قوله عز وجل:** ﴿ **يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ** ﴾ »(2).

وهذا الفضل لا يستحقه إلاّ من استقام على دين الله جلّ وعلا، وفهم مراد رسولهﷺ، فأتبع ذلك بالعمل الصالح، وأمّا من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني، فإنّ الله يضله ولا يوفقه عند الاحتضار، كما لا يوفقه عند سؤال الملكين، جزاء وفاقا، قال تعالى:﴿ **وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ** ﴾، قال الطبري:«﴿ **يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا** ﴾، وذلك تثبيته إياهم في الحياة الدنيا بالإيمان بالله وبرسوله محمدﷺ، ﴿ **وَفِي ٱلْآخِرَةِ** ﴾ بمثل الذي ثبّتهم به في الحياة الدنيا، وذلك في قبورهم حين يُسْألون عن الذي هم عليه من التوحيد والإيمان برسولهﷺ، وأما قوله:﴿ **وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ** ﴾ فإنه يعني أنّ الله لا يوفِّق المنافق والكافر في الحياة الدنيا وفي الآخرة عند المسَاءَلة في القبر، لما هدي له من الإيمان المؤمن(بالله ورسوله ﷺ»(3).

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده، رقم: 454، (1/ 360)، وابن ماجه، باب ذكر القبر والبلى، رقم: 4267، (2/ 1426)، والترمذي، باب ما جاء في ذكر الموت، رقم: 2308 (4/ 554)، وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث هشام بن يوسف».

(2) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم: 1369، (2/ 98)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهله، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، رقم: 2871، (4/ 2201).

(3) جامع البيان، الطبري، (16/ 602).

وبيّن الله جل ثناؤه في كتابه جزاء المتزكي ممن قُتل في سبيله فقال: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ④ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ⑤ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[محمد: 4_6]، قال مقاتل:«﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني قتلى بدر، ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ يعنى لن يبطل أعمالهم الحسنة،﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى الهدى؛ يعني التوحيد في القبر، ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾؛ يعني حالهم في الآخرة، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ يعني عرفوا منازلهم في الجنة»(1)، فهؤلاء إنّما بذلوا أنفسهم الزكية في سبيل الله، ولأجل أن تستقيم الأمور وتصلح الأوضاع، فجزاهم الله خير الجزاء وأوفاه، ومن ذلك أن ثبتهم في قبورهم ونعّمهم فيها.

وقد ورد دعاء النبيﷺ لأحد الصحب الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، أن يمتعه الله في قبره ويوسّع له فيه، فعن أم سلمة رضي الله عنها، قالت:« **دخل رسول الله ﷺعلى أبي سلمة وقد شق بصره، فأغمضه، ثم قال: «إنّ الروح إذا قُبض تبعه البصر»، فضجَّ ناس من أهله، فقال: «لا تدعوا على أنفسكم إلاّ بخير، فإنّ الملائكة يُؤَمِّنُونَ على ما تقولون»، ثم قال: «اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وأفسح له في قبره، ونَوِّر له فيه**»(2)، ولا شك أنّ دعاء النبي ﷺله، كان لما رآه فيه من خصال الخير ﵁.

وفي المقابل توعّد الله أهل النّفاق ممن يبغونها عوجا بالعذاب، ومن ذلك ما يلحقهم في القبر، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[التوبة:101]، قال الطبري:«﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، يقول: سنعذب هؤلاء المنافقين مرتين، إحداهما في الدنيا، والأخرى في القبر»(3).

ومما تتحقق به التزكية ذكر الله تعالى، والمعرض عنه يلحقه من العذاب بقدر إعراضه، ويناله من ذلك جزء في قبره، وقد حمل كثير من أهل التفسير قول تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[طه:124]على عذاب القبر، ومنهم شيخ المفسرين؛ حيث نقل الخلاف في المعيشة الضنك، فقال بعضهم إنّما يكون ذلك في الآخرة، وقال آخرون إنما يكون في الدنيا، وقال غيرهم إنّما يكون في القبر، ثم رجّح هذا الأخير مبينا مستنده في ذلك فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هو عذاب القبر الذي حدثنا

(1) تفسير مقاتل، مقاتل بن سليمان، (4/ 45).
(2) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حضر، رقم: 920، (2/ 634).
(3) جامع البيان، الطبري، (14/ 441).

به أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، قال: ثنا عمي عبد الله بن وهب، قال: أخبرني عمرو بن الحارث، عن درّاج، عن ابن حُجَيرة عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**أتدرون فيم أُنزلت هذه الآية** ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه: **124**]، **أتدرون ما المعيشة الضنك؟** » **قالوا: الله ورسوله أعلم، قال:** «**عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده، إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تنينا، أتدرون ما التنين: تسعة وتسعون حيه، لكل حيه سبعة رءوس، ينفخون في جسمه ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم القيامة** »[1]، وإن الله تبارك وتعالى اتبع ذلك بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾[طه:127]، فكان معلوما بذلك أن المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم قبل عذاب الآخرة؛ لأن ذلك لو كان في الآخرة لم يكن لقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾معنى مفهوما؛ لأن ذلك إن لم يكن تقدّمه عذاب لهم قبل الآخرة، حتى يكون الذي في الآخرة أشدّ منه، بطل معنى قوله:﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾، فإذ كان ذلك كذلك، فلا تخلو تلك المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم من أن تكون لهم في حياتهم الدنيا، أو في قبورهم قبل البعث، إذ كان لا وجه لأن تكون في الآخرة لما قد بينا، فإن كانت لهم في حياتهم الدنيا، فقد يجب أن يكون كل من أعرض عن ذكر الله من الكفار، فإن معيشته فيها ضنك، وفي وجودنا كثيرا منهم أوسع معيشة من كثير من المقبلين على ذكر الله تبارك وتعالى، القائلين له المؤمنين في ذلك، ما يدلّ على أن ذلك ليس كذلك، وإذ خلا القول في ذلك من هذين الوجهين صحّ الوجه الثالث، وهو أن ذلك في البرزخ»[2].

وجاء في السنة النبوية ما يوضّح أنّ عذاب القبر يلحق من تهاون في تزكية ظاهره وباطنه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**مَرَّ رسول الله ﷺ على قبرين فقال:** «**أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله**»**، قال فدعا بعسيب رطب**[3] **فشقه باثنين، ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا، ثم قال:** «**لعله أن يُخَفَف عنهما ما لم ييبسا**»[4].

---

(1) أخرجه ابن حبان، باب ذكر الإخبار عن وصف التنين الذي يسلط على الكافر في قبره، رقم: 3122، (7/ 393)، وحسنه شعيب الأرنؤوط.

(2) جامع البيان، الطبري، (18/ 394).

(3) العسيب: وهو سعف النخل، وأهل الحجاز يسمونه الجريد. ينظر: غريب الحديث، القاسم بن سلام، (4/ 156).

(4) أخرجه البخاري، كتاب الطهارة، باب ما جاء في غسل البول، رقم: 218، (1/ 54)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم: 292، (1/ 240).

وتأمل كيف أنّ اللهﷻ رتَّب العذاب على عدم الاستتار من البول، وفيه دليل على عناية الإسلام بالظاهر، كما رتَّب العذاب على المشي بين النّاس بالنميمة؛ لما لذلك من أثر في إفساد باطن الإنسان وبثّ الحسد والبغضاء فيه، وفي هذا عناية بتنقية الظاهر والباطن.

المطلب الثالث: السلامة يوم القيامة ودخول الجنة

جعل الله جلّ ثناؤه لهذه الحياة أجلا لحكمة اقتضاها، فإذا جاء أجلها أفنى اللهﷻ جميع الخلائق، قال الله عز وجل: ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** ﴾ [الرحمن: 26- 27]، ثم يعيد الله جلّ جلاله العباد ويبعثهم، فيوقفهم بين يديه ويحاسبهم على ما قدموه من أعمال، قال تعالى: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ** ﴾[المؤمنون:115_116].

وسيلاقي العباد في ذلك اليوم شيئاً عظيماً من الأهوال، ولا ينجو منها إلاّ من أعدَّ له عدّته من الإيمان والعمل الصالح، ويساق العباد في ختام ذلك اليوم إلى دار القرار؛ الجنة أو النار(1). وفيما يلي بيان أثر التزكية في النجاة يوم القيامة ودخول الجنة.

الفرع الأول: السلامة يوم القيامة

إنّ أول مشاهد يوم القيامة؛ النّفخ في الصور وإفناء الأحياء، قال تعالى مبيّنا شدّته: ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ** ﴾[الزمر:68].

وقد ذكر الله جلّ ثناؤه سلامة أهل التزكية من تلك الأهوال، فقال: ﴿ **لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾[الأنبياء:103]، وذلك عند النفخة الآخرة على أصح الأقوال(2)، وقال تعالى عن يحي عليه السلام: ﴿ **وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا** ﴾[طه:15]؛أي: أمان له من الشيطان حين وُلد فلم يُذنب، ولا يأتي في الآخرة بذنب، وقوله: ﴿ **وَيَوْمَ يَمُوتُ** ﴾؛ وأمان له من الله من فتنة القبر، ﴿ **وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا** ﴾؛ أي: وأمان له من العذاب يوم يبعث فلا

(1) القيامة الكبرى، عمر بن سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، ط:6 ، 1415 هـ - 1995م، (ص: 17) (بتصرف).
(2)ينظر: جامع البيان، الطبري، (18/ 542).

يروعه شيء[1]، وقال تعالى عن عيسى: ﴿**وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**﴾؛ معناه: أن عيسى سلّم على نفسه في هذه الأوقات، وهي أشد ما يمر على الإنسان في حياته وبعد موته؛ أي: الأمن علي من الشيطان أن يصيبني في حين ولادتي بسوء، ويوم أموت من هول المطلع، **ويوم أبعث يوم القيامة من الفزع**[2].

وجاء في السنة النبوية أنّ النبيﷺ قال: «**كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ» فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبيﷺ، فقال لهم: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا**»[3].

فبعد أنّ بين النبيﷺ ما يُظهر شدّة النّفخ في الصور، أرشد الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أن يقولوا: «**حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا**»، «أي: كافينا الله ونعم الموكول إليه»[4].

وهذه كلمات لا تنطلق إلا من قلوب زكية، مفوضة أمرها إلى الله، أسوتها في ذلك أصفياء الله ورسله عليهم السلام، وعلى رأسهم خليل الرحمن إبراهيم، وسيد الأنبياء والمرسلين محمدﷺ، فعن ابن عباس قال: «**"حسبنا الله ونعم الوكيل"، قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمدﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾**[آل عمران:173]»[5]، ومن توكل على الله كفاه.

وفي المقابل فإنّ أهل التدسية يصيبهم من الذلة والصغار، والخوف والفزع ما لا يمكن تصوره؛ حيث يخرجون من قبورهم بعد النّفخة الثانية كما وصفهم الله تعالى: ﴿**خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ**﴾[المعارج:44]، فَيُعَبِّرون عن هول ذلك اليوم بقولهم: ﴿**هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ**﴾[القمر:8]، بل إنّهم ينادون بالويل والثبور عندما ينفخ في الصور

(1) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، (7/ 4505).
(2) المصدر نفسه، (7/ 4534).
(3) أخرجه الترمذي، باب ما جاء في شأن الصور، رقم: 2431، (4/ 620)، وقال: «هذا حديث حسن، وقد روي من غير وجه هذا الحديث عن عطية، عن أبي سعيد الخدري، عن النبيﷺ نحوه».
(4) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا القاري، (8/ 3509).
(5) سبق تخريجه. ينظر: (ص: 98).

متسائلين عمن أقامهم من رقدتهم: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾[يس:52]، فيُرد عليهم أهل الإيمان: ﴿ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[يس:52][1].

وممّا يعقب النّفخ في الصور؛ **الحشر**، حيث يُساق النّاس إلى أرض مستوية لا حدب فيها ولا بناء، يدل عليه ما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: سمعت النبيﷺ يقول: «**يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء**[2]**، كقرصة نقي**[3]»، قال سهل أو غيره: «ليس فيها معلم لأحد»[4].

وفي ذلك اليوم تدنوا الشمس من رؤوس الخلائق فيصيبهم من العرق على قدر أعمالهم، كما جاء في الحديث عن المقداد بن الأسودﷺ، قال: سمعت رسول اللهﷺ، يقول: «**تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل» – قال سليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين – قال: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما» قال: وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى فيه»**[5]، وفي خضم ذلك الموقف العظيم تحت وهج الشمس القاسي، يكون فريق من الأخيار هانئين في ظل عرش الرحمن، لا يعانون الكربات التي يقاسيها الآخرون[6].

والإضلال ليس مقصوراً على السبعة المذكورين في الحديث، فقد جاءت نصوص كثيرة تدل على أن اللهﷻ يظل غيرهم، وقد جمع ابن حجر العسقلاني الخصال التي يظل الله تعالى أصحابها في كتاب سماه: "معرفة الخصال الموصلة إلى الظلال"[7]، والجامع بين هؤلاء أنّهم حققوا الصفات الدّالة على زكاء قلوبهم وصفائها، إذ لا ينال هذه

---

(1) اختلف أهل التفسير حول المجيب عن سؤال الكفار، هل هم المؤمنون أم الكفار؟، وقد رجّح الطبري القول الأول. ينظر: جامع البيان، الطبري، (20/ 533).

(2) عَفْراء: الأعفر؛ الْأَبْيَض لَيْسَ بشديد الْبيَاض. ينظر: غريب الحديث، القاسم بن سلام، (3/ 177).

(3) قرصة النقي: الخبزة النقي؛ لأنها تصفى من النخالة ومما يغيرها. ينظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (7/ 351).

(4) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب: يقبض الله الأرض يوم القيامة، رقم: 6521، (8/ 109)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة، رقم: 2790، (4/ 2150).

(5) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها، رقم:2864، (4/ 2196).

(6) القيامة الكبرى، الأشقر، (ص: 159) (بتصرف).

(7) المرجع نفسه، (ص: 161).

الفضيلة إلا من كانت هذه حاله، قال الله جلّ وعلا: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء: 88_89].

أما أهل الضلال فلن تتحقق لهم النّجاة من هول المحشر، وقد كانوا من شدة زيغهم يحسبون أنّهم على الهدى، حتى استدلوا على ذلك بما آتاهم الله ﷻ من متاع الدنيا، فقالوا لأهل الإيمان: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾[مريم:73]، فردّ الله تعالى عليهم مبينا أنّهم سيدركون منزلتهم إذا جاءهم العذاب في الدنيا، وإلاّ تحققوا من ذلك عند قيام الساعة، قال جلّ وعلا: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾[مريم:75].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: قل لهم: من كان منا ومنكم في الضلالة، فليمدد له الرحمن في ضلالته إلى أن يأتيهم أمر الله، إما عذاب عاجل، أو يلقوا ربهم عند قيام الساعة التي وعد الله خلقه أن يجمعهم لها، فإنهم إذا أتاهم وعد الله بأحد هذين الأمرين ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ ومسكنا منكم ومنهم ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أهم، أم أنتم؟ ويتبينون حينئذ أي الفريقين خير مقاما، وأحسن نديا»(1)، حينها سينسون ما كانوا يتفاخرون به من مُتع الدنيا، ويظهر لهم أنّهم لم يلبثوا فيها إلاّ قليلا، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (103) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾[طه:102_108].

قال الطبري: «وإنما عنى جل ثناؤه بالخبر عن قيلهم هذا القول يومئذ، إعلام عباده أنّ أهل الكفر به ينسون من عظيم ما يعاينون من هول يوم القيامة، وشدة جزعهم من عظيم ما يَرِدُونَ عليه ما كانوا فيه في الدنيا من النعيم واللذات، ومبلغ ما عاشوا فيها من الأزمان، حتى يُخيّل إلى أعقلهم فيهم وأذكرهم وأفهمهم أنهم لم يعيشوا فيها إلا يوما»(2).

وفي تلك الأهوال تلاحقهم الخسارة وتتعلّق بهم الحسرة؛ لأنّهم مدركون أنّ عملهم سيقودهم إلى النار، قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ

(1) جامع البيان، الطبري، (18/ 244).
(2) المصدر نفسه، (18/ 370).

أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[الأنعام:31]، وإدراكهم لمصيرهم ناتج عن هول ما يلقونه في المحشر، ومن ذلك أنّ النار تُعرض عليهم، فيكون ذلك أبلغ في خوفهم وحسرتهم، قال تعالى: ﴿ **وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا** ﴾[الكهف:101]، قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عما يفعله بالكفار يوم القيامة: إنه يعرض عليهم جهنم، أي: يبرزها لهم ويظهرها، ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها؛ ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم، وفي صحيح مسلم، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها** »(1).

ثم قال مخبرا عنهم: ﴿ **الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي** ﴾؛ أي: تعاموا وتغافلوا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ** ﴾[الزخرف:36]، وقال هاهنا: ﴿ **وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا** ﴾؛ أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه»(2)، ففتح لهم أعينهم وعقولهم حتى يبصروا هول ما هم فيه، وخطورة ما يقدمون عليه، قال تعالى: ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** ﴾[ق:20_22]،

وحين يتحققون هول ما ينتظرهم، ويرون ذلك بأبصارهم، بعد أن عميت في الدنيا بصائرهم، يسلبهم الله البصر، قال تعالى: ﴿ **وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا** ﴾[الإسراء:97]، وقال أيضا: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ** ﴾[طه:124_126]، قال ابن القيم: «فعند الحشر الأول: يسمعون ويبصرون، ويجادلون، ويتكلمون، وعند الحشر الثاني: يحشرون على وجوههم عميا وبكما وصما، فلكل موقف حال يليق به، ويقتضيه عدل الرب تعالى، وحكمته»(3).

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين، رقم: 2842، (4/ 2184).

(2) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (5/ 201).

(3) تفسير القرآن الكريم، ابن القيم، (ص: 380).

وجاء في السنة النبوية بيان ما يلحق المعرضين عن تزكية نفوسهم من الأهوال العظام وهم في أرض المحشر، ومن هؤلاء مانعو الزكاة، فعن أبي هريرةﷺ، قال النبيﷺ: «**تأتي الإبل على صاحبها على خير ما كانت، إذا هو لم يعط فيها حقها، تطؤه بأخفافها، وتأتي الغنم على صاحبها على خير ما كانت إذا لم يعط فيها حقها، تطؤه بأظلافها، وتنطحه بقرونها**»، وقال: «**ومن حقها أن تحلب على الماء**»[1] قال: «**ولا يأتي أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها يعار**[2]**، فيقول: يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد بلغت، ولا يأتي ببعير يحمله على رقبته له رغاء فيقول: يا محمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئا، قد بلغت** »[3]، فهذا تصوير فضيع لما ينال من منع تزكية ماله، وهو دليل على عدم زكاء نفسه من أدرانها.

وما يلحق مانع الزكاة في ذلك اليوم ينال الخائن الذي تلاعب بأموال النّاس، كالغالي الذي كتم شيئا من الغنيمة، فعن أبي هريرةﷺ، قال:« **قام فينا النبيﷺ، فذكر الغلول فعظّمه وعظّم أمره، قال:** « **لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، على رقبته فرس له حمحمة، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك، وعلى رقبته بعير له رغاء، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، وعلى رقبته صامت**[4]**، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، أو على رقبته رقاع تخفق، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك " وقال أيوب: عن أبي حيان: فرس له حمحمة**»[5].

ومما يؤكد أنّ هذا المشهد يقع في أرض المحشر ما ذكره الطبري عند تفسير قوله تعالى:﴿ **وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾[آل عمران:161]: « يعني بذلك تعالى ذكره: ومن يخن من غنائم المسلمين شيئا وفيئهم، وغير ذلك، يأت به يوم القيامة في **المحشر**»[6].

---

(1) قوله: «ومن حقها أن تحلب على الماء»؛ أي من حقها أن تُسقي ألبانها المارة ومن ينتاب المياه من أبناء السبيل. ينظر: أعلام الحديث، الخطابي، (1/ 746).

(2) وشَاة لَهَا يعار: أَي صَوت. ينظر: غريب الحديث، ابن الجوزي، (2/ 511).

(3) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم: 1402، (2/ 106).

(4) «على رقبته صامت»: يعني الذهب والفضة، خلاف الناطق، وهو الحيوان. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، (3/ 52).

(5) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب الغلول، رقم: 3073، (4/ 74)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول، رقم: 1831، (3/ 1461).

(6) جامع البيان، الطبري، (6/ 201).

ومن المواقف التي تصاحبها تلك الأهوال عظام؛ **الحساب والميزان،** حين يقف النّاس بين يدي الجبار ليسألهم عن كل صغير وكبير، قال تعالى: ﴿ **وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ** ﴾[الصافات:24]، ويشمل الحساب ما يقوله الله لعباده، وما يقولونه له، وما يقيمه عليهم من حجج وبراهين، وشهادة الشهود ووزن للأعمال، والحساب منه العسير، ومنه اليسير، ومنه التكريم، ومنه التوبيخ، والتبكيت، ومنه الفضل والصفح، ومتولي ذلك أكرم الأكرمين(1).

والنّجاة من هول ذلك اليوم إنّما تكون بقدر ارتقاء أهل الإيمان في مراتب التزكية، فأعلاهم درجة يدخلون الجنة بغير حساب، فعن ابن عباسﷺ: قال رسول اللهﷺ: «**عرضت علي الأمم، فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط، والنبي ليس معه أحد، حتى رفع لي سواد عظيم، قلت: ما هذا؟ أمتي هذه؟ قيل: بل هذا موسى وقومه، قيل: انظر إلى الأفق، فإذا سواد يملأ الأفق، ثم قيل لي: انظر ها هنا وها هنا في آفاق السماء، فإذا سواد قد ملأ الأفق، قيل: هذه أمتك، ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفا بغير حساب » ثم دخل ولم يبين لهم، فأفاض القوم، وقالوا: نحن الذين آمنا بالله واتبعنا رسوله، فنحن هم، أو أولادنا الذين ولدوا في الإسلام، فإنا ولدنا في الجاهلية، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فخرج، فقال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون» فقال عكاشة بن محصن: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: «نعم» فقام آخر فقال: أمنهم أنا؟ قال: «سبقك بها عكاشة»**(2).

ومن أهل الإيمان من يحاسب حسابا يسيرا، قال تعالى: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ⑦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ⑨** ﴾[الانشقاق:7_9]، فمعنى قوله: ﴿ **فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا** ﴾؛ أي: «سهلا بلا تعسير»(3).

وأما عصاة المؤمنين ممن لم يصلوا المبتغى الأسمى من التزكية، فيحاسبون ثم يغفر اللهﷻ لمن شاء بعدله وكرمه ويعذب غيره على قدر معصيته، ثم يدخله الجنة، وهؤلاء الأصناف أوردهم الله جلّ ثناؤه في قوله: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ**

(1) القيامة الكبرى، الأشقر، (ص: 193) (بتصرف).

(2) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره، وفضل من لم يكتو، رقم: 5705، (7/ 126)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم: 220، (1/ 199).

(3) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (8/ 356).

ﭐللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾[فاطر:32]، فعن ابن عباسﷺ قال: « هم أمة محمدﷺ ورثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب»(1).

وفي المقابل فإنّ أهل الضلال ممن انحدروا في مراتب التدسية، وأعظمها الشرك باللهﷻ، فإنّهم يحاسبون حسابا عسيرا، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، حتى إنّهم من دقته يتساءلون على وجه التعجب:﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ ﴾ [الكهف:49]، ومن هول الحساب وشدّته، يدعون على أنفسهم بالويل والثبور(2)، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴾[الانشقاق:10_11].

ومن الأحوال العصيبة التي يقابلها النّاس يوم القيامة؛ **المرور على الصراط**، وهو جسر منصوب على جهنم، يقع فيه أهلها وينجو الآخرون(3)، وقد جاء وصفه في السنة النبوية، فعن أبي هريرةﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: «**ويضرب جسر جهنم** »، قال رسول اللهﷺ: « **فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم. وبه كلاليب مثل شوك السعدان(4)، أما رأيتم شوك السعدان؟** » قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله، فتخطف الناس بأعمالهم، منهم الموبق بعمله، ومنهم المُخَرْدَلُ(5)، ثم ينجو**»(6).

وقد ذكر الله تعالى في كتابه ورودنا على الصراط، فقال جلّ وعلا: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴾[مريم:71_72]، قال الطبري: «يردها الجميع ثم يصدر عنها المؤمنون، فينجيهم الله، ويهوي فيها الكفار وورودهم عليها هو ما تظاهرت به الأخبار عن رسول اللهﷺ من مرورهم على الصراط المنصوب على متن جهنم، فناج مُسَلّم ومكدس فيها»(7)، «فجوازهم على

---

(1) أخرجه الطبري في تفسيره، (20/ 465).

(2)ينظر: بحر العلوم، السمرقندي، (3/ 561).

(3)ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، (16/ 58).

(4) السعدان: بقل لَهُ ثَمَر مستدير مشوك الْوَجْه إِذا وَطئه الْإِنْسَان عفر رجله. ينظر: غريب الحديث، ابن الجوزي، (1/ 480).

(5) المخردل: هو المرمي المصروع، وقيل المقطع، تقطعه كلاليب الصراط حتى يهوي في النار، يقال خردلت اللحم- بالدال والذال- أي فصلت أعضاءه وقطعته. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، (2/ 20).

(6) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم: 6573، (8/ 118)، ومسلم من حديث أبي سعيدي الخدريﷺ، باب معرفة طريق الرؤية، رقم: 182، كتاب الإيمان، (1/ 163)، واللفظ للبخاري.

(7) جامع البيان، الطبري، (18/ 234)

الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا»[1]، يدل عليه ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**ليمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تخطف الناس يمينا وشمالا، وبجنبتيه ملائكة يقولون: اللهم سلِّم سلِّم، فمن الناس من يمر مثل الريح ومنهم من يمر مثل الفرس المجرى ومنهم من يسعى سعيا ومنهم من يمشي مشيا ومنهم من يحبو حبوا ومنهم من يزحف زحفا**»[2].

والمؤمن يجعل الله جلّ ثناؤه له نورا حتى يمر على الصراط، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم**﴾[الحديد:12]، قال الواحدي: « يعني: على الصراط يوم القيامة، وهو دليلهم إلى الجنة، قال قتادة: إن المؤمن يضيء له نوره، كما بين عدن إلى صنعاء ودون ذلك، حتى إن من المؤمنين من لا يضيء له نوره إلا موضع قدميه، وقال ابن مسعود: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، منهم من نوره مثل الجبل، وأدناهم نورا نوره على إبهامه يطفئ مرة، ويوقد أخرى»[3]، ولاشك أن بعد هذا النور دخول الجنة.

الفرع الثاني: دخول الجنة

إن السلامة من أهوال القيامة لا يتحقق إلا لأهل التزكية، وليس بعد ذلك إلا حصول السعادة الأبدية، بدخول جنة عرضها السماوات والأرض، أعدت لهم وهيّئت لاستقبالهم، فتتلقاهم الملائكة بالتسليم والبشارة، كما قال تعالى: ﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ** ﴾[الزمر:73]، ومعنى: ﴿ **طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ** ﴾؛ أي طابت أعمالكم وأقوالكم وعقائدكم، فأصبحت نفوسكم زاكية، وقلوبكم طاهرة، فبذلك استحققتم الجنات[4]. فيدركون عظم النعمة، وتلهج ألسنتهم بحمد الله تعالى عليها: ﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾[الزمر:74]، فتكون لهم الجنة نزلا، لا يحولون عنها ولا يزولون، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا** ﴾ [الكهف:107_108]، قال السعدي: « إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وشمل هذا الوصف جميع الدين، عقائده، وأعماله، أصوله وفروعه الظاهرة والباطنة، فهؤلاء –على

---

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (5/ 256).

(2) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عن وصف جواز الناس على الصراط نسأل الله السلامة ذلك اليوم، رقم: 7379، (16/ 384). قال شعيب الأرنؤوط: « إسناده صحيح على شرط مسلم».

(3) التفسير الوسيط للواحدي (4/ 248).

(4) الجنة والنار، الأشقر، (ص: 119) (بتصرف).

اختلاف طبقاتهم من الإيمان والعمل الصالح – لهم جنات الفردوس؛ يحتمل أن المراد بجنات الفردوس، أعلى الجنة، وأوسطها، وأفضلها، وأن هذا الثواب، لمن كمل فيه الإيمان والعمل الصالح، والأنبياء والمقربون، ويحتمل أن يراد بها جميع منازل الجنان، فيشمل هذا الثواب، جميع طبقات أهل الإيمان، من المقربين، والأبرار، والمقتصدين، كل بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين لعمومه؛ ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس؛ ولأن الفردوس يطلق على البستان المحتوي على الكرم، أو الأشجار الملتفة، وهذا صادق على جميع الجنة، فجنة الفردوس نزل وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأي ضيافة أجل وأكبر وأعظم من هذه الضيافة المحتوية على كل نعيم، للقلوب والأرواح والأبدان، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة المشجية، والمآكل اللذيذة، والمشارب الشهية، والنساء الحسان، والخدم والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة الدائمة... وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ هذا هو تمام النعيم، إن فيها النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع، ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ أي: تحولا ولا انتقالا؛ لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويبهجهم، ويسرهم ويفرحهم، ولا يرون نعيما فوق ما هم فيه» [1].

وأعظم نعيم يناله أهل التزكية؛ النظر إلى وجه الله تعالى، فما أعطوا نعيم أعظم منه، فعن صهيبﷺ أنّ النبي ﷺقال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل**»[2].

قال السعدي في معرض بيانه لما أعدّه الله للأتقياء: « وأعلى ذلك وأفضله وأجله، التنعم بالقرب من الرحمن ونيل رضاه، الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرؤوف الرحيم، فلله تلك الضيافة، ما أجلّها وأجملها، وأدومها وأكملها، وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق، أو تخطر على القلوب، فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علما حقيقيا يصل إلى قلوبهم، لطارت إليها قلوبهم بالأشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحدانا، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذات منغصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقاتا تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحقب آلاف مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة نفذت فكان، ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» [3].

---

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 488).
(2) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم: 181، (1/ 163).
(3) المصدر السابق، (ص: 488).

وبذلك يتحقق لأهل التزكية الأمن والاطمئنان، والسر في هذا الأمن الذي يشمل الله به عباده الأتقياء، أن قلوبهم كانت في الدنيا غامرة بمخافة الله جلّ ثناؤه، فأقاموا ليلهم، وأظمؤوا نهارهم، واستعدوا ليوم الوقوف بين يدي الله، فقد حكى عنهم ربهم أنهم كانوا يقولون: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾[الإنسان:10]، ومن كان حاله كذلك فإن الله يقيه من شر ذلك اليوم ويؤمنه، ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان: 11-12].

وفي الحديث أن النبيﷺ قال: « **قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي، لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع فيه عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع فيه عبادي**»[1].

وعموما فكلما كان العبد أكثر إخلاصاً لربه تبارك وتعالى، كان أكثر أمناً في يوم القيامة، فالموحدون الذين لم يلبسوا إيمانهم بشيء من الشرك، لهم الأمن التام يوم القيامة، يدلك على هذا جواب إبراهيم لقومه عندما خوفوه بأصنامهم، فأجابهم قائلاً: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[الأنعام:81_82].

فلا يستوي من يتحقق له الأمن التام، مع غيره ممن يلقى في النار، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[فصلت:40]، فهؤلاء ممن شيدوا بنيانهم على الباطل، لن ينالوا إلا النّكد، قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[التوبة:109]، قال صاحب المنار: «أفمن كان مؤمنا صادقا يتقي الله في جميع أحواله، ويبتغي رضوانه في أعماله بتزكية نفسه بها ونفع عياله،...أفمن كان كذلك خيرا عملا، وأفضل عاقبة وأملا، وممن نزل فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ [الكهف:107_108]، أم من هو منافق مرتاب، مراء كذاب، يبتغي بأفضل مظاهر أعماله الضرر والضرار، وتقوية أعمال الكفر وموالاة الكفار،

(1) القيامة الكبرى، الأشقر، (ص: 158) (بتصرف).

وتفريق جماعة المؤمنين الأخيار، والإرصاد لمساعدة من حارب الله ورسوله من الأشرار، وما يكون من عاقبة ذلك في الدنيا من الفضيحة والعار، والخزي والبوار، وفي الآخرة من الانهيار في نار جهنم وبئس القرار؟»[1].

وصفوة القول إن التزكية سبب الفلاح في الآخرة؛ لأنها تحقق للمؤمن الثبات والبشارة عند احتضاره وتنجيه من القبر. والتزكية أساس السلامة من فزع النّفخ في الصور، والحشر، والحساب والميزان، والمرور على الصراط. كما أنها السبيل الموصل جنات عرضها السماوات والأرض.

وخلاصة هذا الفصل أنّ للتزكية آثار عديدة في الدنيا ومن ذلك الانتفاع بالمواعظ والآيات وحصول الهداية، ونيل محبّة الله ﷻ، وحصول الأخوة، وانتشار الأمن والرخاء، وتحقق السعادة والاطمئنان.

كما أن التزكية سبب الفلاح في الآخرة؛ لأنها تحقق للمؤمن الثبات والبشارة عند الاحتضار وتنجيه من عذاب القبر، وفزع النّفخ في الصور، والحشر، والحساب والميزان، والمرور على الصراط. وليس وراء ذلك إلا دخول الجنة.

(1) تفسير المنار، رشيد رضا، (11/ 37).

الباب الثاني

التعليم في القرآن والسنة.

وفيه فصلان:

الفصل الأول: آداب المعلم والمتعلم في القرآن والسنة.

الفصل الثاني: أساليب التعليم وآثاره في القرآن والسنة.

لقد ساهم الباب الأول في إعطاء صورة واضحة عن التزكية في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة؛ حيث بيّن الوسائل الموصلة لتحقيقها، كما عرّج على الموانع الحائلة دونها، ليختم بذكر آثار التزكية في الدنيا والآخرة.

وإن الحديث عن التزكية يسوقنا للحديث عن العلم، ذلك لاعتبارات عدّة، أهمهما أنّ التزكية والتعليم من مقاصد النبوة، فلا يمكن الفصل بينهما؛ إذ إنّ العلم من أهم ما يحقق التزكية، كما أنّ للتزكية دور بارز في نيل العلم النّافع.

وانطلاقا مما سبق يأتي هذا الباب ليستكمل ثنائية البحث بالتطرق إلى التعليم في القرآن الكريم والسنة النبوية، وحيث إنّه تم التطرق إلى تعريف العلم وبيان أنواعه وأهميته، فإن التركيز في هذا الباب سيكون حول آداب العلم، وأساليبه وأثاره، في فصلين؛ يسعى الأول لبيان آداب العلم، من خلال التعريج على الآداب المشتركة بين المعلم والمتعلم، بالإضافة إلى آداب المعلم، ليختم بذكر آداب المتعلم.

وأما الفصل الثاني والأخير فسيكون لبيان أساليب التعليم وآثاره في القرآن والسنة، وسيركز على أسلوب التدرج، والحوار، والسؤال، والتطبيق العملي، وأسلوب التمثيل، بالإضافة إلى أسلوب الإشارة والرسم البياني، وأسلوب القصص، ليختم ببيان آثار التعليم التي تعود على الفرد والمجتمع.

وِفْق هذه الخطة ستدور محاور هذا الباب، والله ﷻ أسأل التوفيق والسداد.

الفصل الأول

آداب المعلم والمتعلم في القرآن والسنة.

وفيه ثلاثة مباحث

المبحث الأول: الآداب المشتركة بين المعلم والمتعلم.

المبحث الثاني: آداب المعلم.

المبحث الثالث: آداب المتعلم.

يُعتبر القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة مصدرا للقيم والآداب؛ إذ يشتركان في هداية الناس لمعالي الأمور ومحاسن الأخلاق، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة:2] وقال عن نبيّهﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:52]، فالكتاب والسنة ميزان الفضائل، وبهما تعرف الآداب، وعلى رأسها آداب العلم، ويأتي هذا الفصل ليورد جملة منها في ثلاثة مباحث، خصصت الأول للآداب المشتركة بين المعلم والمتعلم، وجاء الثاني لبيان آداب المعلم، لأختم بذكر آداب المتعلم، وتفصيل ذلك فيما يلي:

المبحث الأول: الآداب المشتركة بين المعلم والمتعلم في القرآن الكريم والسنة النبوية

سأتطرق من خلال هذا المبحث لبيان بعض الآداب التي يشترك فيها المعلم والمتعلم من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد جعلت هذه الآداب تحت جملة من المطالب، وتفصيل ذلك على النحو التالي:

المطلب الأول: الإخلاص والعمل بالعلم

يعتبر الإخلاص والعمل بالعلم أساس الآداب التي يجب على المعلم والمتعلم الاتصاف بهما، وقد أوردتهما مع بعض لتلازمهما؛ فالإخلاص أساس قبول جميع الأعمال، والأعمال داخلة في مسمى الإيمان، وقد ذُكِرا متلازمين في العديد من الآيات القرآنية، من ذلك قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5]، وفيما يلي بيان لدور الالتزام بهما وخطورة التخلي عنهما بالنسبة للمعلم والمتعلم.

الفرع الأول: الإخلاص

الإخلاص شرط أساس لقبول أي عبادة، ويعتبر العلم من أهمها كما مرّ بيانه في الفصل التمهيدي؛ لذا وجب على المعلم والمتعلّم تجريد القصد لله تعالى، قدوتهما في ذلك أنبياء الله ورسله عليهم السلام؛ إذ إنّهم يُعَلِّمُون ويُوَجِّهُون ولا يرجون الأجر إلاّ من الله سبحانه وتعالى، فهذا هودعليه السلام يقول لقومه: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: 51].

وأمر الله جلّ وعلا نبيّهﷺ أن يُعْلِم قومه بأنّه لا يريد منهم جزاء ولا شكورا، فقال له: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 90]، قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمدﷺ: (قل) لهؤلاء الذين أمرتك أن تذكّرهم بآياتي... من مشركي قومك يا محمد: ﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ﴾ على تذكيري إيّاكم، والهدى الذي أدعوكم إليه، والقرآن الذي جئتكم به، عوضًا أعتاضه منكم عليه، وأجرًا آخذه منكم، وما

ذلك مني إلاّ تذكير لكم، ولكل من كان مثلكم ممّن هو مقيم على باطل، بَأسَ الله أن يَحُلّ بكم، وسَخَطه أن ينزل بكم على شرككم به وكفركم، وإنذارٌ لجميعكم بين يدي عذاب شديد، لتذّكروا وتنزجروا»[1].

وتذكير الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم بأنّهم لا يطلبون الأجر إلاّ من الله جلّ ثناؤه، غرضه لفت انتباههم بأنّهم الأحق في أن يُتّبعوا؛ فالنّفوس السليمة والفطر المستقيمة تميل إلى العبد المخلص الذي يسعى في فكاكها، ويبذل جهده في نصحها وتوجيهها، لذا قال الرّجل الصالح لقومه: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [يس:20_21].

ممّا سبق تظهر أهمية الإخلاص في العملية التعلّمية، إذ إنّه يفتح الطريق للمعلم ليصل إلى النّفوس الزّكية فيؤثّر فيها، كما يصل الماء إلى الأرض الطيبة فتنبت نباتا طيبا، وقد نبّه هرم بن حيّان[2] إلى هذا فقال: «ما أقبل عبدٌ بقلبه على الله إلّا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتّى يرزقه وُدَّهم»[3].

وفي مقابل الصنّف الأول ممن آتاهم الله جلّ وعلا علما فعلّموه ابتغاء وجهه ولم يطلبوا الأجر إلاّ منه، بيّن القرآن الكريم عاقبة من آتاه الله تعالى علما إلاّ أنّه رضي بمتاع الدنيا الزائل، قال تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 175_ 176].

فهذا رجل آتاه الله العلم لكنّه آثر الدنيا على رضا الله جلّ وعلا فكان حاله كالكلب، قال ابن القيم: «وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة، مع وفور علمه بالكلب في لهثه سر بديع؛ وهو أنّ الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه، إنما كان لشدة لهفه على الدنيا؛ لانقطاع قلبه عن الله والدار

(1) جامع البيان، الطبري، (11/ 520).

(2) هو: هرم بن حيان العبدي الربعي العامري، ويقال: الأزدي البصري، سمي بهرم؛ لأنّه هرم ولد أشيبا منحنيا، وقد نبتت ثناياه، كان من العبّاد، وقد حدّث عن عمرﷺ، واستعمله أيضا، روى عنه: الحسن البصري وغيره. ينظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر، (73/ 372).

(3) ينظر: الزهد، أحمد بن حنبل، ت: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط: 1، 1420 هـ – 1999م، (ص: 188).

الآخرة، فهو شديد اللّهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللّهف واللّهث شقيقان وأخوان في اللّفظ والمعنى»(1).

يتضح مما سبق أنّ العالم الذي لا يرجو وجه الله جلّ ثناؤه والدار الآخرة لا يُوفّق للعمل الصالح، بل يتردى في الدركات في الدنيا والآخرة، بخلاف من أخلص لله تعالى، فإنّه يُيَسِّر له أبواب فضله، ويدفع عنه الفواحش والمنكرات، قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿22﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿23﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: 22 _ 24].

وإذا كان العلم طريقا موصلا إلى الجنة، فشرطه أن يصحبه إيمان خالص من شوائب الشرك والرياء، وكذلك الشأن في كل عبادة تُقرّب العبد من ربه، قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:110]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:19]، فالسعي المشكور لا يتحقق إلاّ بالإيمان الخالص، ولا يتحقق الإيمان إلاّ بالعلم والعمل، وقد جمع الله تعالى بين هذه الصفات، وبيّن أنّها الطريق الموصل للجنان، قال جلّ ثناؤه: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ [الأنبياء:94]، قال الرازي في تفسير هذه الآية: « من جمع بين أن يكون مؤمنا وبين أن يعمل الصالحات، فَيَدْخُل في الأول العلم والتصديق بالله ورسوله، وفي الثاني فعل الواجبات وترك المحظورات: ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ﴾؛ أي لا بطلان لثواب عمله، وهو كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ »(2).

---

(1) الأمثال في القرآن، ابن قيم الجوزية، ت: إبراهيم بن محمد، مكتبة الصحابة_مصر، ط: 1، 1406هـ - 1986م، (ص:27).

(2) مفاتيح الغيب، الرازي، (22/ 184).

وأمّا من سعى في تحقيق العلم وتعليمه بقصد السمعة وحبّ الظهور ونيل متاع الدنيا، فإنّه موزور غير مشكور، قال ابن باديس: «العامل في أمر تعبدي كالصلاة والصدقة والحج **والعلم**، فهذا إذا لم يُرِد الآخرة أصلاً فهو موزور غير مشكور.

وفيه جاء حديث أبي هريرة في الصحيح قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «**إنّ أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النّار.**

ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فماذا عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء، فقد قيل، ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النّار.

ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلاّ أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل: ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار»(1).

وهذا الذي كان من هؤلاء هو الرياء وهو: أن يَفعل العبادة ليُقال إنّه مطيع.

وما دخل الرياء في عبادة إلاّ أحبطها، ولو كان قليلا؛ لحديث أبي هريرة في الصحيح: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»(2).

وإشراك غيره معه صادق بالقليل والكثير، فلا فرق بينهما في الإحباط، والعامل المرائي موزور غير مشكور»(3).

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، رقم: 1905، (3/ 1513).

(2) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم: 2985، (4/ 2289).

(3) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد بن باديس، ت: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية _بيروت، ط:1، 1416هـ - 1995م، (ص: 53).

ففي حديث الثلاثة الذين تسعر بهم النّار دليل واضح على وجوب الإخلاص في طلب العلم وقراءة القرآن، وكذلك في سائر العبادات، قال تعالى: ﴿ **وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ** ﴾ [البينة:5].

وقد أكد النبيﷺ خطورة فساد النية في طلب العلم، فقال: «**من تعلم علما مما يُبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلّا ليصيب به عرضا من الدنيا، لم يجد عَرْفَ[1] الجنة**»[2]. وهذا يعُمّ جميع العلوم الشرعية، سواء كان من العلوم المقصودة لعينها أو للعمل بها، كعلم القرآن والسنة والفقه، أو من العلوم الموصلة إلى ذلك، كعلم الأصول واللّسان[3].

وقد بيّن النبيﷺ في حديث آخر مقاصد من فسدت نيتهم في تعلّم العلم، ثم ذكر عاقبة ذلك، حيث قال: «**من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه النّاس إليه، أدخله الله النّار**»[4].

ونظرا لأهمية الإخلاص فقد اعتنى العلماء بتنقية أنفسهم من شوائب الرياء وحُبِّ الظهور، فقد رُوي عن سفيان الثوري رحمه الله أنّه قال: «ما عالجت شيئاً أشد عليّ من نيتي»[5]. «وعن يوسف القاضي أنّه كان يوصي قائلا: «يا قوم أريدوا بعلمكم الله تعالى، فإني لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أتواضع إلاّ لم أقم حتى أعلوهم، ولم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أعلوهم إلاّ لم أقم حتى أفتضح »[6].

(1) أي ريحها الطيبة، والعَرَفُ: الريح. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، (3/ 217).

(2) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير الله تعالى، رقم: 3664، (3/ 323)، و ابن ماجة في السنن، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم: 252، (1/ 92)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم: 6159، (2/ 1060).

(3) ينظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، (6/ 701).

(4) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا، رقم: 2654، (5/ 32)، و ابن ماجه في السنن، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم: 253، (1/ 93)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم: 6382، (2/ 1091).

(5) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، أبو طالب المكي، ت: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: 2، 1426 هـ -2005 م، (2/ 264).

(6) الفقيه والمتفقه، الخطيب البغدادي، ت: عادل الغرازي، دار ابن الجوزي – السعودية، ط: 2، 1421هـ، (2/ 49).

والإخلاص يصحبه العمل، وله دور مهم في الحياة العلمية سواءً بالنسبة للمعلم أو المتعلم، وهذا ما سيأتي بيانه في الفرع الموالي.

الفرع الثاني: اقتضاء العلم العمل

من آداب المعلم والمتعلم كما ورد في كتاب الله ﷻ وسنة رسول الله ﷺ أن يقترن العمل بالعلم، وهو ثمرة من ثمرات الإخلاص، لذا قرن الله جلّ وعلا بينهما في القرآن الكريم، فلا يكاد يذكر الإيمان إلاّ وقرن معه العمل الصالح، فالالتزام بهما يُحقق البشارة بالجنّة، قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:25]، والتخلي عنهما يسبب الخسارة في الدنيا والآخرة.

وقد اتضح في أهمية العلم أنّه طريق إلى الجنّة، والعامل به سيوفّق لتحصيله أكثر؛ لأن العمل بالجوارح مرتبة من مراتب شكر النّعمة، والشكر يقتضي المزيد، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:7]، وقد رُوي عن الأوزاعي أنّه قال: «من عمل بما يعلم وفق لما لا يعلم»[1].

ومن لم يعمل بما علم، حُجبت عنه أنوار الهداية؛ لذا فإن المؤمن يكرّر دعاءً سبع عشرة مرّة على الأقل في اليوم واللّيلة، وذلك في كل ركعة يركعها لله ﷻ، حيث يقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝٦ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[الفاتحة:5_7]، فالمغضوب عليهم هم اليهود؛ لأنّهم يعلمون ولا يعملون، والضالون هم النّصارى؛ لأنّهم يعملون بغير علم، والهداية للطريق القويم تستلزم الابتعاد عن هذين النموذجين، فسلوك المشتغل بالعلم _ عالما أو متعلما_ طريق هؤلاء دليل على الفساد، قال سفيان بن عيينة: «كانوا يقولون من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من العُبّاد ففيه شبه من النصارى»[2].

---

(1) تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين، نصر السمرقندي، ت: يوسف بديوي، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط:3، 1421 هـ، 2000 م، (ص: 434).

(2) ينظر: الاستقامة، ابن تيمية الحراني، ت: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود – المدينة المنورة، ط: 1، 1403هـ، (1/ 100).

وممّا يؤكد تخلي اليهود عن العمل بالعلم، قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة:146]؛ «فالمقصود بذلك الأحبار من يَهودِ المدينة؛ جحدوا نبوّةَ محمدﷺ وستَروه عن النّاس وكتمُوا أمره، وهُمْ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم»(1)، وكان الواجب عليهم العمل بما عملوا، فيؤمنون به ويدعون إلى اتباعه، لكنهم انحرفوا فكان ذلك سببا في خسارتهم، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنعام:20].

وقد أكدّ الله ﷻ في آية أخرى أنّ الإيمان والعمل الصالح هما سبيل النّجاة، ثم أوضح حال بني إسرائيل؛ أُمروا ونُهوا لكنّهم استنكفوا وأعرضوا، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿82﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴾[البقرة:83].

وكان الحامل على إعراضهم الكبر والحسد؛ لذا ناسب أن يكون المؤمن العامل بعلمه في الجنّة، والمعرض المستنكف في النّار، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾[النساء:173].

وتأمل كيف نفى تحقق النّصرة لهم، إذ لا ينفعهم أعوانهم من شياطين الجن والإنس بين يدي الله ﷻ، ولن يتحقق لهم ما يتمنونه، أو ما يمني به بعضهم بعضا، كما لا ينفعهم رأس الشرّ الذي يؤزّهم ويعدهم غرورا، ويفتري عليهم كذبا وزورا، قال تعالى: ﴿ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿120﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴾[النساء:121].

فأهل الأماني الفارغة لن ينفعهم شيء، ولن يجدوا من دون الله وليّا ولا نصيرا، وأما أهل الإيمان والعمل الصالح فسيتحقق موعود الله جلّ ثناؤه لهم، ومن أصدق من الله قيلا، قال جلاّ وعلا: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(1) جامع البيان، الطبري، (1/ 255).

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿122﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿123﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[النساء:122_124].

فهؤلاء الذين لم يعملوا بما علموا وتشبثوا بالأماني، وعلى رأسهم اليهود، حالهم كحال من لا يعلم، قال الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[البقرة:101]، قال الطبري: «أي أن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم أفسدوا علمهم، وجحدوا وكفروا وكتموا»[1]، فصار ذلك العلم كالعدم كما سمى الله تعالى الكفار: (صما وبكما وعميا)، إذ لم ينتفعوا بهذه الحواس، ويقال للرجل في شيء يفعله لكنه لا يضعه موضعه: صنعت ولم تصنع[2]، وهذا ما يبين أنّ العالم الذي لا يعمل بعلمه، حاله كمن لا يعلم، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه: «لا يكون الرجل عالما حتى يكون متعلما، ولا يكون عالما حتى يكون بالعلم عاملا»[3].

قال صاحب المنار: «وتأمل قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فقد نفى الحال والاستقبال؛ لأنّهم تركوا العمل قصدا وجحدوا عنادا وتكبرا، وفي هذا إشارة واضحة أنّ الزمان يتمادى بهم ولا يتوبون ولا يرجعون» [4]. وهذا ما يبين خطورة ترك العمل بالعلم جحودا واستكبارا، فقد لا يُوفّق صاحبه للرّجوع والتوبة، ونظرا لإهمالهم هذا المقصد وُصفوا بأنّهم لا يعقلون، حيث قال الله تعالى معاتبا لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة:44].

وشبّه الله ﷻ حال اليهود بسبب تركهم العمل بالعلم بالحمار يحمل أسفارا، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الجمعة: 5].

---

(1) جامع البيان، الطبري، (2/ 404).

(2) مفاتيح الغيب، الرازي، (3/ 633) (بتصرف يسير).

(3) تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين، السمرقندي، (ص: 433).

(4) تفسير المنار، رشيد رضا، (1/ 328).

كما شبّه الله ﷻ أحد علمائهم ممن فضّل الفانية على الباقية بالكلب لخسته ودناءته، فقال جلّ ثناؤه: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾[الأعراف: 175_176].

من خلال ما سبق، يتضح أنّ العالم حقيقة هو العامل بعلمه، وهذا ما أكّده عبد الله بن سلام، حيث سأله عمر رضي الله عنهما: «من أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون به»(1)، «وكانوا يقولون: «الشارع الرباني: العالم العامل المعلم»، قال الزجاج: « العالم إنما ينبغي أن يقال له: عالم، إذا عمل بعلمه، وإلاّ فليس بعالم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 102] »(2).

وقد جاء الوعيد الشديد على لسان النبيﷺ لمن لا يعمل بعلمه، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه، أنّ النبيﷺ قال: **«يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه، فيقال أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، قال: كنت آمركم بالمعروف ولا أفعله، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»**(3).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قالﷺ: **«رأيت ليلة أسري بي رجالا تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من نار، فقلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون»**(4).

وهذا الوعيد الشديد نظير الآثار الوخيمة المترتبة على ترك العمل، ومن ذلك أنّ الجاهل يفقد الثقة فلا يأخذ الحق على من هذه حاله، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه قال: «إذا لم يعمل العالم بعلمه استنكف الجاهل أن يتعلم منه؛ لأنّ العالم إذا لم يعمل بالعلم لا ينفع العلم إيّاه ولا غيره، وإن جمع العلم بالأوقار»(5)، وقد أحسن أبو الأسود الدؤلي حين قال:

---

(1) أخرجه الدارمي في سننه، باب صيانة العلم، رقم: 595، (1/ 470).

(2) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، الطيبي، (4/ 157).

(3) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنّها مخلوقة، رقم: 3267 (4/ 121)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، رقم: 2989، (4/ 2290)، واللّفظ للبخاري.

(4) الجواهر الحسان، الثعالبي، (292/1).

(5) تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين، السمرقندي، (ص: 434).

لا تَنْهَ عَنْ خلقٍ وتأتيَ مثلـــه ... عارٌ عليك إذا فَعَلْتَ عظيــمُ
وابدأ بنفسك فانهها عن غَيِّها ... فَإن انتهتْ عنه فأنتَ حكيمُ
فهناكَ يُقْبَلُ إن وَعظتَ ويُقْتَدَى ... بالقولِ منكَ وينفعُ التعليم

ونظرا لأهمية العمل بالعلم، كان السلف الصالح يعتنون كثيرا به، قال الحسن البصري: «كان طالب العلم يرى ذلك في سمعه وبصره وتخشعه»(1).

استنادا إلى ما ذكرت سابقا يتضح أنّ من أهم آداب المعلم والمتعلم لزوم الإخلاص والعمل بالعلم، فالتخلي عن ذلك طريق إلى الضلال في الدنيا والعذاب في الآخرة، وهو علامة على التكبر على الطاعة أو عدم الصبر على القيام بها؛ لذا فالمؤمن عموما وصاحب العلم خصوصا محتاج للتواضع والصبر حتى ينال الدرجات العليا في الدنيا والآخرة، وفيما يلي بيان آثرهما في تحقيق العلم.

المطلب الثاني: الصبر والتواضع

يحتاج السائر في طريق العلم سواءً كان معلم أو متعلما إلى الصبر والتواضع، وبينهما صلة وثيقة؛ لذا جمع الله ﷻ بينهما في ذكر وصايا لقمان لابنه، حيث قال له: ﴿ **وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [لقمان:17_18].

ولأهمية هذين الأدبين استفتح الله ﷻ بهما صفات عباد الرحمان فقال: ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا** ﴾[الفرقان:63]، فمشيهم في وقار وسكينة يظهر تواضعهم، وحلمهم يظهر صبرهم على الأذى. وفيما يلي بيان لأثر الصبر والتواضع في العملية التعليمية.

الفرع الأول: الصبر

من الآداب المشتركة بين المعلم والمتعلم الصبر؛ إذ إن له دورا بارزا في تحصيل العلم أو تبليغه، وممّا يظهر ذلك أنّ العلم طريق الجنة كما ثبت في قوله ﷺ: «**ومن سلك طريقا يطلب به علما سَهَّلَ الله له طريقا إلى الجنة**»(2).

وطريق الجنّة لا يُنال إلاّ بالصبر على فعل المأمور وترك المحظور، قال الله جلّ ثناؤه: ﴿ **وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا**

(1) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، (1/ 513).

(2) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم: 2699، (2074/4).

﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[القصص:80]، قال السمرقندي: «ولا يوفّق ولا يرزق في الجنة إِلَّا الصَّابِرُونَ في الدنيا على أمر الله تعالى»[1].

وثبت عن النبيﷺ أنّه قال: «**ألا إنّ سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**»[2]؛ لذا فالعلم يحتاج إلى صبر ومجاهدة، وجلد في طلبه وتحمّل لمشاق الوصول إلى مضانه، كما يحتاج إلى ذلك أثناء تبليغه.

وقد بيّن القرآن الكريم والسنة النبوية أنّ الصبر صفة راسخة في رسل الله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، فكم تحملوا من الأذى في سبيل تعليم النّاس، وكم سمعوا من عبارات الشتم والوعيد، قال تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ**﴾ [إبراهيم:9].

فالآية توضّح تشابه الأمم المكذبة على كثرتها في تكذيب الرّسل والاستهزاء بهم، وذلك واضح في رَدّهم أيديهم في أفواههم، قال ابن عاشور: «أي أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم؛ إخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل كراهية أن تظهر دواخل أفواههم، وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسل»[3].

وهذا الفعل يتضمن الاستطالة على الرسل عليهم السلام والنيل منهم[4]، وقد أقام عليهم الرّسل عليهم السلام الحجّة، ووضّحوا المحجّة، واستندوا في ذلك إلى البراهين الساطعة، والحجج الواضحة، ﴿**قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾[إبراهيم:10]، فما كان ردّ هؤلاء إلاّ أن استطالوا في بغيهم، وتمادوا في كفرهم، ﴿**قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ**﴾، فجاء الجواب واضحا بركون الرّسل في تعليمهم إلى الصبر والتوكل على الله جلّ ثناؤه، ﴿**قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ**

---

(1) بحر العلوم، السمرقندي، (2/ 621).

(2) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة، رقم: 2450، (4/ 633)، وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي النضر».

(3) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (13/ 196)

(4) ينظر: روح المعاني، الألوسي، (7/ 183).

فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿11﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم:11_12].

وقد تضافرت النصوص في بيان صبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وخُصّ منهم بمزيد فضل أولوا العزم؛ نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ونبينا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد بيّن اللهﷻ له عظم المسؤولية التي تنتظره، فقال: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل:5]، ثم قال له بعد جملة من التوجيهات: ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمل:10].

وأُمر بالصبر أيضا في سورة المدثر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ [المدثر:7]، وسورة المزمل والمدثر من أوائل ما نزل، وفيهما إشارة واضحة إلى ما سيلقاه النبي صلى الله عليه وسلم من الأذى، وللتخفيف عليه ذكّره الله تعالى بما حلّ بأنبيائه ورسله عليهم السلام، وحثّه على التزام طريق أولي العزم منهم، فهم أكثر من تعرض للأذى، قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف:35]، وقد امتثل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فكان يواسي نفسه حين يشتد عليه الأذى بقوله: «**رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»(1).

وقد علمنا النبيﷺ أنّ الصبر لا يكون على المخالف فحسب، بل على الموافق أيضا، فعن أنس بن مالكرضي الله عنه، قال: «**كنت أمشي مع النبيﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبيﷺ قد أثّرت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم «أمر له بعطاء**»(2).

فيا لله ما أجمله من خلق من أعظم معلم عرفته البشرية!، حيث تضمن تصرفه هذا مقابلة الإساءة بالإحسان، فرغم سوء معاملة الأعرابي له إلاّ أنّه ابتسم في وجهه، ولم يمنعه حقّه من الصدقة، وذلك درس عملي للمعلم أن يتمالك غضبه، وأن يراعي اختلاف طبائع المتعلمين، وأن لا يمنع أحدهم من حقّه في الإيضاح والشرح، أو في أعلى المراتب _ إن استحق ذلك _ بسبب سوء تصرّفه، وقد نبّه ابن السنيّ إلى ضرورة استصحاب هذا

(1) أخرجه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، رقم: 3150، (4/ 95)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، رقم: 1062، (2/ 739).

(2) أخرجه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، رقم: 3149، (9/4)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة، رقم: 1057، (2/ 730).

الخلق حال خطأ المتعلّم، إذ ينبغي أن يُوجّه بالرّفق واللّين(1)، وأشار ابن باديس إلى هذا الأدب الرفيع، فرغّب ناقل العلم أن يتحلى به، حيث قال: « والعلم مستمد من الرّسالة، فعلى أهله واجب التبليغ والنّذارة، والصبر على ما في طريق ذلك من الأذى والبلايا، والعطف على الخلق والرحمة»(2).

من خلال ما سبق نستنتج أنّ الصبر من أهم صفات المعلم، وممّا يؤكد ذلك أنّ أنفع طرق التعليم؛ التعليم بالقدوة، لذا كان من دعاء عباد الرحمن: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان:74]، ولا تتحقق هذه المرتبة على أكمل وجه إلاّ لمن تخلّق بالصبر واليقين، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:24]، فأخبر تعالى أنه جعلهم أئمة يأتم بهم من بعدهم لصبرهم ويقينهم، إذ بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، فالداعي إلى الله تعالى لا يتم له أمره إلا بيقينه للحق الذي يدعو إليه وبصيرته به، وصبره على تنفيذ الدعوة إلى الله باحتمال مشاقها، وكفّ النفس عما يُوهن عزمه ويضعف إرادته، فمن كان بهذه المثابة كان من الأئمة الذين يهدون بأمره تعالى(3).

ولأهمية الصبر في العملية التعليمية، بين الله ﷻ أنّه من صفات أهل العلم، فقال: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿19﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿20﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿21﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾[الرعد:19_22].

فهؤلاء الأتقياء الأنقياء وُصفوا بالعلم، وبأولي الألباب نظير ما قاموا به من حقوق، وما تحلوا به من صفات، ومنها الصبر، وفي ذلك إشارة واضحة أنّ العبد لا ينال هذه المرتبة إلاّ بلزوم هذا الأدب الرفيع؛ لذا ينبغي على المتعلم أن يستصحبه أثناء تلقيه للعلم.

وليستفد ممّا أورده الله ﷻ في كتابه عن رحلة موسى عليه السلام في سبيل تحصيل المعارف، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ [الكهف:60]، فتحمّل في سبيل الوصول للخضر تعبا كبيرا جراء بعد المسافة، ويتأكد ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ

(1) ينظر: رياضة المتعلمين، أحمد بن السني، ت: نظام يعقوبي، دار النوادر، سوريا، ط: 1، 2015م، (ص: 139).

(2) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس، (ص: 296).

(3) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، (4/ 103) (بتصرف).

ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ﴾ [الكهف:62]، وهذا لا شك يحتاج إلى صبر، وهو ما أكّد عليه الخضر واشترطه على موسى عليهما السلام بعد أن طلب منه أن يعلمه ممّا علمه الله ﷻ، وذلك بأن يلتزم بالصبر على ما يراه وأن لا يسأل عن شيء حتى يخبره بنفسه، قال تعالى: **﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا (66) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا (67) وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا (68) قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴾** [الكهف: 66_ 69].

وممّا يبين ما لقيه موسى عليه السلام من تعب ما جاء في الحديث أنّ النبي ﷺ قال: «**بينما موسى في ملإ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلم أحدا أعلم منك؟ قال موسى: لا، فأوحى الله عز وجل إلى موسى: بلى، عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إليه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، وكان يتبع أثر الحوت في البحر، فقال لموسى فتاه: ﴿ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ ﴾** [الكهف:63]، قال: **﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴾** [الكهف:64]، **فوجدا خضرا، فكان من شأنهما الذي قص الله عز وجل في كتابه**»(1).

قال ابن المنير: «موقع قوله: «في البحر» من الترجمة، التنبيه على شرف التعليم، حتى جاز في طلبه المخاطرة بركوب البحر، وركبه الأنبياء في طلبه، بخلاف طلب الدنيا في البحر فقد كرهه بعضهم، واستثقله الكل، ووجه مطابقته للقصة: إن موسى عليه السلام قال للخضر: **﴿ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ ﴾** فاتبعه ليتعلم منه في البحر حال ركوبهما السفينة، وفي البر حال سيرهما في البر، بعد النزول»(2).

وهذا لقمان يُعلّم ابنه، وكان من بين ما أمره به لزوم الصبر، حيث قال له: **﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾** [لقمان :17]، وهذا ما يبين أهمية الصبر للمتعلّم، فالعلم لا يتحقق إلا به، جاء في صحيح مسلم عن يحي بن أبي كثير قال: «لا يستطاع العلم براحة الجسم»(3)، قال النووي: «جرت عادة الفضلاء بالسؤال عن إدخال مسلم هذه الحكاية عن يحي، مع أنه لا يذكر في كتابه إلا أحاديث النبي ﷺ محضة، مع أن

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب ما ذكر في ذهاب موسى ﷺ في البحر إلى الخضر، رقم: 74، (1/ 26).

(2) المتواري على أبواب البخاري، نصر الدين ابن المميّر، ت: صلاح الدين أحمد، مكتبة المعلا، الكويت، ط:1، 1407هـ، 1987م، (ص: 59).

(3) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، (1/ 428).

هذه الحكاية لا تتعلق بأحاديث مواقيت الصلاة فكيف أدخلها بينها !؟، وحكى القاضي عياض رحمه الله تعالى عن بعض الأئمة قال: سببه أن مسلما رحمه الله تعالى أعجبه حُسن سياق هذه الطرق التي ذكرها لحديث عبد الله بن عمرو، وكثرة فوائدها، وتلخيص مقاصدها، وما اشتملت عليه من الفوائد في الأحكام وغيرها، ولا نعلم أحدا شاركه فيها، فلما رأى ذلك أراد أن ينبّه من رغب في تحصيل الرتبة التي يُنال بها معرفة مثل هذا، فقال طريقه أن يكثر اشتغاله وإتعابه جسمه في الاعتناء بتحصيل العلم»(1)، «وقد قالوا: من لم يصبر على أذى التعليم، بقي عمره في غاية الجهالة، ومن صبر عليه آل أمره إلى عز الآخرة والدنيا»(2).

يتقرر ممّا سبق أنّ الصبر أدب عظيم ينبغي أن يتصف به كل من سلك سبيل العلم عالما أو متعلما، حتى يصير صفة راسخة في شخصه، يستحضر ثماره، ويتعامل به مع غيره، قال ابن هبيرة: « ولما كان الصبر مما مدحه الله تعالى، وذكره في مائة موضع وأربعة موضع من كتابه، ولم يذكر شيء من القرآن بهذه العدة، كان كل صابر على ما يكره أو عما يحب في إيمان بالله أنه سيؤول صبره على حصول لما صبر عنه، أو راحة مما صبر عليه، أو تعويض منه في الدنيا والآخرة، دليلًا على الإيمان بمن صبر له وفيه ولأجله، وهذا الصبر قد يجل ويدق، فيكون منه صبرك على أخيك حتى يقضي كلامه، ويكون منه صبرك على المتنازعين حتى يصطلحا، وصبرك على المتعلم السيئ الفهم حتى يفقه، وصبرك على تجرم الطفل وتعنته، وصبرك على المراء وأنت محق، فأما صبرك عليه وأنت مبطل، فتلك فريضة، وكان ذلك من خصال الإيمان»(3)، فمن التزم به ابتغاء وجه الله ﷻ كان مؤمنا على الحقيقة، ونال الدرجة الرفيعة.

الفرع الثاني: التواضع

من أعظم ما قد يعترض الإنسان في طريقه لطلب العلم؛ العجب والغرور والتكبر، فهذه أدواء يبثها الشيطان في قلب المعلم والمتعلّم، حتى يسوقه إلى مهاوي الإفك والردى؛ لذا كان لزاما على من سلك طريق العلم أن يتسلّح بالتواضع، وهو أدب رفيع لا غنى عنه، وقد جاء تأكيد القرآن الكريم عليه، فمن صفات عباد الرحمن، قوله جلّ ثناؤه: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾[الفرقان:63].

(1) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، (5/ 114).
(2) إبراز المعاني من حرز الأماني، ابن شامة المقدسي، ت: إبراهيم عوض، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت ط، (ص: 775).
(3) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، (6/ 396).

وتأمل كيف أنّ الله جمع بين تواضعهم وعدم خوضهم مع أهل الجهالة، فدلّ ذلك على أنّ عباد الرحمن أهل علم ودراية بالله تعالى، وهذا ما فهمه الحسن البصري، حيث وصفهم بالحلم والعلم(1).

وقد جعل الله عز وجل صفة التواضع أول أدب تحلى به هؤلاء، وهذا ما يبرز أهميته في حياة المؤمن عموما، وفي حياة المعلم والمتعلم خصوصا.

ومن أخص عباد الرحمن أنبياؤه ورسله عليهم الصلاة والسلام، فهذا سليمان عليه السلام، آتاه الله مُلكا لا ينبغي لأحد من بعده، يقول له الهدهد على صغره وضعفه: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل:22]، فما كان منهﷺإلاّ أن قال: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[النمل:27]، فسارع للتثبت من نقله دون أن ينكر عليه ادعاءه علم ما لم يعلمه، وفي هذا درس لكل شخص مهما بلغ علمه، أن يتواضع ويَقبل من غيره إن كان محقا، وفي هذا الصدد يقول ابن باديس: «قد سمع سليمان هذا الهدهد وأقره عليه، فللصغير أن يقول للكبير، وللحقير أن يقول للجليل: علمت ما لم تعلم، وعندي ما ليس عندك، إذا كان من ذلك على يقين وكان لقصد صحيح، ومن أدب من قيل له ذلك ولو كان كبيراً جليلاً، أن يتقبل ذلك ولا يبادر برده، وعليه أن ينظر فيه ليعرف مقدار صدق قائله، فيقبله أو يرده بعد النظر والتأمل؛ إذ قد يكون في أصغر مخلوقات الله وأحقرها من يحيط علماً بما لم يحط مثل سليمانﷺ في علمه وحكمته، واتساع مدركاته، وكفى بمثل هذا زاجراً لكل ذي علم عن الإعجاب بعلمه، والاعتزاز بسعة اطلاعه، والترفع عن الاستفادة ممن دونه»(2).

وإذا تأمل العبد قصة الغراب الذي عَلَّمَ ابن آدم كيف يواري سوءة أخيه، أدرك أنّ العلم قد يأتيه ممن هو أقل منه، وهذا ما يحمله على ترك العجب والغرور والكبر، فإنها آفات تحول دون الهداية، وتحصيل العلم النّافع، قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:146]، عزا ابن كثير لابن عيينة، أنه قال: «أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي»، ثم نقل عن بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر(3)؛ لذا فإن علاج هذه الآفات إنما يتحقق بدواء التواضع، قال ابن باديس في معرض ذكره لقصة الهدهد مع سليمانﷺ: « وإذا كان الله تعالى قد بعث غرابًا ليتعلم منه ابن آدم كيف يواري سوءة أخيه، فكذلك ذكر لنا أمر هذا الهدهد الممتاز بين الهداهد

(1) ينظر: تفسير عبد الرزاق، عبد الرزاق الصنعاني، (2/ 458).

(2) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس، (ص:271).

(3) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (3/ 475).

لنقتدي به، تنبيهاً لنا على أخذ العلم من كل أحد، والاستفادة من كل مخلوق، والشعور دائماً بالنقص؛ للسلامة من شر أدواء الإنسان: العجب والكبر والغرور»[1].

وقد حذّر الله ﷻ الاستعلاء على عباده، فقال: ﴿ **وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [لقمان:18]، وكان ذلك حكاية عن لقمان وهو يعلم ابنه، فدلّ ذلك على ضرورة تواضع المعلم، باعتباره قدوة يُصدِّق فعله قوله، كما يدلّ على ضرورة تواضع المتعلم؛ إذ النصح موجّه له لئلا يكون أبا شبر، كما قال الشعبي: «العلم ثلاثة أشبار فمن نال منه شبرا شمخ بأنفه وظن أنه ناله، ومن نال الشبر الثاني صغرت إليه نفسه وعلم أنه لم ينله، وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد أبدا»[2].

وما أكثر ما أفسد هذا الصنف في هذا الزمن، فبمجرد أن يطالع كتابا أو يحضر مجلسا من مجالس العلم، إلاّ وتجده يتكلم في عزّة وأنفة محتقرا غيره، وكثيرا ما يتجرأ على خيار الأمة من أهل العلم فيطعن فيهم، حاله كالعقرب لا تلدغ إلا متحركا.

ومما يُظهر أهمية التواضع بالنسبة للمعلم والمتعلم، ما أورده ابن باديس في حكمة ختم القرآن بالمعوذتين، حيث قال: «إنّ من آفات العلم اغترار صاحبه به، وقد يتمادى به الغرور حتى يُسَوِّل له أن ما أوتيه من العلم كافٍ في وقايته من الأضرار، ونجاته من الأشرار، فكان من رحمة الله بصاحب القرآن، ولطف تأديبه له وحسن عنايته به، أن ختم بهاتين السورتين كتابه؛ لتكونا آخر ما يستوقف القارئ المتفقه، وينبهه إلى أن في العلم والحكمة مسألة لم يتعلمها إلى الآن، وهي: أنّه مهما امتد في العلم باعه، واشتد بالحكمة اطلاعه، فإنّه لا يستغني عن الله، ولا بدّ له من الالتجاء إليه، والاعتصام به، يستدفع به شر الأشرار، وحسد الحاسد، وكفى بهذه التربية قامعاً للغرور؛ وإنّه لشر الشرور»[3].

وقد جاء في السنة النبوية ما يبين عظم هذا الأدب الرفيع، فقد قام النبيﷺ خطيبا في أصحابه، وكان مما قاله لهم: «**وإن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**»[4]، وقد امتثل

---

(1) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس، (ص: 278).

(2) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن، دار مكتبة الحياة، د ط، 1986م، (ص: 73).

(3) المصدر السابق، (ص: 370).

(4) أخرجه مسلم، كتاب الجنة ونعيمهما وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم: 2865، (4/ 2198).

النبيﷺ هذا الأدب الرفيع، فكانت سيرته مُعرّفة به ـ أي بالتواضع ـ، فعن أنس بن مالكﷺ، قال: «**إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة، لتأخذ بيد رسول اللهﷺ فتنطلق به حيث شاءت**»(1).

ورغم أنّه قائد الأمة، وإليه ترجع شؤون الرعية، صغيرها وكبيرها، دقيقها وجليلها، وله مكانة عالية في قلوبهم، إلا أنّه كان يقول: «**لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إلي ذراع أو كراع لقبلت**»(2).

وعن أبي مسعودﷺ: « **أن رجلا كلم النبيﷺ يوم الفتح، فأخذته الرعدة، فقال النبي ﷺ**: «**هون عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد**»(3)، فالرجل هابه، لِمَا رآه من قوته، وإخلاص جنده له، وإحاطة النصر به، فهدأ النبيﷺ من روعه، معرفا أو مذكرا إيّاه، بنشأته البسيطة، ومن هنا يُعلم تأثير النشأة الأولى على أخلاق الإنسان؛ لذا ذكر بعض أهل العلم أن من حكم رعي الأنبياء للغنم في صغرهم، ترسيخ التواضع في نفوسهم، وطبعهم عليه باعتبارهم معلمين أقوامهم ما ينفعهم، قال أبو الوليد الباجي: « وقد قال بعض الناس: إن رعاية الأنبياء الغنم إنما كان على سبيل التعليم والتدريب في رعاية أممهم، ويحتمل أن يكون ذلك ليأخذوا بحظ من التواضع، ولعل هذا من الوجوه التي جعلت لأهل الغنم السكينة، ولذلك خص الأنبياء برعيها دون رعي سائر المواشي، والله أعلم»(4).

وبهذا يعلم أنّ التواضع من أفضل آداب العالم، وقد عقد ابن عبد البر في جامعه فصلا: «في مدح التواضع وذم العجب وطلب الرئاسة، وأن من أفضل آداب العالم تواضعه وترك الإعجاب لعلمه ونبذ حب الرئاسة عنه»(5).

هذه الصفات التي مرّت معنا في المطلب والأول والثاني لها صلة وثيقة بحسن خُلق الإنسان وجميل تعامله مع الخالق والخلق، وهي صفات ضرورية في الحياة العلمية، ويضاف إليها الصفات المظهرية التي ينبغي على المعلم والمتعلم الحرص عليها، وهذا ما سيأتي في المطلب الموالي.

(1) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الكبر، رقم: 6072، (8/ 20).

(2) أخرجه البخاري، كتاب الهبة، باب القليل من الهبة، رقم: 2568، (154/3).

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك، باب المغازي والسرايا، رقم: 4366، (3/ 50)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

(4) المنتقى شرح الموطأ، الباجي، (7/ 291).

(5) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، (1/ 562).

المطلب الثالث: الاعتناء بالهيئة وطريقة الجلوس

العناية بالمظهر وآداب المجالس مما ينبغي أنّ يهتم به المعلم والمتعلم، لما لهما من أثر في العملية التعليمية، وقد جاءت العديد من النصوص الشرعية في هذا السياق، ويأتي هذا المطلب ليبين ذلك من خلال ما يلي:

الفرع الأول: الاعتناء بالهيئة

ويدخل فيه الاهتمام بالنظافة والهندام وجمال المنظر، ولقد اعتنى الإسلام بذلك أيّما عناية، فمن أوائل ما نزل قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:4]، فقدّم ثيابك على فعل (طهّر)؛ للاهتمام به في الأمر بالتطهير[1]، وتأمل كيف أنّ الأمر بتطهير الثياب جاء عقب الأمر بالإنذار والدعوة إلى تعظيم الله جلّ وعلا وتوحيده في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر:1_3]، وهذا ما يبين بوضوح أنّ المنذر الذي يتولى مسؤولية التعليم، يتوجّب عليه أن يكون حسن الهيئة.

والملاحظ أنّ أوائل هذه السورة _ أي المدثر _ نزلت بعد الأمر بالقراءة في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:1_5]، فعُلم ممّا سبق أنّ العناية بهذا الأدب العظيم مطلب مهم للقارئ المتعلّم، وللمبلغ المعلّم، وبذلك تتحقق لهم محبة الله تعالى القائل في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:222].

ولأهمية هذا الأدب أمر الله جلّ ثناؤه بأخذ الزينة عند الذهاب إلى المساجد، حتى يقف الإنسان بين يدي الله تعالى على أحسن حال أثناء صلاته، دون أن نغفل تهيؤه لأخذ العلم أو تعليمه؛ إذ المسجد لا يقتصر دوره على الصلاة فحسب، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:31]، قال أبو حيان: «والزينة فعلة من التزين وهو اسم ما يتجمل به من ثياب وغيرها»[2].

وقد وصف الله ﷻ أهل المسجد بالطهارة، ويشمل ذلك الطهارة الحسيّة والمعنوية، فقال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:108]، فالله يحب أهل الطهارة، ويحب الجمال أيضا، يدل على ذلك حديث النبيﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال**»[3]؛ والجمال لفظ عام يدخل فيه الجميل من كل شيء[4]؛ لذا فالعناية به منهج قرآني ومسلك نبوي.

---

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (29/ 298).

(2) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، (5/ 40).

(3) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم: 91، (93/1).

(4) ينظر: الاستقامة، ابن تيمية، (1/ 422).

ومما يُبرز عناية القرآن الكريم بالمظهر والزينة ردّه على المتنطعين ممّن حرموا ما أحلّ الله ﷻ، حيث قال جلّ ثناؤه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:32]، وبهذه الآية استدلّ ابن عباس رضي الله عنه في ردّه على الخوارج إنكارهم عليه تجمّله بأحسن الثياب لما ذهب لنقاشهم، كما أنّه استند على فعل النبي ﷺ، حيث قال لهم: «**ما تعيبون علي، لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن الحلل ونزل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾...**»(1).

يلاحظ أنّ ابن عباس رضي الله عنه وهو في موضع المعلّم يرتدي أحسن الثياب، ويستدل على ذلك بالقرآن الكريم وفعل النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا ما يبين أنّه أدب قرآني كما مرّ بيانه، كما أنّه سلوك نبوي؛ حيث حفلت السنة بالأحاديث الدّالة على ذلك، فعن البراء رضي الله عنه قال: «**ما رأيت أجمل من رسول الله ﷺ مترجلا في حلة حمراء**»(2).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**كان أحب الثياب إلى النبي ﷺ أن يلبسها الحبرة**»(3)، «وهي ثياب كتان أو قطن يمنية محبرة، أي مزينة محسّنة»(4)، «وكانت أشرف الثياب عندهم»(5).

وعناية النبي ﷺ بهيئته لم تكن مقتصرة على الثياب فحسب، بل كان يهتم برائحته، فيتعطّر بأفضل العطور وأحسنها، قالت عائشة رضي الله عنها: «**كنت أطيب النبي ﷺ بأطيب ما يجد، حتى أجد وبيص الطيب في رأسه ولحيته**»(6).

وعن أنس رضي الله عنه، قال: «**ما شممت عنبرا قط، ولا مسكا، ولا شيئا أطيب من ريح رسول الله ﷺ**»(7).

---

(1) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، (2/ 527).

(2) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب اللباس، باب لبس الأحمر للرجال، رقم: 3599، (2/1190)، وصححه شعيب الأرنؤوط.

(3) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب البرود والحبرة والشملة، رقم: 5813، (7/ 147)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب فضل لباس ثياب الحبرة، رقم: 2079، (3/ 1648).

(4) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، ت: يحْيَى إِسْمَاعِيل، دار الوفاء، مصر، ط: 1، 1419 هـ - 1998م، (6/ 592).

(5) ينظر: شرح صحيح البخارى، ابن بطال، (9/ 99).

(6) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب الطيب في الرأس واللحية، رقم: 5923، (7/ 164).

(7) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم:3561، (4/ 189)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب طيب رائحة النبي ﷺ ولين مسه والتبرك بمسحه، رقم: 2330، (4/ 1814)، واللفظ له.

ولم يكن شمّ ريحه الطيب يقتصر على نسائه، بل كان أثره باديا لكل من مرّ عليه، حتى أنّ عائشة رضي الله عنها سُئلت: «**بأي شيء طيبت رسول اللهﷺ...؟ قالت: بأطيب الطيب**»(1).

وكان يصرّح بأن الطيب ممّا حُبّب إليه من أمور الدنيا، فعن أنسرضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**حُبّبَ إلي من الدنيا النساء والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة**» (2).

ولشدّة عنايته بالطيب فقد كره ردّه، فعن أبي هريرةرضي الله عنه أنّ النبيﷺ قال: «**من عُرض عليه ريحان فلا يرده، فإنه خفيف المحمل طيب الريح**»(3).

وَأَمَر النبيﷺ بضرورة التجهّز ليوم الجمعة، وهو يوم يتلقى فيه المصلون العلم، إضافة إلى أدائهم الصلاة، حيث قال: «**غسل يوم الجمعة على كل محتلم، وسواك، ويمسّ من الطيب ما قدر عليه**»(4).

وكان النبيﷺ ينهى عن إتيان المساجد برائحة كريهة، فعن جابر بن عبد اللهرضي الله عنه، أن النبيﷺ قال: «**من أكل ثوما أو بصلا، فليعتزلنا – أو قال: فليعتزل مسجدنا – وليقعد في بيته**»(5).

وكان النبيﷺ ينهى عن إهمال الهيئة وعدم الاعتناء بها، فعن جابر بن عبد اللهرضي الله عنه، قال: أتانا رسول اللهﷺ فرأى رجلا شعثا قد تفرّق شعره، فقال: «**أما كان هذا يجد ما يسكن به شعره؟**» ورأى رجلا آخر عليه ثياب وسخة فقال: «**أما كان هذا يجد ما يغسل به ثوبه؟**»(6).

وقد جاء في حديث عطاء بن يساررضي الله عنه: «**أنّ النبيﷺ كان في المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه رسول اللهﷺ بيده أن اخرج، كأنه يعني إصلاح شعر رأسه ولحيته، ففعل الرجل، ثم رجع، فقال رسول اللهﷺ**: «**أليس هذا خيرا من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان؟**»(7).

---

(1) أخرجه مسلم كتاب الحج، باب الطيب للمحرم عند الإحرام، رقم: 1189 (2/ 847).

(2) أخرجه النسائي، بَابُ حُبِّ النِّسَاءِ، رقم: 3939، (7/ 61)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم: 3124، (1/ 599).

(3) أخرجه مسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب استعمال المسك وأنه أطيب الطيب وكراهة رد الريحان والطيب، رقم: 2253، (4/ 1766).

(4) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب الطيب للجمعة، رقم: 880، (2/ 3)، ومسلم، كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة، رقم: 846، (2/ 581)، واللفظ له.

(5) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب ما جاء في الثوم الني والبصل والكراث، رقم: 855، (1/ 170)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا أو نحوها، رقم: 564، (1/ 394).

(6) أخرجه أبو داود، باب في غسل الثوب وفي الخلقان، رقم: 4062، (6/ 168)، وصححه شعيب الأرنؤوط.

(7) أخرجه مالك في الموطأ، باب إصلاح الشعر، رقم: 7، (2/949)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في إكرام الشعر وتدهينه وإصلاحه، رقم: 561، (ص: 229)، قال البيهقي: «هذا مرسل جيد».

فهذا الحديث يبين أنّ مجالس العبادة والعلم تحتاج نظاما خاصا، وعناية فائقة في أمر اللّباس والهيئة، ومما يؤكد ذلك ما روي عن أبي الأحوص، عن أبيه، قال: «**أتيت** النبيﷺ في ثوب دون، فقال: «**ألك مال؟**» قال: نعم، قال: «**من أي المال؟**» قال: قد آتاني الله من الإبل، والغنم، والخيل، والرقيق، قال: «**فإذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمة الله عليك، وكرامته**»[1].

مما ينبغي التنبيه إليه انطلاقا من الأحاديث السابقة، أنّ النبيﷺ استقبح إهمال تعديل الشعر، وترك الثياب متّسخة، فخرج سؤاله في ذلك مخرج الإنكار؛ لأن الأمر لا يتطلب سعّة ومالا، أمّا والد أبي الأحوص فقد لبس لبسا رثّا، فخرج سؤال النبيﷺ على سبيل الاستفهام؛ لأنه يُحتمل أن يكون الفقر سببا في ذلك، وهذا ما يبيّن مراعاة النبيﷺ لأحوال النّاس.

وقد بلغ من اهتمام النبيﷺ بأمر الهيئة أن أمر بتغير ثياب راع كان يلبس بردين رثّين كما روى جابرﷺ حيث قال: «وعندنا صاحب لنا نجهزه، يذهب يرعى ظهرنا، قال: فجهزته ثم أدبر يذهب في الظهر، وعليه بردان له قد خلقا، قال: فنظر رسول اللهﷺ إليه فقال: «**أما له ثوبان غير هذين؟**» فقلت: بلى يا رسول الله، له ثوبان في العَيْبَة[2] كسوته إياهما، قال: «**فادعه فمره فليلبسهما**»[3].

فإذا كان الراعي مأمورا بأن يعتني بلباسه، وهو بعيد عن أعين الناس لا يخالطهم ولا يرتاد مجالسهم، فكيف بالمعلم والمتعلّم وهما يرتادان أشرف المجالس؟

وقد يظن البعض أنّ العناية بالهندام وحسن المظهر من الكِبْر، وهو ما نفاه النبيﷺ فعن ابن مسعودﷺ أنّ النبيﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس**»[4].

وهذا الأدب الرفيع الذي اتصف به النبيﷺ، هو صفة لمعلمه جبريل‍عليه السلام؛ حيث إنّه جاء إلى النبيﷺ مرّة متمثّلا دور المعلم والمتعلّم في نفس الوقت، فكانت صفته كما جاء في الحديث أنّه: « **شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السّفر...**»[5]، فطلوعه بهذه الصفة يقوي معنى قولهم: حسن الأدب في

---

(1) أخرجه أبي داود، باب في غسل الثوب وفي الخلقان، رقم: 4063، (6/ 168)، والترمذي، باب ما جاء في الإحسان والعفو، رقم: 2006، (4/ 364)، وقال: «وهذا حديث حسن صحيح».

(2) العَيْبَة: المكان الذي يخبأ في أجود الثِّيَاب. ينظر: غريب الحديث، ابن الجوزي، (2/ 137).

(3) أخرجه مالك في الموطأ، باب ما جاء في لبس الثياب للجمال بها، رقم: 1، (910/2).

(4) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم: 91، (93/1).

(5)أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، رقم: 1، (1/ 37).

الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن؛ ولذا استحب التزين في الجمعة والعيد[1]، قال ابن رسلان: «وفيه دليل على استحباب تحسين الثياب وحسن الهيئة والنظافة؛ للدخول على العلماء والفضلاء والملوك، فإن جبريل أتى في صورة آدمي ليعلم الناس بكلامه ولبسه وهيئته»[2]. ومما يدخل في الهيئة العناية بالجلوس، وهذا ما سأبينه في العنصر الموالي.

الفرع الثاني: العناية بهيئة الجلوس

لمجالس العلم آداب ينبغي مراعاتها، ومن ذلك حسن جلوس المتعلم؛ إذ ينبغي عليه أن يعتدل في جلسته، وأن يدنو من معلمه، فذلك مظهر من مظاهر احترامه، وعلامة على حرصه وعنايته بالعلم، وممّا يبرز هذا الأدب ويجليه طريقة جلوس جبريلﷺ بين يدي النبيﷺ، فقد تمثل هيئة المتعلم، حيث جلس على ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه كهيئة الجلوس في الصلاة، وهو «أقرب إلى التواضع والأدب، وإيصال الركبة بالركبة أبلغ من الإصغاء، وأتم من حصول حضور القلب، وأكمل في الاستئناس، وألزم لمسارعة الجواب، ولأن الجلوس على هذه الهيئة يدل على شدة حاجة السائل، وإذا عرف المسئول حاجته، وحرصه اعتنى وبادر إليه... وهو المناسب لهيئة المتعلم بين يدي المعلم»[3].

وليس المقصود من الاعتدال في الجلوس أن تكون على نفس هيئة جبريلﷺ، وإنّما القصد أن يصاحبها التواضع والاحترام للغير، ثمّ لكل مجلس ظروفه.

وينبغي الابتعاد عن كل جلسة تسبب قلة التركيز، ومما يبين ذلك ما جاء في الحديث أنّ النبيﷺ: «**نهى عن الحُبْوة يومَ الجمعةِ والإمام يخطب**»[4]، وقد بيّن بعض العلماء العلة من هذا النهي ومن ذلك أنّ الاحتباء يجلب النوم، وهذا ما يُفقد المتعلم الاستماع للخطبة[5].

ومن الآداب التي ينبغي على المتعلم الحرص عليها في مجلس العلم أنّ لا يقيم أحدا من مكانه، وهذا ما بيّنه النبيﷺ في قوله: «**لا يقيمن أحدكم الرجل من مجلسه، ثم يجلس فيه**»[6].

---

(1) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان، (1/ 220).

(2) شرح سنن أبي داود، ابن رسلان، (18/ 239).

(3) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا علي القاري، (1/ 52).

(4) أخرجه أبو داود، باب الاحتباء والإمام يخطب، رقم: 1110، (2/ 327)، والترمذي، باب ما جاء في كراهية الاحتباء والإمام يخطب، رقم: 514، (2/ 390)، وقال: «وهذا حديث حسن».

(5) ينظر: معالم السنن، الخطابي، (1/ 248)، شرح سنن أبي داود، ابن رسلان، (5/ 614).

(6) أخرجه مسلم، كتاب السلام، باب تحريم إقامة الإنسان من موضعه المباح الذي سبق إليه، رقم: 27، (4/ 1714).

ولئن كان النهي عاما في كل مجلس، إلاّ أنّه جاء في رواية أخرى ما يبيّن هذا الأدب في مجالس العلم خاصة، فعن جابرﷺ أنّ النبي ﷺ قال: «**لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة، ثم ليخالف إلى مقعده، فيقعد فيه ولكن يقول افسحوا**»(1). والمقصود بيوم الجمعة مجلس انتظار الخطبة فهو المحلّ الذي يكون فيه الناس جلوسا، استعدادا لما يلقى إليهم من علم، ويشمل ذلك حلق العلم وقاعات الدرس والمحاضرات، لما يحصل فيها غالبا من التزاحم رجاء تحصيل العلم.

وقول النبيﷺ «**ولكن يقول افسحوا**»؛ أي توسعوا. وعلى الجالسين أن يتوسعوا لمن لم يجد مكانا، امتثالا لأمر اللهﷻ القائل في كتابه: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ** ﴾[المجادلة:11]، قال الطبري: «يعني بقوله: تفسَّحوا: توسعوا، من قولهم مكان فسيح إذا كان واسعًا»(2).

والعناية بطريقة الجلوس ليس خاصا بالمتعلم فحسب، بل إنّ المعلم مطالب بذلك أيضا، وعليه أن يتخذ مجلسا بارزا حتى يراه الطلاب؛ لأنّ رؤية المعلم لها دور فعّال في التلقي.

وبالرّجوع إلى السنّة النبوية نقف على بعض الأحاديث التي تبين أنّ النبيﷺ كان حريصا في بعض الحالات التي يُعلم فيها قومه أن يرتقي مكانا مرتفعا، ومما جاء في ذلك ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت: ﴿ **وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ** ﴾[الشعراء:214]، صعد النبيﷺ على الصفا، فجعل ينادي: «**يا بني فهر، يا بني عدي**» -لبطون قريش- حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟**» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد...**» (3).

فالحديث يدل أنّ النبيﷺ صعد الصفا وناداهم حتى يبلغهم صوته، وعن أبي هريرة، قال: « **كان النبيﷺ بارزا يوما للنّاس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله وتؤمن بالبعث». قال: ما الإسلام؟ قال: « الإسلام: أن تعبد الله، ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان» قال: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: متى الساعة؟ قال: « ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت**

(1) أخرجه مسلم، كتاب السلام، باب تحريم إقامة الإنسان من موضعه المباح الذي سبق إليه، رقم: 30، (4/ 1715).
(2) جامع البيان، الطبري، (23/ 243).
(3) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [الشعراء/ 215]، رقم: 4770، (6/ 111)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾، رقم: 205، (1/ 192).

الأمة ربها، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان، في خمس لا يعلمهن إلا الله » ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لقمان:34]، ثم أدبر فقال: «ردوه» فلم يروا شيئا، فقال: «هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم»[1].

فقوله: «كان النبي بارزا يوما للناس»؛ أي: ظاهرًا لهم غير محتجب عنهم ولا ملتبس بغيره، والبروز: الظهور، وقد وقع في رواية أبي فَرْوَةَ: «**كَانَ رسول الله ﷺ يجلس بين أصحابه، فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو، فطلبنا إليه أن نجعل له مجلسًا يعرفه الغريب إذا أتاه، قَالَ: فبنينا له دُكَانًا من طين كَانَ يجلس عليه**»[2]، واستنبط القرطبي منه: استحباب جلوس العالم بمكان يختص به، ويكون مرتفعا إذا احتاج لذلك لضرورة تعليم[3]، وقال عبد المحسن العباد: « وفي هذا دليلٌ على أنَّه ينبغي للمعلِّم أن يكون على مكان مرتفع لكي يُعرف وليراه الحاضرون جميعاً، لا سيما إذا كان الجمعُ كثيراً، فيتمكَّن الجميعُ من الاستفادة منه»[4].

ولأجل هذه الحِكَم اتخذ النبيﷺ المنبر، يدل على ذلك حديث أنس بن مالكﷺ، حيث قال: «**كان رسول اللهﷺ يخطب يوم الجمعة إلى جنب خشبة، مسندًا ظهره إليها، فلما كثر الناس، وقال: «ابنوا لي منبرًا»**[5]، قال العيني في بيان الفوائد المتعلقة بالحديث: «ومنها: أن فيه استحباب اتخاذ المنبر، وكون الخطيب على مرتفع كمنبر أو غيره»[6].

وقد ثبت أنّ النبيﷺ جلس على كرسي مرتفع، فعن أبي رفاعةﷺ، قال: «**انتهيت إلى النبيﷺ وهو يخطب، قال: فقلت: يا رسول الله، رجل غريب، جاء يسأل عن دينه، لا يدرى ما دينه. قال: فأقبل على**

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبيﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، رقم: (50)، (1/ 19).

(2) أخرجه أبو داود في سننه، باب في القدر، رقم: 4698، (4/ 225)، والنسائي، باب صفة الإيمان والإسلام، رقم: 4991، (8/ 101).

(3) فتح الباري، ابن حجر، (1/ 116) (بتصرف).

(4) شرح حديث جبريل في تعليم الدين، عبد المحسن العباد، ط: سفير، السعودية، ط:1، 1424هـ/2003م (ص: 14).

(5) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن الجذع الذي ذكرناه إنما سكن عن حنينه باحتضان المصطفىﷺ إياه، رقم: 6507، (14/ 436)، وحسنه شعيب الأرنؤوط.

(6) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني، (4/ 104).

رسول الله ﷺ، وترك خطبته حتى انتهى إلي، فأتي بكرسي، حسبت قوائمه حديدا. قال: فقعد عليه رسول الله ﷺ، وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى خطبته فأتم آخرها» [1].

قال القاضي عياض: «ومن فوائد الحديث أن النبي ﷺ دنا من المذكور ونزل عن المنبر، وترك القيام عليه، وجلس إليه ليقرب منه ويسائله عن دينه، ويتمكن من مباحثته عنه، وارتفع على الكرسي ليسمع كلامه غيره ويشاهدوا محاورته إيَّاه» [2].

وصفوة القول أنّ من الآداب المشتركة بين المعلم والمتعلم، الإخلاص لله تعالى، فهو شرط أساس لقبول جميع العبادات، ومنها العلم، كما يشترط على المعلم والمتعلم العمل بالعلم، فهو ثمرة من ثمرات الإخلاص؛ لذا قرن الله جلّ وعلا بينهما في القرآن، فلا يكاد يذكر الإيمان إلاّ وقرن معه العمل الصالح.

والعلم طريق شاق لا يُنال إلاّ بالصبر والمجاهدة والجلد في طلبه وتبليغه. وعلى من سلك طريق العلم أن يتسلّح بالتواضع، وهو أدب رفيع لا غنى عنه، وقد جاء تأكيد القرآن الكريم والسنة عليه، والتحذير من نقيضه.

ومن الآداب المهمة؛ العناية بالمظهر، ويدخل فيه الاهتمام بالنظافة والهندام وجمال المنظر. كما ينبغي الاهتمام بطريقة الجلوس.

هذه بعض الآداب المشتركة بين المعلم والمتعلم، ولكل واحد منهما آداب استقل بها أو غلب حقه فيها على غيره، وفي المبحث الموالي سأورد بعضا من آداب المعلم.

(1) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، باب حديث التعليم في الخطبة، رقم: 876، (2/ 597).

(2) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، (3/ 281).

المبحث الثاني: آداب المُعلم في القرآن والسنة

تناولت في المبحث السابق الآداب المشتركة بين المعلم والمتعلم، كالإخلاص والعمل بالعلم والصبر والتواضع والعناية بالهيئة وطريقة الجلوس، وسأتطرق في هذا المبحث لذكر أهم الآداب التي ينبغي على المعلم أن يحرص عليها لتؤتي العملية التعليمية أكلها، وتكلّل جهوده بالنّجاح، وسأعرضها في عدّة مطالب على النحو الآتي:

المطلب الأول: الاستزادة من العلم وعدم كتمانه

من أهم الآداب التي ينبغي على المعلم أن يحرص عليها، الاستزادة من العلم، ومعنى ذلك عدم التوقف عن طلبه، كما يجب عليه العناية بنشره، دون الاستئثار به، وقد دلّت نصوص الكتاب والسنة على هذا، وفيما يلي بيانه.

الفرع الأول: الاستزادة من العلم

العلم بحر لا ساحل له، ومن ظن أنّه بلغ منتهاه فقد جهل، وقد بيّن الله ﷻ في كتابه أنّ علم البشر محدود، فقال جلّ ثناؤه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء:85]، «أي مما تناله مشاعركم وتصل إليه فطنكم. وما هو في جنب معلومات لا تحصى، إلا كالقطرة من البحر والذرة من الكثيب» (1).

«والمراد بالعلم هنا المعلوم، أي ما شأنه أن يعلم أو من معلومات الله. ووصفه بالقليل بالنسبة إلى ما من شأنه أن يعلم من الموجودات والحقائق. وفي جامع الترمذي قالوا _أي اليهود_: «أوتينا علما كثيرا، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيرا، فأنزلت: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف: 109]» (2).

وأوضح من هذا ما رواه الطبري عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار يهود فقالوا: يا محمد ألم يبلغنا أنك تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أفعنيتنا أم قومك؟ قال: «**كلا قد عنيت**». قالوا: فإنك تتلو أنا أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء.

---

(1) محاسن التأويل، القاسمي، (6/ 510).

(2) أخرجه أحمد في مسنده، رقم: 2309، (3/ 56)، والترمذي في سننه، باب: ومن سورة بني إسرائيل، رقم: 3140، (5/ 304)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

فقال رسول الله: «هي في علم الله قليل، وقد آتاكم ما إن عملتم به انتفعتم. فأنزل الله ﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ ﴾[لقمان: 27]»[1].

وانطلاقا مما سبق يُعلم أنّ العجب بكثرة المعلومات خلق من أخلاق اليهود، والمؤمن مطالب أن يخالفهم، وقد جاءت النصوص الشرعية تبين ضرورة الاستزادة من العلم، وممّا يبرز ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق:1]، «ففيها من الدّلالات والمعاني ما لا يمكن حصرُه، ويُفهم من قوله: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ وهو فعل أمر من (قَرَأَ) الأمر الجازم الحازم بالقراءة، والحث على تعلمها وتعليمها، وفي هذه اللفتة غَناء عن كلام كثير في هذا الموضوع»[2]؛ إذ إن الأمر غير محدّد بوقت أو حالة، بل يفيد الاستمرار.

ولأهمية الاستزادة من العلم أُمر بذلك النبيﷺ، وهو أعلم الخلق، قال جلّ ثناؤه: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾[114]، قال القرطبي: «فلو كان شي أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيهﷺ أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم»[3].

وقد امتثل النبيﷺ أمر ربّه، «قال ابن عيينة، رحمه الله: ولم يزلﷺ في زيادة حتى توفاه الله عز وجل»[4]، فقد كان يدعو قائلا: «**اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علما، والحمد لله على كل حال**»[5].

قال ابن باديس في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾[114]: «يتعلم الإنسان حتى يصير عالماً ويصير معلماً، ولكنه مهما حاز من العلم وبلغ من درجة فيه، ومهما قضى من حياته في التعليم وتوسع فيه وتكمّل، فلن يزال بحاجة إلى العلم، ولن تزال أمامه فيما علمه أشياء مجهولة يحتاج إليها، فعليه أبداً أن يتعلم

---

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (15/ 198). والحديث أخرجه الطبري في تفسيره، (17/ 545)، ولم أقف عليه عند غيره.

(2) المشوق إلى القراءة وطلب العلم، علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد_ السعودية، ط:2، 1422 هـ، (ص: 15).

(3) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (4: 41).

(4)تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (5/ 319).

(5) أخرجه ابن ماجة في سننه، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم: 251، (1/ 92)، والترمذي، رقم: 3599 (5/ 578)، قال الألباني: «صحيح دون قوله: "والحمد لله..."»، ضعيف سنن الترمذي، رقم: 728، (ص: 476).

وأن يطلب المزيد، ولذا أمر الله نبيهﷺ وهو المعلم الأعظم- أن يطلب من الله- وهو الذي علمه ما لم يكن يعلم- أن يزيده علماً فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[114]» (1).

ومما يظهر ضرورة عناية المعلم بالاستزادة من العلم قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، فمع أنّ موسى‍عليه السلام كليم الله‍تعالى، إلاّ أنّه ركب البحر حين أدرك أنّ الخضر‍عليه السلام قد اختصه الله‍تعالى بالعلم اللدني، وذلك طلبا للاستفادة منه، نقل الماوردي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: «لو كان أحدٌ يكتفي من العلم لاكتفى منه موسى لما قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف:66]»(2).

وقد أورد النبيﷺ سعي موسى‍عليه السلام في تحصيل العلم، حيث قال: «**بينما موسى في ملإ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلم أحدا أعلم منك؟ قال موسى: لا، فأوحى الله عز وجل إلى موسى: بلى، عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إليه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، وكان يتبع أثر الحوت في البحر، فقال لموسى فتاه:** ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾[الكهف:63]، **قال:** ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[الكهف:64]، **فوجدا خضرا، فكان من شأنهما الذي قص الله عز وجل في كتابه**»(3).

قال أبو العباس القرطبي تعليقا على هذا الحديث: «وفيه من الفقه: رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم، والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء، والعلماء، وإن بعدت أقطارهم، وذلك كان دأب السلف الصالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحصلوا على السعي الناجح، فرسخت في العلوم لهم أقدام، وصح لهم من الذكر والأجر أفضل الأقسام»(4).

وقد ضرب السلف أروع الأمثلة في تحصيل العلم وطلب الاستزادة منه كما أشار إليه القرطبي في كلامه السابق، فهذا عبد الله بن مسعودرضي الله عنه كان إذا تلى قولَه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[114]، قال: « اللهم زِدْني عِلْمًا وإيمانًا ويقينًا»(5).

---

(1) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس، (ص: 344).

(2) أدب الدنيا والدين، الماوردي، (ص: 74).

(3) سبق تخريجه. (ينظر: 281).

(4) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، (6/ 196)

(5) أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد كما في الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، (5/ 602).

وبسبب حرصه على الاستزادة منه فقد بلغ ﷺ إلى درجة مكّنته من معرفة أدق التفاصيل المتعلّقة بنزول آي القرآن، حيث صرّح من باب التحدّث بنعمة الله عليه، والحثّ على الاستفادة منه قائلا: «والله الذي لا إله غيره، ما أُنزلت سورةٌ من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آيةٌ من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أُنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلمَ مني بكتاب الله تبلُغُه الإبل لركبتُ إليه»(1).

ولما سُئِل الإمام أحمد: إلى متى تطلب العلم؟ قال: من المحبرة إلى المقبرة، وقد نقل عن الطبري عنايته بالاستزادة من العلم حتى حال احتضاره؛ حيث ذُكر له دعاء عن جعفر بن محمد فاستدعى محبرة وصحيفةً فكتبه، فقيل له: أفي هذه الحال؟! فقال: ينبغي للإنسان أن لا يدع اقتباس العلمِ حتى يموت. وتوفي بعدها بساعة أو أقلّ منها(2).

وبهذا يتضح أثر هذا الأدب الرفيع الذي ينبغي على المعلم الحرص عليه مهما بلغ من الدرجات، وعليه أنّ يؤدي زكاة ما تعلمه بالعمل به ونشره، فأما العمل بالعلم فقد مرّ معنا، وأما نشر العلم وعدم كتمانه فسيأتي في العنصر الموالي.

الفرع الثاني: نشر العلم وعدم كتمانه

من الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المعلم؛ عدم كتمان العلم، إذ يجب عليه نشره ونفع النّاس به، وقد وصف الله عز وجل من يبذل ذلك لوجه الله بالرباني، فقال: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 79]، فالرباني هو كل من جمع إلى العلم نفع النّاس، وعلى رأس هؤلاء العلماء، قال الطبري: «و"الربّاني" هو المنسوب إلى من كان بالصفة التي وصفتُ، وكان العالم بالفقه والحكمة من المصلحين، يَرُبّ أمورَ الناس، بتعليمه إياهم الخيرَ، ودعائهم إلى ما فيه مصلحتهم، وكان كذلك الحكيمُ التقيُّ لله، والوالي الذي يلي أمور الناس على المنهاج الذي وَليه المقسطون من المصْلحين أمورَ الخلق، بالقيام فيهم بما فيه صلاحُ عاجلهم وآجلهم، وعائدةُ النفع عليهم في دينهم، ودنياهم، كانوا جميعًا يستحقون أن يكونوا ممن دَخل في قوله عز وجل: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾»(3).

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، رقم: 5002، (6/ 187)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما، رقم 2463، (4/ 1913).

(2) ينظر: الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، أبو الفرج ابن طرار، ت: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط:1، 1426 هـ - 2005 م، (ص: 527).

(3) جامع البيان، الطبري، (6/ 544).

فتأمل كيف جعل اللهﷻ هذا الوصف مربوطا بما اتصف به هؤلاء من تعليم الكتاب ومدارسته.

وجاء في آية أخرى الأمر بتفريغ طائفة لتلقي العلم وتبليغه، فقال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾[التوبة:122]، قال السعدي: «ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصا الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علما، فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم، من بركته وأجره، الذي ينمى له، وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون، فأي منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علما ومنحه فهمًا»(1).

وبهذا يُعلم أنّ تبليغ العلم من أعظم القربات، وقد جاء في السنة النبوية ما يؤكد ذلك، ففي الحديث: «**نضّر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه، فربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه**»(2).

وبيّن النبيﷺ أنّ الخيرية منوطة بتعليم القرآن الكريم، فقال: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»(3)، ويدخل في ذلك كل من بذل علما نافعا؛ إذ يعتبر من أهم دعائم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد جاء التصريح في القرآن أنّ خيرية الأمة منوطة به وبالإيمان باللهﷻ، فقال تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ** ﴾ [آل عمران:110].

وفي المقابل فإن كتم العلم سبب لضياع شعيرة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وهو علامة واضحة على طغيان حب الدنيا والميل إلى الماديات، وهذا ما حدث لعلماء بني إسرائيل فاستحقوا بذلك اللّعن والعذاب الأليم، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ** ﴾[البقرة:159]، وقال أيضا: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ**

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 355).

(2) أخرجه ابن ماجه، باب من بلغ علما، رقم: 230 ،(1/ 84)، وأبو داود في سننه، باب فضل نشر العلم، رقم: 3660، (3/ 322)، والترمذي، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، رقم: 2656، (5/ 34)، وقال: «حديث زيد بن ثابت حديث حسن».

(3) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه، رقم: 5027، (6/ 192).

ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[البقرة:174].

وجاء في السنة النبوية بيان خطورة كتم العلم، فعن أبي هريرةﷺ أن رسول اللهﷺ قال: «**من سُئل عن علم فكتمه، ألجمه الله عز وجل بلجام من نار**»[1].

وقد كان معلم البشرية الخيرﷺ لا يتوانى في تبليغ ما علّمه الله جلّ ثناؤه، ممتثلا بذلك أمرهﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة:67]، فلم يكتم من دين الله شيء، قال تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ [التكوير:24]، قال بعض أهل التفسير: «لم يكن يضن بشيء علمه الله تعالى عن أحد من أصحابه كما يفعله غيره من العلماء؛ لأن العلماء لا يريدون أن يعلموا من اختلف إليهم كل ما عندهم من العلوم حتى يُستغنى عنهم، ورسول اللهﷺ، كان يود أن يعلم جميع ما علم من العلوم أصحابه؛ فكان يقوم على تعليم كل منهم بقدر طاقته، ولم يكن يمتنع عن التعليم بُخلا منه وضنًّا»[2].

وقد شهد على حرص النبيﷺ تعليم النّاس حتى الأعداء؛ حيث قال أحد المشركين لسلمانﷺ:« قد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء»[3]، وهذا ما يبرز ضرورة تبليغ العلم ونشره، وذلك من رحمة المعلم بغيره، حتى يكون سببا في نجاته، وجوانب الرحمة كثيرة وهي من الآداب المهمة التي لا غنى عنها في العملية التعليمية، وهذا ما سيتضح في المطلب الموالي.

المطلب الثاني: الرحمة بالمتعلمين ومراعاة واقعهم

يُشترط في المعلم أن يتصف بالرّفق والرّحمة؛ فيكون ليّن الجانب، يأخذ بالأسهل ويتعامل بالعدل من غير ظلم ولا شطط، ويراعي واقع طلابه، ويأتي هذا المطلب لبيان ذلك من خلال فرعين:

الفرع الأول: الرحمة والرفق بالمتعلم

قد أكّد القرآن على خلق الرّحمة في معلّم البشريّة الخير، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:128]،

---

(1) أخرجه ابن ماجه، باب من سئل عن علم فكتمه، رقم: 264، (1/ 97)، وأبو داود، باب كراهية منع العلم، رقم: 3658، (3/ 321)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم: 6284، (2/ 1077).

(2) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، (10/ 438).

(3) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم: 262، (1/ 223).

وضد الرّفق والرّحمة؛ العنف والغلظة، والنّفس البشريّة بطبعها تميل إلى لين الجانب وتأنس بكريم المعاملة، وفي المقابل فهي تنفر من الفظاظة والشدّة؛ لذا أكّد الله ﷻ خلق الرّحمة في نبيه ﷺ، ونزّهه من نقيضها فقال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[آل عمران:159].

والمتأمل للآيات القرآنية التي أوردت جوانب من دعوة الرّسل عليهم السلام لأقوامهم، يتضح له هذا الأدب الرّفيع في تعليمهم ونصحهم وتوجيههم، ومن أمثلة ذلك ما ذكره الله جلّ ثناؤه عن نوح عليه السلام، حيث قال: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[الأعراف:59]، فقوله: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يبيّن هذا الأدب الرّفيع. قال السعدي: «وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام وشفقته عليهم، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي، والشقاء السرمدي، كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم»(1).

ومما يُظهر شفقة ورحمة إخوانه من المرسلين، ما ذكره الله ﷻ من صفة إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾[هود:75]، قال الزمخشري: «ومعنى حليم؛ أي غير عجول على كل من أساء إليه، أَوَّاهٌ كثير التأوّه من الذنوب، مُنِيبٌ تائب راجع إلى الله بما يحب ويرضى، وهذه الصفات دالة على **رقة القلب والرأفة والرحمة**»(2)، وعزا الطبري لبعض السلف أنّ (أوّه)؛ معناه: **الرحيم** بلغة الحبشة(3).

ورِفْقُ المعلم لابدَّ أن يشمل الموافق والمخالف على حدٍّ سواء، بل إنّه يتسع ليشمل أقصى درجات المخالفة؛ والتي تتجلى في دعوى الربوبية، فقد أمر الله موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يرفقا في دعوتهما مع فرعون الذي قال: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات:24]، ومع ذلك قال الله تعالى لهما: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿43﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: 43_ 44]، قال ابن عباس: «لا تعنّفا في قولكما ولا تغلّظا»(4).

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 293).
(2) الكشاف، الزمخشري، (2/ 412).
(3) ينظر: جامع البيان، الطبري، (14/ 527).
(4) ينظر: الكشف والبيان، الثعلبي، (6/ 245)

وقد تجلّى أدب الرفق والرحمة في هدي النبيﷺ، فقد كان يحثّ عليه ويبين آثاره، ومن ذلك قوله: «**إن الله عز وجل يحب الرّفق في الأمر كله**»(1)، قال النووي: « فيه الحثّ على الرفق والصبر والحلم وملاطفة الناس ما لم تدع حاجة إلى المخاشنة»(2). وجاء في حديث آخر أنّ النبيﷺ قال: «**إنّ الرّفق لا يكون في شيء إلاّ زانه، ولا ينزع من شيء إلاّ شانه**»(3).

فهذان الحديثان يؤكدان أنّ الرحمة والرفق والشفقة بالمتعلم معيار مهم لنجاح المعلم في أداء مهمته؛ لذا كان النبيﷺ يوصي من انتدبهم لدعوة النّاس وتعليمهم بهذه الآداب، فحين بعث معاذا وأبا موسى رضي الله عنهما إلى اليمن قال: «**يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا**»(4).

ومن أبلغ صور الرحمة أن يعامل المعلم تلاميذه كما يعامل الأب أولاده، وهذا ما امتثله أفضل معلم عليه الصلاة والسلام؛ فعن أبي هريرةﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: «**إنما أنا لكم مثل الوالد لولده، أعلمكم...**»(5)؛ «أي في العطف والشفقة، وتعليم ما لا بُدَّ للولد منه، وبه تمام التربية»(6).

ولقد تجلّت معالم الرّحمة والرّفق في أفعالهﷺ قبل أقواله، ويظهر ذلك من خلال نماذج كثيرة، منها أنّه كان ينتقي أحسن الكلمات حال دعوته وتعليمه، ممتثلا بذلك أمر ربه القائل: ﴿ **ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ** ﴾ [النحل:125].

ومن تمام رحمته وشفقتهﷺ بالمتعلم؛ أنّه يضع كفّه على كفّه أثناء تعليمه، فعن عبد الله بن مسعودﷺ، قال: «**علمني رسول اللهﷺ التشهد، كفي بين كفيه، كما يعلمني السورة من القرآن...**»(7).

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم: 6024، (8/ 12)، ومسلم، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم، رقم: 2165، (4/ 1706).

(2) ينظر: الكشف والبيان، الثعلبي، (6/ 245)

(3) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، رقم: 2594، (4/ 2004).

(4) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه، رقم: (3038)، (4/ 65)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير، وترك التنفير، رقم: (1733)، (3/ 1359).

(5) أخرجه ابن ماجه، باب الاستنجاء بالحجارة، والنهي عن الروث والرمة، رقم: 313، (1/ 114)، وأبو داود، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة، رقم: 8، (1/ 3)، والنسائي، باب النهي عن الاستطابة بالروث، رقم: 40، (1/ 38)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم: 2346، (1/ 463).

(6) شرح مسند الشافعي، عبد الكريم القزويني، ت: أبو بكر زهران، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية إدارة الشؤون الإسلامية، قطر، ط:1، (1/ 145).

(7) أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب الأخذ باليدين، رقم: 6265، (8/ 59).

قال الفاكهاني: «فيه دليل على مس المعلم بعض أعضاء المتعلم عند التعليم؛ **تأنيسا**، وتنبيها»[1].

ومن جوانب رحمتهﷺ ورفقه بالمتعلم؛ مراعاته أثناء وقوعه في الخطأ، فالمتعلم عرضة لذلك؛ لذا ينبغي العناية بطريقة توجيهه وتقويمه، ممّا يضمن البناء لا الهدم، والمتأمل في سيرتهﷺ يقف على نماذج كثيرة تبين المنهج الأقوم الذي ينبغي للمعلم اتباعه، ومن ذلك: ما رواه أنس ﷺ: « أنّ أعرابيا بال في المسجد، فقاموا إليه، فقال رسول اللهﷺ: «**لا تزرموه**»[2]، **ثم دعا بدلو من ماء فصبّ عليه**» ثم إنّ رسول اللهﷺ دعاه فقال له: «**إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر إنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة وقراءة القرآن**»[3]، قال ابن حجر معلقا على هذا الحديث: «**وفيه الرّفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف** إذا لم يكن ذلك منه عناداً، ولا سيما إن كان ممن يحتاج إلى استئلافه، وفيه رأفة النبيﷺ وحسن خلقه »[4].

وعن معاوية بن الحكم السلميﷺ قال: «بينا أنا أصلي مع رسول اللهﷺ، إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه، ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى رسول اللهﷺ ، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله، ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**»[5]، قال النووي في شرحه لهذا الحديث: « فيه بيان ما كان عليه رسول اللهﷺ من عظيم الخلق الذي شهد الله تعالى له به، ورفقه بالجاهل، ورأفته بأمته وشفقته عليهم، وفيه التخلق بخلقه ﷺ في الرّفق بالجاهل، وحسن تعليمه واللطف به، وتقريب الصواب إلى فهمه»[6].

وقد سبق القاضي عياض إلى التنبيه على هذا الأدب الرّفيع الذي ينبغي أن يتحلى به المعلّم وهو يشرح الحديث السابق، غير أنّه أضاف ضابطا مهمّا حيث قال: « فيه سيرة رسول اللهﷺ في التعليم، من الرفق بالجاهل

---

(1) رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام، تاج الدين الفاكهاني، ت: نور الدين طالب، دار النوادر، سوريا، ط:1، 1431 هـ - 2010 م، (2/ 488).

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم: (6025)، (8/ 12)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، وأن الأرض تطهر بالماء، من غير حاجة إلى حفرها، رقم: (285)، (1/ 236).

(4) فتح الباري، ابن حجر، (1/ 325).

(5) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم: 537، (1/ 381).

(6) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، (5/ 20).

وترك الغضب عليه إذا لم يقصد مخالفة»[1]، فقوله: «إن لم يقصد مخالفة»، يبين أنّه إذا تقصد ذلك شرع حينها الغضب والتشديد عليه على قدر الحاجة، وبحسب المصلحة المترتبة على ذلك، وهذا ما ذكره ابن الجوزي أيضا عند تطرقه لهذا الحديث، حيث قال: « وهذا يُعلِّم المؤدبين كيف يؤدبون، فإنّ اللّطف بالجاهل قبل التعليم أنفع له من التعنف، ثم لا وجه للتعنف لمن لا يعلم؛ إنما يُعنَّف من خالف مع العلم»[2].

وممّا يؤكد أنّ من قصد المخالفة استحق التشديد، ما جاء في بعض روايات حديث معاوية السابق، حيث قال في تمامه: «**وكانت** لي جارية ترعى غنماً لي قبل أحد وَالْجَوَّانِيَّةِ، فاطلعت ذات يوم فإذا الذيب قد ذهبت بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون، لكني صككتها صَكَّةً، فأتيت رسول اللهﷺ فَعَظَّمَ ذلك علي، قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ **قال**: «**ائتني بها**»، فأتيته بها، فقال لها: «**أين الله؟**» قالت: في السماء، قال: «**من أنا؟**» قالت: أنت رسول الله، قال «**أعتقها فإنها مؤمنة**»[3].

فتأمل كيف عامل الرسولﷺ معاوية في كلا الموقفين؛ ففي الأول: لم يعنّفه؛ لأنّه كان جاهلاً، أما في الموقف الثاني: فقد استعظم النبيﷺ ضرب معاوية للجارية، ويُفهم هذا من قوله: «فَعَظَّمَ ذلك علي»؛ لأنّ معاوية لم يعد جاهلاً حيث أمضى فترة في الإسلام، وهذا الصنيع ليس من الأمور التي تجهل في الغالب؛ إذ الرّفق والإحسان إلى الناس من الأمور المركوزة في الفطر وليست من باب العلم المكتسب، ويُلاحظ أيضا أنّ غضب النبيﷺ من فعل معاويةﷺ إنّما هو سبب منافاته لخلق الرّحمة والرّفق، وهذا ما يبين حرص النبيﷺ على هذا الأدب الرّفيع.

وممّا يؤكد ذلك أيضا ما رواه أبو مسعودﷺ، قال: «**أتى** رَجل النبيَّﷺ، فقال: إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا، قال: فما رأيت رسول اللهﷺ قطّ أشد غضبا في موعظة منه يومئذ، قال: فقال: «**يا أيها الناس، إنّ منكم منفرين، فأيّكم ما صلى بالنّاس، فليتجوز، فإنّ فيهم المريض والكبير، وذا الحاجة**»[4].

(1) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، (2/ 462).

(2) كشف المشكل من حديث الصحيحين، عبد الرحمن بن الجوزي، ت: علي حسين البواب، دار الوطن – الرياض، د ت ط، (4/ 233).

(3) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، رقم: 537، (381/1).

(4) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتعليم، إذا رأى ما يكره، رقم: 90، (1/ 30)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، رقم: 466، (1/ 340).

قال ابن بطال: «فيه من الفقه جواز الغضب للإمام والعالم في التعليم والموعظة إذا رأى منكرا يجب تغييره»[1].

يتضح من الأحاديث السابقة أنّ غضب المعلم لوقوع المتعلم في أمر مقصود لا يتنافى مع الرّحمة، بل هو من صميمها خاصة إذا كان مراعاة لحقوق الآخرين، شريطة أن لا يخرج ذلك عن حدوده، وأن لا يجرّ إلى منكر أعظم.

وأختم حديثي حول هذا الأدب بموقف النبيﷺ من الثلاثة الذين خُلّفوا عن غزوة تبوك، حيث انصرف عنهم لا يكلّمهم ولا يصاحبهم، حتى أنزل الله توبته عليهم، فأظهر النبيﷺ لذلك فرحا يدلّ أنّ غضبه كان في صالحهم، وأنّه لا يخرج عن رحمتهم قيد أنملة، قال كعبرضي الله عنه: « **فلما سلمت على رسول اللهﷺ قال: وهو يبرق وجهه من السرور ويقول** «**أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**»[2]، قال ابن القيم: «وفي سرور رسول اللهﷺ بذلك وفرحه به واستنارة وجهه دليل على ما جعل الله فيه من كمال الشفقة على الأمة والرحمة بهم والرأفة، حتى لعل فرحه كان أعظم من فرح كعب وصاحبيه»[3].

ولشدة تأثير خلق الرحمة في نفس المتعلم فقد بقي هذا الموقف راسخا في ذهن كعبرضي الله عنه، فنقله بوصف بليغ يدل على عظم تأثره بمعاملة النبيﷺ له، فكذلك الشأن بالنسبة للمتعلم مع معلمه؛ إذ الرحمة والمعاملة الحسنة تطبع آثارا طيبة في نفسيته، ويبقى أثرها على المدى البعيد.

الفرع الثاني: مراعاة حال المتعلم

من الجوانب التي لها صلة بالرّحمة والرّفق بالمتعلّم، كما تُبَيِّن فقه المعلم؛ إدراك الواقع والحالات التي تؤثر على الطالب، سواءً من النّاحية النفسية، أو المادية، أو الاستعدادات الذهنية، وقد ضرب النبيﷺ أروع الأمثلة في هذا الجانب.

فمن حيث **مراعاته للحالة النّفسية للمتعلِّم**، أُمثل بما رواه مالك بن الحويرثرضي الله عنه قال: «أتينا رسول اللهﷺ ونحن شببة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رسول اللهﷺ رحيما رقيقا، فظن أنا قد اشتقنا أهلنا، فسألنا

(1) شرح صحيح البخارى، ابن بطال، (9/ 293).

(2) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، وقول الله عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة/ 118]، رقم: 4418، (6/ 6)، ومسلم، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم: 2769، (4/ 2127).

(3) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، (3/ 512).

عن من تركنا من أهلنا، فأخبرناه، فقال: «**ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم وعلّموهم، ومروهم فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم، ثم ليؤمكم أكبركم**»(1).

يدل هذا الموقف على رقّة النبيﷺ لحالهم حين رأى اشتياقهم لأهلهم، فراعى الجانب النّفسي؛ إذ إنّ إغفاله قد يحول دون تحقيق الأهداف المقصودة؛ فذهن الطالب إذا كان مشتتا فقد التركيز، ألا ترى أنّ النبيﷺ نهى عن الصلاة بحضرة الطعام(2)، حتى لا ينشغل المصلي بما هو أدنى عما هو خير.

إضافة إلى ذلك، فإنّ النبيﷺ سأل عمن خلّفوه وراءهم من أهليهم، وفي هذا إيماء أنّ درجة الصبر على البُعْد تختلف بحسب قرب الشخص إلى الإنسان، كما أنّ الحديث يشير إلى دور الأسرة في العملية التعليمية؛ إذ هي الحاضنة الأولى لتربية النشء، ومن هنا تظهر عناية القرآن والسنة بها؛ لتكون منبتا صالحا لإعداد الأجيال وصناعة الرّجال.

وإذا أمعنّا النظر في الصحابة الكرام الذين برزوا في العلم، نجد أنّ النبيﷺ كان يخصّهم بمزيد عناية لما رأى من استعداداتهم، إذ يراعي واقعهم وحالهم، فهذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أفقه النساء وأعلمهن، دخل بها النبيﷺ وهي بنت تسع سنين(3)، فكان يراعي سنّها وحالاتها النفسية، كانت جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الدَاجِن(4) فتأكله(5).

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، والإقامة، وكذلك بعرفة وجمع، وقول المؤذن: الصلاة في الرحال، في الليلة الباردة أو المطيرة، رقم: 631، (1/ 128)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامة، رقم:674، (1/ 465)، واللفظ له.

(2) يدل على ذلك قولهﷺ: «**لا صلاة بحضرة الطعام، ولا هو يدافعه الأخبثان**». أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال وكراهة الصلاة مع مدافعة الأخبثين، رقم: 560، (1/ 393).

(3) يدل على ذلك قولها رضي الله عنها: «تزوجني رسول اللهﷺ لست سنين، وبنى بي وأنا بنت تسع سنين». أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبيﷺ عائشة، وقدومها المدينة، وبنائه بها، رقم: 3894، (5/ 55)، ومسلم، كتاب النكاح، باب تزويج الأب البكر الصغيرة، رقم: 1422، (2/ 1038).

(4) الداجن: الشاة المقيمة في البيت، ويقال على الحمام أيضًا، ودجن: إذا أقام. ينظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، (7/ 371).

(5) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب إذا عدل رجل أحدا فقال: لا نعلم إلا خيرا، أو قال: ما علمت إلا خيرا، رقم: 2637، (3/ 168)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم: 2770، (4/ 2129).

ولصغر سنّها رضي الله عنها كانت تميل إلى اللعب، يدل على ذلك قولها: «**كنت** ألعب بالبنات[1] عند النبيﷺ، وكان لي صواحب يلعبن معي، «**فكان رسول اللهﷺ إذا دخل يتقمعن منه، فيسربهن إلي فيلعبن معي**»[2]. ولم تكن هذه الفسحة لتمنعها عن أخذ العلم منه، وممّا يؤكد ذلك أنّها قالت: «لقد أُنزل على محمدﷺ بمكة وإني لجارية ألعب، ﴿ **بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ** ﴾ [القمر: 46]»[3].

ظهر مما سبق أنّه ينبغي للمعلم أنّ يراعي سنّ المتعلّم، وأن يفتح له نافذة، ويمنح له وقتا ليسترجع أنفاسه، وأنّ لا يحُمّله فوق طاقته، كما عليه أن يتغافل أحيانا عن بعض تصرفاته نظرا لواقعه وحاله، ولو تأملنا المناهج في منظومتنا التربوية لوجدنا أنّها أغلفت إلى حدٍّ بعيد هذا الجانب في السنوات الأخيرة، حتى إنّ بعض المدرسين في التعليم الثانوي يشتكون من ميل بعض التلاميذ إلى اللّعب أثناء الدرس، والسبب في ذلك عدم إيفاء هذا الجانب حقّه في المراحل الابتدائية، ممّا يجعل الطالب يعاني من مكبوتات تجرّه لطفولته جرًّا!

وممن برز من الصحابة الكرام رضي الله عنهم؛ صديق هذه الأمة، وقد كان النبيﷺ يراعي مشاعره، ويبيّن فضله ولا يرضى أن يلحقه أيّ أذى، وممّا يستدل به في هذا المقام، ما رواه أبو الدرداءرضي الله عنه، قال: «كنت جالسا عند النبيﷺ ، إذ أقبل أبو بكر آخذا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبيﷺ: «**أما صاحبكم فقد غامر**[4]» فَسَلَّم وقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى علي، فأقبلت إليك، فقال: «**يغفر الله لك يا أبا بكر**» ثلاثا، ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبي بكر، فسأل: أثم أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى إلى النبيﷺ، فجعل وجه النبيﷺ يتمعر، حتى أشفق أبو بكر، فجثا على ركبتيه، فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم، مرتين، فقال النبيﷺ: «**إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي**» مرتين، فما أوذي بعدها[5].

فالحديث يظهر عناية النبيﷺ بمشاعر أبي بكررضي الله عنه، ويتضح ذلك من خلال معرفته بحاله قبل أن يُخبر بذلك، كما يظهر في غضبه لما أصابه.

---

(1) البنات: لُعَبٌ يلعب بهن صغار الجواري. ينظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي، (4/ 321).

(2) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس، رقم: 6130، (8/ 31).

(3) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ **بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ** ﴾ [القمر/46]، رقم: 4876، (6/ 143).

(4) غامر أي خَاصم. ينظر: غريب الحديث، ابن الجوزي، (2/ 163).

5 أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبيﷺ: «**لو كنت متخذا خليلا**»، رقم: 3661، (5/ 5).

وممن لهم قدم راسخة في العلم أيضا؛ أبو هريرةﷺ، وقد كان النبيﷺ يراعي مشاعره، كما كان يهتم لجانبه المادي؛ حيث كان من أهل الصّفة، وممّا يبين اهتمام النبي بالجانب النّفسي لأبي هريرة، ما ذكرهﷺ، حيث قال: «كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يوما فأسمعتني في رسول اللهﷺ ما أكره، فأتيت رسول اللهﷺ وأنا أبكي، قلت يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة فقال رسول اللهﷺ: «**اللهم اهدي أم أبي هريرة**» فخرجت مستبشرا بدعوة نبي اللهﷺ، فلما جئت فصرت إلى الباب، فإذا هو مجاف، فسمعت أمي خشف قدمي، فقالت: مكانك يا أبا هريرة وسمعت خضخضة الماء، قال: فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها، ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، قال فرجعت إلى رسول اللهﷺ ، فأتيته وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرا، قال قلت: يا رسول الله ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين، ويحببهم إلينا، قال: فقال رسول اللهﷺ: «**اللهم حبب عبيدك هذا – يعني أبا هريرة – وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين**» فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني»(1).

فدعاء النبيﷺ لأم أبي هريرة يبيّن رقته صلوات ربي وسلامه عليه، وعنايته بمشاعر راوية الإسلام، حتى لا يُشغله شيء عن تعلم العلم وتعليمه.

ومن جوانب عناية النبيﷺ **بأحوال المتعلم المادية**، ما ذكره أبو هريرةﷺ حيث قال: « ألله الذي لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشدُّ الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرَّ أبو بكر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلاَّ ليشبعني، فمرَّ ولم يفعل، ثم مرَّ بي عمر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلاَّ ليشبعني، فمرَّ فلم يفعل، ثم مرَّ بي أبو القاسمﷺ، فتبسم حين رآني، وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: «**يا أبا هر**» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**الحق**» ومضى فتبعته، فدخل، فاستأذن، فأذن لي، فدخل، فوجد لبنا في قدح، فقال: «**من أين هذا اللبن؟**» قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة، قال: «**أبا هر**» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي**» قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة، كنت أَحَقَّ أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاء أمرني، فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺبُدٌ، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا،

(1) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل أبي هريرة الدوسيﷺ، رقم: 2491، (4/ 1938).

فاستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: «**يا أبا هر**» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**خذ فأعطهم**» قال: فأخذت الْقَدَحَ، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يُرْوَى، ثم يَرُدُّ علي القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح، حتى انتهيت إلى النبيﷺ وقد رُوِي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إلي فَتَبَسَّمَ، فقال: «**أبا هر**» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**بقيت أنا وأنت**» قلت: صدقت يا رسول الله، قال: «**اقعد فاشرب**» فقعدت فشربت، فقال: «**اشرب**» فشربت، فما زال يقول: «**اشرب**» حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق، ما أجد له مسلكا، قال: «**فأرني**» فأعطيته القدح، **فحمد الله وسمى وشرب الفضلة**»[1].

ومن الأمور التي ينبغي للمعلم مراعاتها؛ **الاستعدادات الذهنية** عند المتعلمين، فيتخيّر أفضل الأوقات وأحسنها، وعليه أن لا يُحمِّل الطُّلاب فوق طاقتهم، وأن لا يكثر عليهم لئلا يسأموا، فعن ابن مسعودﷺ قال: «**إن رسول اللهﷺ كان يتخولنا بالموعظة في الأيام، مخافة السآمة علينا**»[2].

وقد سار الصحابة رضي الله عنهم على النّهج نفسه، فكانوا يوصون بضرورة مراعاة أحوال المتعلمين، أسوتهم في ذلك رسول اللهﷺ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**حدّث الناس كل جمعة مرة، فإن أبيت فمرتين، فإن أكثرت فثلاث مرات، ولا تمل الناس هذا القرآن، ولا ألفينك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم، فتقص عليهم، فتقطع عليهم حديثهم فتملهم، ولكن أنصت، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه، فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه، فإني عهدت النبيﷺ وأصحابه لا يفعلون ذلك**»[3]. قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث حسن التعليم للمتعلمين، وأن من آفة التعليم إكثاره حتى تعجز القلوب عن أن تعيه، ولهذا قال: حدِّث الناس في كل جمعة مرة»[4].

ومما يندرج ضمن مراعاة واقع المتعلّم، **ضرورة التدرّج معه في العلم**، وعدم إشغاله بالمسائل التي لا يستوعبها ذهنه، فقد كان النبيﷺ يقدم الأولويات في تعليمه، ويراعي مستوى المتلقي فيتدرّج معه، وهذا من تمام الرّفق والرّحمة به، وممّا يبين ذلك ما رواه أبو هريرةﷺ: «**أنّ رسول اللهﷺ دخل المسجد، فدخل رجل فصلى ثم جاء فسلم علىﷺ، فقال: «ارجع فصل، فإنّك لم تصل»**، فرجع فصلى كما صلى، ثم جاء فسلم على النبيﷺ، فقال: «**ارجع فصل، فإنّك لم تصل**» ثلاثا، فقال: والذي بعثك بالحق! ما أحسن غيره، فعلمني، فقال: «**إذا**

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، كيف كان عيش النبيﷺ وأصحابه، وتخليهم من الدنيا، رقم:6452، (8/ 96).

(2) أخرجه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب الاقتصاد في الموعظة، رقم: 2821، (4/ 2172).

(3) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب ما يكره من السجع في الدعاء، رقم: 6337، (8/ 74).

(4) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، (3/ 203).

قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعا، ثم ارفع حتى تعتدل قائما، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا، وافعل ذلك في صلاتك كلها»(1)، قال ابن العطار أثناء إيراده للفوائد المتعلّقة بهذا الحديث: « ومنها: الرّفق بالمتعلم والجاهل في التعليم وملاطفته، وإيضاح المسألة له وتلخيص المقاصد، والاقتصار على المهم دون المكملات التي لا تحتمل حالة حفظه والقيام بها»(2).

فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يشغله بذكر بعض المكملات والسنن المتعلّقة بالصلاة، رحمة به ومراعاة للأولويات، وكان من توجيهه ﷺ تحذيره من التنطّع، فعن ابن مسعود رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ، قال: «**هلك المتنطعون**» قالها ثلاثا(3)، قال الخطابي: « (المتنطع) المتعمق في الشيء المتكلف للبحث عنه على مذاهب أهل الكلام، الداخلين فيما لا يعنيهم، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم»(4).

فالتعمق فيما لا طائل منه إرهاق للمتعلم وتشديد عليه، وذلك خلاف الرّحمة به، وقد ورد عن علي رضي الله عنه أنّه قال: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟»(5)، قال ابن هبيرة: « في هذا الحديث من الفقه أن العالم ينبغي أن يربي الناس بالعلم تربية، ويغذيهم إياه تغذية، فيربيهم بصغار العلم قبل كباره، فيكون ربانيًا»(6). فعدم مراعاة التدرج مع المتعلم تكليف له بما لا يطاق، وقد ينقلب ذلك إلى فتنته كما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنّه قال: «ما أنت محدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلاّ كان لبعضهم فتنة»(7)، وسيأتي الحديث عن التدرج في مطلب مستقل، في الفصل الخاص بأساليب التعليم.

وممّا يندرج ضمن الرحمة بالمتعلم؛ مناداته باسمه والثناء عليه، وقد خصّصت له المطلب الموالي لأهميته.

المطلب الثالث: مناداة المتعلم باسمه والثناء عليه

ممّا يوطد العلاقة بين المعلم وتلميذه، مناداة المتعلم باسمه أو كنيته أو لقبه، وكذلك الثناء عليه، ويأتي المطلب ليبرز ذلك مستعينا بالنصوص الشرعية، وذلك من خلال ما يلي:

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، رقم: 757، (1/ 152)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم: 757، (1/ 298).

(2) العدة في شرح العمدة في أحاديث الأحكام، علاء الدين ابن العطار، ت: نظام يعقوبي، دار البشائر الإسلامية ــ بيروت، ط:1، 1427 هـ - 2006م، (1/ 505).

(3) أخرجه مسلم، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم: (2670)، (4/ 2055).

(4)معالم السنن، الخطابي، (4/ 300).

(5) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، (1/ 11).

(6) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، (1/ 268).

(7) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، (1/ 11).

الفرع الأول: مناداة المتعلم باسمه

مناداة الشخص باسمه أو لقبه أو كنيته له بالغ الأثر في نفسيته؛ حيث يَشعر أنّه محلّ عناية واهتمام، خاصة إذا نُودي بأحبّ الأسماء إليه، وممّا يؤكّد ذلك أنّ ما رواه أنس رضي الله عنه قال: «**قال** رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن**» قال: آلله سمّاني لك؟ قال: «**نعم**» قال: وقد ذُكرت عند رب العالمين؟ قال: «**نعم**» فذرفت عيناه»[1]. قال القرطبي:« تعجب أبي من ذلك لأن تسمية الله له ونصه عليه ليقرأ عليه النبي ﷺ تشريف عظيم فلذلك بكى إما فرحاً وإما خشوعاً»[2].

ويجدر التنبيه أنّ حصول الفرح في مثل هذه الحال، تكون بحسب منزلة الذاكر للاسم، فلو يَذكر ملك من ملوك الدنيا شخصا باسمه في معرض الثناء عليه لهشُّ لذلك وبشّ، فكيف بملك الملوك؟! لذا رتَّب الله تعالى لمن اشتغل بذكره وعبادته هذه المنزلة الرفيعة، كما جاء في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ، ذكرته في ملإ هم خير منهم**...»[3].

فالإنسان مجبول على حبّ الإكرام، ويدخل في ذلك مخاطبته بأحبّ الأسماء إليه، وتأمل كيف يُسَمى التقيّ عندما تُرفع روحه بأحسن ما يُنادى به في الدنيا، تكريما وتشريفا له، ففي الحديث: «...**فيصعدون بها، فلا يمرون علي ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟! فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا**...»[4]، فإبقاء الملائكة على أحسن الأسماء التي كان يُنادى بها في الدنيا، دليل واضح أنّ مخاطبته بذلك ممّا يُشعره بالفرح والمكانة عند من خاطبه.

وممّا لا يُختلف فيه أنّ المتعلّم يُقدِّر معلمه ويعظّمه؛ فمخاطبة هذا الأخير له باسمه، أو بأحسن الأسماء إليه يلفت انتباهه، ويقوي عزيمته لتلقي المعلومات واستيعابها، ويتجلّى هذا الأدب في سيرة معلم البشرية الخير ﷺ؛ حيث كان حريصا على مناداة صحابته رضي الله عنهم بأسمائهم أو كناهم، بل وينتقي للمقربين إليه أحسنها،

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب أبي بن كعب رضي الله عنه، رقم: 3809، (5/ 36)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل، والحذاق فيه، وإن كان القارئ أفضل من المقروء عليه، رقم: 799، (1/ 550).

(2) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن المباركفوري، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الهند، ط:3، 1404 هـ، 1984م، (7/ 273).

(3) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران:28]، رقم: 7405، (9/ 121)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحثّ على ذكر الله تعالى، رقم: 2675، (4/ 2061).

(4) سبق تخريجه. ينظر: (ص:249).

إيناسا لهم، وبيانا لمزيد عنايته بهم، فعن عائشة: «**كان رسول الله ﷺ يكني أصحابه إكراما لهم، وتسنية لأمورهم، واستلانة لقلوبهم**»[1].

وتأمل كيف أنّ جبريل ﷺ كان ينادي النبي ﷺ باسمه في الحديث المعروف، قال الطيبي، في معرض بيانه لكيفية جلوس جبريل عليه السلام: «الأصل في إسناد الركبة إلى الركبة أن يكون الاعتماد والاتكاء عليه، فإذا لا يبعد وضع جبريل عليه السلام يديه على فخذي رسول الله ﷺ على تلك الحالة، فأشعرت تلك الهيئة بأنها ليست كهيئة التلميذ، وكذا نداؤه لرسول الله ﷺ باسمه، بل هي من هيئة الشيخ إذا اهتم بشأن التعليم، وأراد مزيد إصغاء المتعلم وإفهامه، فكيف لا؟ وقد شهد الله تعالى به في قوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:5]، وكفى به شاهداً»[2].

وعلى المعلم أن لا يغفل الثناء على طلابه وتشجيعهم، فإنّ ذلك ممّا يُنشطهم لمزيد البذل والعطاء، وهذا ما سيأتي بيانه.

الفرع الثاني: تشجيع المتعلّم والثناء عليه

للتشجيع والثناء دور مهم في التحفيز على الإقبال على العلم وتلقيه، لذلك كان لزاما على المتعلم أن يشجع طلابه ويثني على من أحسن منهم، والمتتبع لسنة النبي ﷺ يقف على ثنائه وتشجيعه للصحابة الكرام رضي الله عنهم، ثناءً لا مبالغة فيه؛ ومن ذلك أنّه وصف أبا عبيدة بأمين هذه الأمة؛ وذلك حين جاء وفد نجران إليه يطلبون منه ﷺ أن يبعث إليهم رجلا أمينا، فقال: «**لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين**»، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «**قم يا أبا عبيدة بن الجراح**» فلما قام، قال رسول الله ﷺ: «**هذا أمين هذه الأمة**»[3]، وأثنى النبي ﷺ على أبي هريرة رضي الله عنه حين سأله: «من أحق النّاس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة، من قال لا إله إلا الله، خالصا من قلبه، أو نفسه**»[4]، قال ابن بطال في معرض استنباطه لفوائد هذا الحديث: « وفيه: أن للعالم أن يتفرس في متعلميه، فيظن فى كل واحد مقدار تقدمه في فهمه، وأن ينبهه على تفرسه فيه، ويعرفه ذلك، ليبعثه على الاجتهاد في العلم والحرص عليه»[5].

---

(1) أخرجه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه، (2/ 244).

(2) الكاشف عن حقائق السنن، الطيبي، (2/ 423).

(3) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، رقم:4380، (5/ 172)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبو عبيدة بن الجراح، رقم: 2419، (4/ 1881).

(4) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب الحرص على الحديث، رقم: 99، (1/ 31).

(5) شرح صحيح البخارى، ابن بطال، (1/ 176).

وعن أبي بن كعبﷺ، قال: قال رسول اللهﷺ: «**يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**» **قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال:** «**يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**» **قال: قلت:** ﴿ **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ** ﴾ [البقرة:255]، **قال: فضرب في صدري، وقال:** «**والله ليهنك العلم أبا المنذر**»[1]، ومعنى «ليهنك العلم »؛ أي: ليكن العلم هنيئا لك[2]. قال النووي: «فيه منقبة عظيمة لأبيّ ودليل على كثرة علمه، وفيه تبجيل العالم فضلاء أصحابه، وتكنيتهم وجواز مدح الإنسان في وجهه إذا كان فيه مصلحة ولم يخف عليه إعجاب ونحوه...»[3].

ولأهمية تشجيع المعلم للمتعلم، فقد أثنى النبيﷺ على سؤال وجهه له أعرابي، وذلك بحضور الصحابة الكرام، فعن أبي أيوب رضي الله عنه: «أن أعرابيا عرض لرسول اللهﷺ وهو في سفر، فأخذ بخطام ناقته – أو بزمامها ثم قال: يا رسول الله – أو يا محمد – أخبرني بما يقربني من الجنة، وما يباعدني من النار، قال: فكفّ النبيﷺ، ثم نظر في أصحابه، ثم قال: «**لقد وُفق، أو لقد هدي**»، قال: **كيف قلت؟** قال: فأعاد، فقال النبيﷺ: «**تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم، دع الناقة**»[4].

قال أبو العباس القرطبي: «**ونظر** إلى أصحابه مستحسنا لهذا السؤال، ومستحضرا لأفهام أصحابه، ومنوّها بالسائل، ثم شهد له بالتوفيق والهداية لما ينبغي أن يسأل عنه، لأنَّ مثل هذا السؤال لا يصدر إلا عن قلب منور بالعلم بالله تعالى...»[5].

وعلى المعلم أن يستخدم التشجيع لإدراك النقائص، أو لبلوغ أعلى المراتب، خاصة إذا التمس من الطالب قدرته على ذلك، ومما يستشهد به في هذا السياق، ما روى ابن عمرﷺ، قال: «كان الرجل في حياة رسول اللهﷺ، إذا رأى رؤيا، قصها على رسول اللهﷺ، فتمنيت أن أرى رؤيا أقصها على النبيﷺ، قال: وكنت غلاما شابا عزبا، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول اللهﷺ، فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطي البئر، وإذا لها قرنان كقرني البئر، وإذا فيها ناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، قال فلقيهما ملك فقال لي: لم ترع، فقصصتها على حفصة،

(1) سبق تخريجه. ينظر: (ص:41)

(2) تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة، ناصر الدين البيضاوي، ت: نور الدين طالب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية _الكويت، ط:1، 1433 هـ - 2012م، (1/ 526).

(3) شرح النووي على مسلم، النووي، (6/ 93).

(4) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة، وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة، رقم:13، (1/ 42).

5 المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، (6/ 530).

فقصتها حفصة، على رسول اللهﷺ، فقال النبيﷺ: «**نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل» قال سالم: فكان عبد الله، بعد ذلك، لا ينام من الليل إلا قليلا**»[1].

يتبين من خلال الحديث أنّ النبيﷺ أثنى على ابن عمرﷺ لاستكمال ما ينبغي أن يتحلى به من كان في مرتبته، فحمله ذلك الكلام على أن لا يترك قيام الليل إلاّ قليلا؛ لذا فالمعلم النّاجح عليه أن يستثمر هذا الجانب، وينوّع في عبارات التشجيع حسب ما يقتضيه الحال والمقام، وليبتعد عن كثرة اللّوم والعتاب المفضي إلى تحطيم الطاقات واستنزافها.

تلخيصا لما سبق، يتضح أنّه يجب على المعلم أن يتصف بجملة من الصفات لينجح في عمليته التعليمية؛ فلابدّ أن يكون رفيقا رحيما سهلا عدلا، لا يظلم ولا يعنّف، بل يجعل طلابه بمثابة أولاده؛ يغدق عليهم برحمته وشفقته قبل علمه وحكمته، وهذه طريقة الرسل في التعليم، يرحمون الموافق والمخالف، ويرفقون بالعالم والجاهل، وبالمريض والكبير وذا الحاجة، وعلى المعلم أن يدرك واقع المتعلم النفسي والمادي، ويلاحظ استعداده الذهني. وعلى المعلم أن لا يكتفي بما أخذه من علم بل عليه أن يستمر في ذلك دون انقطاع، وليؤدي زكاة العلم بنشره، ونفع النّاس به. هذا وينبغي أن يعمل المعلم على توطيد العلاقة بطلاّبه، فيحرص على مناداتهم بأسمائهم أو كناهم حتى يُشعرهم بالاهتمام، وذلك ما يساعدهم على الانتباه والحرص، فإن رأى المعلم ذلك فينبغي أن يقابله بالتشجيع والثناء.

هذه بعض آداب المعلم التي دلّ عليه القرآن والسنة، ويعتبر المتعلم أساس العملية التعليمية ومحورها، فنجاح التعليم يتوقف أيضا على اتصافه بجملة من الآداب، هذا ما أتطرق إليه في المبحث الموالي.

---

1 أخرجه البخاري، كتاب التهجد، باب فضل قيام الليل، رقم: 1121، (2/ 49)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، رقم: 2479، (4/ 1927).

المبحث الثالث: آداب المتعلم في القرآن والسنة

سبق وأن ذكرت الآداب المشتركة بين المعلم والمتعلم، كالإخلاص والعمل بالعلم والصبر والتواضع، بالإضافة إلى حسن الهيئة والاعتناء بآداب المجلس، ولطالب العلم آداب أخرى غلب نصيبه فيها، ينبغي الحرص عليها لتكلّل جهوده بالنّجاح، ومن ذلك ما يلي:

المطلب الأول: المعاملة الحسنة والابتعاد عن الحسد

من الآداب التي يجب على المتعلم أن يتحلى بها؛ حسن معاملة المعلم والطلاب، وعليه أن يبتعد عن حسد الأقران، فإن هذا الداء ممّا يبثُّه الشيطان بينهم خاصة، وهو ماحق لبركة العلم، مناف لاحترام الغير وإرادة الخير له، ويأتي هذا المطلب لبيان أهمية التحلي بهذين الأدبين في العملية التعليمية.

الفرع الأول: حسن المعاملة

مما يظهر حسن المعاملة الاحترام والتقدير، وهو من آداب الإسلام، حيث أوجب على كل مسلم أن يحترم أخاه، ويزداد هذا الاحترام في حق أصحاب المكانة، وعلى رأس هؤلاء الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام باعتبارهم معلمي الناس الخير.

وقد أمر الله عز وجلّ في كتابه بتوقير رسولهﷺواحترامه، فقال جلّ ثناؤه: ﴿ **إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا** ﴾ [الفتح:8_9]، ومعنى التعزير والتوقير: أي إجلاله وتعظيمه[1]. وقد أشار القرطبي إلى المقصود بتعزيره وتوقيرهﷺ فقال: «أي تدعوه بالرّسالة والنبوة لا بالاسم والكنية»[2].

وفي ذلك تعليم لنا أن نتأدب مع أهل المكانة، خاصة إذا كانوا من ورثة الأنبياء عليهم السلام، أو ممن يعلمون العلم النّافع؛ لأنّ النبيﷺ بُعث معلّما.

وقد أمر القرآن الكريم بعدم رفع الصوت فوق صوت النبيﷺ، قال جلّ ثناؤه: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا**

(1) ينظر: جامع البيان، الطبري، (22/ 207).

(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (16/ 267).

تَشۡعُرُونَ ﴾[الحجرات:2]، «نزلت الآية بسبب عادة الأعراب من الجفاء وعلو الصوت، ومخاطبة النبي باسمه، وكره العلماء رفع الصوت بعد وفاته عند قبره، وبحضرة العالم وفي المساجد، وورد في ذلك بعض الآثار»(1).

وانطلاقا مما سبق يتضح واجب المتعلم بلزوم هذا الأدب، فيحترم معلّمه ولا يرفع صوته عليه، أو يخاطبه باسمه مجرّدًا، بل يجب أن ينزِّله منزلته ويقدِّر العلم الذي يحمله، فعن عائشة رضي الله تعالى عنها، أنها قالت: «**أمرنا رسول الله ﷺ أن نُنزل الناس منازلهم**»(2).

وقد حذّر النبي ﷺ ممن لا يحترم العالم ولا يوقره، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، أن رسول ﷺ، قال: «**ليس منا من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه**»(3)، قال المناوي: «**وذلك** بمعرفة حق العلم بأن يعرف حقه بما رفع الله من قدره، فإنه قال: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ ﴾ [المجادلة:11]، ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾، فاحترام العلماء ورعاية حقوقهم توفيق وهداية، وإهمال ذلك خذلان وعقوق وخسران»(4).

فهذا موسى عليه السلام وهو كليم الله تعالى، ومع ذلك تلطّف مع الخضر عليه السلام، وأبدى له احترامه حين أرد أن يتعلم منه، فقال: ﴿ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾ [الكهف:66]، وقد كان بيان موسى لمقصده بعد أن سَأَلَهُ الخضر عليهما السلام:« **ما شأنك، قال: جئت لتعلمني مما علمت رشدا**»(5). قال أبو العباس القرطبي: «فأجاب بجواب المتعلم المسترشد بين يدي العالم المرشد ملازمًا للأدب والحرمة، ومعظمًا لمن شرَّفه الله بالعلم، وأعلى رسمه فقال: "جئتُك لتعلمني مما عُلمت رُشدًا" ... ومعنى الرشد: الاستقامة في الأمور، وإصابة وجه السداد، والصواب فيها، وضده الغي...وفيه من الفقه: التذلل والتواضع للعالم، وبين يديه، واستئذانه في سؤاله،

---

(1) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي، (5/ 268).

(2) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، (1/ 6).

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك، باب في توقير العالم، رقم: 421، (1/ 211).

(4) التيسير بشرح الجامع الصغير، زيد الدين المناوي، مكتبة الإمام الشافعي – الرياض، ط: 3، 1408هـ - 1988م (2/ 331).

(5)أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ﴾[الكهف:61]، رقم: 4627، (6/ 90)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام، رقم: 2380، (4/ 1847).

والمبالغة في احترامه وإعظامه، ومن لم يفعل هكذا فليس على سنة الأنبياء، ولا على هديهم، كما قال نبيناﷺ: «**ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه**»(1).

وقد جعل النبيﷺ إجلال حامل القرآن الكريم من إجلال الله تعالى، فقال: «**إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط**»(2).

فحامل القرآن العامل به قد شهد اللهﷻ له بالعلم والمكانة، قال جلّ ثناؤه: ﴿**بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ**﴾ [العنكبوت:49]، قال طاوس: «من السنة أن توقر أربعة: العالم وذا الشيبة والسلطان والوالد»(3).

ومن توقير المعلم واحترامه عدم التعرض له بشيء قد يكرهه أو يشق عليه، فعن ابن عباسﷺ، قال: «**بت عند ميمونة، فقام النبيﷺ فأتى حاجته، فغسل وجهه ويديه، ثم نام، ثم قام فأتى القربة فأطلق شناقها، ثم توضأ وضوءا بين وضوءين لم يكثر، وقد أبلغ، فصلى فقمت فتمطيت كراهية أن يرى أني كنت أتقيه، فتوضأت فقام يصلي، فقمت عن يساره...**»(4)، ومعنى (تمطيت)؛ أي تأخرت وتمددت(5).

قال ابن بطال: «إنما فعل ذلك ابن عباس ليرى النبيﷺ أنه كان نائما وأنه لم يرصده؛ إذ كل أحد إذا خلا في بيته يأتي من الأفعال ما يحب أن لا يطلع عليه أحد، وإنما حمل ابن عباس على ذلك الحرص على التعليم، ومعرفة حركات النبي صلى الله عليه وسلم في ليله، وقد تقدم في كتاب الصلاة أن أباه العباس كان أوصى لابنه بذلك، وفيه: الحرص على التعليم والرفق بالعلماء، وترك التعرض إلى ما يعلم أنه يشق عليهم»(6).

وقد فهم السلف هذا الأدب الرّفيع وطبقوه في واقعهم وحثوا عليه، فعن علي بن أبي طالبﷺ قال: «من حق العالم ألا تكثر عليه بالسؤال، ولا تعنته بالجواب وأن لا تلح عليه إذا كسل ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا

(1) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، (6/ 201).
(2) أخرجه أبو داود، باب في تنزيل النّاس منازلهم، رقم:4843، (7/ 212).
(3) الكاشف عن حقائق السنن، الطيبي، (10/ 3186).
(4) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه من الليل، رقم: 6316، (69/8).
(5) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، الكرماني، (22/ 131).
(6) شرح صحيح البخارى، ابن بطال، (10/ 86).

تفشين له سرا، ولا تغتابن عنده أحدا، ولا تطلبن عثرته، وإن زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره وتعظمه لله ما دام يحفظ أمر الله، ولا تجلسن أمامه وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته»[1].

وقد ظهر هذا الأدب في واقعهم العملي، فقد روي أنّ ابن عباس رضي الله عنه أخذ بركاب أبي سعيد الخدري ليخدمه، فقال: «لا تفعل يا ابن عم رسول الله، فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نصنع بعلمائنا»[2].

وحتى يتضح المقام أكثر، فإنه ينبغي على المتعلم أن يحترم معلمه كما يحترم أباه؛ لأنّه بتلك المنزلة فقد ثبت أنّ النبي ﷺ قال: «**إنما أنا لكم مثل الوالد لولده أعلمكم**»[3].

ولا تعني الدعوة إلى احترام المعلم، أخذ كل ما يلقيه مسلما دون حجّة ولا برهان، فذلك سبيل للوقوع في التعصب والتقليد الأعمى، بل للطالب أن يسأل عن الدليل، وله أن ينبّه إلى ما يراه خطأ، أو يستدرك بزيادة يراها نافعة، لكن في حدود الأدب واللّباقة مع الإحاطة بالمسألة والتيقن ممّا ينقله أو يعترض عليه، فقد ذكر الله ﷻ قول الهدهد على ضعفه لسليمان عليه السلام المؤيد بالنبوة والملك: ﴿**أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ**﴾ [النمل/22]، قال ابن باديس: «قد سمع سليمان هذا الهدهد وأقره عليه، فللصغير أن يقول للكبير وللحقير أن يقول للجليل: علمت ما لم تعلم، وعندي ما ليس عندك؛ إذا كان من ذلك على يقين وكان لقصد صحيح...»[4].

من هنا يتضح أنّ الاحترام سلوك ينبغي أن يصاحب المتعلم في مسيرته، فهو عنوان لحسن معاملته، ويتأكد أكثر في حق معلمه، ولا غنى عنه مع أقرانه؛ إذ ينبغي أن يقابلهم بالحسنى ويبتعد عن أذيتهم، ويقطع كل دافع لذلك كالحسد، فهو آفة تسبب سوء المعاملة وقلّة الاحترام... وفي الفرع الموالي بيان لضرورة الابتعاد عنها.

الفرع الثاني: الابتعاد عن الحسد

من أخطر الأدواء التي تحول دون بلوغ أعلى مراتب العلم والانتفاع به؛ الحسد، فهو ماحق للبركة، مزيل للنعمة، قال السمرقندي: «قال بعض الحكماء: «إيّاكم والحسد، فإنّ الحسد أول ذنب عُصي الله تعالى به في

---

(1) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، (1/ 519).

(2) الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها، أبو القاسم الهذلي، ت: جمال بن السيد، مؤسسة سما، ط:1، 1428 هـ - 2007 م، (ص: 40).

(3) ينظر: قانون التأويل، أبو بكر بن العربي، ت: محمد السليماني، دار القبلة للثقافة الإسلاميَّة_ جَدّة، ط:1، 1406 هـ - 1986م، (ص: 637).والحديث سبق تخريجه، (ص:71).

(4) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس، (ص: 271).

السماء، وأول ذنب عُصي الله تعالى به في الأرض»، وإنما أراد بقوله: «أول ذنب عُصي الله تعالى به في السماء»؛ يعني: إبليس حين أبى أن يسجد لآدم، وقال: ﴿**خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾ [الأعراف:12] فحسده، فلعنه الله تعالى بذلك.

وأما الذي عُصي الله تعالى به في الأرض، فهو قابيل بن آدم حين قتل أخاه هابيل حسدا، وهو قوله تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [المائدة: 27]»(1). فلاحظ كيف حرُم من سبق ذكره الخير نتيجة لحسدهم.

ومِمّا يُظهر خطورة هذا الداء، أنّه صفة من لا خلاق لهم ممن يبتغون بعلمهم الدنيا، شأن اليهود؛ حيث لم ينتفعوا بما معهم من العلم، وبما جاءهم به النبيﷺ، حسدا من عند أنفسهم، قال الله جلّ ثناؤه مبيّنا حالهم: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا**﴾ [النساء:54].

فعلى المتُعلم أن يتفطن لخطورة هذا الداء، فيحاسب نفسه بين الحين والآخر، خاصة وأنّ الأمة في آخر الزمان تُبتلى بهذه الآفة التي كانت سبب هلاك من قبلنا، فقد جاء في الحديث عن الزبير بن العوامﷺ، أنّ النبيﷺ قال: «**دَبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم**»(2).

ففي هذا الحديث العظيم بيان للداء ووصف للدواء؛ فالمرض الخطير هو الحسد والبغضاء، وهي صفات متجذِّرة في المغضوب عليهم والضالين، والبغضاء غالبا ما تتولد عن الحسد، ولعظيم خطورتها فقد أقسم النبيﷺ أنّها تحلق الدين، ثمّ بيَّن أنّ الجنة أُعدت لأهل الإيمان، ولا يكون المؤمن مؤمنا على الحقيقة، إلاّ إذا أحبّ أخاه، وقد أوضح النبيﷺ سببا من أسباب المحبّة، ألا وهو إفشاء السلام.

---

(1) تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين، السمرقندي، (ص: 178).

(2) أخرجه الترمذي، باب ما جاء في الحسد، رقم: 2510، (4/ 664).

وجاء في حديث آخر التأكيد على ضرورة الابتعاد عن الأدواء التي تفسد القلوب، ثمّ حثّ النبيﷺ على علاجها، فعن أنس بن مالكﷺ أن رسول اللهﷺ قال: «**لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام**»[1].

فهذه العناية من النبيﷺ في محاربة هذا الداء، إنّما تدل على خطورته، حتى قال السمرقندي: « ليس شيء من الشر أضر من الحسد؛ لأنه يصل إلى الحاسد خمس عقوبات، قبل أن يصل إلى المحسود مكروه؛ أولها: غم لا ينقطع، والثاني: مصيبة لا يؤجر عليها، والثالث: مذمة لا يحمد بها، والرابع: يسخط عليه الرب، والخامس: تغلق عليه أبواب التوفيق»[2].

ويكثر هذا المرض بين الأقران خاصة، وقد تفطّن ثلّة من أئمة السلف لهذا العائق فبذلوا نصحهم لطالب العلم حتى لا يقع في المزالق، فلا يحسد أقرانه، كما لا يقبل قول أساتذته وشيوخه بعضهم في بعض حتى يقف على مستند تلك الأقوال، قال أبو حامد الغزالي مبينا خطورة هذا الداء وتسلله حتى إلى قلوب بعض الأعلام: «والحسد نار محرقة، فمن بلي به فهو في العذاب في الدنيا ولعذاب الآخرة أشدُّ وأعظم؛ ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: «خذوا العلم حيث وجدتموه، ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض؛ فإنهم يتغايرون كما تتغاير التيوس في الزريبة»[3]، وروي عن مالك بن دينار أنه قال: «إني أجيز شهادة القراء على جميع الخلق ولا أجيز شهادة القراء بعضهم على بعض، أني وجدتهم حسادا»، يعني أن أكثر الحسد في القراء»[4].

ومما يخلص المتعلم من هذه الآفة؛ أن يتذكر خطورتها، وفيما سبق بيان لبعض ذلك، كما عليه أيضا أن يتأمل فيما يقابل هذه الصفة من الفضائل، فيسعى جهده ليتحلى بها، منها أنّ الله تعالى ذكر صفة الصحب الكرام رضي الله عنهم، فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر:9]، وقال أيضا مؤكدا على سلامة صدور من جاء بعدهم ممن سلك سبيلهم: ﴿وَالَّذِينَ

(1) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، رقم: 6065، (8/ 19)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن التحاسد والتباغض والتدابر، رقم: 2558، (4/ 1983).

(2) تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين، السمرقندي، (ص: 177).

(3) إحياء علوم الدين، الغزالي، (1/ 45).

(4) المصدر السابق، (ص: 178).

جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر:10].

وجاء في السنّة النبوية ما يبيّن أنّ سلامة الصدر سبب لدخول الجنان، فعن أنس بن مالكﷺ قال: «كنا جلوسا مع رسول اللهﷺ فقال: «**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة** » فطلع رجل من الأنصار، تنطف لحيته من وضوئه، قد تعلق نعليه في يده الشمال، فلما كان الغد، قال النبيﷺ، مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى. فلما كان اليوم الثالث، قال النبيﷺ، مثل مقالته أيضا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبيﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: إِنِّي لَاحَيْتُ أَبِي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت؟ قال: نعم. قال أنس: وكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئا، غير أنه إذا تعار وتقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر، حتى يقوم لصلاة الفجر. قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرا، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحقر عمله، قلت: يا عبد الله إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر ثم، ولكن سمعت رسول اللهﷺ يقول لك ثلاث مرار: « **يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة** » فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك، فأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول اللهﷺ، فقال: ما هو إلا ما رأيت. قال: فلما وليت دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشا، ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه. فقال عبد الله هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق»(1).

يتبين من هذا الحديث أهمية سلامة الصدر، فبه يقضي المؤمن عموما والطالب خصوصا من آفات النفس وأدوائها، فهي موانع من تحقيق العلم؛ لأنّها تشغل الطالب بغيره، فتفوته مصلحة نفسه، والعلم لا ينال إلاّ بالتفرغ والحرص عليه. وهذا ما يأتي بيانه في المطلب الموالي.

المطلب الثاني: الحرص على العلم وتقييده

لا ينال العلم إلاّ بالحرص عليه والعناية بالوسائل الموصلة إلى تحقيقه، ومن ذلك تقييد المعارف، وفي هذا المطلب سأورد اهتمام القرآن والسنة بذلك، من خلال عنصرين.

الفرع الأول: الحرص على العلم

الحرص على تلقي العلم سبيل لبلوغ أعلى مراتبه، ويندرج في ذلك العناية به، وبالوسائل الموصلة إليه، فيبدأ المتعلم في طلب العلم منذ صغره، ويسعى جهده للزوم حلقه، وعدم التفريط في ذلك، كما ينبغي عليه أن يستجمع قواه الذهنية أثناء الدرس، ويُفرّغ باله من الشواغل، ويلتزم بالصمت وحسن الاستماع، وقد جاءت

---

(1) أخرجه أحمد في المسند، رقم: 12697، (20/ 124)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

النّصوص الشرعية تدعو إلى هذا الأدب الرفيع من كل جوانبه، ويتضح بصورة عامة فيما ورد في القرآن والسنة في فضل العلم وبيان آثاره، ففي ذلك دعوة إلى الاشتغال به، والحرص عليه حتى يدرك صاحبه أعلى المراتب، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11].

ويأتي الحثّ على الحرص على العلم من جوانب مخصوصة كالسعي في طلبه حال الصغر، فإنّ ذلك مما رغّب فيه الفقهاء؛ إذ إنّ هذه المرحلة تمتاز بخلو الذهن، والقدرة على الحفظ نظرا لقلة الشواغل والمسؤوليات، وقد ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «تفقهوا قبل أن تَسُودُوا»(1)، وذلك أنّ المسؤوليات تُشغل الكثير من النّاس، فلا يُوفَّق للجمع بين طلب العلم والقيام بها إلاّ القليل.

وتأمل صفات جبريل عليه السلام لما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم متمثلا هيئة المتعلم، فكان من أوصافه أنّه شديد سواد الشعر، وفي ذلك إشارة إلى استحباب طلب العلم في الصغر، فإن سواد الشعر علامة على ذلك.

وانطلاقا من هذا يُفهم السر وراء تميز عائشة رضي الله عنها بحفظ ذلك الكم الهائل من سنة رسول الله ﷺ، فذلك من بين أسباب نبوغها، حتى اعتبرت أعلم النساء وأفقههن.

ويتضح أيضا في تميز ابن عباس رضي الله عنه، حيث بلغ من حرصه أن يبذل وسعه لمجالسة النبي ﷺ والاقتداء به رغم صغر سنه، ولحرصه دعا له النبي ﷺ بقوله :« **اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»(2)، ولم يتوقف حرصه رضي الله عنه بعد وفاة النبي ﷺ، ومما يؤكد ذلك قوله: « لما قبض النبي ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب النبي ﷺ عن حديث رسول الله ﷺ فإنهم كثير، قال: العجب لك يا ابن عباس، أترى الناس يحتاجون إليك وفي الأرض من ترى من أصحاب رسول الله؟ قال: فترك ذلك، وأقبلت على المسألة وتتبع أصحاب النبي ﷺ، فإن كنت ليبلغني الحديث عن رجل سمع الحديث من رسول الله فأجده قائلا: «فأتوسد ردائي على بابه تسفي الرياح في وجهي حتى يخرج»، فيقول: ما جاء بك يا ابن عم رسول الله؟ فأقول: «بلغني أنك تحدثه عن النبي ﷺ فأحببت أن أسمعه منك»، فيقول: فهلا بعثت إلي حتى آتيك، فأقول: «أنا كنت أحق أن آتيك»، فكان ذلك الرجل يمر بي بعد، والناس يسألوني فيقول: أنت كنت أعقل مني»(3).

(1) أورده البخاري تعليقا بصيغة الجزم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، (1/ 25).

(2) أخرجه أحمد في مسنده، رقم: 2397، (3/ 95)، وصححه أحمد شاكر.

(3) أخرجه أحمد (فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل، ت: وصي الله عباس، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط: 1، 1403 هـ – 1983م)، فضائل عبد الله بن عباس، رقم: 1925، (2/ 976).

فاشتغل بالتعلم منذ صغره فأخذ منه حظا وافرا، حتى أضحى من علماء الصحابة رضي الله عنهم فظهر فضله، وقد أدرك عمرﷺ ذلك، فكان يدخله مع أشياخ بدر يستمع لرأيه ويستشيره[1].

إنّ عدم استثمار مرحلة الشباب في تحصيل العلم قد يُفوِّت على المتعلم أشياء كثيرة وإن حاول الاستدراك، قال ابن أبي الدنيا: «ومن أسباب التقصير أيضا أن يغفل عن التعلم في الصغر، ثم يشتغل به في الكبر فيستحي أن يبتدئ بما يبتدئ الصغير، ويستنكف أن يساويه الحدث الغرير، فيبدأ بأواخر العلوم وأطرافها، ويهتم بحواشيها وأكنافها؛ ليتقدم على الصغير المبتدي، ويساوي الكبير المنتهي»[2]. ولا يعني هذا أن الكبير لا يمكنه التعلم، وإلى هذا أشار البخاري بقوله: «وقد تعلم أصحاب النبي ﷺ في كبر سنهم»[3].

ومن الحرص على العلم أن يسعى المتعلم جهده للزوم حلقه والالتحاق بقاعاته وعدم التفريط في ذلك، وبهذا تميز ثلّة من الصحابة ممن لازموا النبيﷺ عن غيرهم، ومن هؤلاء راوية الإسلام أبو هريرةﷺ، الذي كان من أهل الصفة وفرّغ نفسه لطلب العلم، فقد قيل لابن عمرﷺ: «إنّ أبا هريرة يقول: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «**من تبع جنازة فله قيراط من الأجر**»، فقال ابن عمر: أكثر علينا أبو هريرة، فبعث إلى عائشة، فسألها، فصدقت أبا هريرة فقال ابن عمر: «لقد فرطنا في قراريط كثيرة»[4].

قال ابن حجر تعليقا على الأثر السابق: «وفي هذه القصة دلالة على تميّز أبي هريرة في الحفظ»[5]، وإن كان ابن عمرﷺ من حفاظ الصحابة أيضا، إلاّ أن أبا هريرة ﷺكان أكثر منه لشدّة ملازمته للنبيﷺ، فلم يكن يشتغل بغير العلم، ويدل على ذلك ما ورد في رواية أخرى أنّه قال لابن عمرﷺ بعد أن شهدت عائشة رضي الله عنها: «إنه لم يكن يُشغلنا عن رسول اللهﷺ عرس، ولا صفق بالأسواق، إنما كنت أطلب من رسول اللهﷺ كلمة يعلمنيها أو أكلة يطعمنيها، فقال ابن عمر: يا أبا هريرة كنت ألزمنا لرسول اللهﷺ وأعلمنا بحديثه»[6].

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب منزل النبيﷺ يوم الفتح، 4294، (5/ 149).

(2) أدب الدنيا والدين، الماوردي، (ص: 50).

(3) صحيح البخاري، البخاري، (1/ 25).

(4) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب فضل اتباع الجنائز، رقم: 1324، (2/ 87)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب فضل الصلاة على الجنازة واتباعها، رقم: 945 (2/ 653).

(5) فتح الباري، ابن حجر، (3/ 195).

(6) أخرجه الحاكم في المستدرك، باب ذكر أبي هريرة الدوسي رضي الله عنه، رقم: 6167، (3/ 584).، وقال هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

ومن الحرص على العلم التبكير إلى حلق الدرس وقاعاته وعدم التأخر، ويدخل ذلك في المسارعة إلى الخيرات، وقد حثّ الله ﷻ على ذلك فقال: ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ** ﴾ [البقرة:148].

كما يندرج في احترام الوقت والعناية بتنظيمه، وقد أقسم الله ﷻ بالعصر لبيان عظيم شأنه فقال: ﴿ **وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ [العصر:1_3].

ويدخل التبكير إلى قاعة الدرس وعدم التأخر أو الغياب من غير عذر في الوفاء بالوعود، لمن اندرج في دراسة نظامية؛ إذ إنّه أمضى على احترام القانون الداخلي للمؤسسة التعليمية، وقد أُمرنا بالوفاء بالعهود والعقود، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ** ﴾ [المائدة:1].

كما ينبغي على المتعلم الحرص على تلقي العلم، وذلك باستجماع قواه العقلية، وخلو ذهنه من الشواغل، وهذا ما يجعله أكثر استيعابا، ويظهر ذلك في سلوكه أثناء الدرس وفي سرعة بديهته، بل يظهر حتى في أسئلته التي يلقيها على معلمه، وأفضل مثال أعزّز به ما ذُكر؛ ما جاء في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّه سأل النبي ﷺ: « من أحق النّاس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة، من قال لا إله إلا الله، خالصا من قلبه، أو نفسه**»(1).

وعلى المتعلم أن يحرص أيضا على حسن الاستماع، وذلك باستغلال أوعية العلم التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[النحل:78]، فالسمع والبصر والفؤاد وسائل لإدراك العلم، والنّاس قد ولدوا مشتركين في عدم إحاطتهم بشيء، وقد جعل الله ﷻ لهم هذه الوسائل لاستخدامها فيما ينفعهم، فمن وُفق لذلك نال العلم الوفير، وحصل له الخير الكثير في الدنيا والآخرة، وأول هذه الوسائل حُسن الاستماع المتضمّن للفهم والانقياد، وهو أدب عظيم ينبغي على المتعلم الحرص عليه، والاستماع لما يلقى إليه. وتأمل كيف أمر الله تعالى موسى عليه السلام بهذا الأدب فقال: ﴿ **وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ** ﴾ [طه:13].

---

(1) سبق تخريجه. ينظر: (ص:311).

وأمر الله جلّ وعلا نبيهﷺ بالإنصات والاستماع لجبريلعليه السلام حال نزوله بالوحي، فقال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه:114]، قال ابن باديس: «كان النبيﷺ إذا نزل جبريلعليه السلام بالوحي عليه، قرأ معه وساوقه في القراءة، وكان ذلك منهﷺ لحرصه على حفظه وعدم نسيانه، حتى يُبلّغه كما أنزل عليه؛ ولأنّ تعلّق قلبه بما يسمع من جبريل وامتلاءه به واستيلاء ذلك المسموع على لبّه، يدعوه إلى النّطق به، لما بين القلب واللّسان من الارتباط؛ ولأنّ شوقه إلى ذلك المسموع ومحبته ورغبته فيه تبعثه على التعجّل بقراءته، غير أن القراءة عند السماع وقبل تمام الإلقاء، تمنع تمام الوعي؛ لأنّ عمل اللّسان بالنّطق يُضعف عمل القلب بالوعي والحفظ؛ فلذا نهى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن أن يعجل بقراءة القرآن عند سماعه من جبريل من قبل أن يقضى ويتمم إليه وحيه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه:114]»[1]،

ثم بيّن ابن باديس أن هذا الأدب عام، يسري على المناظر والقارئ وكل مستمع لمتكلم، فقال: « إنّما المقصود من الكلام البيان عن المراد، وإنّما المقصود من السماع وعي الكلام ليُفهم المراد، فكما كان على المتعلّم أن يسكت حتى يفرغ مُعلّمه من القدر المرتبط بعضه ببعض مما يلقيه إليه المعَلِم، حتى يفرغ المعلم من إلقائه، كذلك على المناظر أن يستمع لمناظره حتى يستوفي دعواه وحجّته، وعلى كل قارئ لكتاب أن يستوفي ما يرتبط بعضه ببعض منه ثم يبدي رأيه فيه، وعلى كل مستمع لمتكلم كذلك، فبهذا الأدب يتم وعي المتعلم فيحفظ، وفهم المناظر فيرد ويقبل، وفهم القارئ فيعرف ما يأخذ ويترك، وفهم السامع لتحصل فائدة الاستماع، وبترك هذا الأدب كثيراً ما يقع سوء الوعي أو سوء الفهم، وفوات القصد من المناظرة والقراءة أو الكلام»[2].

وقد مدح الله جلّ ثناؤه عباده المؤمنين الموصوفين بالاستماع وحسن الاتباع فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿17﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[الزمر:17_18]، قال الطبري: «يقول جل ثناؤه لنبيه محمدﷺ: فبشر يا محمد عبادي الذين يستمعون القول من القائلين، فيتبعون أرشده وأهداه، وأدله على توحيد الله، والعمل بطاعته، ويتركون ما سوى ذلك من القول الذي لا يدل على رشاد، ولا يهدي إلى سداد»[3].

(1) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس، (ص: 343).

(2) المصدر نفسه، (ص:344).

(3) جامع البيان، الطبري، (21/ 273).

وقد تضمنت الآية الحثّ على الاستماع ثمّ اتباع الأحسن من الأقوال، وفي هذا إشارة إلى وجوب النظر والاستدلال، فمن فعل ذلك وُفّق للهداية واستحق أن يكون من أهل العقول، قال القرطبي في قوله: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾: «أي أصحاب العقول من المؤمنين الذين انتفعوا بعقولهم»(1)، وفي ذلك دلالة على تحصيلهم للعلم والازدياد منه.

والكلام الحسن ينطبق على كل علم نافع، وأعظمه نفعا وأكثره حُسنا؛ كلام الله تعالى القائل في كتابه: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الزمر:23].

وقد بيّن اللهﷻ حال أهل الشرك مع القرآن الكريم، فقد كانوا يتحاشون سماعه، بل ويوصي بعضهم بعضا بذلك، كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾[فصلت:26]، وإذ حدث وسمعوا ما يلُقى إليهم، كان حالهم كما وصفهم الله تعالى: ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾ [الإسراء:47]، فاستماعهم في الحقيقة لم يكن استماع مستفيد يرجو الخير، بل كان القول يلُقى إليهم وهم يتناجون ويهزؤون، وهذا المقصود بقوله: ﴿ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ ﴾، قال السمعاني: « أي: ذووا نجوى، وفي القصة: أن النبي كان يقرأ، والمشركون قد اجتمعوا، وكانوا يتناجون فيما بينهم، فيقول هذا: كاهن، ويقول هذا: ساحر، ويقول هذا: شاعر، ويقول هذا: مجنون؛ ويريدون به الرسول»(2)، ونتيجة لسلوكهم هذا لم ينتفعوا بالعلم الذي يُلقى عليهم، وصار بينهم وبينه حاجزا يمنعهم من الاستفادة منه، كأنّه لا عقول ولا سمع لهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴾ [الإسراء:45 _46].

(1) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (15/ 244).

(2) تفسير القرآن، السمعاني، (3/ 246).

من خلال ما سبق يتضح أنّ عدم الاستماع للحق والانتفاع به ميزة المكذبين، وما فعل هؤلاء إلاّ مشيا على سنن من قبلهم من أعداء الرّسل، فقد قال نوحﷺ رافعا الشكوى لربه: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح:7].

وفي المقابل فإنّ حُسن الاستماع صفة لعباد الله المتقين، فكل فريق يستحق من المدح أو الذم على حسب مسلكه، قال القرطبي: «حُسن الاستماع كما يجب قد مدح الله عليه فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر:18]، وذمّ على خلاف هذا الوصف فقال: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾[الإسراء:47]، فمدح المنصت لاستماع كلامه مع حضور العقل، وأمر عباده بذلك أدبا لهم، فقال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:204]... وقال: ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ [طه:13]؛ لأن بذلك يُنال الفهم عن الله تعالى.

روي عن وهب بن منبه أنه قال: «من أدب الاستماع سكون الجوارح وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى، وهو أن يكفّ العبد جوارحه، ولا يشغلها فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحصر عقله فلا يُحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم».

وقال سفيان بن عيينة: «أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل ثم النشر، فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بنية صادقة على ما يحب الله، أفهمه كما يحب، وجعل له في قلبه نورا»[1].

وقد جاء في السنة النبوية ما يبرز أدب حسن الاستماع عند الصحابة الكرام رضي الله عنهم، فعن أسامة بن شريكﷺ قال: «**أتيت النبيﷺ، وإذا أصحابه كأنما على رءوسهم الطير**»[2].

(1) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (11/ 176).

(2) أخرجه أحمد في مسنده، رقم: 3855، (30/ 394)، وأبو داود في سننه، باب في الرجل يتداوى، رقم: 3855، (4/ 3)، وصححه شعيب الأرنؤوط.

وقد جاءت رواية أخرى عنه تبرز أنّ هذا الخلق كان حالة دائمة، ولم يكن أمرا عارضا رآه حال قدومه ثم تغير الحال بعدها، قالﷺ: «**كنا عند النبيﷺ، كأن على رءوسنا الرَّخَمُ** [1]**، ما يتكلم منا متكلم**»[2].

وعلى هذا الحال سار السلف قديما، ذكر الذهبي عن أحمد بن سنان أنّه قال: «كان عبد الرحمن ــ بن مهدي ــ لا يُتحدث في مجلسه ولاُ يبرى قلم ولا يقوم أحد، كأنما على رءوسهم الطير أو كأنهم في صلاة»[3].

وقد أينع هذا الأدب ثمار طيبة، ظهرت في علمهم وفقههم، وحسن نفعهم... فحسن الاستماع يولد حسن الاتباع.

ومن الحرص على العلم أن يطلب صاحبه المزيد منه مهما ارتقى في مراتبه، وقد مرّ معنا هذا الأدب في حق المعلم، ويحسن التنبيه إليه في هذا المقام أيضا؛ لأن الطالب ربّما ظن أنّه ارتقى في مراتب العلم، فيكسبه ذلك الجمود والغرور، فيكون معول هدم في مجتمعه حين يتكلم فيما لا يعلم؛ وتلك إحدى المصائب التي تحلّ بالأمة بسبب أنصاف المتعلمين، وفي هذا يقول المناوي: « إنّ من شرع في حقائق العلوم ثم لم يبرع فيها، تتولد له الشبه وتكثر عليه فيصير ضالا مضلا، فيعظم على النّاس ضرره، وبهذا النّظر قيل نعوذ بالله من نصف فقيه أو متكلّم»[4]، ويصدق هذا في كل الفنون، سواء ما تعلق بالعلوم الشرعية أو العلوم الكونية.

وقد انطلق ابن باديس من واقعه منكرا انصراف المشتغلين بالعلم عنه لظنهم أنهم أدركوا أعلى مراتبه، حيث قال: « ما أكثر ما رأينا من قطعهم ما حصّلوا عليه من علم عن العلم، فوقف بهم عند ما انتهوا إليه، فجمدوا وأكسبهم الغرور بما عندهم، فتعظموا وتكلّموا فيما لم يعلموا فضلوا وأضلوا، وكانوا على أنفسهم وعلى النّاس شر فتنة وأعظم بلاء فبمثل هذه الآية[5] الكريمة يداوي نفسه من ابتلي بهذا المرض، فيقلع عن جموده وغروره، ويزداد مما ليس عنده علم ما لم يعلم، ويحذر من أن يقف على طلب العلم ما دام فيه زمن من الحياة، ويقتدي بهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلّم فلن يزال يطلب من الله تعالى أن يزيده علمًا بما ييسر له من خزائن رحمته، وما يلقيه

(1) الرَّخَمُ: نوعٌ مِنَ الطَّير معروفٌ، واحدتُه رَخَمَة. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، (2/ 212).

(2) أخرجه ابن حبان، ذكر البيان بأن من حسن خلقه في الدنيا كان من أحب الناس إلى الله تعالى، رقم: 486، (2/ 236)، وصححه الألباني.

(3) تذكرة الحفاظ، شمس الدين الذهبي، ت: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ط: 1، 1419هـ- 1998م، (1/ 242).

(4) فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى – مصر، ط: 1، 1356 (3/ 378).

(5) يقصد قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه/114].

في قلبه من نور، وما يجعل له من فرقان، وما يوفقه الله إليه من أصل ذلك كله، وهو تقوى الله والعمل بما علمه»(1).

الفرع الثاني: تقييد العلم

ومن آداب المتعلم كما نصّ عليها الكتاب والسنة تقييد العلم؛ أي كتابته وتدوينه، ولا يخفى ما في تقييد العلم من فوائد؛ أساسها حفظه من الاندراس والنسيان، إذ ليس في مقدور الإنسان غالبا أن يستحضر جميع ما يلقى إليه، فقد طبع على النسيان، كما في قوله جلّ وعلا: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾[طه:115]؛ فإذا كان هذا شأن آدمعليه السلام فإن ذلك يسري في ذريته.

وقد حرص الإسلام على حفظ مصالح النّاس من الضياع بسبب النسيان، فأمر بكتابة الديون، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ [البقرة: 282]، فإذا كان الأمر بالكتابة للحفاظ على المال وهو من مقاصد الشريعة، فإن تدوين العلم لا يقل أهمية عن ذلك، فبه تحفظ المقاصد جميعا.

والمتتبع لنصوص الكتاب والسنة يقف على أهمية تقييد العلم وتدوينه، فأول ما نزل قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ④ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[العلق:1_5]، والشاهد من الآيات قوله: ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ④ ﴾، قال القاسمي: «ذكر التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده؛ إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق، وتعلم الوصايا، وتحفظ الشهادات، ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيّد أخبار الماضين للباقين اللاحقين.

ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن وتخبطت الأحكام، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف، وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم، إنما يعتريهم من النسيان الذي يمحور صور العلم من قلوبهم، فجعل لهم الكتاب وعاء حافظا للعلم من الضياع، كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان، فنعمة الله عزّ وجلّ بتعليم القلم بعد القرآن من أجلّ النعم، والتعليم به وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة، فإن الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه، وفضل أعطاه الله إياه، وزيادة في خلقه

(1) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس، (ص: 345).

وفضله، فهو الذي علمه الكتابة، وإن كان هو المتعلم، ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علَّم بالقلم، فإنه علَّمه فتعلّم، كما أنه علّمه الكلام فتكلم ...»[1].

ولأهمية الكتابة، فقد أقسم الله جل وعلا بالقلم فقال: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:1] ، قال ابن عاشور: «فيها إشارة إلى التحدي بمعجزة الأمية بقوله: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، وابتدئت بخطاب النبيﷺ تأنيسا له وتسلية عما لقيه من أذى المشركين، وإبطال مطاعن المشركين في النبيﷺ، وإثبات كمالاته في الدنيا والآخرة وهديه وضلال معانديه وتثبيته، وأكد ذلك بالقسم بما هو من مظاهر حكمة الله تعالى في تعليم الإنسان الكتابة، فتضمن تشريف حروف الهجاء والكتابة والعلم لتهيئة الأمة لخلع دثار الأمية عنهم وإقبالهم على الكتابة والعلم لتكون الكتابة والعلم سببا لحفظ القرآن»[2].

وممّا يؤكد أهمية الكتابة في حفظ العلم، أنّ الله تعالى جعلها من أسباب حفظ القرآن الكريم، فأشار إلى أنّه "كتاب" في العديد من آياته، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]، وقال أيضا: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:155]، وكان هذا قبل أن يجمع القرآن في مصحف واحد كما هو معلوم، قال ابن عقيلة: « وقد أرشدنا الله تعالى بقوله: ﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:1-2]، مع قوله: ﴿وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:285] إلى أن طريق تخليد كتابه العزيز تدوينه بالكتابة ... فدل هذا على مشروعية كتابة القرآن العظيم وغيره من العلوم الإسلامية، فصارت الكتابة هي السبب إلى تخليد كل فضيلة، والوسيلة إلى توريث كل حكمة جليلة، وحرزاً مودعاً لا يضيع المستودع فيه، وكنزاً لا يعتريه نقص لما تصطفيه، وعمدة يرجع إليها عند النسيان، إذ لا يطرأ عليها ما يطرأ على الأذهان، لأنها المعتمدة؛ بل تكون لرد الشارد كالمستند، تنقل علوم الأولين والآخرين، وتلحق آثار الأمم السابقة والقرون الماضية، تخاطبك بلسان الحال عند تعذر المقال فكأن الميت حي بهذا الاعتبار، والمفقود موجود بتجدد الأخبار...»[3].

وجاء في السنة النبوية حثّ النبيﷺ على الكتابة لما لها من أهمية في حفظ العلم، فعن عبد الله بن عمرو، قال: «كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول اللهﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: أتكتب كل شيء تسمعه

(1) محاسن التأويل، القاسمي، (9/ 509).

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (29/ 58).

(3) الزيادة والإحسان في علوم القرآن، محمد عقيلة، ت: محمد حقي، مركز البحوث والدراسات، جامعة الشارقة_ الإمارات، ط:1، 1427 هـ، (2/ 429).

ورسول اللهﷺ بشر يتكلم في الغضب، والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول اللهﷺ، فأومأ بأصبعه إلى فيه، فقال: «**اكتب فو الذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق**»[1].

وعن أبي هريرةرضي الله عنه، قال: «لما فتحت مكة قام النبي، فذكر الخطبة خطبة النبيﷺ، قال: فقام رجل من أهل اليمن يقال له: أبو شاه، فقال: يا رسول الله، اكتبوا لي، فقال: «**اكتبوا لأبي شاه**» [2].

وتكمل أهمية الكتابة في أنها تتيح لصاحبها تحصيل العلم أكثر من غيره، فهذا أبو هريرة يقر لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بالتفوق في علمه بحديث النبيﷺ؛ لأنه لم يكتف بمجرد السماع، حيث قال: «ما كان أحد أعلم بحديث رسول اللهﷺ مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب بيده، ويعيه بقلبه، وكنت أعيه بقلبي، ولا أكتب بيدي، واستأذن رسول اللهﷺ في الكتاب عنه، فأذن له»[3]، وعن أبي هريرةرضي الله عنه قال: «ما من أصحاب النبيﷺ أحد أكثر حديثا عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب»[4].

وممّا ينبغي الإشارة إليه ما ورد من أحاديث تنهى عن الكتابة، مما يوحي بالتعارض بين الأمر والنهي، فعن أبي سعيد الخدريرضي الله عنه، قال: «**استأذنا النبيﷺ في الكتابة فلم يأذن لنا**»[5]، وجاء حديث آخر يوضّح أنّ النهي خاص بكتابة الحديث عنهﷺ، مخافة أن يختلط ذلك بالقرآن، فعن أبي سعيد الخدريرضي الله عنه أن رسول اللهﷺ قال: «**لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه ...**»[6].

وانطلاقا من هذه الأحاديث كره بعض السلف كتابة العلم، ثم اتفقوا بعد ذلك على مشروعيته، قال القاضي عياض في تعليقه على حديث إذن النبيﷺ لأبي شاه بالكتابة: «فيه دليل على جواز تدوين العلم والسنن وكتبه في الصحائف، ويحكى عن بعض السلف كراهية ذلك، قال القاضي: من كرهه من السلف فلأحاديث رويت في ذلك منها عن أبي سعيد: « **استأذنا رسول اللهﷺ في الكتابة فلم يأذن لنا** »، وعن زيد بن ثابت: «**أمرنا – عليه السلام– ألا نكتب شيئا** »، وأخذ بذلك جماعة من الصحابة ومن بعدهم من التابعين، مخافة الاتكال على الكتاب وترك الحفظ، ولئلا يُكتب شيء مع القرآن، ثم جاءت أحاديث بالإذن في الكتاب في حديث عبد الله بن

(1) أخرجه أبو داود في سننه، باب في كتاب العلم، رقم: 3646، (5/ 489)، وصححه شعيب الأرنؤوط.

(2) أخرجه أبو داود، باب في كتاب العلم، رقم: 3649، (5/ 493)، وصححه شعيب الأرنؤوط.

(3) أخرجه أحمد في مسنده، رقم: 9231، (15/ 127)، وحسنه شعيب الأرنؤوط.

(4) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم: 113، (1/ 34).

(5)أخرجه الترمذي، باب ما جاء في كراهية كتابة العلم، رقم: 2665، (5/ 38)، وصححه الألباني.

(6) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، رقم: 3004، (4/ 2298).

عمرو بن العاص، وأجازه معظم الصحابة والتابعين، ووقع عليه بعد الاتفاق، ودعت إليه الضرورة؛ لانتشار الطرق، وطول الأسانيد، واستنباط المقالات، وكثرة النوازل، مع قلة الحفظ وكلال الفهم»(1).

ونقل العيني عن ابن بطال أنّه قال تعليقا على الحديث السابق: «فيه إباحة كتابة العلم، وكره قوم كتابة العلم لأنها سبب لضياع الحفظ، والحديث حجة عليهم. ومن الحجة أيضا ما اتفقوا عليه من كتابة المصحف الذي هو أصل العلم، وكان للنبي، عليه الصلاة والسلام، كُتّاب يكتبون الوحي»(2).

من خلال ما سبق يتضح أنّ النهي كان أول الأمر مخافة أن يختلط الحديث بالقرآن، فلما أمن النبيﷺ ذلك أذن للصحب الكرام بالكتابة، وقد أذن لبعضهم قبل ذلك كعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، ولاحظ كيف أنّ الصحابة كانوا يستأذنون، وذلك ما يبرز أدبا مهما ينبغي على المتعلم التحلي به، فيستأذن من معلمه، والمعلم يُقدّر مصلحة الإذن له من عدمه؛ إذ قد يستدعي ما يلقيه له أن لا يشتغل بشيء حتى الكتابة؛ ليتفرغ ذهنه ويستجمع فكره لفهم المراد.

وخلاصة هذا المبحث يظهر أن الإسلام اهتمَّ بالمتعلم اهتماما بليغا، فهو محور العملية التعليمية ومنطلقها، ومن عناية القرآن والسنة به؛ حثّه على الفضائل والآداب الرفيعة، ومن ذلك احترام معلمه، والابتعاد عن حسد أقرانه، والحرص على العلم والتسابق إلى حلقه، والتركيز أثناء الدرس، مع العناية بتقييد ما يلقى عليه.

وخلاصة الفصل أنّ القرآن والسنة اهتما بآداب العلم، فمن الآداب ما يشترك فيه المعلم والمتعلم، كالإخلاص لله تعالى، والعمل بالعلم، والصبر في طلبه وتبليغه، مع التواضع، بالإضافة إلى العناية بالهيئة وطريقة الجلوس.

ومن الآداب ما يغلب فيه جانب المعلم أو المتعلم، فالمعلم يجب يكون رفيقا رحيما سهلا عدلا، يراعي الحالة النفسية والمادية للمتعلم، ويلاحظ استعداده الذهني. وعليه أن لا يقعد عن طلب العلم مهما ارتقى في درجاته، وليؤدي زكاة ما تعلمه بنشره، ونفع النّاس به. وليوطد العلاقة بطلاّبه، فيناديهم بأسمائهم أو كناهم حتى يُشعرهم بالاهتمام، ما يساعدهم على الحرص والانتباه، فإن رأى ذلك منهم قابلهم بالتشجيع والثناء.

وقد اهتما القرآن والسنة بالمتعلم، باعتباره محور العملية التعليمية وأساسها، ومن عنايتهما به حثّه على احترام معلمه، والابتعاد عن حسد أقرانه، والعناية بالعلم والتسابق إلى حلقه، مع كتابة ما يلقى عليه.

(1) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، (4/ 474).

(2) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، (2/ 167).

كل الآداب السابقة مهمة لنجاح العملية التعليمية، غير أنّ ذلك لا يحقق المقصود إلا بسلوك سبيل العلم ومراعاة طرائق تحصيله، مع العناية بمعرفة آثاره حتى يكون ذلك حافزا للعناية به، هذا ما سأوضحّه من خلال الفصل الموالي.

الفصل الثاني

أساليب التعليم وآثاره في القرآن والسنة.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: أساليب التعليم في القرآن والسنة.

المبحث الثاني: آثار التعليم في القرآن والسنة.

المبحث الأول: أساليب التعليم في القرآن والسنة

أساليب التعليم هي الطرق الموصلة لفهمه وترسيخه، وبذلك فهي تكتسي أهميّة بالغة، فما لايتمّ الواجب إلاّ به فهو واجب، ويزداد الأمر أهميّة حين يكون مستندها القرآن والسنة، وقد حثّ النبيﷺ على سلوك طريق العلم، وأوضح أنّ ذلك طريق للجنة، حيث قال: «**من سلك طريقا يلتمس به علما سهّل الله له طريقا إلى الجنة**»(1). قال ابن حجر: «قوله: (طريقا) نكّرها ونكّر (علما)؛ ليتناول أنواع الطرق الموصلة إلى تحصيل العلوم الدينية، وليندرج فيه القليل والكثير»(2).

من خلال كلامه السابق يتّضح أنّ البحث في طرائق العلم وأساليبه ممّا حثّ عليه النبي ﷺ، كما أنّه طبّق هذه الأساليب، وقد أُمرنا أن نقتدي به، ويأتي هذا المبحث ليستقرئ أهم الأساليب التعليمية الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية، وتفصيل ذلك كما يلي:

المطلب الأول: أسلوب التدرج

سأبين من خلال هذا المطلب عناية القرآن الكريم والسنة النبوية بأسلوب التدرّج، وقبل ذلك يستحسن التقديم ببيان مفهومه وأهميته، حيث تشير مادة (دَرَجَ) في المعاجم اللغويّة إلى الارتقاء شيئا فشيئا، ومنه يقال: «درج: دَرَجُ البناءِ ودُرَّجُه، بالتَّثقيل مراتب بعضها فوق بعض، واحدتُه دَرَجَة ودُرَجَةٌ...والدَّرَجَةُ: الرِّفعة فِي المنزلة، والدَّرَجَةُ واحدةُ الدَّرجات، وهي الطَّبقات من المراتب، والدَّرَجَةُ: المنزلة، والجمع دَرَجٌ، ودَرجاتُ الجنَّة: منازل أَرفعُ من منازل...ويقال: دَرَّجْتُ العليل تَدْريجاً إِذا أَطعمته شيئا قليلا، وذلك إِذا نَقِهَ، حتَّى يَتَدَرَّجَ إِلى غاية أَكله، كما كان قبل الْعِلَّةِ، دَرَجَةً دَرَجَةً»(3).

بالاعتماد على المعاني اللغوية؛ فإنّ التدرج **اصطلاحا** يراد به: انتقال المعلم في تلقينه للعلوم والمعارف شيئا فشيئا، مراعيا في ذلك حال المتعلّم.

ويعتبر أسلوب التدرّج من أنّفع الأساليب التعليمية التي تساهم في إيصال المعارف؛ بحيث ينبغي على المعلم أن يوصل الحقائق شيئا بعد شيء مراعيا أحوال المخاطبين ومستوياتهم، ولقد نوّه علماء الإسلام عموما بهذا

---

(1) سبق تخريجه. ينظر: (ص:73).

(2) فتح الباري، ابن حجر، (1/ 160).

(3) لسان العرب، ابن منظور، (267/2).

الأسلوب، قال الرازي: «وأحسن الطرق في التعليم والتفهيم؛ الأخذ من الأقرب فالأقرب، مترقيا إلى الأصعب فالأصعب»(1)، وقال النووي: «وينبغي أن يُؤَدِّب المُتعلم على التدريج بالآداب السنيّة، والشيم المرضيّة»(2).

ولم يغفل علماء التربية والاجتماع أهميته، حيث أشادوا به كثيرا، وعلى رأسهم ابن خلدون حيث قال: «اعلم أنّ تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا، **إذا كان شيئا فشيئا، وقليلا قليلا**...»(3).

وممّا يبرز أهمية التدرج أنّه مظهر من مظاهر حكمة الله ﷻ، وقد اعتنى القرآن الكريم والسنة النبوية به كأسلوب تربوي تعليمي، وهذا ما سيتضح فيما يلي.

الفرع الأول: عناية القرآن الكريم بأسلوب التدرج

بيّن الله جلّ ثناؤه في كتابه العزيز أنّه خلق السموات والأرض في ستة أيام، قال ﷻ: ﴿ **ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** ﴾ [السجدة: 4]، وقد أورد ابن عاشور سرًّا بديعا في ذلك حيث قال: «وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون خلق السماوات والأرض مدرجا، وأن لا يكون دفعة؛ لأنّه جعل العوالم متولدا بعضها من بعض ...وليكون هذا الخلق مظهرا لصفتي علم الله تعالى وقدرته، فالقدرة صالحة لخلقها دفعة، لكن العلم والحكمة اقتضيا هذا التدرج»(4).

وإذا كان هذا من حكم الله تعالى في خلقه، فكذلك اقتضت حكمته أيضا أن يكون نزول القرآن الكريم على التدرّج، حيث لم ينزل دفعة واحدة وإنّما جاء منجّما؛ ليسهل حفظه وفهمه وتطبيقه، وقد بيّن الله جلّ ثناؤه ذلك حين قال: ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا** ﴾[الفرقان: 32]. قال ابن عجيبة نقلا عن النسفي: «لنقوي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه؛ لأنّ

(1) مفاتيح الغيب ، الرازي، (21/ 519).

(2) التبيان في آداب حملة القرآن، محيي الدين النووي، ت: محمد الحجار، دار ابن حزم ، بيروت، ط:3، 1414 هـ - 1994م، (ص: 41).

(3) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن ابن خلدون، ت: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط:2، 1408 هـ - 1988 م، (734/1).

(4) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (8 / 161).

المتلقي إنّما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء، وجزءاً عقب جزء، ولو أُلقي عليه جملة واحدة لعجز عن حفظه»[1].

وكذلك رُوعي هذا الأسلوب في جملة الأوامر والشرائع؛ حيث امتازت الفترة المكيّة بترسيخ الإيمان في النّفوس، ولم تكن الظروف مناسبة ليكثر تلقي الشعائر التعبدية التي تحتاج إلى كلفة ومشقة، ولم يأت غالب ذلك إلاّ في أواخر الفترة المكيّة ثم المدنيّة، وأبرز مثال يُذكر في هذا السياق؛ تحريم الخمر، قال الطيبي: «نزلت في الخمر أربع آيات... قال القفال: «الحُكم في وقوع التحريم على هذا الترتيب؛ أنّه تعالى علم أن القوم كانوا ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم به كثيراً، فعلم أنّه لو منعهم دفعة واحدة لشق عليهم، فلا جرم استعمل في التحريم هذا التدريج وهذا الرفق»، ومصداقه ما روينا عن البخاري، عن يوسف بن ماهك أنّه قال: قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لعراقي: «إنّما نزل أول ما نزل من القرآن سورة من المفصل فيها ذكر الجنّة والنار، حتى إذا ثاب النّاس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا قالوا: لا ندع الزنا»[2].

من خلال النّقل السابق يمكن أن أسجل ملاحظة مفادها أنّ حكمة اللهﷻ اقتضت أن تأتي الأحكام الشرعيّة التي تتحقق بها العبوديّة بالتدرّج مراعاة لأحوال النّاس وواقعهم، ولو جاءت دفعة واحدة لما استطاعوا امتثالها كما هو صريح في قول عائشة رضي الله عنها، وكذلك الأمر بالنسبة لبقية العلوم النّافعة، فإنّه من رام العلم جمّلة ذهب عنه جمّلة، وإنّما يطلب العلم على مرّ الأيّام واللّيالي.

وإذا كان أسلوب التدرج قد رُوعي في التشريع، فإنّه روعي أيضا في ترتيب سور القرآن، وقد بيّن الزركشي بعض الحكم المتعلّقة بذلك حيث قال: «وسُوّرت السور طوالا وقصارا وأوساطا؛ تنبيها على أنّ الطُول ليس من شرط الإعجاز، فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات وهي معجزة إعجاز سورة البقرة، ثم ظهرت لذلك حكمة في التعليم وتدريج الأطفال من السور القصار إلى ما فوقها يسيرا يسيرا، تيسيرا من الله على عباده لحفظ كتابه، فترى الطفل يفرح بإتمام السورة فرح من حصل على حدّ معتبر، وكذلك المطيل في التلاوة يرتاح عند ختم كل سورة ارتياح المسافر إلى قطع المراحل المسماة مرحلة بعد مرحلة أخرى»[3].

---

(1) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أحمد بن عجيبة، ت: أحمد رسلان، مؤسسة حسن عباس زكي – القاهرة، ط:1، 1419، (97/4).

(2) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، الطيبي، (3/ 353).

(3) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط:1، 1376 هـ - 1957م، (1/ 264).

فكلامه يبيّن أنّ الترتيب رُوعي فيه التدرّج ليأخذ الحافظ الأيسر فالأيسر، وقد أشار إلى الحالة النّفسيّة للمتعلّم حال حفظه سورة ولو على قصرها؛ إلاّ أنّ ذلك يدفع همّته للتشوّق لحفظ المزيد، وما ذكره من أخذ الأيسر فالأيسر أشار إليه البقلاني، معتبرا إيّاه منهجا سار عليه الصحابة الكرام رضي الله عنهم، حيث ذكر: «أنّ طالبَ القرآن منهم لم يكن يبدأ بتحفُّظ البقرة وأمثالها، وإن كان منهم الشاذُ النّادر ممن يفعل ذلك، وإنّما كانوا يبدؤون بالمفصَّل وما خفَّ وسَهُل حفظُه على النّفس، وإنّما كان يتعرَّض لحفظ البقرة وأخواتها من الطوال من قد حفظ سائرَ ما أُنزل ولم يبق عليه منه إلاّ القليل، وربما جعل البقرةَ آخرَ شيءٍ يحفظه، هذا هو العادة والمعروف من أحوال من سبقت هجرتُه وطالت صحبتُه، وحال من ابتدأ الدخول في الإسلام ومن بلغ الحُلُمَ واحتاج إلى التعليم والتدريج»[1].

فإذا أردنا أن يأتي العلم ثماره فينبغي أن يقوم على التدرّج، والمعلم البارع هو الذي يربي المتلقي اعتمادا على هذا الأسلوب، وقد حثّ اللهﷻ على ذلك، فقال: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: 79]، نقل البخاري عن ابن عباس أنّه قال: « ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ ﴾ حلماء فقهاء»، وعقّب ذلك بقوله: « ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره»[2].

يتضح أنّ تعقيب البخاري يُفهم منه: ربطه بيّن التدرّج والحلم والفقه؛ فالحلم يظهر من خلال الحرص على أحوال المخاطبين والتدرّج معهم وعدم تكليفهم ما لا يُطاق، والفقه يتضح من خلال تقديم الأولويات، وهو عيّن الحكمة، فقد جاء عن عليّ رضي الله عنه أنّه قال: «حدّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذّب الله ورسوله؟»[3]، قال الذهلي في تعليقه على هذا الأثر: « فيه من الفقه أنّ العالم ينبغي أن يُربي النّاس بالعلم تربية، ويغذيهم إيّاه تغذية، فيربيهم بصغار العلم قبل كباره، فيكون ربانيًا ... ويُوضّح ذلك أن الطفل لما كانت معدته لا تقوى على هضم الأطعمة الغليظة يسّر الله له رزقه من ثدي أمه مدة طويلة يتدرّج فيها إلى تناوله الأغذيّة الباقية على جهتها، فإنّ اللّبن قد كان غذاء ثم انقلب لبنًا فصار على نحو الشيء المصاعد فهو من ألطف الأغذية، فإذا قويت معدة الطفل غذي بالأغذية القويّة، فكذلك ينبغي للعالم أن يرفق بالناس في التعليم، فلا يعرض عقولهم لسماع ما تنكره من قبل

---

(1) الانتصار للقرآن، أبو بكر البقلاني، ت: محمد القضاة، دار ابن حزم – بيروت، ط:1، 1422هـ - 2001م، (151/1).

(2) صحيح البخاري، البخاري، (1/ 25).

(3) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا، رقم: 127، (1/ 37).

أن يتيقن قوة عقولهم لدفع الشبهة، وقبول الحجّة، والكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، وإلا عرّضهم للتكذيب، كما قال علي رضي الله عنه»(1).

ومن ترك التدرّج لا يستحق هذا الوصف، بل ولا يصلح لتربية النّاس وتوجيههم، فمن مفاسد العلم تلقي المعلومات دفعة واحدة، وقد قيل: «من رام العلم جملة ذهب عنه جملة، وإنما يطلب العلم على مر الأيام والليالي»(2).

وقد أثنى الله جلّ ثناؤه في آية أخرى على المتدرجين في تحصيل العلم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: 121]، قال ابن العربي مُستدلاً بهذه الآية على ضرورة مراعاة هذا الأسلوب: «ويجب أن لا يخوض في التعليم دفعة، بل يقبل على الأهم، فإذا أكمله انتقل إلى غيره، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾؛ قيل فيه: لا ينتقلون عن فن حتى يحكموه علما وعملا، كما روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه أقام على سورة البقرة ثمان سنين حتى أحكمها»(3).

هذا باختصار بيان لعناية القرآن الكريم بأسلوب التدرج؛ حيث ذكر الله جلّ ثناؤه أنّ السماوات والأرض خلقت في ستة أيام، كما أنّ القرآن نزل شيئا فشيئا، وروعي التدرج في أحكامه التشريعية، كل ذلك مظهر لحكمة الله جلّت قدرته.

الفرع الثاني: عناية السنة النبوية بأسلوب التدرج

جاء في السنة النبوية ما يبيّن هذا الأسلوب ويجلّيه عن طريق نموذج عملي لما كان عليه جيل الصحابة رضي الله عنهم؛ حيث كان التركيز على الأصول والكليات قبل الفروع والجزئيات، ومما يؤكد ذلك ما روي عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: «**كنّا مع النبي ﷺ، ونحن فتيان حَزاوِرة**(4)**، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلّم القرآن، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا به إيماناً**»(5).

(1) الإفصاح عن معاني الصحاح، يحي الذهلي، ت: فؤاد أحمد، دار الوطن، ط:1، 1417هـ، (1/ 267).
(2) حلية طالب العلم، بكر أبو زيد، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، ط:1، 1416 هـ،(ص: 154).
(3) قانون التأويل، أبو بكر بن العربي، (ص: 638).
(4) حزاورة: جمع حزور. وَيُقَال أَيْضا: حزور إِذا قَارب أَن يبلغ، ينظر: غريب الحديث، ابن قتيبة، (3/ 758).
(5) أخرجه ابن ماجه في سننه، باب في الإيمان، رقم: 61، (1/ 23)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجة، رقم: 62، (1/37).

وقد أكدّ ابن عمرﷺ أنّ هذا المنهج سرى على الصحابة رضي الله عنهم عموماً، فقال: «**لقد** عشنا برهة من دهرنا، وإن أحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمدﷺ ، فنتعلم حلالها وحرامها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها»(1)، ثم بيَّن أن هذا المنهج طرأ عليه تغيير في جيل التابعين، فيقول عن بعض من شاهد طريقة تعلمهم القرآن: «ولقد رأيت اليوم رجالاً، يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ما يدري ما آمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، وينثره نثر الدَّقَل»(2)_ (3).

باعتماد النّقل السابق يتبيّن أن تركيز الصحابة رضي الله عنهم لم يكن مجرد تكثير للمحفوظات وتلقيها جملة واحدة دون فهم ولا استيعاب، بل كانوا يتدرجون في ذلك ويراعون سُلّم الأولويات، فاتبعوا في تعلم تفسير القرآن منهجاً فريداً، يتعلمونه شيئاً فشيئاً، وآية آية، وقد ساعدهم هذا التدرّج على فهم القرآن والتأمل في آياته، والوقوف على المعاني الصحيحة لها، فعن أبي عبد الرحمن السلمي: «**حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبيﷺ أنهم كانوا يقترئون من رسول اللهﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى، حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل معا**»(4)_(5).

ولتتضح خطورة التخلي عن التدرّج في طلب العلم وتلقيه، أعود إلى الوصف الذي تضمّنه كلام ابن عمر رضي الله عنهما عن الزمن الذي أدركه، حين طرأ تغير في منهج التلقي، حيث قال: « ولقد رأيت اليوم رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ما يدري ما آمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، وينثره نثر الدَّقَل»؛ إذ يبين هذا الكلام بوضوح أنّ أخذ القرآن جملة دون العناية بالجانب النّفسي للمتعلم كالتحلي بمكارم الأخلاق يُحدِث خللا، كما أنّ عدم الوقوف على المعاني شيئا فشيئا يؤدي إلى التكثير من المحفوظات دون أن يكون لذلك أثر في واقع المتعلّم.

(1) أخرجه البيهقي في الكبرى، باب البيان أنه إنما قيل: يؤمهم أقرؤهم إن من مضى من الأئمة كانوا يسلمون كبارا فيتفقهون قبل أن يقرءوا مع القراءة، رقم: 5290، (3/ 170)، والحاكم في المستدرك، رقم: 101، (1/ 91)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا أعرف له علة ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

(2) الدقل: تمر رَدِيء لَا يتلاصق. ينظر: الفائق في غريب الحديث، الزمخشري، (2/ 4).

(3) المقومات الشخصية لمعلم القرآن الكريم، حازم سعيد حيدر، مجمع الملك فهد، السعودية، د ت ط، (ص: 46) (بتصرف).

(4) أخرجه أحمد في مسنده، رقم: 23482، (38/ 466)، وحسنه شعيب الأرنؤوط.

(5) نقد الصحابة والتابعين للتفسير _ دراسة نظرية تطبيقية _ عبد السلام الجار الله، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، د ت ط، (ص: 140) (بتصرف).

وبالتأمل إلى شأننا التربوي اليوم يتضح الخلل جراء إهمال التدرّج في أخذ بعض المعارف والعلوم، وقد أجريت العديد من الدراسات في علوم التربية، توصلت إلى بيان ضُعف التواصل والانسجام بين التعليم الثانوي والتعليم العالي(1)، وهذا ما يعود بآثار سلبية على مستوى التحصيل، فينعكس ذلك سلبا على واقع الفرد والمجتمع.

المطلب الثاني: أسلوب الحوار

يأتي هذا المطلب لبيان عناية القرآن الكريم والسنة النبوية بأسلوب الحوار كأسلوب تعليمي، وقبل ذلك ينبغي التقديم ببيان مفهومه وأهميته، فأصل الحوار **لغة** من الحور، وهو الرجوع عن الشيء إلى الشيء، وفي لسان العرب: «وهم يتحاورون أي: يتراجعون الكلام، والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة»(2).

وأما في **الاصطلاح** فيراد به الطريقة التي يستعملها المحاور مع الطرف الآخر في موضوع محدد بهدف الوصول إلى الحق من خلال إقناعه وتصحيح خطئه ما أمكن(3).

وقد فرق البعض بين الحوار والجدال؛ فالحوار مراجعة الكلام وتبادله بين المتحاورين وصولاً إلى غاية مستنداً إلى أنه يجري بين صاحبين أو اثنين ليس بينهما صراع، ومنه قوله تعالى: ﴿ **قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ** ﴾[الكهف:37].

وأما الجدال فأكثر وروده في القرآن الكريم بالمعنى المذموم كقوله جلّ ثناؤه: ﴿ **وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ** ﴾[غافر:5]، وهذا الجدل حوار لا طائل من ورائه، ولكن جاء الجدل أيضاً محموداً في مواضع كقوله تعالى: ﴿ **وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ** ﴾[العنكبوت:46] [العنكبوت:46]، وقوله تعالى: ﴿ **ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل:125].

---

(1) ينظر على سبيل المثال: التعليم الثانوي في الجزائر ومبررات إصلاحه، لوغريت أحمد، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة بوزريعة، 1994- 1995.

(2) لسان العرب، ابن منظور، (4/ 218).

(3) آداب الحوار من خلال سيرة مصعب بن عميرﷺ، عدنان الجابري، (ص: 6) (بتصرف).

وذهب البعض إلى أن الجدال بالتي هي أحسن مرادف للحوار الإيجابي البناء، ويجمع بين الحوار والجدال معنى تطارح الرأي والأخذ والرد، وقد جمعهما قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1][1].

ولأسلوب الحوار أهمية كبيرة؛ إذ يعتبر من أنجع الأساليب التربويّة التي تفضي إلى القناعات المبنيّة على الأدلّة والبراهين، فالتعليم الجيد يستلزم مشاركة المتعلم في العملية التعليمية بحماس وإيجابية، والمناقشة تشجع المتعلم على المشاركة في الموقف التعليمي وتوصل به إلى تحقيق المعرفة[2]، ويظهر الأثر الفعال للحوار والمناقشة جليا في تنمية العقول وبثّ الثقة في نفوس المتحاورين، واكتساب فنّ الحديث وطلاقة اللسان والتفكير المنطقي، وانطلاقا من ذلك حظي بعناية فائقة من طرف المختصين في علوم التربية، إذ صار مادة خصبة للتأليف والدراسة[3].

وقد اعتنى القرآن الكريم والسنة النبوية بالحوار، وسبقا في ذلك علوم التربية الحديثة، حيّث أسسا قاعدة صلبة مبنيّة على اليقين لا على مجرد الآراء والنظرية، وفيما يلي بيان لذلك.

الفرع الأول: عناية القرآن الكريم بأسلوب الحوار

جاء في القرآن الكريم ما يبيّن أنّ الحوار وجد قبل وجود الإنسان؛ وذلك من خلال حوار الله ﷻ مع ملائكته، كما ذُكر بشتى صوره في مواقف كثيرة، ومع فئات عُمرية مختلفة، ومع المسلمين والكفار، وهذا كله يدل على أهمية الحوار في التعامل مع مختلف النماذج البشرية، وأنّه من أهم الأساليب التربوية التي تقود الإنسان إلى خيري الدنيا والآخرة، فالحوار يسهم في إقناع الآخرين، كما يظهر مكانة العلماء النّاصحين ليستفاد من علمهم.

ومن الأمثلة الدالة على أهمية أسلوب المحاورة والنقاش ما ورد في قصة يوسف عليه السلام مع الملك، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: 54]، قال المراغي: «أي فأتوه به فلما كلمه وسمع ما أجاب به، قال له إنك لدينا ذو مكانة سامية، ومنزلة عالية، وأمانة

---

(1) وسطية الإسلام ودعوته إلى الحوار، عبد الرب آل نواب، (ص: 20) (بتصرف).

(2) النظام التعليمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، محمد رمضان، مجلة القسم العربي، العدد:18، 2011م، (ص:100) (بتصرف يسير).

(3) من المؤلفات في هذا السياق: كتاب الحوار المدرسي _ كيف نؤسس حوارا مدرسيا ناجحا_ لبدر بن محمد الحسين، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني_ السعودية، ط3، 1432هـ .

تامة، فأنت غير منازع في تصرفك، ولا متهم في أمانتك، وفي هذا إيماء إلى أنّ الحوار بين المتخاطبين يظهر معارف الإنسان وأخلاقه، وآدابه وجميع شمائله، فيقدّره من يعرف أقدار الرّجال ويزنهم بفضائلهم ومزاياهم»[1].

ولقد وضع القرآن الكريم الإطار العام الذي ينبغي أن يتّسم به الحوار، فلا غنى عن المجادلة بالحسنى، والتركيز على إقامة الحجّة وتوضيح المحجّة، وممّا يدل على هذا قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:125]، وقوله ﷻ: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾[العنكبوت:46]، وأكّد على ضرورة الاعتماد على الدليل والبرهان فقال: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[النمل:66].

وقد كان هذا الأسلوب ضمن إطاره القائم على المجادلة بالحسنى وإقامة الحجّة؛ دأب الأنبياء عليهم السلام، فهذا إبراهيم عليه السلام يحاور أباه وقومه، قال تعالى مبيّنا ذلك: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء:51 – 56].

وقال ﷻ في آية أخرى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾[مريم:40 – 48].

المتأمل في حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه يلحظ استعماله للحجّة والتدرج في عرضها، مع حسن المناداة للمخالف، وهذا ما يندرج في إطار الحكمة والموعظة الحسنة، التي تعتبر من أهم ركائز إيصال الحق للآخر، وهو

(1) تفسير المراغي، مصطفى المراغي، (13/ 5).

دأب الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، فقد كان يقول الرسول لخصومه المعاندين: «يا قوم» في تودد وسماحة وتذكير بالروابط التي تجمعهم، ليستثير مشاعرهم، ويطمئنهم فيما يدعوهم إليه(1).

وقد أوضح القرآن الكريم نموذجا لمناقشة أهل الكتاب، مراعيًا أسلوب التدرج مع المخاطب في عرض الحجة والبرهان، مع التركيز على المبالغة في الإرشاد، وذلك من خلال ما جاء في سورة آل عمران، حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿59﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿60﴾ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿61﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿62﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿63﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: 58 – 63].

ومناسبة نزول هذه الآيات ما جاء في قصة وفد نجران ومجيئهم لنقاش النبيﷺ ومجادلته(2)، فجاءه التوجيه الرباني، ليوضّح له الأسلوب الذي يجب أن يسلكه معهم، قال البيضاوي: « أنظر إلى ما راعى في هذه القصة من المبالغة في الإرشاد وحسن التدرج في الحجاج؛ بيَّنَ: أولاً، أحوال عيسى عليه الصلاة والسلام، وما تعاور عليه من الأطوار المنافية للألوهية، ثم ذكر ما يحل عقدتهم ويزيح شبهتهم، فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز، ثم لما أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد عاد عليهم بالإرشاد وسلك طريقاً أسهل، وألزم بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى والإنجيل وسائر الأنبياء والكتب، ثم لما لم يجد ذلك أيضاً عليهم وعلم أن الآيات والنذر لا تغني عنهم أعرض عن ذلك وقال:﴿ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ »(3).

وفي ذلك إشارة واضحة أن هذا الأسلوب قد يصطدم بالهوى فيحجب عن النّفوس قبول الحق رغم وضوحه وجلائه، وهو الذي حال دون اتباع كثير من أهل الكتاب ما أقامه النبيﷺ عليهم من براهين، فقابلوه بنقاش عقيم

---

(1) آداب الحوار وقواعد الاختلاف، عمر بن عبد الله كامل، وزارة الشؤون الإسلامية، السعودية، د ت ط، (ص: 25) (بتصرف).

(2) ينظر: أسباب نزول القرآن، علي الواحدي، ت: عصام الحميدان، دار الإصلاح – الدمام، ط:2، 1412 هـ – 1992م، (ص:104).

(3) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، (2/ 21).

يفضي بصاحبه إلى الجحيم، وفي هذا يقول الله جلّ وعلا: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿47﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿48﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿49﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: 47-50].

الملاحظ من خلال الأمثلة السابقة أنّ هناك قاعدة مشتركة، تتمثّل في الانطلاق من منهج يقوم على النظر والاستدلال، ومخاطبة العقل والفطرة في آن واحد، وهذا ما يسوقنا إلى التأكيد على ضرورة وضع آليات ومنهج يتم الاتفاق عليه بين المتحاورين في أي نقاش علمي قبل بدئه، حتى يُضبط مسار الحوار، وإلا كان هدرا للوقت والجهد، ومن هنا جاء تأكيد القرآن الكريم على الرجوع إلى الثوابت عند التنازع والخلاف، قال جلّ وعلا: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[النساء:59]

وحتى يتسم الكلام بالعموم فإنّ الواجب أن يُتّفق على الأصول التي يقوم عليها موضوع النقاش في أي تخصص، حتى نرسم قاعدة مشتركة نستند إليها، فإن حاد أحد الأطراف عن ذلك، كان كفيلا بإقامة الحجّة عليه.

ومن الأمور المشتركة في الأمثلة السابقة الاعتماد على الأسئلة، مع تهيئة نفسية الطرف الآخر باستخدام عبارات تدلّ على الشفقة والرحمة، ولكل ذلك أثر في تحقيق الأهداف المرجوة.

هذا جانب من عناية القرآن الكريم بالحوار كأسلوب تعليمي اتصف بإقامة الحجّة، واستعمال التدرج والحكمة في عرضها، مع الإعراض عن المخالف المصرّ، وفيما سيأتي بيان عناية السنة النبوية بهذا الأسلوب مع إبراز بعض خصائصه، حتى يُستفاد منها في العملية التعليمية التعلمية.

الفرع الثاني: عناية السنة النبوية بأسلوب الحوار

بمثل ما اهتم القرآن الكريم بأسلوب الحوار فقد اهتمت السنة النبوية به كأسلوب من أساليب التعليم، وأولته أهميّة كبيرة، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها حديث جبريل عليه السلام حين أتى النبي ﷺ ليعلّم الصحابة رضي الله عنهم دينهم، فاعتمد هذا الأسلوب، حين راح يسأل النبي ﷺ وهو يجيبه، والصحابة الكرام رضي الله عنهم يسمعون ويتعلمون.

وقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب في العديد من المواقف التعليمية مع الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وهو في ذلك ينتقي ما يناسب المقام التعليمي؛ فكان حواره مبنيا على الحجّة، ممّا يترك أثرا في نفس المتلقي، فيغير من قناعاته، ومن أمثلة ذلك ما رواه أبو أمامةﷺ قال: «**إن** فتى شابا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه. فقال: «**أدنه**»، فدنا منه قريبا فجلس قال: «**أتحبه لأمك؟** » قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: «**ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**». قال: « **أفتحبه لابنتك؟** » قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك قال: «**ولا الناس يحبونه لبناتهم**». قال: «**أفتحبه لأختك؟** » قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: «**ولا الناس يحبونه لأخواتهم**». قال: « **أفتحبه لعمتك؟** » قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: «**ولا الناس يحبونه لعماتهم**». قال: « **أفتحبه لخالتك؟** » قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: «**ولا الناس يحبونه لخالاتهم**». قال: فوضع يده عليه وقال: « **اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحصن فرجه** » قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء »[1].

فتأمل كيف استطاع الرسولﷺ باستخدام طريق الحوار بآلياته أن يعالج في جلسة واحدة فقط مشكلة عميقة لشاب مندفع؛ وصل به الأمر إلى أن يجاهر برغبته في الزنا أمام جمع من الصحابة رضي الله عنهم، وبمحضر رسول الأمةﷺ.

من خلال هذا المثال تظهر مهارات التواصل التي ينبغي الحرص عليها أثناء الحوار؛ حيث أنّ النبيﷺ أمر الشاب بالاقتراب منه، وحاوره وهو جالس؛ لأن الجالس أهدأ من الواقف، وأكثر قدرة على التحاور الرزين، وفيه تتحقق الألفة بينه وبين محاوره.

كما أنّ النبيﷺ استند إلى آلية السؤال والجواب ليثير انتباه الشاب لخطورة ما يصبو إليه، واللافت للانتباه أنّ النبيﷺ لم يجمع أرحامه، بل فرقهم؛ ليترك لخياله فرصة استهجان كل محاولة اعتداء على واحدة منهن لوحدها؛ فتتعدد فرص النفور من الزنا لينتزع حبّه من قلبه بتصوير مدى بشاعته.

وقد راعى اختيار الكلمات وأسلوب الحديث ونبرة الصوت التي تتفق مع نفس الموقف، وثقافة الشاب، وهذا له أثر كبير في نجاح الحوار؛ فهو العربي الغيور على أمّه وأخته وعمته وخالته... وفي وضع يده عليه والدعاء له دور في فتح قلب المحاور والتأثير فيه لا سيما إذا كان محروما عاطفيا[2].

---

(1) سبق تخريجه. ينظر: (ص:14).

(2) مهارات التواصل مع الأولاد - كي تكسب ولدك؟، خالد الحليبي، مركز الملك عبد الله للحوار الوطني _ الرياض، ط: 1، 1431هـ _ 2009م، (ص: 42) (بتصرف).

ولهذا النص شواهد أخرى تبين عناية السنة النبوية بالحوار كأسلوب تربوي تعليمي، فقد حفلت السنة بعشرات الأمثلة تبين أنّ النبيﷺ كان يربي أصحابه بالاستناد إلى أسلوب الحوار حتى في أحلك الظروف وفي المواقف التي تستدعي أناة وترويا، ومثاله ما كان يوم الحديبية لما كتب الصلح ورأى بعض المسلمين فيها إجحافا، وقع حوار بين بعضهم وبين الرسولﷺ، قال عمر بن الخطابﷺ: « فأتيت نبي اللهﷺ فقلت: ألست نبي الله حقا، قال: «**بلى**»، قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل، قال: «**بلى**»، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: «**إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري**»، قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟**»، قال: قلت: لا، قال: «**فإنك آتيه ومطوف به**»، قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل إنه لرسول اللهﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به»[1].

وليس من قبيل الصدفة أنّ يتوافق كلام أبي بكر وطريقته في إدارة الحوار مع عمر رضي الله عنهما، بنفس طريقة النبيﷺ في ذلك، بل إنّ السبب الرئيس _فيما يبدو لي _ يعود إلى منهج الحوار الذي أخذه صديق الأمة من أقرب الناس إليه، فكانت ثمرته واضحة في توافق كلامه مع كلام النبيﷺ، وهذا ما يُظهر فضلهﷺ، قال الكرماني: «وأما جواب أبي بكر ﷺ بمثل جواب رسول اللهﷺ فهو من الدلائل الباهرة على عظم فضله ورسوخه وشدّة اطلاعه على معاني أمور الدين»[2].

«ولم يكن هذا من عمرﷺ شكا بل طلبا لكشف ما خفي عليه وحثا على إذلال الكفار كما عُرف من قوته في نصرة الدين»[3]، وقد استعمل معه النبيﷺ وأبو بكرﷺ أسلوب الحوار، وهذا ما يبيّن أنّ الحوار كما يُستخدم مع المخالف يستخدم أيضا مع الموافق الذي استشكل أمرا، أو أراد مزيد تفصيل.

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم: 2731، (3/ 196)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، رقم: 1785، (3/ 1411).

(2) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، الكرماني، (12/ 49).

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وقد اعتمد الصحب الكرام رضوان الله عليهم أسلوب الحوار والمناقشة سواء مع المخالف أو الموافق، ومن ذلك أنّ عمر ﷺ كان يُحاور الصغار، حتى إنه يستشيرهم في الأُمُور المهمَّة؛ حيث كان يفعل ذلك مع ابن عباس رضي الله عنهما(1).

وقد استفاد ابن عباسﷺ من هذا الأسلوب حين أرسله عليﷺ لمناقشة الخوارج ومحاورتهم، فبيّن لهم الحق، وساق الحجة بشكل يبهر العقول، فلم ينته النقاش حتى رجع منهم أربعة آلاف عن مذهبهم الفاسد(2). وهكذا عُنِي الرسولﷺ وصحابتُه بأُسلوب الحوار كأسلوب مِن أقوى أساليب الإقناع، وما ذاك إلاّ لأنه يُعَرّف بالأساس العقليِّ والمنطقي لأية قضية تطرَح؛ ليرقى بالمتلقِّي من أسلوب التقليد الأعمى إلى أسلوب إعمال الفِكْر، وإيضاح الحقائق، والحرية في مناقشة أية فكرة تَعْرِض له، حتى يجد الحلَّ الذي يتمَشَّى مع الفطرة السليمة، والعقل الصحيح، دون أن يُفرض عليه بالقوة.

وصفوة القول أنّ الحوار أسلوب قرآني ونبوي، يستند إلى آليات تتمثل أساسا في الاعتماد على الحجّة، والتدرج في عرضها، مع حسن العبارة، والتركيز على مهارات التواصل، كالاقتراب من المحاور، ومجالسته، واختيار الكلمات وأسلوب الحديث ونبرة الصوت التي تتفق مع نفس الموقف، وثقافة الطرف الآخر، بالإضافة إلى آلية السؤال والجواب، مع ضرورة تحديد الهدف، والاتفاق على منهج النظر والاستدلال.

المطلب الثالث: أسلوب التعليم بالسؤال

من أنجع طرق التعليم؛ الاعتماد على طرح الأسئلة، فبها يتحفز الذهن، ويحصل التشويق، وتتحقق المعرفة، فالسؤال رافد مهم في العمليّة التعلميّة، وقد اهتم به القرآن الكريم والسنة النبوية اهتماما بليغا، وهذا ما سيظهر من خلال ما يلي:

الفرع الأول: عناية القرآن الكريم بأسلوب السؤال

مما يبرز عناية القرآن الكريم بأسلوب السؤال إيراده للأسئلة التي كانت تُطرح، وقد جاءت متعددة الصيّغ والأغراض، وطرحت من المؤمنين والمشركين.

فأسئلة المشركين كانت في غالبها لغرض التعنّت والتعجيز، ومن ذلك ما أورده القرآن من سؤال اليهود للنبيﷺ، فعن قتادة قال: «لقيت اليهود نبي الله فتعنتوه وسألوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي

---

(1) منهج التربية النبوية للطفل، مع نماذج تطبيقية من حياة السلف الصالح وأقوال العلماء العاملين، محمد نور بن عبد الحفيظ سويد، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط:1، 1419هـ - 1998م، ص (120، 121).

(2) ينظر: البداية والنهاية، إسماعيل بن كثير، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط: 1، 1418 هـ - 1997م، (10/ 568).

القرنين. فأنزل الله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء: 85]، وأجابهم عن الفتيّة وذي القرنيّن»(1).

الملاحظ أنّ القرآن الكريم أجابهم عمّا تحصل فائدة من معرفته، ونبّه على عدم الخوض فيما يفوق قدرة العقل واستيعابه، وفي ذلك تأديب للمتعلّم وإلزامه حدوده.

في حين أنّ أسئلة المؤمنين كانت تهدف لتلقي العلم، وقد جاء في القرآن نماذج منها، فعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: «سأل الناسُ رسول الله ﷺ عن الأهلة، فنزلت هذه الآية: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ ﴾ [البقرة:189]، يعلمون بها حَلّ دينهم، وعدة نسائهم، ووقت حجهم»(2).

وبتتبع الآيات التي أوردت أسئلة المؤمنين ظهر أنّها بلغت ثلاثة وعشرين آية، ثمانية منها في سورة البقرة3، واستفتحت سورتا الأنفال والمعارج بها، ولعلّ السرّ في ذلك لفت الانتباه.

وقد تنوّعت موضوعات هذه الأسئلة فمنها ما تعلّق بالجانب العقدي، كسؤالهم عن الرحمن جلّ في علاه، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴾ [البقرة:186].

ومنها ما له صلة بالجانب التشريعي كالسؤال عن القتال في الشهر الحرام، والخمر والميّسر، والأنفال... (4).

وقد اشتملت الأسئلة المتعلقة بالتشريع بعض القضايا التي لها صلة ببعض الفئات الاجتماعية، كالنساء واليتامى، بالإضافة إلى بعض المعاملات المالية، وحساب الأهلة، وبعض القضايا الصحية كالسؤال عن الخمر والمحيض... (5).

ومن الأسئلة ما له علاقة بموضوعات تاريخية، كالسؤال عن ذي القرنيين وأصحاب الكهف(6).

---

(1) تفسير يحيى بن سلام، يحي بن سلام، (1/ 161).

(2) جامع البيان، الطبري، (3/ 554).

(3) وهي: (البقرة: 186، 189،215، 216، 217، 219، 220، 222).

(4) ينظر: [البقرة: 216،217] [الأنفال:1].

(5) ينظر: [النساء:127] [البقرة: 189، 219، 220، 222].

(6) ينظر: [الكهف: 83].

من هنا نستنتج شموليّة هذه الأسئلة لموضوعات عديدة، وهذا ما يبين أنّه ينبغي للمعلّم أن يفتح المجال أمام الطلاب ليسألوا عن الأمور المختلفة، شريطة أن يوجّه أسئلتهم لتتناول المفيد من القضايا، وممّا يؤكد هذا أنّ الأسئلة الموجّهة للنبي ﷺ قد أجاب عنها القرآن الكريم باستثناء آيتيّن من أصل خمس آيات تناولت السؤال عن الساعة، لم يتمّ الجواب عليها، وهي قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾[الذاريات:12]، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: 42].

والملاحظ أن أكثر الأسئلة وردت في القرآن المدني، وهذا ما يوضّح الحاجة الملحّة لهذا الأسلوب لتعلّم أحكام الدين وشرائعه، وفي هذا جانب يبرز واقعية الشريعة الإسلامية، وأنّها تجيب على ما تدعو إليه الحاجة.

وممّا يؤكد أهميّة السؤال في تحصيل المعارف؛ أنّ القرآن لم يكتف بالإجابة على الأسئلة التي كانت تطرح، بل حثّ على السؤال في مواطن وبادر بإلقاء الأسئلة في مواطن أخرى، كما بيّن استخدام الأنبياء عليهم السلام لهذا الأسلوب لتحقيق مقصد التعليم والتعلّم.

فقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:43]، فيه حثّ على الرّجوع لأهل الاختصاص لتحصيل العلم، وأشرف علم يسعى إليه العقلاء؛ ما تعلّق بمعرفة الله وإخلاص العبادة له؛ لذا أمر القرآن بالسؤال للوصول لهذا الغرض فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[الفرقان:59]، قال السمرقندي: «يعني: فاسأل عنه عالماً»[1].

وقد بيّن الله جلّ ثناؤه أنّ السؤال طريق لتحصيل العلم اليقيني وإزالة الشك، قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: 94]، قال السعدي: «أي: اسأل أهل الكتب المنصفين، والعلماء الراسخين، فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به، وموافقته لما معهم»[2].

وحثّ الله جلّ ثناؤه نبيّهﷺ على سؤال أهل الشرك في معرض إقامة الحجّة عليهم، وكانت الأسئلة في هذا السياق على ثلاثة أنواع؛ الأول: أن يأمره بطرح السؤال والإجابة عليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ

---

(1) بحر العلوم، السمرقندي، (2/ 543).

(2) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 373).

أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾[الرعد:16].

الثاني: أن يأمره بالسؤال ثمّ يذكر الله ﷻ جوابهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿84﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿85﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿86﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿87﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿88﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون :84_ 89]، وفي طرح السؤال والجواب عليه ترسيخ للعلم وتثبيت له، وفي هذا يقول ابن عاشور: «وجاء الاستدلال بطريق الاستفهام والجواب؛ لأنّ ذلك في صورة الحوار، فيكون الدليل الحاصل به أوقع في نفوس السامعين، ولذلك كان من طرق التعليم مما يراد رسوخه من القواعد العلمية أن يؤتى به في صورة السؤال والجواب»(1).

الثالث: أن يأمره بالسؤال دون أن يُورد الجواب، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [المائدة:59]، وهذا الأخير غرضه الإنكار والمبالغة فيه(2).

ويمكن للمعلم أن يستخدم هذه الأغراض جميعا لتحقيق الأهداف المرجوّة، فإذا كان السؤال يُوصل إلى معرفة أعظم شيء وهو توحيد الله تعالى، فإنّه يوصل لتحصيل مجالات العلم الأخرى من باب أولى.

وقد ذكر الله عز وجل في كتابه أنّ الأنبياء والرّسل عليهم السلام اعتمدوا أسلوب السؤال لغرض التعليم أو التعلّم، فهذا يوسف عليه السلام يقول لصاحبي السجن: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: 39]، وهذا السؤال جاء على سبيل الإنكار(3)، وتحفيز العقل.

وهذا موسى يسأل الخضر عليهما السلام لغرض التعلّم فيقول: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف:66].

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (11/ 155).
(2) ينظر: المصدر نفسه، (6/ 244).
(3) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، (18/ 458).

وبهذا يعلم أنّ السؤال في القرآن الكريم رافد مهم لتعلم العلم وتعليمه، وهذا ما يدعو إلى العناية به في المجال التربوي ضمن إطاره الذي رسمه القرآن، بالإضافة إلى السنة وفيما يلي بيان لعنايتها به.

الفرع الثاني: عناية السنة النبوية بأسلوب السؤال

قد سلكت السنّة النبويّة منهج القرآن الكريم في استخدام السؤال والحثّ عليه، والأحاديث في ذلك كثيرة، ولعلّ أشهرها حديث جبريلﷺ، فعن عمر بن الخطاب قال: « **بينما نحن عند رسول اللهﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبيﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول اللهﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول اللهﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا»، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله، ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»، قال: ثم انطلق فلبثت مليا، ثم قال لي: «يا عمر أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»**(1).

يتضح من الحديث أنّ جبريلﷺ سلك أسلوب السؤال في طريقة حوارية للوصول إلى تعليم الصحابة رضي الله عنهم، وفيه الحثّ على السؤال لتعليم الآخرين، قال ابن هبيرة: «وفي هذا أيضًا من الفقه؛ أن من طرق التعليم أن يسأل العالم عن مسألة وهو يعرفها ليجاب عنها بمشهد غيره فيتعلم تلك المسألة من لم يعلمها»(2).

فطريقة السؤال كانت مقصودة لتعليم الصحابة الكرام رضي الله عنهم، يدل على ذلك قولهﷺ: «**فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**».

---

(1) سبق تخريجه. ينظر: (ص:289).

(2) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، (1/ 200).

وقد كان النبيﷺ يسأل الصحابة الكرام؛ لإثارة انتباههم وتحفيز عقولهم وتشويقهم لما سيلقى إليهم، فعن ابن عمر رضي الله عنهقال: «كنا عند رسول اللهﷺ فقال: «**أخبروني بشجرة كالرجل المسلم لا يتحات ورقها**...»(1).

تضمن الحديث أسلوب السؤال وضرب المثل، ولكليهما دور مهم في ترسيخ المعارف، قال القاضي عياض: «فيه إلقاء العالم المسألة على أصحابه ليختبر قدر أفهامهم وفيه ضرب الأمثال والأشباه»(2).

وثبت أنّ النبيﷺ سأل الصحابة بغرض تحذيرهم من خطورة الوقوع في بعض المخالفات، فعن النعمان بن مرة أن رسول اللهﷺ قال: «**ما ترون في الشارب والسارق والزاني**» _ قال وذلك قبل أن ينزل فيهم _ فقالوا الله ورسوله أعلم، قال: «**هن فواحش وفيهن عقوبة، وأسوأ السرقة الذي يسرق صلاته**» قالوا وكيف يسرق صلاته يا رسول الله قال: «**لا يتم ركوعها ولا سجودها**»(3)، قال الباجي: «قوله ما ترون في الشارب والسارق والزاني»؛ اختبار منهﷺ بمسائل العلم على حسب ما يختبر به العالم أصحابه، وهو الذي قاله أصحابنا في هذا الحديث، ويحتمل عندي وجها آخر وهو أن يكون أراد بذلك تقريب التعليم عليهم، فقرر معهم حكم قضايا يسهل عليهم ما أراد تعليمهم إياه؛ لأنه صلى الله عليه وسلم إنما قصد أن يعلمهم أن الإخلال بإتمام الركوع والسجود كبيرة من الكبائر، وهي أسوأ مما تقرر عندهم أنه فاحشة»(4).

ولا يفوتني التنبيه أنّ هذه الطريقة تسمى في بداغوجيا التعليم بـ: "**العصف الذهني**"، وتعتبر من أفضل الطرق التعليميّة في العصر الحاضر، ويعرّفها بعض الباحثين: بأنّها طرح مشكلة ما على مجموعة معيّنة والسماح لهم بالبحث عن حلٍ لها، ويرجعونها إلى: (أوزبورن) الذي ابتكرها حسبهم في عام 1938م!(5)

وإذا كان النبيﷺ يبادر الصحابة بالسؤال لتحفيزهم لما سيلقى إليهم، فإنّه أيضا يعتمد هذا الأسلوب لمعالجة ما يخالج نفوس البعض من شهوة أوشك في غير محلّه، فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: «**إن** فتى شابا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه. فقال: «**أدنه**»، فدنا منه قريبا فجلس قال:

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، سورة إبراهيم، باب: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿24﴾ ﴾ [إبراهيم]، رقم: (4698)، (6/ 79).
(2) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، (8/ 345).
(3) أخرجه ملك في الموطأ، باب العمل في جامع الصلاة، رقم: 72، (1/ 167)، والدارمي في سننه، باب: في الذي لا يتم الركوع والسجود، رقم: 1466، (ص: 337).
(4) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي، (1/ 298).
(5) ينظر: العصف الذهني وحل المشكلات، يحي محمد نبهان، دار اليازوري العلمية_ عمان، 2008م، (ص:19).

«**أتحبه لأمك؟**» قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: «**ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**». قال: «**أفتحبه لابنتك؟**» قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك قال: «**ولا الناس يحبونه لبناتهم**». قال: «**أفتحبه لأختك؟** » قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: «**ولا الناس يحبونه لأخواتهم**». قال: «**أفتحبه لعمتك؟** » قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: «**ولا الناس يحبونه لعماتهم**». قال: « **أفتحبه لخالتك؟** » قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: «**ولا الناس يحبونه لخالاتهم**». قال: فوضع يده عليه وقال: «**اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحصن فرجه** » قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء »(1).

وإن كنت سقت الحديث آنفا، إلا أني آثرت إعادته لبيان هذا الأسلوب ودوره في تغير القناعات، وتصويب التوجّهات، فقد توصّل النبيﷺ عن طريق جملة من الأسئلة إلى إقناع الشاب بالعدول عما كان يصبو إليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «**أنّ رجلا أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ولد لي غلام أسود، فقال: «هل لك من إبل؟» قال: نعم، قال: «ما ألوانها؟» قال: حمر، قال: «هل فيها من أورق؟» قال: نعم، قال: «فأنى ذلك؟» قال: لعله نزعه عرق، قال: «فلعل ابنك هذا نزعه»** »(2).

يتضح من خلال هذا الحديث أنّ النبيﷺ انطلق في أسئلته من الواقع المعاش لدى السائل؛ ليصل به إلى حلّ مشكلته عن طريق إعمال القياس، وبذلك زال الشك الذي كان يخالجه، وفي هذا قال ابن المنير: «وهذا السائل إنما جاء مستريبا، فلما ضرب له المثل زالت الريبة»(3).

ولم يكتف النبيﷺ بالإجابة عن الأسئلة التي يتلقها، أو طرحها لتنشيط الذهن، بل توسّع في أسلوب التعليم عن طريق السؤال حين كان يحثّ أصحابه رضوان الله على طرحه أسئلتهم ليتولى الإجابة عنها، كما في حديث أنس بن مالكرضي الله عنه: « **أن النبيﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلى الظهر، فلما سلم قام على المنبر، فذكر الساعة، وذكر أن بين يديها أمورا عظاما، ثم قال: «من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل عنه، فو الله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا»**، قال أنس: فأكثر الناس البكاء، وأكثر رسول اللهﷺ أن يقول: «**سلوني**»، فقال أنس: فقام إليه رجل فقال: أين مدخلي يا رسول الله؟ قال: «**النار**»، فقام عبد الله بن حذافة فقال: من أبي يا رسول الله؟ قال: «**أبوك حذافة**»، قال: ثم أكثر أن يقول: «**سلوني سلوني**»، فبرك عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمدﷺ رسولا، قال: **فسكت رسول اللهﷺ حين قال**

---

(1) سبق تخريجه. ينظر: (ص:14).

(2) أخرجه البخاري، كتاب الطلاق، باب إذا عرّض بنفي الولد، رقم: 5305، (7/ 53).

(3) المتواري على أبواب البخاري، ابن المنير، (ص: 297).

عمر ذلك، ثم قال رسول اللهﷺ: «**والذي نفسي بيده لقد عرضت علي الجنة والنار آنفا، في عرض هذا الحائط، وأنا أصلي، فلم أر كاليوم في الخير والشر**»(1).

من أهم ما يستفاد من الحديث أنّ النبيﷺ حثّ على سؤاله بعد إنهاء خطبته، وهذا ما يبيّن أهميّة تمكين المتعلّم من السؤال عقب الدرس، ممّا يمكّن المعلم معرفة مدى استيعاب المتعلمين لما ألقي عليهم، وتشخيص النقص لديهم لتقويمه، كما يستفاد من الحديث أنّه ينبغي أن يكون السؤال مضبوطا بما ينفع صاحبه، و ألا يكون صاحبه متعنتا؛ وقد فهم عمر ﷺ كراهيّة النبيﷺ لما سمعه من أسئلة وخاف نزول العذاب فجثى على ركبتيه، كما أورد ابن بطّال أنّ أم حذافة كرهت سؤال ابنها، و ذكر أنّ سؤال الرّجل عن مدخله كان تعنتا؛ لذا استحقّ أن يكون جوابه بما ذكر النبيﷺ؛ لأن تعنيتهﷺ يُوجب النار، وقد أمر الله المسلمين بتعزيزه وتوقيره وألا يرفع الصوت فوق صوته، وتوعد على ذلك بحبوط العمل بقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** ﴾[الحجرات:2] (2).

وقد كان من منهج النبي ﷺ التعليمي بالسؤال أن يُعلِّم الناس السؤال عما ينفعهم، ويشهد لذلك الحديث السابق، كما يؤكده حديث أنسﷺ: «**أن** رجلا سأل النبيﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: «**وماذا أعددت لها**». **قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسولهﷺ، فقال**: «**أنت مع من أحببت**»(3)، قال ابن كثير: «ففيه أنه عليه السلام كان إذا سُئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى علمه أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك، والتهيؤ له قبل نزوله وإن لم يعرفوا تعيين وقته»(4).

وهذا الذي فعله النبيﷺ إنّما هو منهج قرآني، حيث أنّ الله تعالى قال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ** ﴾ [المائدة: 10_ 102]. قال الطبري: «ذكر أن هذه الآية أنزلت على رسول اللهﷺ بسبب مسائل كان يسألها إيّاه أقوام، امتحانًا له أحيانًا، واستهزاءً أحيانًا. فيقول له

(1) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه، رقم: 7294، (9/ 96).
(2) ينظر: شرح صحيح البخارى، ابن بطال، (10/ 338).
(3) أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب، رقم: 3688، (12/5).
(4) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (3/ 521).

بعضهم:"من أبي"؟ ويقول له بعضهم إذا ضلت ناقته:"أين ناقتي"؟ فقال لهم تعالى ذكره: لا تسألوا عن أشياءَ من ذلك كمسألة عبد الله بن حُذافة إيّاه من أبوه...» [1].

وصفوة القول أنّ الأسئلة في القرآن والسنة جاءت بصيغ متعددة، وطرحت من المؤمنين والكفار، ولكل غرضه، وقد امتازت بتعدد موضوعاتها، وهذا ما يبرز دور السؤال في معالجة القضايا المختلفة؛ لذا حثّ عليه القرآن والسنة، بشرط أن يكون غرضه التعلم والتعليم لا التعنت والإعجاز.

المطلب الرابع: أسلوب الممارسة والتطبيق

يعتمد هذا الأسلوب على إيصال المعرفة عن طريق التطبيق العملي، وقد اهتم به علماء التربية لما له من دور مُهم في ترسيخ المعلومة وإيصال الفكرة، قال كنفوشيوس: «قل لي وسأنسى، وأرني وقد أتذكر، ودعني أعمل وسأتذكر» ، فالمشاهدة للتطبيق العملي توصل المعارف للمتعلم في وقت وجيز وتساعد على ترسيخها. وقد اهتم القرآن والسنة به كأسلوب تعليمي، وهذا ما يأتي بيانه.

الفرع الأول: عناية القرآن بأسلوب الممارسة والتطبيق

دلّ القرآن الكريم على أسلوب الممارسة والتطبيق في مواطن عديدة، مثال ذلك ما ذكره الله ﷻ في قصة ابني آدم حيث بعث الله تعالى غرابا ليعلم أحدهما كيف يواري سوءة أخيه عن طريق مثال عملي، قال جلّ ثناؤه: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة:31]، قال ابن عاشور: «وهذا المشهد العظيم هو مشهد أول حضارة في البشر، وهي من قبيل طلب ستر المشاهد المكروهة. وهو أيضا مشهد أول علم اكتسبه البشر بالتقليد وبالتجربة، وهو أيضا مشهد أول مظاهر تلقي البشر معارفه من عوالم أضعف منه كما تشبه الناس بالحيوان في الزينة، فلبسوا الجلود الحسنة الملونة وتكللوا بالريش الملون وبالزهور والحجارة الكريمة، فكم في هذه الآية من عبرة للتاريخ والدين والخلق»[2].

ومما يبرز أهمية التعليم عن طريق التطبيق العملي أنّه يوصل المتلقي إلى درجة العلم اليقيني الذي يزيل عنه الإنكار أو الشك، ومثال ذلك ما أورده الله جلّ ثناؤه في قصة الرجل الذي مرّ على قرية خاوية ﴿ قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ

(1) جامع البيان، الطبري، (11/ 98).

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (6/ 174).

﴿مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة:259]، وأقوى شاهد في الآية على التطبيق العملي قوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾، «أي تأمل في عظام حمارك النخرة كيف نركّب بعضها فوق بعض وأنت تنظر ثم نكسوها لحماً بقدرتنا ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي فلما رأى الآيات الباهرات قال أيقنت وعلمت علم المشاهدة أن الله على كل شيء قدير»(1).

ومّما يبرز أهمية التطبيق العلمي أنّه يوصل المتلقي إلى درجة عين اليقين، فيطمئن قلبه، ومن هنا تبرز أهمية طلب إبراهيم عليه السلام من ربه أن يريه كيف يحي الموتى، فمكّنه من رؤية ذلك عيانا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة: 260]، وقد أشار الشوكاني إلى هذا المقصد حيث قال: « أي: ألم تعلم ولم تؤمن بأني قادر على الإحياء حتى تسألني إراءته، قال: بلى علمت وآمنت بأنك قادر على ذلك، ولكن سألت ليطمئن قلبي باجتماع دليل العيان إلى دلائل الإيمان»(2).

وزاد السعدي الأمر وضوحا بقوله: «أخبر تعالى عن خليله إبراهيم أنه سأله أن يريه ببصره كيف يحيي الموتى، لأنّه قد تيقن ذلك بخبر الله تعالى، ولكنه أحب أن يشاهده عيانا ليحصل له مرتبة عين اليقين»(3).

فالنماذج السابقة تبيّن ضرورة إنشاء جسر بين عالم المعاني والأفكار النظرية، وعالم المدركات الحسية، وأنّ ذلك من الأمور الأساسية في عملية التعليم والتعلم.

الفرع الثاني: عناية السنة النبوية بأسلوب التطبيق العملي

أكد القرآن الكريم صدق النبي ﷺ، مبيّنا أن جبريل عليه السلام قد علّمه، قال جلّ ثناؤه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝3 إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝4 عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾[النجم: 3-5]، وقد جاء في السنّة النبوية ما يبين أن

(1) صفوة التفاسير، الصابوني، (1/ 150).

(2) فتح القدير، لشوكاني، (1/ 323).

(3) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 112).

جبريل عليه السلام كان يعلم النبي ﷺ عن طريق التطبيق العملي؛ فعن ابن إسحاق:« **أنّ الصلاة حين افترضت على رسول الله أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فهمز له بعقبه في ناحية الوادي فانفجرت منه عين، فتوضأ جبريل ورسول الله ينظر إليه ليريه كيف الطهور، ثم توضأ رسول الله كما توضأ جبريل، ثم قام به جبريل ليصلي به، فصلى رسول الله بصلاته، ثم انصرف جبريل، فجاء رسول الله خديجة فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ رسول الله، ثم صلى بها رسول الله كما صلى به جبريل فصلت بصلاته**»(1).

ففي الحديث بيان أنّ النبي ﷺ أخذ ذلك الأسلوب عن جبريل عليه السلام وطبقه أثناء تعليمه لخديجة رضي الله عنها.

وثبت في السنة أنّه ﷺ كان يركز على هذا الأسلوب في تعليمه للصحابة الكرام، بهدف الاقتداء به فيما رأوه، ذلك: أنّه توضأ أمامهم ثم قال: «**من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه**»(2)، وقد استنبط ابن بطال من هذا الحديث ضرورة تبليغ العلم وتحريم كتمانه؛ حيث قال: «وفي هذا الحديث من الفقه أنه فرضٌ على العالم تبليغ ما عنده من العلم وبثّه في النّاس؛ لأن الله قد توعد الذين يكتمون ما أنزل الله من البيّنات والهدى باللّعنة من الله وعباده، وأخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه»(3)، وفي تبليغ هذا العلم استعمل النبي ﷺ أسلوب التطبيق العملي لشدّة وقعه، وعظيم نفعه، قال ابن العطار: « وفي هذا الحديث دليلٌ على سرعة التّعليم بالفعل، وأنَّه أبلغ وأضبط في حقِّ المتعلم»(4).

وقد سلك النبي ﷺ المنهج نفسه وهو يعلم الصحابة رضي الله عنهم الصلاة والحج، فقال عن الصلاة: «**صلوا كما رأيتموني أصلي، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم**»(5)، فقوله كما «**صلوا كما رأيتموني أصلي**» إشارة إلى الأسلوب التطبيقي العملي.

---

(1) أورده ابن إسحاق في سيرته (ص: 136) مقطوعا، ولكن يعضده حديث زيد بن حارثة رضي الله عنه عن النبي ﷺ:« أن جبريل عليه السلام أتاه في أول ما أوحي إليه، فعلمه الوضوء والصلاة...»، والحديث أخرجه أحمد في مسنده، رقم: 17480، (29/ 25)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: 841، (2/ 496).

(2) أخرجه البخاري، كتاب الطهارة، باب: الوضوء ثلاثا ثلاثا، رقم: 159، (1/ 43).

(3) شرح صحيح البخارى، ابن بطال، (1/ 250).

(4) العدة في شرح العمدة في أحاديث الأحكام، ابن العطار، (1/ 93).

(5) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر، إذا كانوا جماعة، والإقامة، وكذلك بعرفة وجمع، وقول المؤذن: الصلاة في الرحال، في الليلة الباردة أو المطيرة، رقم: 631، (1/ 128).

ما قيل عن الوضوء والصلاة يقال عن الحج، فعن عن جابر ﷺ كان النبيﷺيقول: «**لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه**»[1].

ولم يقتصر اعتماد النبيﷺ في تعليمه بالأسلوب التطبيقي على الجانب التعبدي، بل كان يعلمهم بهذا الأسلوب أيضا ما ينفعهم من أمور دنياهم، فعن أبي سعيد الخدريﷺ قال: «مرّ رسول اللهﷺ بغلام يسلخ شاة فقال: «**تنح حتى أريك**»، فأدخل رسول لله يده بين الجلد واللّحم، فدحس[2] بها حتى توارت إلى الإبط، وقال: « **يا غلام: هكذا فاسلخ**»[3].

«فقوله حتى أريك؛ معناه أُعلمك ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة:128]»[4]، فقد لاحظ النبيﷺ أن الغلام لا يحسن السلخ، فعلمه ذلك بالتطبيق ولم يكتف بتوجيهه نظريّا؛ لما في الأسلوب العملي من أثر في التعليم، ثمّ أمره بمحاكاته ليطمئن من كونه قد اكتسب هذه المهارة، وقد أشار ابن رسلان في شرحه لهذا الحديث إلى أهمية هذا الأسلوب حيث قال: «وفيه فَضيلة تعليم الجَاهِل إذا رَآهُ يَفعل ما لا يُحسِنُهُ، وإن لم يسأل وفيه التعليم بالفعْل؛ إذ هو أبلغ من القول»[5]. وقال الصنعاني: «فيه حسن خلقه وتعليمه الجاهل أمر دنياه، وبيان إحسان العمل وإتقانه وتواضعه»[6].

فهذه أدلة تثبت وبوضوح عناية النبيﷺ بأسلوب التطبيق العملي لما له من أهمّيّة في توصيل المعلومة وترسيخها.

وقد سلك الصحابة رضي الله عنهم هذا المنهج الذي تعلموه من الكتاب والسنة، فعن أبي قلابة عبد الله بن زيد الجرمي البصري، قال: «جاءنا مالك بن الحويرث في مسجدنا هذا، فقال: إني لأصلي بكم وما أريد الصلاة، أصلي كيف رأيت رسول اللهﷺ، فقلت لأبي قلابة: كيف كان يصلي؟ قال: مثل صلاة شيخنا هذا، وكان يجلس

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا، وبيان قوله صلى الله عليه وسلم «لتأخذوا مناسككم»، رقم: 310 - (1297) (2/ 943).

(2) فدحس: بمهملات مفتوحات من الدحس بسكون الحاء، وهو إدخال اليدين بين جلد الشاة ولحمها. ينظر: فتح الودود في شرح سنن أبي داود، أبو الحسن السندي، ت: محمد زكي الخولي، مكتبة أضواء المنار - المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية، ط:1، 1431 هـ - 2010 م، (1/ 133).

(3) أخرجه ابن ماجة في سننه، باب السلخ، رقم: 3179، (347/4)، وصححه شعيب الأرنؤوط.

(4) معالم السنن، الخطابي، (1/ 68).

(5) شرح سنن أبي داود، ابن رسلان، (2/ 224).

(6) التحبير لإيضاح معاني التيسير، الأمير الصنعاني، ت: محَمَّد صُبْحي، مكتبة الرشد – السعودية، ط: 1، 1433 هـ - 2012م، (7/ 89).

إذا رفع رأسه من السجود قبل أن ينهض»[1]، قال ابن العطار: « فقوله: «إني لأصلي بكم وما أريد الصلاة»، معناه: أصلي صلاة لقصد التعليم، لا لغيره من مقاصد الصلاة، ولا شك أن الصلاة تراد لمقاصد أتى الشرع بها، منها هذا القصد؛ لصلاتهﷺ بالنّاس على المنبر، فإذا أراد السجود، هبط فسجد على الأرض، ثم صعد، إلى أن أتم صلاته صلى الله عليه وسلم ، وكان فعله ذلك لقصد التعليم»[2].

وعن أبي سلمةﷺ قال: «دخلت على عائشة أنا وأخوها من الرضاعة فسألتها عن غسل النبيﷺ من الجنابة، فدعت بإناء قدر الصاع فاغتسلت وبيننا وبينها ستر، فأفرغت على رأسها ثلاثا...»[3].

وقد صرّح النووي بأهمية هذا الأسلوب فقال: «وفي هذا الذي فعلته عائشة رضي الله عنها دلالة على استحباب التعليم بالوصف بالفعل فإنه أوقع في النفس من القول، ويثبت في الحفظ ما لايثبت بالقول»[4].

استنادا إلى ما ذكر سابقا تتضح عناية القرآن الكريم والسنة النبوية بأسلوب التعليم عن طريق التطبيق العملي؛ حيث إنه أبلغ وأضبط في حقِ المتعلم، يساهم في بناء روابط بين الجانب النظري، وعالم المدركات الحسية، كما أنّه يوصل إلى عين اليقين، ولم يقتصر اعتماد النبيﷺ في تعليمه بالأسلوب التطبيقي على الجانب التعبدي، بل اعتمده حتى في الأمور الدنيوية.

المطلب الخامس: أسلوب ضرب الأمثال

المقصود بضرب المثل تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس[5]؛ فهو يرتكز على سوق الصور والوقائع المشابهة لتقريب المعاني للمخاطب وإبرازها، ورفع الأستار عن الحقائق وإيضاحها؛ إذ الأمثال تُري المخيّل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنّه مشاهد[6]؛ لذا يعدّ أحد الأساليب الإقناعية التي اعتمدها القرآن الكريم والسنة النبوية في بيان الحقائق التي يهتدي بها النّاس[7]. وفيما يلي بيان لذلك من خلال فرعين.

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب: من صلى بالناس وهو لا يريد إلا أن يعلمهم صلاة النبي ﷺ وسنته، رقم: 677، (1/ 136).

(2) العدة في شرح العمدة في أحاديث الأحكام، ابن العطار، (1/ 482).

(3) أخرجه مسلم، كتاب الحيض، باب القدر المستحب من الماء في غسل الجنابة، وغسل الرجل والمرأة في إناء واحد في حالة واحدة، وغسل أحدهما بفضل الآخر، رقم: 320، (1/ 256).

(4) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، (4/ 4).

(5) ينظر: الأمثال في القرآن، ابن القيم، (ص: 9).

(6) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني، (2/ 14).

(7) ينظر: الإقناع في التربية الإسلامية، سالم بن سعيد، دار الأندلس، السعودية، ط:2، 1422هـ، (ص:107).

الفرع الأول: عناية القرآن الكريم بأسلوب ضرب الأمثال

اهتم القرآن الكريم بضرب الأمثال، مبيّنا الغاية من ذلك، قال الله جلّ ثناؤه: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:25]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت: 43]، وقالﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:21].

الملاحظ أنّ الآيات السابقة استخدمت الألفاظ الدّالة على العلم: يتذكرون، العالمون، يتفكرون، وفي ذلك دلالة واضحة على أهميّة ضرب الأمثال في ترسيخ العلم؛ لذا فليس غريبا أن يُكثر القرآن الكريم من إيراده، حتى إن أحدهم أوصل الأمثال القرآنية إلى بضعة وأربعون مثلا(1).

وقد بيّن الرّازي دور المثل في الجانب التعليمي، وسبب استعمال القرآن الكريم له، عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[البقرة:26]، حيث قال: «فنحن نرى أن الإنسان يذكر معنى ولا يلوح له كما ينبغي، فإذا ذُكر المثال اتضح وصار مبينا مكشوفا، وإن كان التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح، وجب ذكره في الكتاب الذي لا يراد منه إلاّ الإيضاح والبيان»(2).

وأكدّ السعدي أنّ ضرب المثل من أهم الطرق التعليمية، مذكرا باعتماد القرآن الكريم عليه، حيث قال: «وجعل الله ضرب الأمثال في كتابه طريقا عظيما من طرق التعليم الذي تتبيّن وتتوضح به المطالب العالية والعقائد الصحيحة والفاسدة، كما مثّل كلمة التوحيد والعقيدة الحقّة الصحيحة: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم:24]، ومَثَّل ضدّ ذلك بالشجرة الخبيثة التي لا لها أصل ثابت ولا فرع نافع(3).

ومَثَّل المشرك بربه كالعبد الذي يتنازعه شركاء مُتشاكسون، والموحد المخلص لله السالم من تعلقه(4).

---

(1) هو ابن القيّم في كتابه أمثال القرآن.

(2) مفاتيح الغيب، الرازي، (2/ 363).

(3) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم].

(4) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾[الزمر].

كذلك مثّل الشرك والمشرك واتخاذه وليا من دون الله يتعزز به وينتصر: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت:41]...»[1].

وليتضح دور الأمثال في إثارة العقل وتحفيزه للتدبر وإدراك الحقائق سأقف على آية سورة العنكبوت، التي أوردها السعدي في النص المنقول آنفا؛ إذ بيّنت أنّ بيت العنكبوت أوهن البيوت، وشبّهت حال أهل الشرك بذلك، والمعلوم أنّ الضّعف يتعلق بالبناء الشكلي المكوّن من خيوط رقيقة هشّة، هذا ما يبدوا في الظاهر، إلاّ أنّ الضعف في الحقيقة يتجاوز الشكل ليصل إلى المضمون، حيث أثبتت الدراسات العلميّة أنّ أنثى العنكبوت تأكل الذكر بعد التزاوج، والعجيب أن أولادها بدورهم يأكلونها. كما يأكل بعضهم بعضا![2].

وقوله ﷻ: ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ إشارة إلى ضرورة إعمال العقل لفهم المثال من جميع جوانبه؛ وأنّ استنباط الحِكم والإفادة من المثل القرآني أمر لا يتوقف، يدل على ذلك صيغة الفعل المضارع التي تفيد الاستمرار، وليس ذلك إلاّ لأهل العلم؛ لذا ناسب أن تأتي بعده آية تقرّر هذا المعنى وتؤكده، وهي قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: 43]، وقد استنبط القصاب من هذه الآية بيان فضل العلماء ومشروعيّة ضرب الأمثال[3].

وفي بيان دور الأمثال في تقريب المعاني وإخراجها في صورة المحسوس، قال قتادة في معرض شرحه للمثل الذي تضمّنه قوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة:266]: «فهذا مثلٌ، فا عقلوا عن الله جل وعزّ أمثاله، فإنه قال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: 43]، هذا رجل

---

(1) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، عبد الرحمن السعدي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – السعودية، ط:1، 1422هـ، (2/ 356).

(2) ينظر: الإعجاز العلمي إلى أين؟ مقالات تقويمية للإعجاز العلمي، مساعد الطيار، دار ابن الجوزي، ط:2، 1433 هـ، (ص: 70).

(3) النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام، أحمد القصاب، ت: علي التويجري، دار القيم، ط:1 1424 هـ – 2003 م، (3/ 584).

كبرت سنه، ورَقَّ عظمه، وكثر عياله، ثمّ احترقت جنّته على بقيّة ذلك، كأحوج ما يكون إليه، يقول: أيحب أحدكم أن يضلَّ عنه عمله يوم القيامة كأحوج ما يكون إليه»(1)؟

الفرع الثاني: عناية السنة بأسلوب ضرب الأمثال

إذا كان القرآن الكريم قد اعتمد هذا أسلوب ضرب الأمثال، فإنّ السنّة النبويّة أيضا اعتمدت عليه في مواطن عديدة، قال المناوي: «قد أكثر المصطفى اقتداء بالقرآن من ضرب الأمثال زيادة في الكشف، فإنّه أوقع في القلب وأقمع للخصم الألد؛ لأنّه يريك المتخيَّل محققا والمعقول محسوسا»(2).

ولكثرة الأمثال النبوية فقد رُوي عن عبد الله بن عمرﷺ أنه قال: «عقلت عن رسولِ اللهﷺ ألفَ مَثَل»(3)، ولأهمية الأمثال وكثرتها، فقد عقد الترمذي بابا كاملا لها، وكان له قصب السبق في ذلك، قال ابن العربي: «لم أَرَ من أهل الحديث من صنَّفَ فأفرد للأمثال بابًا غير أبي عيسى، ولله درُّه، لقد فتح بابًا، وبنى قصرًا أو دارًا، ولكنه اختطّ خطًّا صغيرًا، فنحن نقنع به، ونشكره عليه»(4)، والملاحظ أنّ الترمذي أورد أربعين حديثا، اعتبرها ابن العربي غيضا من فيض، وهذا ما يدلّ على كثرة ورود التمثيل في السنّة النبويّة، وسأسوق نماذج على ذلك منها:

قولهﷺ: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**»(5).

في هذا الحديث جعل النبيﷺ الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات. فالطبقة الأولى بمنزلة الأرض الطيبة التي زكت فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فزكت في نفسها وزكا الناس بها.

---

(1) جامع البيان، الطبري، (5/ 547).

(2) التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي، (2/ 370).

(3) أخرجه أحمد في مسنده، رقم: 17806، (29/ 341)، والطبراني في الكبير، رقم: 14603، (14/ 21)، وحسّنه الهيثمي في مجمع الزوائد، رقم: 13974، (8/ 264).

(4) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع_ الرياض، ط:3، 1421هـ- 2000م، (ص:291) (بتصرف).

(5) سبق تخريجه. ينظر: (ص: 220).

وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة؛ ولذلك كانوا ورثة الأنبياء عليهم السلام، الذين قال تعالى فيهم ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ [ص:45]، أي البصائر في دين الله عز وجل، فبالبصائر يُدرَك الحق ويُعرف، وبالقوى يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه، فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم في الدين والبصر بالتأويل، ففجَّرت من النصوص أنهار العلوم، واستنبطت منها كنوزها ورزقت فيها فهماً خاصاً...فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذي أنبتته الأرض.

وأما الطبقة الثانية فحفظت النصوص وضبطتها، فوردها الناس وتلقوها منهم، فاستنبطوا منها واستخرجوا كنوزها، وبَذَرُوها في أرض قابلة للزرع والنبات، ووردها كل بحسبه ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾[البقرة:60] وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبيﷺ: «**نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها، ثم أداها كما سمعها، فَرُبَّ حامل فقه غير فقيه، وَرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه**»(1).

وأما الطائفة الثالثة فهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدي الله ولم يرفعوا به رأساً، فلا حفظ ولا فهم ولا رواية ولا دراية ولا رعاية، حالهم كالأرض السبخة التي لا تقبل الماء ولا تنبت العشب (2).

قال النووي: «وفي هذا الحديث أنواع من العلم منها ضرب الأمثال ومنها فضل العلم والتعليم وشدة الحث عليهما وذم الإعراض عن العلم»(3).

وجاء في حديث آخر تشبيه المؤمن بالنّخلة في كثرة نفعه لغيره، قالﷺ: «**إن من الشجر شجرة، مثلها كمثل المسلم**»، **فأردت أن أقول: هي النخلة، فإذا أنا أصغر القوم، فسكت، قال النبيﷺ**: «**هي النخلة**»(4).

وقد استنبط ابن حجر من هذا الحديث أهمّيّة ضرب المثل في تقريب المعاني حيث قال: «وفيه ضرب الأمثال والأشباه لزيادة الإفهام، وتصوير المعاني لترسخ في الذهن، ولتجديد الفكر في النّظر في حكم الحادثة»(5).

---

(1) أخرجه ابن ماجه، باب من بلغ علما، رقم: 230، (1/ 84)، وأبو داود، باب فضل نشر العلم، رقم: 3660، (3/ 322)، والترمذي، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، رقم: 2656، (5/ 34)، وقال: «حديث زيد بن ثابت حديث حسن».

(2)الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن القيم، (ص: 58). (بتصرف).

(3) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، (15/ 48).

(4) سبق تخريجه. ينظر: (ص:352).

(5) فتح الباري، ابن حجر، (1/ 147).

من خلال الكلام السابق يتّضح أنّ أسلوب التمثيل فيه تقريب للمعاني وزيادة للفهم وترسيخ للعلم، بل وتجديد للفكر لاستنباط ما لم يخطر على البال بادئ الأمر، لذا بوّب البخاري على هذا الحديث بقوله: «باب الفهم في العلم».

وقد جاء في السنّة النبوية ما يبيّن أنّ ضرب الأمثال ممّا سلكه الأنبياء مع أقوامهم؛ فعن الحارث الأشعري ﷺ، أن النبيﷺقال: « **إنّ الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم، وإما أنا آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس، فامتلأ المسجد وقعدوا على الشرف، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن: أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال: هذه داري وهذا عملي فاعمل وأد إلي، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت، وآمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم، وآمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعا حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله...**»(1).

من خلال هذا الحديث تتضح بعض أغراض ضرب الأمثال؛ وأعظمها توثيق الصلة باللهﷻ بتحقيق عبادته وحده لا شريك له، والتزام أوامره والابتعاد عن نواهيه.

وممّا ينبغي التنبيه إليه أنّ الأمثال النبويّة لها صلة وثيقة بما تُقرّره أمثال القرآن الكريم من معانٍ، وممّا يؤكد ذلك قول النبيﷺ: «**إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**»(2)؛ يريد بذلك بيان الترابط وقوّة الصلة ووحدة الصف بين أهل الإيمان، وهذا ما يحبه اللهﷻ، وقد ضرب لذلك مثلا فشبّههم بالبنيان المرصوص، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾ [الصف:4].

---

(1) أخرجه الترمذي، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة، رقم: 2863، (5/ 149)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

(2) سبق تخريجه. ينظر: (ص:233).

وبالجملة فإن الأمثال في القرآن الكريم والسنّة النبوية تتميز بالموضوعيّة والواقعيّة في الطرح، فهي تتناسب مع أحوال النّاس وتنطلق من الأشياء الحسيّة المعروفة عندهم؛ للدلالة على المعاني المرادة.

المطلب السادس: أسلوب الإشارة والرّسم البياني

يندرج هذا الأسلوب ضمن الوسائل المساعدة على استيعاب المعلومات؛ فالإشارة والحركة والرّسم التمثيلي تلفت انتباه المتلقي وتعينه على الفهم والحفظ، وقد اعتنت السنة النبوية بذلك وهذا ما سأوضّحه من خلال ما يلي.

الفرع الأول: عناية السنة بأسلوب الإشارة

لقد أدرك النبيﷺ أهمية الإشارة في إيصال المعلومات، فاعتمد هذا الأسلوب ونوّع فيه بين الإشارة باليد، أو الأصابع، وقد وردت أحاديث في ذلك منها:

ما رواه مسلم في صحيحه أنّهﷺ قال: «**لا يغرنّكم من سحوركم أذان بلال ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير هكذا**» وحكاه حماد بيديه، قال: يعني معترضا [1].

يتضح من خلال الحديث أن النبيﷺ بيّن الفجر الذي يتعلق به الحكم باستخدام الإشارة، وهو ما يوضّحه قوله: «**هكذا حتى يستطير هكذا**»، حيث «أشار بسبابتيه واضعا إحداهما على الأخرى، ثم مدهما عن يمينه ويساره، وهذا إشارة إلى أنه يطلع معترضا، ثم يَعمُّ الأفق ذاهبا فيه عرضا في ذيل السماء، ويستطير، أي: ينتشر بريقه»[2].

وقد استنبط العلماء من الحديث أهمية استخدام الإشارة في الإيضاح والفهم، قال النووي: «وفيه الإيضاح في البيان والإشارة لزيادة البيان في التعليم»[3]، وزاد ابن الملقن المعنى وضوحا حيث قال:« وفيه أن الإشارة نحو من اللفظ. وقال المهلب: فيه أن الإشارة تكون أقوى من الكلام»[4].

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، وأن له الأكل وغيره حتى يطلع الفجر، وبيان صفة الفجر الذي تتعلق به الأحكام من الدخول في الصوم، ودخول وقت صلاة الصبح وغير ذلك، رقم: 1094، (770/2).

(2) التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ابن الملقن، (6/ 364).

(3) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، (7/ 205).

(4) المصدر السابق، (6/ 364).

وعندما أراد النبيﷺ أن يبيّن أهميّة إصلاح القلب أشار بيده إلى صدره وقال: «**التقوى ها هنا، التقوى ها هنا**»(1). ويظهر من خلال هذا الحديث أنّ النبي عليه الصلاة والسلام استخدم أسلوبين؛ الإشارة والتكرار، مع اختصار في العبارة وهذا من جوامع الكلم.

ولأهمية استخدم الإشارة في إيضاح المعاني وبيانها، اعتمد النبيﷺ عليها وهو يجيب من يستفتيه في مناسك الحج، ويشهد لذلك حديث ابن عباسرضي الله عنه: «**أن النبي**ﷺ سُئل في حجته فقال: ذبحت قبل أن أرمي. **فأومأ بيده، قال: «ولا حرج»** قال: حلقت قبل أن أذبح. **فأومأ بيده: «ولا حرج»**»(2). وقد فهم البخاري أهميّة هذا الأسلوب في إيصال العلم وتوضيح المسائل، حيث أدرج هذا الحديث تحت كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس.

وكما استخدم النبيﷺ الإشارة لبيان وقت دخول الفجر، وأهمية العناية بإصلاح القلب، بالإضافة إلى الجواب على الفتيا، فقد استعمل هذا الأسلوب لبيان عدّة الشهر، فعن سعد بن أبي وقاصرضي الله عنه قال: «**ضرب** رسول الله بيده على الأخرى ثم قال: «**الشهر هكذا وهكذا ثم نقص في الثالثة إصبعا**»(3)، قوله: «هكذا وهكذا» أي أشار بيديه الكريمتين ناشرا أصابعه مرتين فهي عشرون. «ثم نقص في الثالثة إصبعا» أي أشار في المرة الثالثة كما أشار قبلها ولكنه قبض الإبهام فهي تسع فيكون المجموع تسعا وعشرين، قال صاحب الإفصاح عند شرحه لهذا الحديث: «فيه من الفقه حسن التعلم، فإن حال هذا التعليم في العدد يفهمه كل سامع له حتى الأطفال»(4).

بالإضافة إلى ما سبق فقد استخدم النبيﷺ الإشارة للترغيب في الخير، حيث قال: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**»، وقال بإصبعيه السبابة والوسطى»(5). والملاحظ أنّ الراوي استخدم: «وقال بإصبعيه السبابة والوسطى» بدل (وأشار)، وهذا ما يبيّن أنّ الإشارة تقوم مقام القول وتعبّر عنه في بعض الحالات، بل قد تكون أبلغ، كما في قول البلقيني الذي سبق ذكره.

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، رقم: 2564، (4/ 1986).

(2)أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس، رقم: 84، (1/ 28).

(3) أخرجه البخاري، كتاب الصيام، باب قول النبيﷺ: «**إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا**»، رقم: 1908، (3/ 27)، ومسلم، كتاب الصيام، باب الشهر يكون تسعا وعشرين، رقم: 1086، (764/2).

(4) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، (1/ 355).

(5) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيما، رقم: 6005، (8/ 9).

واستخدم النبيﷺ أيضا الإشارة لتوصيل معاني الأخوة الحقيقة، حيث قال: «**إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وشبك أصابعه**(1). والشاهد في الحديث تشبيك النبي ﷺ بين أصابعه.

الفرع الثاني: عناية السنة النبوية بالرسم البياني

كما استخدم النبي ﷺ الإشارة استخدم أيضا الرسم البياني، وقد ورد ذلك في بعض الأحاديث، فعن ابن مسعودﷺ قال: «خط رسول اللهﷺ مربعًا، وخط خطًّا في الوسط خارجًا منه، وخط خطوطًا صغارًا، إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، فقال: «**هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به –أو قد أحاط به– وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطوط الصغار: الأغراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا**»(2).

والمراد بالخطّ الرّسم والشكل(3)، فالخط الوسط هو الإنسان، والخط المربع هو أجَلُه أحاط به بحيث لا يمكنه الفرار والخروج منه، والخطوط الصغار هي أعراضه؛ أي: الآفات والعاهات من المرض والجوع والعطش، وغيرها من العلل والحوادث، وهي متصلةٌ به، والقَدْرُ الخارج من المربع أمله؛ فهو يظن أنّه يصل إليه قبل أجله، غيّر أنّ الأجل أقرب إليه من الأمل(4).

فهذه الخطوط والأشكال التي رسمها النبيﷺ تبيّن بوضوح شدّة عنايته بتبليغ المقصود للمُخَاطَب، وتؤكّد أنّ للإسلام قصب السبق فيما يظنّه الكثير من إبداعات الغرب في مجال بيداغوجية التعليم، قال ابن هبيّرة: «في هذا الحديث من الفقه حسن التعليم، والتوصل في تفهيم الحكمة لمن لا يفهمها إلا بضرب المثال والتشكيل، وهذا أصل لغيره من الصور مما يتوصل الإنسان في تفهيم الناس له بضرب من الأمثال والأشكال»(5).

وقد جاء الحديث في رواية البخاري موضّحا أنّ النبيﷺ استخدم ثلاثة خطوط، وكل خط عبّر به عن معنى من المعاني السابقة، فعن أنسﷺ قال: «خط رسول الله خطا، وقال: «**هذا الإنسان**»، وخط إلى جانبه خطا، وقال: «**هذا أجله**»، وخط آخر بعيدا منه وقال: «**هذا الأمل، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب**»(6)،

---

(1) سبق تخريجه. ينظر: (ص:233).

(2) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله، رقم: 6417 (8/ 89).

(3) شرح المشكاة، الطيبي، (10/ 3321).

(4) المفاتيح في شرح المصابيح، المظهري، (5/ 300) (بتصرف).

(5) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، (2/ 93).

(6) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله، رقم: 6417، (8/ 89).

قال الصنعاني: « وهذه الأحاديث مخبرة بأنّ أمل الإنسان أطول من أجله، وأنه ينبغي له أن يقصر أمله ليجتهد في العمل الصالح، ويسابق إلى الخيرات، ويبادر بها أجله»(1).

وقد اعتمد النبيﷺ على أسلوب الرسم البياني في تفسير الآية (153) من سورة الأنعام، فعن عبد الله ابن مسعود ﷺ قال: « خَطَّ رسول الله خَطًّا بيده، ثم قال: « **هذا سبيل الله مستقيماً**»، قال: ثم خطّ عن يمينه وشماله، ثم قال: «**هذه السُّبُل، وليَس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ: ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ »(2).

كما اعتمد هذه الخطوط أيضا لبيان معاني أسهل، ومن ذلك ما جاء في بيان أفضل نساء الأرض؛ فعن ابن عباسﷺ قال: «خط رسولﷺ في الأرض أربعة خطوط فقال: «**أتدرون ما هذا؟**» فقالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول اللهﷺ:« **أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد وآسيةُ بنت مُزاحم امرأةُ فرعون، ومريم ابنةُ عمران**»(3).

من خلال هذا الحديث يظهر أنّ النبيﷺ اعتمد أسلوبيّن؛ الإثارة والتشويق والرّسم البياني، وكلهما من الأساليب الناجعة في العملية التعليمية.

فهذه الرّسوم التوضيحيّة على بساطتها تجسد معان جليلة يفهمها الصغير والكبير، وهذا ما يوضّح أهمية أسلوب الرسم البياني في العملية التعليمية التعلمية.

المطلب السابع: أسلوب القصص

قبل بيان دور أسلوب القصص في التعليم يحسن التقديم بتعريف القصة وبيان أهمية الأسلوب القصصي في العملية التعلمية؛ فأما معنى القصة من حيث **اللغة**، فتدور معانيها حول التتبع والإخبار، يقال: قصصت الشيء إذا تتبعت أثره شيئاً بعد شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ** ﴾ [القصص:11] أي تتبَّعي أثره. والقصة :الخبر، وقص عليّ خبره أورده(4).

---

(1) التحبير لإيضاح معاني التيسير، الصنعاني، (1/ 421).

(2) أخرجه أحمد في مسنده، رقم: 4142، (4/ 156)، وصححه أحمد شاكر.

(3) أخرجه أحمد في مسنده، رقم: 2668، (3/ 194)، وصححه أحمد شاكر.

(4) ينظر: تهذيب اللغة، الأزهري، (211/8).

وأما المفهوم **الاصطلاحي** للقصص القرآني فهو: «أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة، وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه»(1). وهو على المعنى نفسه في السنة النبوية، غير أنّ المخبر هو النبيﷺ بوحي من الله ﷻ.

ولأسلوب القصة تأثير في جذب النفوس واستمالتها، ولفت الانتباه؛ لما فيها من ذكر أخبار الماضين، وذكر الوقائع والنوادر، وهذا ما يجعلها تعلق بالذهن ولا تكاد تُنسى، وهذا أمر واضح للعيان لا يحتاج إلى كثير برهان.

وقد أكّد علماء التربية على دور القصص في التأثير على سلوكيات المتعلمين، خاصة إذا كانت القصة تعالج قضايا واقعية؛ إذ تترك أثرا طيبا في تعديل السلوك، والتعليم والتعلم، فهي تستحوذ على ألباب المتعلمين في جميع الأعمار، وتؤتي ثمارا طيبة إذا كانت القصة ذات مغزى مفيد. وقد اهتم القرآن والسنة بهذا الأسلوب، مما يمكّننا من استنباط الآليات التي ينبغي الاعتماد عليها في العملية التعليمية.

الفرع الأول: عناية القرآن الكريم بأسلوب القصة

نظرا لأهمية القصة في الجانب التربوي والتعليمي فقد اعتنى القرآن الكريم بها، حيث أخذت حيزا واسعا في كلام الله ﷻ، وهذا ما يدل على عظم تأثيرها في النّفوس، ومدى قدرتها على استمالة القارئ والسامع، وقد وردت كلمة "قصّ" باشتقاقاتها المختلفة في القرآن الكريم ستا وعشرين (26) مرة(2)، وفيه سورة تسمى "القصص"، وقد قصّ الله جلّ ثناؤه قصص قوم نوح عاد وثمود وقوم لوط وشعيب، وفرعون وغيرهم... كما عرض علينا في أسلوب تعليمي تعلمي تاريخ الأمم السابقة؛ لنتخذ منها العبرة، ونعدّل سلوكنا، ونبدأ من حيث انتهى الآخرون، وندرك أسباب حياة الأمم وفنائها.

ويتميّز القصص القرآني بأنه حقٌّ وصدق، ولا مجال فيه للخيال أو الوَهْم أو المبالغة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 62].

وقد اشتمل القصص في القرآن الكريم على عدّة مقاصد وأهداف، أعظمها **ترسيخ الإيمان في النفوس**، وهذا ما يظهر واضحا في قصص الرسل والأنبياء عليهم السلام، فحين يستعرض القرآن الكريم قصة نوح عليه السلام مع قومه، فإنّ من مقاصده التي يهدف إليها؛ إقرار توحيد الله ﷻ بذكر الحجج والبراهين التي ساقها نوح عليه السلام وهو يدعو قومه، ومن ذلك قوله لهم مبيّنا عظمة الله جلّ ثناؤه، وأنّه المستحق للعبادة: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ

(1) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، (ص: 317).

(2) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، (ص:541).

سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿15﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿16﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿17﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿18﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿19﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿20﴾ ﴾ [نوح:15_20].

فمجمل هذه الكلمات التي سيقت في إطار القصص تشير إشارة واضحة إلى كل سامع أو قارئ أنّ الله ﷻ هو المستحق للعبادة، وكثيرا ما تأتي قصص القرآن بعد الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، وقد بين الرازي ذلك في معرض ذكره لقصة نوح عليه السلام الواردة في سورة المؤمنون، حيث قال: « واعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين دلائل التوحيد أردفها بالقصص كما هو العادة في سائر السور وهي هاهنا»(1).

وقد بدا مقصد إقرار التوحيد في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، وكيف أبطل عبادة الأوثان، فجعلها جذاذا، وبيّن لقومه أنّها لا تضر ولا تنفع، وحين أرادوا عقوبته بالحرق بالنار، جعلها الله تعالى بردًا وسلامًا عليه، قال تعالى: **﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿51﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿52﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿53﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿54﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿55﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿56﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿57﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿58﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿59﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿60﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿61﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿62﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿63﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿64﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿65﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿66﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿67﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿68﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿69﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾** [الأنبياء: 51_70]، وبما تضمّنته هذه الآيات من ذكر لخبر إبراهيم عليه السلام مع قومه وكيف أقام الحجّة عليهم، تتلاشى ادعاءات المبطلين ممن اتخذوا مع الله جل ذكره ما لا ينفع ولا يضر، وتظهر خطورة الشرك، وعلو شأن التوحيد، الذي ينصر الله جلّ وعلا به أولياءه، فيدفع عنهم المكاره، كما دفع عن إبراهيم عليه السلام الحرق بالنار. وقد زاد الدهلوي هذا المعنى وضوحا، مبيّنا أنّه حاضر في

---

(1) مفاتيح الغيب، الرازي، (23/ 270).

قصص القرآن، حيث قال: « وليس الغرض من سرد هذه القصص في القرآن الكريم الاطلاع عليها، والتعرف على جزئياتها فحسب، بل الغرض الأساسي والحقيقي هو أن ينقل ذهن القارئ والسامع إلى شناعة الشرك والمعاصي، ومعاقبة الله تعالى عليها، والإيمان بنصر الله تعالى وتأييده، وظهور ألطافه وأفضاله في حق عباده المخلصين»(1).

ومن جوانب الإيمان التي يهدف القصص القرآني إلى ترسيخها؛ **إثبات عقيدة البعث والجزاء**، ودفع الشك عنها، وهذا ما يبدو واضحا جليّا في قصة الرجل الذي مرَّ على قرية خاوية، كما قل عزَّ وجل: ﴿ **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾**[البقرة: 259]**، قال الرازي في بداية تفسيره لهذه الآية: «والمقصود منها إثبات المعاد»(2).

ومن مقاصد القصص القرآني أيضا ترسيخ **الإيمان بنبوة محمدﷺ، وبأن القرآن الكريم وحي من الله جلّ ثناؤه**، وقد أجاد مناع القطان في بيان ذلك حيث قال: « لقد ذكر القرآن أنباء من سبق من الأمم والجماعات، والأنبياء والأحداث التاريخية بوقائعها الصحيحة الدقيقة كما يذكر شاهد العيان مع طول الزمن الذي يضرب في أغوار التاريخ إلى نشأة الكون الأولى بما لا يدع مجالًا لإعمال الفكر ودقّة الفراسة، ولم يعاصر محمد ﷺ تلك الأمم وهذه الأحداث في قرونها المختلفة حتى يشهد وقائعها وينقل أنباءها، كما لم يتوارث كتبها ليدرس دقائقها ويروي أخبارها... ﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ **[هود:49]**...

ومنها أنباء دقيقة تتناول الأرقام الحسابية التي لا يعلمها إلا الدارس البصير، ففي قصة نوح: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا** ﴾**[العنكبوت:14]**، وهذا موافق لما جاء في سفر التكوين من التوراة. وفي قصة أصحاب الكهف: ﴿ **وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا**

---

(1) الفوز الكبير في أصول التفسير، ولي الله الدهلوي، دار الصحوة – القاهرة، ط:2، 1407 ه - 1986م، (ص: 70)..
(2) مفاتيح الغيب، الرازي، (7/ 26).

تِسۡعٗا﴾[الكهف: 25]، وهي عند أهل الكتاب ثلاثمائة سنة شمسية، والسنون التسع هي فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية. فمن أين أتى محمد ﷺ بهذه الدقائق الصحيحة لو لم يكن يُوحى إليه وهو الرجل الأمي الذي عاش في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب؟»[1].

وممّا جاء في القصص القرآني من مقاصد؛ أنَّ دعوة النبيين عليهم السلام جاءت للدعوة إلى **حسن التعامل، وإصلاح الأرض**، وأنَّ إصلاح الأعمال والنفوس ومنع الفساد في الأرض من أعظم المقاصد في الشرائع السماوية بعد عبادة الله تعالى والإيمان باليوم الآخر، فقد قال جلّ ثناؤه: **﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (85) وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: 85-86].**

فأنت ترى في هذا النص القرآني الذي تتضمَّنه قصة شعيب عليه السلام دعوة صريحة إلى ناحية علمية تتصل بالإصلاح الاجتماعي، ومنع الفساد في الأرض، والقيام بحق الأمانة في التعامل[2].

ومن مقاصد القصص القرآني؛ **تثبيت قلب النبي ﷺ وتسليته، وحمل المؤمنين على العظة والاعتبار**، وذلك بالإخبار بجهود الأنبياء والرسل عليهم السلام في سبيل نشر دعوتهم، وصراعهم مع أقوامهم، ومدى استجابتهم لهم وإعراضهم عنهم، ونصر الله لأنبيائه؛ قال القاسمي مقررا لهذا المقصد مستدلا له بالقرآن: «ثم اعلم أن قصص القرآن الكريم لا يراد بها سرد تاريخ الأمم أو الأشخاص، وإنما هي عبرة للناس. كما قال تعالى في سورة هود، بعد ما ذكر موجزا من سيرة الأنبياء عليهم السلام مع أقوام: **﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾** [هود:120]»[3].

---

(1) مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط:4، 2000م، (ص: 41).
(2) المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، د ت ط، (ص: 144) (بتصرف يسير).
(3) محاسن التأويل، القاسمي، (1/ 74).

وقد زاد ابن عاشور الآية وضوحا حين بيّن دور القصص في تسلية النبيﷺ وتثبيته، كما أشار في السياق نفسه إلى مقصد بيان **السنن الإلهية في حياة الأمم وفنائها**، حيث قال: «وتثبيت فؤاد الرسولﷺ زيادة يقينه ومعلوماته بما وعده الله؛ لأن كل ما يعاد ذكره من قصص الأنبياء وأحوال أممهم معهم يزيده تذكرا وعلما بأن حاله جار على سنن الأنبياء، وازداد تذكرا بأن عاقبته النصر على أعدائه، وتجدد تسلية على ما يلقاه من قومه من التكذيب وذلك يزيده صبرا. والصبر: تثبيت الفؤاد.

وأن تماثل أحوال الأمم تلقاء دعوة أنبيائها مع اختلاف العصور يزيده علما بأن مراتب العقول البشرية متفاوتة، وأن قبول الهدى هو منتهى ارتقاء العقل، فيعلم أن الاختلاف شنشنة قديمة في البشر، وأن المصارعة بين الحق والباطل شأن قديم، وهي من النواميس التي جبل عليها النظام البشري، فلا يحزنه مخالفة قومه عليه، ويزيده علما بسمو أتباعه الذين قبلوا هداه، واعتصموا من دينه بعراه، فجاءه في مثل قصة موسى‏عليه السلام واختلاف أهل الكتاب فيه بيان الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين، فلا يقعوا فيما وقع فيه أهل الكتاب»(1).

ولئن كان ابن عاشور في كلامه السابق قد أشار إلى مقصد السنن الإلهية من خلال قصص القرآن، فإن القاسمي صرّح بذلك فقال: «وفي تلك القصص فوائد عظيمة، وأفضل الفوائد وأهم العبر فيها التنبيه على سنن الله تعالى في الاجتماع البشريّ، وتأثير أعمال الخير والشر في الحياة الإنسانية. وقد نبّه الله تعالى على ذلك في مواضع من كتابه كقوله: ﴿ **وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ** ﴾[الحجر: 13]. وقوله: ﴿ **سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [غافر: 85]. يذكر أمثال هذا بعد بيان أحوال الأمم في غمط الحق والإعراض عنه، والغرور بما أوتوا، ونحو ذلك.

فالآية الأولى جاءت في سياق الكلام عن المعرضين عن الحق، لا يلوون عليه ولا ينظرون في أدلته لانهماكهم في ترفهم وسرفهم، وجمودهم على عاداتهم وتقاليدهم.

والآية الثانية: جاءت في سياق محاجّة الكافرين والتذكير بما كان من شأنهم مع الأنبياء. وبعد الأمر في السير في الأرض والنظر في عاقبة الأمم القوية ذات القوة والآثار في الأرض، وكيف هلكوا بعد ما دعوا إلى الحق والتهذيب فلم يستجيبوا، لما صرفهم من الغرور بما كانوا فيه، ولم ينفعهم إيمانهم عند ما نزل بهم بأس الله، وحلّ بهم عذاب التفريط والاسترسال في الكفر وآثاره السوءى»(2).

---

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (12/ 192).

(2) محاسن التأويل، القاسمي، (1/ 74).

فهذه الأغراض التي تهدف القصة القرآنية إلى تحقيقها، تبين سعة هذا الأسلوب وقدرته على إيصال المعلومات وترسيخ المفاهيم، ومعالجة الأخطاء...

الفرع الثاني: عناية السنة بأسلوب القصص

بمثل ما اهتم القرآن الكريم بأسلوب القصة، فقد اهتمت السنة النبوية به كأسلوب من أساليب التعليم وأولته أهمّيّة كبيرة، « فكثيرا ما كان النبي ﷺ يعلم أصحابه بطريق القصص والوقائع التي يحدّثهم بها عن الأقوام الماضين، فيكون لها في نفوس سامعيها أطيب الأثر، وأفضل التوجيه، وتحظى منهم بأوفى النشاط والانتباه، وتقع على القلب والسمع أطيب ما تكون؛ إذ لا يواجه فيها المخاطب بأمر أو نهي، وإنما هو الحديث عن غيره، فتكون له منه العبرة والموعظة والقدوة والائتساء»[1]، ومقاصد القصص النبوي تسير في مسار وسياق القصص القرآني.

فمن جوانب القصص النبوي الهادف إلى **التمسك بالتوحيد، والصبر في سبيله، وبيان أنّ العاقبة للمتقين،** أنّ خباب بن الأرت رضي الله عنه، قال: « شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «**كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[2].

قال العيني مبرزا الهدف من إيراد القصة: «وحاصل المعنى: لا تستعجلوا فإن من كان قبلكم قاسوا ما ذكرنا فصبروا، وأخبرهم الشارع بذلك ليقوى صبرهم على الأذى»[3].

ولم يغفل أبو غدة هذا المعنى بل أكّد عليه، كما أشار إلى حكم أخرى حيث قال: «فهذه القصة التي ساقها الرسول ﷺ فيها من الحكم والعبر لا يعلمها إلاّ من أعطاها حقها من التأمل، ففيها أن الابتلاء بالتعذيب وغيره لأهل التوحيد سنة ماضية، وفيها ثبات من كان قبلنا على الحق لا يصده عن دينه شيء ولو كان الثمن حياته، وفيها إخبار بالغيب عندما أخبر عن ظهور هذا الدين، وفيها بيان فضيلة الصبر وذم الاستعجال بقوله: «**ولكنكم تستعجلون**»[4].

---

(1) الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، عبد الفتاح أبو غدة، (ص:191).

(2) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم: 3612، (4/ 201).

(3) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، (16/ 146).

(4) الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، عبد الفتاح أبو غدة، (ص:191).

إضافة إلى ما سبق فقد تضمن القصص النبوي ما يهدف إلى نشر **الإصلاح الاجتماعي**، وتقوية الروابط، ومن ذلك ما روي عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ: «**أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى، فأرصد الله له، على مَدْرَجَتِهِ، ملكا فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّهَا؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه**»(1).

والحقيقة أنّ قصص القرآن الكريم والسنة النبوية كثيرة لا يمكن استيعابها، وقد سقت نماذج من باب التمثيل، وهي تهدف جميعا إلى تحقيق الكثير من المقاصد، وتُمثِّل الصورة الواقعية والعملية التي ترسُم التعاليم السامية في مشاهد نابضة بالحياة، فكثير من الناس يرون الحقَّ من خلال الواقع العملي أكثر ممَّا يعرفونه من خلال التعاليم المجردة.

وتنوع مقاصد القصص القرآني والنبوي يبرز أن أسلوب القصة إذا استعمل على وجهه المطلوب في العملية التعليمية حقّق الكثير من الأهداف والكفاءات، فمن خلاله يستطيع المعلم أنّ يسري إلى قلوب وعقول الطلاب من غير مقاومة، فيرسّخ القيم والمفاهيم، ويصحّح الأخطاء دون إحراج، غير أنه يحسن التنبيه إلى أنّ الهدف ليس مجرد سرد القصص فقط، بل على المعلم بيان مواضع العبر، واستخلاص الفوائد المستنبطة من القصة، وبيان الأحكام الواردة فيها...

في خلاصة هذا المبحث يتضح أنّ الإسلام اهتم بأساليب تحصيل العلم، ومنها أسلوب التدرج، الذي يقتضي الانتقال المعلم بالمتعلم في تلقينه للعلوم والمعارف شيئا فشيئا، مراعيا في ذلك أحواله، ويعتبر من أنْفع الأساليب التعليمية التي تساهم في إيصال المعارف؛ لذا اهتم به القرآن والسنة. كما اهتما بأسلوب المناقشة والحوار الذي يفضي إلى القناعات المبنيّة على الأدلّة والبراهين، مع بيان الإطار العام الذي ينبغي أن يتّسم به الحوار، فلا غنى عن المجادلة بالحسنى، والتركيز على إقامة الحجة وتوضيح المحجّة. وانتقاء ما يناسب المقام التعليمي. ومن أنجع طرق التعليم النّافعة؛ الاعتماد على طرح الأسئلة، فبها يتحفز الذهن ويحصل التشويق وتتحقق المعرفة، فالسؤال رافد مهّم في العمليّة التعلميّة؛ لذا ورد في القرآن والسنّة كثيرا بمختلف الصيّغ والأغراض، وجاء من المخالف والموافق. وأخذ أسلوب الممارسة والتطبيق للمعارف العلمية حيزا هاما، لما يحقّقه من ترسيخ المعلومة، وإيصال المفاهيم بسرعة. ومن طرائق التعليم في القرآن والسنة ضرب الأمثال، حتى يصير المخيّل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنّه مشاهد. ومما يبرز عناية الإسلام بإيصال المعلومات بمختلف الوسائل المشروعة؛

(1) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله، رقم: 2567، (4/ 1988).

استخدام الإشارة والرّسم البياني، وذلك ما ثبت عن النبيﷺ في مواقف عديدة، وهو ما يبرز أسبقية الإسلام إلى هذا الأسلوب. كما اعتمد القرآن والسنة أسلوب القصة، الذي يهدف إلى تحقيق الكثير من المقاصد ممّا يجعله وعاء للعلم والتعلم.

وإذا كانت أساليب التعليم تضمن السير السليم في تلقي العلمي وتلقينه؛ فإن معرفة آثار العلم من أعظم الحوافز لسلوك سبيله، هذا ما سيأتي في المبحث الموالي.

المبحث الثاني: آثار العلم في القرآن والسنة

يترتب على الالتزام بآداب العلم وسلوك أساليبه آثار عديدة تضمّنها القرآن الكريم والسنة النبوية، ويأتي هذا المبحث لبيان أهمها، وذلك في أربعة مطالب على النحو التالي:

المطلب الأول: العلم سبيل الإيمان والسعادة

من آثار العلم أنّه يوصل إلى الإيمان بالله ﷻ، ويحقّق السعادة لسالكه، وهذا ما دلّ عليه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وفيما يلي بيان ذلك.

الفرع الأول: العلم سبيل الإيمان

فإنّ أول ما نزل لتحقيق الإيمان قوله جلّ ثناؤه: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: 1_5]، ولا شك أنّ القراءة مفتاح العلم.

وقد جاء في نزول هذه الآية أنّ جبريل عليه السلام أمر من النبيﷺ أنّ يقرأ، وكرّر ذلك ثلاث مرات[1]، قال ابن حجر مبينا حكمة هذا التكرار، مشيرا إلى دور القراءة في تحقيق الإيمان: «ولعل الحكمة في تكرير الإقراء الإشارة إلى انحصار الإيمان الذي ينشأ الوحي بسببه في ثلاث؛ القول والعمل والنيّة، وأن الوحي يشتمل على ثلاث التوحيد والأحكام والقصص»[2].

ولا يتمكن الإنسان من الوقوف على حقيقة التوحيد، واستنباط الأحكام، واستخلاص العبر من قصص القرآن الكريم إلاّ بتدبره، وذلك من وسائل تحصيل العلم وإدراكه، لذا أمر الله ﷻ بذلك فقال: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص:29]، قال ابن مسعودرضي الله عنه : «من أراد العلم فليثوّر القرآن»[3]، وتثوير القرآن: مناقشته ومدارسته والبحث فيه[4].

وقد أبدع ابن عطية في بيان الصلة بين تدبر القرآن الكريم وتحقيق الإيمان، مشيرا إلى الحكمة من ترتيل القرآن، وذلك في معرض تفسيره للآية السابقة، حيث قال: «...أحال _ الله ﷻ_ في طلب الإيمان والتقوى على كتابه العزيز بقوله: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ المعنى: هذا كتاب لمن أراد التمسك بالإيمان والقربة إلينا، وفي هذه الآيات

(1) سبق تخريجه. ينظر: (ص: 43).

(2) فتح الباري، ابن حجر، (8/ 718).

(3) أخرجه الطبري في الكبير، رقم: 8665، (9/ 135)، والبيهقي في شعب الإيمان، فصل في تعلم القرآن، رقم: 1808، (3/ 347).

(4) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (1/ 446).

اقتضاب وإيجاز بديع حسب إعجاز القرآن العزيز... وظاهر هذه الآية يعطي أن التدبر من أسباب إنزال القرآن، فالترتيل إذا أفضل من الهذّ، إذ التدبر لا يكون إلاّ مع الترتيل»(1).

وقد أشارت سورة البقرة في بداياتها إلى تحقق الهداية بالقرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:2]، وأعظم الهداية تحقق الإيمان، ولا شك أنّ كتاب الله جلّ ثناؤه مستودع العلوم، لذا وصف الله ﷻ أهله بالعلم فقال: ﴿ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ ﴾ [العنكبوت:49]، فالاشتغال بكتاب الله جلّ ثناؤه يفضي إلى الإيمان والثبات عليه، وهذا ما أكّده جندب بن عبد الله ﷺ حين أخبر بأنّ الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين ازدادوا بالقرآن إيمانا، فقال: «تعلّمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانا»(2).

قال ابن تيمية: «والقرآن يعطي العلم المفصّل فيزيد الإيمان كما قال جندب بن عبد الله البجلي وغيره من الصحابة... ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: 1]»(3).

ومما يُبرز دور العلم في تحقيق الإيمان أنّ الله جلّ ثناؤه قدّمه على القول والعمل، حيث قال: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ﴾ [محمد:19]، وتقديمه إنّما لكونه مصحّح للنية المصحّحة للعمل(4)، والإيمان لا يتحقّق إلاّ بصحة النيّة وسلامتها من العوارض والآفات.

وقد استند أبو طالب المكي إلى الآية السابقة لبيان أنّ العلم سبيل لتحقيق الإيمان، واستدل على ذلك أيضا بقوله جلّ وعلا: ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾ [هود:14]، حيث قال بعد أن ساق هذه الآيات: «فقدّم العلم على التوحيد فصار أوّله، فكلّما اتسع القلب بالعلم بالله، وزهد في الدنيا ازداد إيماناً وعلا، لأنه يرى في علوّه ما لا يراه غيره، ويعلم في اتساعه ما لا يعلمه سواه، فيكبر المؤمن فيكون ذلك مزيد إيمانه وقوته...»(5).

فما ذُكر آنفا يوضّح أنّ صاحب العلم يرى ما لا يراه غيره، وبذلك يزداد إيمانه، وهذا ما يدل عليه قوله جلّ ثناؤه: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ

(1) المحرر الوجيز، ابن عطية، (4/ 502).

(2) سبق تخريجه. ينظر: (338).

(3) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (4/ 38).

(4) ينظر: فتح الباري، ابن حجر، (1/ 160).

(5) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، أبو طالب المكي، (1/ 204).

﴿ٱلْحَمِيدِ﴾[سبأ:6]، فالآية تبين أنّ أهل العلم ممن صفت قلوبهم يدركون صدق القرآن ويؤمنون بما جاء به، قال ابن عطية: «المعنى الإخبار بأن أهل العلم يرون الوحي المنزل على محمد حقا، وأنه يهدي إلى صراط الله»(1).

وقد قرن الله جلّ ثناؤه بين الإيمان والعلم في العديد من الآيات القرآنية، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[المجادلة:11]، فدلّ على أن العلم والإيمان لا يفترقان، والواو هنا عند أهل اللغة للمدح لا للجمع؛ فالعرب إذا مدحت بالأوصاف أدخلت الواو للمبالغة فقالوا: فلان العاقل والعالم والأديب، ومثل هذا قوله ﷻ: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[النساء:162] كله نعت... وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:7]، فوصف العلماء بالإيمان، كما وصف المؤمنين بالعلم (2).

وبالعودة إلى سياق الآية السابقة يتضح أنّ العلم وسيلة لتطهير القلوب من دنس الشك والريبة، ولا يتحقق الإيمان إلاّ بالسلامة من ذلك، قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[آل عمران:7]، فهذه الآيات بيّنت أصناف الناس في التعامل مع القرآن الكريم؛ فأهل الزيغ يتبعون المتشابه منه حتى يدخلوا الشكّ في النفوس، لفرط جهلهم وفساد قلوبهم، وأما الراسخون في العلم فيقولون في طمأنينة وثقة: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، قال الطبري: « يعني بـ "الراسخين في العلم"، العلماء الذين قد أتقنوا علمهم، ووَعَوْه فحفظوه حفظًا لا يدخلهم في معرفتهم وعلمهم بما علموه شَكّ ولا لبس»(3).

وقد أوردت الآيات الموالية دعاء الراسخين في العلم، حيث يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[آل عمران:8]، «يعني بذلك جلّ ثناؤه: أنّ الراسخين في العلم يقولون: آمنا بما تشابه من آي كتاب الله، وأنّه والمحكم من آيه من تنزيل ربنا ووحيه. ويقولون أيضًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾، يعني أنهم يقولون رغبةً منهم إلى ربهم في أن يصرف عنهم ما ابتلى به الذين زاغت قلوبهم من اتباع

(1) المحرر الوجيز، ابن عطية، (4/ 406).

(2) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، أبو طالب المكي، (1/ 236) (بتصرف يسير).

(3) جامع البيان، الطبري، (6/ 206).

متشابه آي القرآن، ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويله ... ﴿ وَهَبْ لَنَا ﴾يا ربنا ﴿ مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾... يعني بذلك: هبْ لنا من عندك توفيقًا وثباتًا للذي نحن عليه من الإقرار بمحكم كتابك ومتشابهه، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾، يعني: إنك أنت المعطي عبادك التوفيقَ والسدادَ للثبات على دينك، وتصديق كتابك ورسلك»[1].

فالرّسوخ في العلم ساقهم إلى الإيمان، كما حملهم على طلب الثبات عليه، ثم سألوا بعد ذلك السعادة الأخروية بقولهم: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران:7]، «...فكأنهم قالوا: ليس الغرض من هذا السؤال ما يتعلق بمصالح الدنيا فإنها منقضية منقرضة، وإنما الغرض الأعظم منه ما يتعلق بالآخرة فإنا نعلم أنك يا إلهنا جامع الناس للجزاء في يوم القيامة، ونعلم أنّ وعدك لا يكون خلفا، وكلامك لا يكون كذبا، فمن زاغ قلبه بقي هناك في العذاب أبد الآباد، ومن أعطيته التوفيق والهداية والرحمة وجعلته من المؤمنين، بقي هناك في السعادة والكرامة أبد الآباد »[2].

وهذا ما يبيّن أنّ العلماء ارتقوا في مراتب الإيمان فتحققت لهم الخشية، بسبب ما فتح الله ﷻ عليهم به من العلم النّافع، إذ هو الموصول إلى ذلك، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:28].

وقد جاء سياق هذه الآية الدّالة على خشية العلماء لله تعالى بعد أمره جلّ ثناؤه بالتأمل في ملكوت السماء والأرض، حيث قال ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: 27_28]، فدلّ هذا أن الخشية لا تثبت لأهلها إلاّ بالعلم، والعلم لا يتكامل لأهله إلاّ بالتفكر في خلق الله تعالى، والإيمان بجميل صُنعه وقدرته المحيطة بخلقه، وأن من أهم خصائص أهل العلم إعمال وسائل إدراكه كالسمع والبصر والعقل[3]، فمن عطّل ذلك كان كالمعدوم منها وإن امتلكها، قال تعالى عن أهل الزيغ: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (10) فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك:11]، ثم بيّنﷻ أنّ أهل الخشية على خلاف ذلك؛ أي أنهم

(1) جامع البيان، الطبري، (6/ 211_ 212).

(2) مفاتيح الغيب، الرازي، (7/ 150).

(3) ينظر: النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام، القصاب، (3/ 700).

لم يعطّلوا عقولهم فنالوا الأجر الكبير، قال الله جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:11].

فالعلم الحقيقي يثمر الخشية، وذلك ما يسوق العبد للطاعة، ويبعده عن المعصية، فيجتمع له الخير كلّه، قال المناوي: «من ثمرات العلم خشية الله ومهابته، فإن من لم يعرف الله حق معرفته لم يهبه حق مهابته ولم يعظمه حق تعظيمه.. ولم يخدمه حق خدمته، فصار العلم يثمر الطاعات كلها، ويحجز عن المعاصي كلها، ويجمع المحاسن ويضّم شملها، فعليك بالعلم أول كل شيء»(1).

وخشية الله جلّ وعلا تورث الخشوع، وهذا ما يظهر من حال المؤمنين مع القرآن الكريم، قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:23]، وإن كانت الآية عامة في أهل الإيمان، إلاّ أنّ أهل العلم هم أعلى النّاس خشية، وبذلك فهم أكثر النّاس إيمانا وخشوعا، وهذا ما تحقّق لأهل العلم من أهل الكتاب، قال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿107﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿108﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:107_109]، قال الطبري: « يقول تعالى ذكره: ويخرّ هؤلاء الذين أوتوا العلم من مؤمني أهل الكتابين من قبل نزول الفرقان، إذا يُتْلَى عليهم القرآن لأذقانهم يبكون، ويزيدهم ما في القرآن من المواعظ والعبر خشوعا، يعني خضوعا لأمر الله وطاعته، واستكانة له»(2).

ولأهمية العلم في تحقيق الإيمان، فإنّه ينفي ما يضاده من كفر ونفاق، وهذا ما يدلّ عليه قوله ﷺ: «**خصلتان لا يكونان في منافق حسن سمت وفقه في الدين**»(3)، قال الطيبي في شرحه لهذا الحديث: « ليس المراد أنَّ واحدة منهما قد تحصل في المنافق دون الأخرى، بل هو تحريض للمؤمن على اتصافه بهما معًا، والاجتناب عن ضدهما، فإنَّ المنافق يكون عاريًا منهما وهو من باب التغليظ ونحوه، قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿6﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ

---

(1) فيض القدير، المناوي، (4/ 331).

(2) جامع البيان، الطبري، (17/ 579).

(3) أخرجه الترمذي، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم: 2684، (5/ 49)، وصحّحه الألباني في الصحيحة، رقم: 278، (1/ 561).

ﵟٱلزَّكَوٰةَﵞ [فصلت:6_7] وليس من المشركين من يزكي لكنه حث للمؤمنين على الأداء، وتخويف من المنع حيث جعله من أوصاف المشركين...»(1).

مما سبق يتبيّن أن العلم سبيل موصل إلى الإيمان لمن أخذه بحقّه، وليس وراء ذلك إلى السعادة والاطمئنان، وهذا ما سيأتي بيانه في الفرع الموالي.

الفرع الثاني: العلم سبيل السعادة

إنّ من أهم ثمرات الإيمان بالله ﷻ والعمل الصالح؛ الحياة الطيبة الهنيئة، قال جلّ ثناؤه: ﵟمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَﵞ[النحل:97]، والعلم سبيل لتحقيق ذلك، قال الغزالي: «إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذا في نفسه فيكون مطلوبا لذاته... وذريعة إلى القرب من الله تعالى، ولا يتوصل إليه إلاّ به، وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولن يتوصل إليها إلاّ بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل إلاّ بالعلم بكيفية العمل، فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم»(2).

ويعتبر القرآن الكريم مستودع العلوم، وقد أمر الله ﷻ بالفرح به فقال: ﵟقُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَﵞ[يونس:58]، قال ابن القيم: «إن الله سبحانه أمر أهل العلم بالفرح بما آتاهم وأخبر أنه خير مما يجمع الناس...وفُسّر فضل الله بالإيمان، ورحمته بالقرآن. والإيمان والقرآن هما العلم النافع، والعمل الصالح والهدى ودين الحق، وهما أفضل علم وأفضل عمل»(3).

مما سبق يتضح أنّ العلم يفضي إلى الفرح والسعادة، فهو طريق الخشية، والخشية ملاك السعادة الحقيقية، قال البيضاوي: «فإنّ الخشية ملاك الأمر، والمراد بالأمر السعادة الحقيقية، والفوز بالمراتب العلية، إذ لولا الخشية لم يترك المناهي والمعاصي، وكل من عرف الله لا بدّ أن يخشى، ولذا قال تعالى: ﵟإِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْﵞ [فاطر:28] »(4).

---

(1) قوت المغتذي على جامع الترمذي، السيوطي، (2/ 672).

(2) إحياء علوم الدين، الغزالي، (1/ 12).

(3) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم، (1/ 51).

(4) حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي، الطيبي، (8/ 386).

وجاء في السنة النبوية ما يبين أنّ أهل العلم في مجالسهم تغشاهم الراحة والسكينة، فعن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «... **وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**...»(1)، والسكينة الطمأنينة والوقار(2).

فصاحب العلم ينال من السعادة على قدر رسوخه في العلم وانتفاعه به، وإن قلّ ماله، وضاق حاله، بخلاف الجاهل فإنّه يلحقه الشقاء ولو ملك كنوز كسرى، قال الماوردي: «على أن العلم والعقل سعادة وإقبال، وإن قلّ معهما المال، وضاقت معهما الحال.

والجهل والحمق حرمان وإدبار وإن كثر معهما المال، واتسعت فيهما الحال؛ لأن السعادة ليست بكثرة المال فكم من مكثر شقي ومقل سعيد. وكيف يكون الجاهل الغني سعيدا والجهل يضعه. أم كيف يكون العالم الفقير شقيا والعلم يرفعه؟ »(3).

وتظهر السعادة بادية على من بذل وسعه لتبليغ العلم، وهذا ما يدلّ عليه قول النبي ﷺ: «**نضّر الله امرأ سمع مقالتي فبلغها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**»(4)، «قوله: «**نضّر الله**» معناه الدعاء له بالنضارة وهي النعمة والبهجة»(5)، قال ابن القيم: « ولو لم يكن في فضل العلم إلا هذا وحدَه لكفى به شرفًا؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ دعا لمن سمعَ كلامَه، ووعاه، وحَفِظه، وبلَّغه. وهذه هي مراتبُ العلم:
أوَّلها: سماعُه. فإذا سمعه وعاهُ بقلبه؛ أي: عَقَلَه واستقرَّ في قلبه، كما يستقرُّ الشيءُ الذي يُوعى في وعائه ولا يخرجُ منه، وكذلك عَقْلُه هو بمنزلة عَقْلِ البعير والدابَّة ونحوها حتى لا تَشْرُدَ وتَذْهَب، ولهذا كان الوعيُ والعقلُ قدرًا زائدًا على مجرَّد إدراك المعلوم.
المرتبة الثالثة: تعاهدُه وحفظُه، حتى لا ينساه فيَذْهَب.
المرتبة الرابعة: تبليغُه وبثُّه في الأمَّة؛ ليحصلَ به ثمرتُه ومقصودُه؛ فما لم يُبَلَّغْ ويُبَثَّ في الأمَّة فهو بمنزلة الكنز المدفون في الأرض الذي لا يُنْفَقُ منه، وهو مُعَرَّضٌ لذهابه، فإنَّ العلمَ ما لم يُنْفَقْ منه ويُعَلَّمْ فإنه يوشكُ أن يذهب، فإذا أُنفِقَ منه نما وزكا على الإنفاق.

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم: 2699، (4/ 2074).

(2) ينظر: المنهاج شرح مسلم بن الحجاج، النووي، (17/ 21).

(3) أدب الدنيا والدين، الماوردي، (ص: 46).

(4) سبق تخريجه. ينظر: (ص:126).

(5) معالم السنن، الخطابي، (4/ 187).

فمن قام بهذه المراتب الأربع دخلَ تحت هذه الدعوة النبويَّة المتضمِّنة لجمال الظاهر والباطن، فإنَ النَّضرةَ هي البهجةُ والحُسْنُ الذي يُكساهُ الوجهُ من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به وفرح القلب وسروره والتذاذه به، فتظهرُ هذه البهجةُ والسرورُ والفرحةُ نضارةً على الوجه.

ولهذا يجمعُ سبحانه بين السُّرور والنَّضرة، كما في قوله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾[الإنسان: 11]؛ فالنَّضرةُ في وجوههم، والسرورُ في قلوبهم. فالنعيمُ وطِيبُ القلب يظهرُ نضارةً في الوجه، كما قال تعالى: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾[المطففين:24].

والمقصودُ أنَ هذه النَّضرةَ في وجه من سمع سُنَّة رسول الله ﷺ، ووعاها، وحَفِظها، وبلَّغها، هي أثرُ تلك الحلاوة والبهجة والسرور الذي في قلبه وباطنه»(1).

وقد جاء ما يبيّن أنّ أفضل النّاس منزلة من آتاه الله ﷻ علما فوُفّق للعمل به وتبليغه، وهذا من تمام السعادة، ونقيضه من عطّل نفسه عن العلم والعمل به ولو من جهة النيّة الصالحة، فهذا في أحطّ منازل الشقاوة، ففي الحديث عن النبي ﷺ قال: « **إنما الدنيا لأربعة نفر، عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما، فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول: لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء** »(2).

قال ابن القيم: «فقسّم النبي أهل الدنيا أربعة أقسام خيرهم من أُوتي علمًا ومالاً فهو محسن إلى النآس وإلى نفسه بعلمه وماله.

ويليه في المرتبة من أوتي علما ولم يؤت مالاً وإن كان أجرهما سواء، فذلك إنما كان بالنية، وإلاّ فالمنفق المتصدق فوقه بدرجة الإنفاق والصدقة، والعالم الذي لا مال له إنما ساواه في الأجر بالنية الجازمة المقترن بها مقدورهما وهو القول المجرد.

الثالث: من أوتي مالاً ولم يؤت علما فهذا أسوأ الناس منزلة عند الله، لأنّ ماله طريق إلى هلاكه فلو عدمه لكان خيرا له، فإنه أعطى ما يتزود به إلى الجنة فجعله زادا له إلى النار.

---

(1) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، (1/ 197).

(2) أخرجه الترمذي، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، رقم: 2325، (4/ 563)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

الرابع: من لم يؤت مالاً ولا علمًا، ومن نيته أنه لو كان له مال لعمل فيه بمعصية الله فهذا يلي الغني الجاهل في المرتبة ويساويه في الوزر بنيته الجازمة المقترن بها مقدورها وهو القول الذي لم يقدر على غيره. فقسّم السعداء قسمين وجعل العلم والعمل بموجبه سبب سعادتهما، وقسّم الأشقياء قسمين وجعل الجهل وما يترتب عليه سبب شقاوتهما، فعادت السعادة بجملتها إلى العلم وموجبه، والشقاوة بجملتها إلى الجهل وثمرته»(1).

ومجمل القول إنّ العلم سبيل لتحصيل الإيمان كما أنّه يفضي بصاحبه إلى السعادة والاطمئنان، ولا يقصر به عن درجة الرّفعة والكرامة، فقليله ينفع وكثيره يعلي ويرفع...فأما اعتباره سبيل لتحقيق الإيمان والسعادة فقد اتضح مما سبق، وأما دوره في تحصيل الرّفعة وعلو المكانة فهذا ما يأتي بيانه في المطلب الموالي.

المطلب الثاني: العلم سبيل الرّفعة والتمييز بين النافع والضار

جعل الله جلّ وعلا لهذا الكون نواميس يسير عليها، فبقدر لزوم العبد لها يتحقق له التمكين والاستخلاف والرّفعة في الأرض، ويوفّق للتميز بين النّافع والضار، ومن أهم تلك السنن؛ التمكّن من العلم، وفيما يلي بيان ذلك.

الفرع الأول: العلم سبيل الرّفعة والتمكين في الأرض

من أهم ثمار العلم النّافع حصول العزة والتمكين، ومما يبين ذلك أنّ الله ﷻ جعل آدم عليه السلام خليفة في الأرض، ومكّنه فيها فقال للملائكة: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:30]، وبيّن وجه تفضيله واختياره لحمل هذه الأمانة فقال: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[البقرة:31_ 33]. قال المراغي تعليقا على جواب الملائكة عليهم السلام بقولهم: ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ : « فعلموا أنّ في فطرة هذا النوع استعدادا لعلم ما لم يعلموا، وأنّه أهل للخلافة في الأرض»(2).

(1) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، (1/ 179).

(2) تفسير المراغي، (1/ 79).

ولا تتحقق الخلافة والتمكين على الوجه اللائق بها إلاّ إذ صاحبها الإيمان والعمل الصالح، وسلمت من الأهواء، قال تعالى لنبيّه داود عليه السلام: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص:26].

وثبات المُلك وسلامته من الأهواء إنّما تحصل بالعلم، لذا قدّمه الله سبحانه وتعالى على المُلك في معرض امتنانه على داود وسليمان عليهما السلام، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل:15]، قال ابن باديس تعليقا على هذه الآية: « قد ابتدأ الحديث عن الملك العظيم بذكر العلم، وقُدّمت النّعمة به على سائر النّعم، تنويهًا بشأن العلم وتنبيهاً على أنّه هو الأصل الذي تنبني عليه سعادة الدنيا والأخرى، وأنّه هو الأساس لكل أمر من أمور الدين والدنيا، وأن الممالك إنما تنبني عليه وتُشاد، وأن الملك إنّما ينظم به ويُساس، وأنّ كل ما لم يُبن عليه فهو على شفا جُرف هار، وأنّه هو سياج المملكة ودرعها، وهو سلاحها الحقيقي وبه دفاعها، وأن كل مملكة لم تُحم به فهي عرضة للانقراض والانقضاض، قال أبو الطيب المتنبي:

أَعْلَى الْمَمَالِكِ مَا يُبْنَى عَلَى الأَسَلِ ... وَالطَّعْنُ عِنْدَ مُحِبِّيهِنَّ كَالْقُبَلِ

نعم إنّ محبي الممالك الصادقين في محبتها والذين تصلح لهم ويصلحون لها، هم الذين يستعذبون في سبيلها الموت، ويكون الطعن عندهم مثل القُبل على ثغور الحسان، فأما الممالك التي تبنى على السيف فبالسيف تُهدم، وما يشاد على القوة فبالقوة يُؤخذ، وإنّما أعلى الممالك وأثبتها ما بُني على العلم وحمي بالسيف، وإنّما يبلغ السيف وطره ويؤثر أثره، إذا كان العلم من ورائه، ولكن أبا الطيب- شاعر الرجولة والبطولة، شاعر المعارك والمطامع- لا يرى أمامه إلاّ الحرب، وآلات الطعن والضرب، فلا يمكن أن يقول- وقد غمرته لذة الانتصار واستولت نشوة الغلب والظفر على لبه وخياله- إلاّ ما قال»(1).

فالقوة وإن كانت من دعائم الملك إلاّ أنّ العلم هو الموجّه الحقيقي لها، وقد جمع الله سبحانه وتعالى بينهما فقال في حق داود عليه السلام ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾[ص:20]، قال أهل التفسير: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ بالجنود والرجال، وبهيبة الناس له(2)، وهذا ما يتضمن القوة، ثم بين تفضّله عليه بالعلم فقال جلّ ثناؤه:

---

(1) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس، (ص: 254).

(2) ينظر: جامع البيان، الطبري، (21/ 170)، بحر العلوم، السمرقندي، (3/ 161).

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾، وقد تعدّدت أقوال المفسرين في توجيه معنى الحكمة، إلاّ أن جميع الوجوه المذكورة عند التحقيق ترجع إلى العلم والفهم كما قال الرازي(1).

وقوله ﷻ ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ «قال أبو عبد الرحمن السلمي وقتادة: يعني الفصل في القضاء»(2). وهو أمر يحتاج إلى العلم، بل إنّه من أخص أنواع العلوم، وإلى هذا أشار العز بن عبد السلام في تفسيره حيث قال: «علم القضاء والعدل فيه»(3).

وصرّح القاضي عياض بذلك مبيّنا أهميته فقال: «فأما علم القضاء فلعُمرُ إلهِكَ إنه لنوع من العلم مجرد، وفصل منه مؤكد، غير معرفة الأحكام والبصر بالحلال والحرام، ففي الحديث: «**أقضاكم عليٌّ وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل**»(4). وقد يكون الرجل بصيرا بأحكام الأفعال، عارفا بالحلال والحرام، ولا يقوم بفصل القضاء...»(5).

وثبات الملك يحتاج إلى تحقيق الأمن، ومن أهم وسائله العلم المفضي إلى اتخاذ وسائل الوقاية، وقد أورد الله ﷻ أثر تعليم داود عليه السلام صناعة الدروع في تحقيق الأمن والتحصّن من العدو، قال جلّ ثناؤه: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء:80]، قال السعدي: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ «أي: علم الله داود عليه السلام، صنعة الدروع، فهو أول من صنعها وعلمها وسرت صناعته إلى من بعده، فألان الله له الحديد، وعلمه كيف يسردها والفائدة فيها كبيرة، ﴿ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ أي: هي وقاية لكم، وحفظ عند الحرب، واشتداد البأس»(6).

ومن النماذج التي تبرز دور العلم في ترسيخ الملك، ما أورده الله ﷻ من حال طالوت عليه السلام، فقد رشّحه علمه في المقام الأول ليكون ملكا على قومه، وفي ذلك عزّة له ورفعة، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ

---

(1) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، (7/ 58).
(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (15/ 162).
(3) تفسير العز بن عبد السلام، (3/ 75).
(4) لم أقف عليه.
(5) أحكام القرآن، ابن العربي، (4/ 43).
(6) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 528).

بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:247]، فالقوة الحقيقية التي يتحقق من خلالها الاستخلاف والتمكين، والتحصّن من كيد الأعداء إنّما هي العلم.

وقد امتن الله ﷻ بالعلم على يوسف ﵇، قال جلّ ثناؤه: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: 22]، وظهر أثر العلم في محطات حياته، فرفعه الله به، وصرّح يوسف ﵇ بأحقيته في تولي خزائن مصر، واستدل على ذلك بما آتاه الله من علم وأمانة: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:55]، ومكّن الله ﷻ له كثمرة لما آتاه من علم وحكمة، لإحسانه واستشعاره لرقابة ربه، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف:56].

وقد ذكر الله ﷻ هذا التمكين يوم أن بيع يوسف ﵇ عبدا، واستدلّ له بما آتاه من علم تعبير الرؤيا، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يوسف:56]، قال السعدي في معرض بيانه لبعض فوائد سورة يوسف: « ومنها: فضيلة العلم، علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف – بسبب جماله – حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته »(1).

ومما يبيّن دور العلم في تحقيق الاستخلاف والتمكين في الأرض أنّ العلم موصل إلى الإيمان كما سبق في المطلب الأول، والإيمان يحقق ذلك كما قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور:55].

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، (ص: 410).

والعبد يرتقي في مراتب الإيمان على قدر علمه، ومن ثمّ كان أهل العلم أعلى النّاس خشية؛ لذا خصّهم الله برفعهم فوق غيرهم درجات، قال الله جلّ ثناؤه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[المجادلة:11]، «فوعد الله عز وجل المؤمنين أنه يرفعهم، ثم خصّ العلماء منهم بفضل الدرجات»(1).

وقد أشار الطيبي إلى الحكمة من عطف الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا، حيث قال: «وفي إدخال الذين أوتوا العلم في حكم رفع المنزلة بسبب امتثال الأوامر مع الذين آمنوا، ثم في إخراجهم عنهم والعطف عليهم مستقلة، إيذان بأن العمل الواحد تتفاوت درجة فاعله بحسب التخلي عن العلم والتحلي به إلى غايات بعيدة، وأن العمل مع علو رتبته يكتسي من العلم المقرون به من الرفعة ما لا يكتسبه إذا انفرد عنه...»(2).

من خلال ما سبق يتضح أنّ العلم يرفع العمل درجات، فكلّما قوي علم العبد كلما ارتفعت درجة عمله.

ومن الأسباب التي جعلت أهل العلم يرفعون فوق غيرهم درجات ما امتازوا به عن غيرهم من توضيح المعاني وكشف الحقائق، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[آل عمران:7]، « ففي الآية ذكر للقرآن المنزل، وبيان لمن أنزل عليه وهو النبي ﷺ، ثم ذكر لمراتب النّاس معه، فالسعداء هم الذين يعرفون تأويله؛ فصار الكتاب أصلا، والسنة فرعا، واستنباط العلماء إيضاحا وكشفا»(3)، وهذه الوظيفة في الحقيقة تبيّن مكانة العلماء، فهم المرجع لفهم ما أشكل علينا، قال ﷻ: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل:43].

وقد جاء في السنة النبوية الشريفة ما يؤكد علو درجة العالم، وأنّه أرفع من العابد، قال النبيﷺ: «**وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم، إن العلماء هم ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما أورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظه _ أو بحظ وافر_**» (4).

وقد بيّن أبو العباس القرطبي وجه تفضيل العالم على العابد حيث قال: « هذه المفاضلة لا تصح حتى يكون كل واحد منهما قائما بما وجب عليه من العلم والعمل؛ فإنَّ العابد لو ترك شيئًا من الواجبات، أو عملها على جهل لم يستحق اسم العابد، ولا تصح له عبادة، والعالم لو ترك شيئا من الواجبات لكان مذموما، ولم يستحق اسم

---

(1) أخلاق العلماء، الآجري، (ص: 17).

(2) حاشية الطيبي على الكشاف، الطيبي، (15/ 287).

(3) أدب الدنيا والدين، الماوردي، (ص: 88).

(4) سبق تخريجه. ينظر: (ص:83).

العالم، فإذًا محل التفضيل: إنما هو في النوافل، فالعابد يستعمل أزمانه في النوافل من الصلاة والصوم والذكر، وغير ذلك، والعالم يستعمل أزمانه في طلب العلم وحفظه وتقييده وتعليمه، فهذا هو الذي شبّهه بالبدر، لأنَّه قد كمل في نفسه، واستضاء به كل شيء في العالم من حيث إن علمه تعدى لغيره، وليس كذلك العابد؛ فإنَّ غايته أن ينتفع في نفسه، ولذلك شبهه بالكوكب الذي غايته أن يظهر نفسه»(1).

ممّا سبق يتضح أن الرّفعة للعالم إنّما تحققت بسبب اشتغاله بالعلم، وهو أفضل من غيره من النوافل، لما له من دور في الصلاح والإصلاح، لذا جُعل العالم في أعلى المراتب لأنّه المستأمن على مصالح النّاس، وهو الذي يرشدهم إلى الحقّ، ويحثّهم على لزوم المنافع والابتعاد عن المضار، وذلك من آثار العلم وسيأتي بيانه في الفرع الموالي.

الفرع الثاني: العلم سبيل لمعرفة الحق والتمييز بين النّافع والضار

من آثار العلم أنّه سبيل لمعرفة الحق وأهله، والتمييز بين النّافع والضار، وهذا ما بيّنه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة؛ فالمشتغل بالعلم يتمكّن من فهم الآيات الشرعية فيفرق بين الحلال والحرام، كما ينتفع بالآيات الكونية، ويدرك حقيقة الدنيا، ويوفّق لإدراك مراتب النّاس مع الأحكام الشرعية فعلا وتركا، ليتبع أهل الخير ويبتعد عن أهل الشقاء، وفيما يلي بيان لذلك:

من الآثار التي يجنيها العبد نتيجة لتعلّمه؛ **فهم الآيات الشرعية**، وهذا ما يسوقه للإيمان بالله تعالى، ومعرفة الحق، ومما يبيّن ذلك قوله ﷻ: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[سبأ:6]، فأهل العلم يشهدون بالحق ويميزونه عن غيره، وهذا ما بيّنه الله جلّ ثناؤه في آية أخرى حيث قال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[آل عمران:18].

ومعرفتهم للحق جعلهم يتميّزون عن غيرهم، قال الله ﷻ مبيّنا ذلك: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[الزمر:9]، قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لقومك: هل يستوي الذين يعلمون ما لهم في طاعتهم لربهم من الثواب، وما عليهم في معصيتهم إياه من التبعات، والذين لا يعلمون ذلك، فهم يخبطون في عشواء، لا يرجون بحسن أعمالهم خيرا، ولا يخافون بسيئها شرا؟ يقول: ما هذان بمتساويين»(2).

(1) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، (6/ 686).

(2) جامع البيان، الطبري، (21/ 268).

ومن الآيات الشرعية التي يوفّق إلى فهمها أولوا العلم؛ **أمثال القرآن الكريم**، ومما يبين ذلك قوله جلّ ثناؤه: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:43]، «أي: وما يفهمها ويتدبرها إلاّ الراسخون في العلم المتضلعون منه»(1).

وممّا يبين أنّ العالم يوفّق لفهم أمثال القرآن الكريم ما رُوي في فضل عمرو بن العاص ﵁، قال: «عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مثل»(2).

قال ابن كثير تعليقا على هذا الأثر: «وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص ﵁ حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:43]»(3).

ونظرا لتحقق فهم الآيات الشرعية لأهل العلم فقد أمر الله ﷻ بالرجوع إليهم، حيث قال: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:43]، وقال جلّ ثناؤه: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء:83]، قال أبو حامد الغزالي: «رَدَّ حُكْمَهُ في الوقائع إِلَى استنباطهم، وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء في كشف حُكْمِ اللهِ»(4)، وفي هذا بيان لعلو مكانة العلم وأهله.

ومن آثار فهم الآيات الشرعية؛ **تمييز الحلال من الحرام**، قال جلّ ثناؤه: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:32]، قال الطبري في تفسيره لهذه الآية: «يقول تعالى ذكره: كما بينت لكم الواجب عليكم في اللباس والزينة، والحلال من المطاعم والمشارب والحرام منها، وميزّت بين ذلك لكم أيها الناس، كذلك أبيِّن جميع أدلتي وحججي، وأعلامَ حلالي وحرامي وأحكامي، لقوم يعلمون ما يُبَيَّن لهم، ويفقهون ما يُمَيَّز لهم»(5). فهذا البيان والتفصيل إنما ينتفع به أهل العلم فيبلغونه لغيرهم، أمّا المنصرف عن ذلك فلا يفرّق بينهما، وبذلك قد يحرّم على نفسه أو على غيره ما لم يُحرّمه الله ﷻ، فيضيّق واسعا.

---

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (6/ 279).

(2) سبق تخريجه. ينظر: (ص:362).

(3) المصدر السابق، (6/ 279).

(4) إحياء علوم الدين، الغزالي، (1/ 5).

(5) جامع البيان، الطبري، (12/ 402).

ومن الأمور التي يُوفّق صاحب العلم إلى إدراكها؛ **ما جعله الله رخصة لعباده** حتى يرفع عنهم الحرج والمشقة، لذلك أنكر النبي ﷺ على أناس أفتوا غيرهم بغير علم، ولم يرجعوا لسؤال العلماء فضيقوا بذلك واسعا، وحجروا على ما جعله الله جلّ ثناؤه رخصة لعباده، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**أصاب رجلا جرح في عهد رسول الله ﷺ، ثم احتلم، فأُمر بالاغتسال، فاغتسل، فمات، فبلغ ذلك رسول الله– ﷺ– فقال**: «**قتلوه قتلهم الله، ألم يكن شفاء العي السؤال**»[1].

وقد يطال المنع بسبب الجهل بعض الواجبات التي أمر الشرع بها، كالتوبة إلى الله جلّ ثناؤه والرّجوع إليه، وهذا ما حصل للرّجل الذي قتل مائة نفس، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، أن نبي الله ﷺ قال: «**كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة** »[2]، فالحديث يبيِّن مكانة العلم؛ إذ به يحصل التمييز بين الخير والشرّ.

والعلم طريق موصل إلى إدراك **حقيقة الآيات الكونية** التي فصّل الله ذكرها في القرآن الكريم، لتكون سبيلا لإدراك عظمته والإقرار بتوحيده، فلا طريق للوقوف على هذه الغاية العظيمة إلاّ بإعمال العقل، قال تعالى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ** ﴾[يونس:5]، « هذه الآية أصل في علم المواقيت والحساب ومنازل القمر والتاريخ»[3]، وقد نبّه القاسمي إلى أن المنتفع بالآيات الكونية والشرعية هم أهل العلم فقال في تفسير قوله

(1) أخرجه أبو داود في سننه، باب المجدور يتيمم، رقم: 337، (1/ 253). وابن ماجه في السنن، باب في المجروح تصيبه الجنابة، فيخاف على نفسه إن اغتسل، رقم: 572، (1/ 189)، وحسنه الألباني.

(2) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم: 2766، (4/ 2118).

(3) محاسن التأويل، القاسمي، (6/ 7).

جل ذكره: ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ « أي يبين الآيات التكوينية أو التنزيلية المنبهة على ذلك لقوم يعلمون الحكمة في إبداع الكائنات، فيستدلون بذلك على وحدة مبدعها »(1).

وقد فصّل الله جلّ ثناؤه في بيان **حقيقة الدنيا** بمثل ضربه عنها، ثم بيَّن أنه لا يُوفق لإدراك هذه الحقيقة إلاّ صاحب العقل الرّاجح ممن حباه الله ﷻ علما نافعا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[يونس:24]. قال الطبري في معنى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾: «يقول: كما بيَّنّا لكم أيها الناس، مثل الدنيا وعرّفناكم حكمها وأمرها، كذلك نُبين حججنا وأدلَّتنا لمن تفكَّر واعتبر ونظر، وخصَّ به أهل الفكر، لأنهم أهل التمييز بين الأمور، والفحص عن حقائق ما يعرض من الشُّبَه في الصدور»(2).

وذكر الله في آية أخرى كيف استطاع أهل العلم من أهل الإيمان التمييز بين ثواب الله الباقي وغرض الدنيا الفاني، فأنكروا على المنخدعين بسرابها، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾[القصص:80]، ففي هذه الآية بيان أنّ عظم قدر الآخرة يعلم بالعلم(3).

وقد بيّن الله عز وجل في كتابه العزيز أنّ العلم سبيل **لمعرفة كيد الأعداء**، حتى يجتنبهم المسلم، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[الأنعام:55]، فهذا التفصيل لا يدركه إلاّ أهل العلم، واستبيان طريق المجرمين لا يقوى عليه عامة النّاس، قال رشيد رضا: « ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ ﴾؛ أي نفصل الآيات المنزلة في بيان الحقائق التي يهتدي بها **أهل النّظر الصحيح والفقه الدقيق** لما فيها من العلم والحكمة والمواعظ والعبرة، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾؛ أي ولأجل أن يظهر بها طريق المجرمين فيمتازون بها عن جماعة المسلمين»(4).

---

(1)محاسن التأويل، القاسمي، (6/ 7).

(2) جامع البيان، الطبري، (15/ 57).

(3) ينظر: إحياء علوم الدين، الغزالي، (1/ 5).

(4) تفسير المنار، رشيد رضا، (7/ 376).

وإذا كان العلم سبيل للتمييز بين النّافع والضار، فإن ذلك يثمر الخير والبركة في الدنيا والنجاة يوم القيامة وهذا ما يأتي بيانه في المطلب الموالي.

المطلب الثالث: العلم سبيل لنيل البركة في الدنيا والنجاة يوم القيامة

من آثار العلم النّافع تحصيل البركة في الدنيا، والفوز يوم القيامة، وهذا ما دلّت عليه نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وفيما يلي بيان ذلك.

الفرع الأول: العلم سبيل لنيل البركة في الدنيا

قبل التعريج على ذكر أثر العلم في تحصيل البركة أقدم ببيان معناها على وجه مختصر، فأما من حيث **اللغة** فتعني الزيادة والنماء(1)، وأما في **الاصطلاح** فقد روي عن ابن عباس ﵄ أنّها الكثرة في كل خير(2).

وقد بيّن الله تعالى أنّ معلمي النّاس الخير أهل بركة، فقال عن إبراهيم وإسحاق عليهما السلام: ﴿ **وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ** ﴾[الصافات:113]، والبركة التي حصلت لهما هي كثرة ذريتهما كما قال الواحدي(3).

وقال عيسى ﵇ ممتنا بنعم الله ﷻ عليه: ﴿ **وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا** ﴾ [مريم:31]، قال سفيان بن عيينة: «﴿ **وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ** ﴾ قال مُعلّما للخير»(4).

وقد ساق رشيد رضا في تفسيره لهذه الآية قول ابن عيينة ثم علق عليه بقوله: «وهذا يدل على أن تعليم الرّجل الخير هو البركة التي جعلها الله فيه؛ فإنّ البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه، وهذا في الحقيقة ليس إلاّ في العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمه...»(5).

وكما جعل الله ﷻ البركة في رسله عليهم السلام لتعليمهم النّاس الخير، جعلها أيضا في **كتابه** فهو معين العلوم، قال تعالى: ﴿ **وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ** ﴾[الأنبياء:50]، وقال: ﴿ **كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ** ﴾[ص:29]، وقد نقل الرازي في تفسير ﴿ **مُبَٰرَكٞ** ﴾ عن أهل المعاني أن معناه كثير خيره، دائم بركته ومنفعته، يبشر بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية. ثم بيّن أنّ سبب ذلك ما فيه من العلوم النظرية فهو أشرفها وأكملها وهو العلم بالله تعالى وصفاته، وأفعاله وأحكامه وأسمائه، وما

---

(1) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، (10/ 395).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، (4/ 57).

(3) التفسير الوسيط، الواحدي، (3/ 531).

(4) جامع البيان، الطبري، (18/ 191).

(5) تفسير المنار، رشيد رضا، (7/ 516).

فيه من العلوم العملية التي لا توجد في غيره مثله، سواء كانت أعمال الجوارح أو أعمال القلوب. ثم قال: «وأنا قد نقلت أنواعا من العلوم النقلية والعقلية فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادة في الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم»(1) يقصد بذلك تفسير القرآن الكريم.

وقد أكّد ابن القيم سبب ارتباط البركة بالرسل عليهم السلام والكتاب فقال: «ووصف رسوله بأنه مبارك كما في قول المسيح: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾، فبركة كتابه ورسوله هي سبب ما يحصل بهما من العلم والهدى والدعوة إلى الله»(2).

وكما اقترنت البركة بالرسل والكتاب، فقد جعلها الله ﷻ في **أماكن التعليم**؛ إذ تغشاها الملائكة وتنزل عليها الرّحمة، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «...**وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**...»(3)، وأعظم تلك الأماكن بيت الله الحرام، وقد بين الله تبارك وتعالى ارتباط البركة به فقال: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران:96].

ومما يبين أهمية العلم في حصول البركة، أن من أشراط الساعة ظهور نوازل وشدائد كثيرة، منها؛ أن ترفع البركة من الوقت فلا ينتفع به، وأهم سبب لذلك قبض العلم وانتشار الجهل، فعن أبي هريرة ﵁، قال: قال النبي ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج – وهو القتل – حتى يكثر فيكم المال فيفيض**»(4).

وقد ساق القسطلاني بعض الأقوال في معنى تقارب الزمن ورجّح أنّ المقصود أن ترفع البركة منه، حيث قال: «ويتقارب الزمن فتكون كما في الترمذي، من حديث أنس مرفوعًا: «**السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، واليوم كالساعة، والساعة كالضرمة بالنار**». أي: كزمان اتقاد الضرمة. وهي ما توقد به النار أولاً: كالقصب والكبريت، أو يحمل ذلك: على قلة بركة الزمان، وذهاب فائدته، أو: على أن الناس، لكثرة اهتمامهم

---

(1) مفاتيح الغيب، الرازي، (13/ 65).

(2) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم، (1/ 174).

(3) سبق تخريجه. ينظر: (ص: 338).

(4) أخرجه البخاري، باب ما قيل في الزلازل والآيات، رقم: 1036، (2/ 33).

بما دهمهم من النوازل والشدائد، وشغل قلوبهم بالفتن العظام، لا يدرون كيف تنقضي أيامهم ولياليهم... والحق أن المراد نزع البركة من كل شيء حتى من الزمان، وذلك من علامة قرب الساعة»[1].

وممّا يبين أنّ رفع البركة في آخر الزمان إنما حصلت بسبب قبض العلم، أنّ العلم سبيل لتحصيلها كما سبق، ولا يتصور أنّ يكون العلم وتنعدم البركة من كل شيء، لذا فإن أول ما ورد في الحديث من علامات الساعة قبض العلم، وبالتأمل يتضح أنّ ما يأتي بعده من علامات إنما هي ناتجة عن فقده، فالزلازل والفتن والهرج أمور يصاحبها الجهل بالله ﷻ وعظمته، فتكثر بذلك المعاصي، فيذيق الله النّاس بعضا مما كسبته أيديهم.

الفرع الثاني: حصول الأجر وبلوغ الجنّة

من آثار العلم النّافع ما يحصّله صاحبه من **الأجر والثواب**، حتى إنّ الأجر لا ينقطع بعد موت صاحبه، ومما يبين ذلك قول النبي ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[2].

قال ابن القيم:«وهذا من أعظم الأدلة على شرف العلم وفضله وعظم ثمرته؛ فإن ثوابه يصل إلى الرّجل بعد موته ما دام يُنتفع به، فكأنه حي لم ينقطع عمله، مع ماله من حياة الذكر والثناء، فجريان أجره عليه إذا انقطع عن الناس ثواب أعمالهم حياة ثانية.

وخصّ النبيﷺ هذه الأشياء الثلاثة بوصول الثواب إلى الميت لأنه سبب لحصولها، والعبد إذا باشر السبب الذي يتعلق به الأمر والنهي يترتب عليه مُسببه وإن كان خارجا عن سعيه وكسبه، فلما كان هو السبب في حصول هذا الولد الصالح والصدقة الجارية والعلم النافع، جرى عليه ثوابه وأجره لتسببه فيه، فالعبد إنما يثاب على ما باشره أو على ما تولد منه...»[3].

وقد جاء ما يبيّن أنّ العلم **طريق الجنّة**، ففي الحديث: «**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة**»[4]. قال المظهري: «يعني: أذهبه الله بسبب طلب العلم في طريق من طرق الجنة، حتى يوصله إلى الجنة والضمير يعود إلى العلم.

فقوله: «**طريقًا من طرق الجنة**» إشارة إلى أنَّ طرق الجنة كثيرة؛ يعني: كل عمل صالح طريق من طرق الجنة، وطلب العلم أقرب طريق إلى الجنة، وأعظم وأفضل عمل من الأعمال المرضية عند الله؛ لأن صحة الأعمال وقبولها

(1) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القسطلاني، (2/ 256).
(2) سبق تخريجه. ينظر: (ص: 41).
(3) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم، (1/ 175).
(4) سبق تخريجه. ينظر: (ص:83).

موقوف على العلم، ألا ترى أن من ليس له علم الصلاة لا تصح صلاته، وكذلك الصوم والحج وجميع الأعمال الصالحة»[1].

وصفوة القول إن للعلم آثارا عديدة دلّ عليها القرآن الكريم والسنة النبوية، من ذلك أنه سبيل لتحقيق الإيمان ونيل والاطمئنان، وبه ينال السؤدد، ويتحقق التمييز بين النافع والضار، وهو سبيل لنيل البركة في الدنيا والنجاة يوم القيامة.

خلاصة الفصل من خلال ما سبق يتضح أنّ الإسلام اهتم بأساليب تحصيل العلم، ومنها التدرج، والمناقشة والحوار وأسلوب السؤال، والممارسة والتطبيق، وضرب الأمثال، واستخدام الإشارة والرّسم البياني، بالإضافة إلى أسلوب القصة.

وللعلم ثمار عديدة، فهو الطريق الموصول للإيمان والاطمئنان، وبه حصول الرفعة، والتمييز بين النافع والضار، كما أنّه سبيل لنيل البركة في الدنيا والنجاة يوم القيامة.

---

(1) المفاتيح في شرح المصابيح، المظهري، (1/ 313).

الخاتمة

أحمد الله ﷻ على توفيقه لإتمام هذا البحث، وقد خلصت في خاتمته إلى جملة من النتائج أهما ما يلي:

- ✓ يراد بالتزكية تطهير النّفس من الشّر، ممّا يؤدي إلى تنمية الخير فيها والاستقامة عليه، وهي عملية متواصلة في سبيل بلوغ أعلى المراتب حتى يصل العبد إلى درجة الإحسان؛ فيعبد الله كأنّه يراه.
- ✓ للتزكية ألفاظ عديدة تشترك معها، منها الطهارة، الطيب، والتربية، والتهذيب.
- ✓ وردت مادة (زكى) في القرآن الكريم بمعاني عديدة، منها: أداء الزّكاة الشّرعيّة، النقاء والطهارة، الثناء والمدح، الحلال، السلامة من الذنوب، التقوى والصلاح، الأقرب إلى المصلحة، التوحيد والشهادة. وأما في السنة فوردت بمعنى التوحيد والشهادة، الزكاة الشرعية، الثناء والمدح، الإحسان.
- ✓ تنقسم التزكية باعتبار مصدرها إلى: تزكية فطرية، وتزكية مكتسبة. وأما باعتبار حكمها فتنقسم إلى تزكية محمودة، وتزكية مذمومة.
- ✓ يراد بالعلم اصطلاحا كل ما بني على الدليل، وله صلة بألفاظ عديدة، من ذلك: الفقه، والمعرفة، والدراية، واليقين.
- ✓ جاء استعمال العلم في القرآن بعدة معانٍ، منها: علم اللهﷻالذي لا تحدّه حدود، إدراك الأمر والإحاطة به، الرُّؤْيَة، الْإِذْن، الدليل والْكتاب والحجّة، الفقه، التمييز، الدين، الفضل، ما يعدّه أربابه علما وإن لم يكن كذلك. وأما معاني العلم في السنة النبوية فمنها: علم الله تعالى، والعلم بالدين والفقه فيه، كما يراد به: العلم النّافع عموما.
- ✓ ينقسم العلم في القرآن والسنة باعتبار مصدره إلى نوعين: العلم اللّدني، والعلم المكتسب. أما باعتبار حكمه فينقسم إلى علم نافع، وعلم ضار.
- ✓ اهتم القرآن الكريم والسنة النبوية بالتزكية والتعليم؛ إذ إنّهما أساس مبعث الأنبياء والرّسل عليهم السلام، كما أنّهما سبيل الفلاح، والإعراض عنهما يؤدي للخيبة والخسران.
- ✓ ممّا يبرز أهمية العلم إضافة إلى ما سبق أنّ اللهﷻ امتنّ به على أنبيائه عليهم السلام، وحثّ عليه، وقدّمه على كثير من النعم، وذمَّ الجهل وأهله.
- ✓ جاء العلم مقرونا بالتزكية في القرآن والسنة، وهذا ما يبرز وجود علاقة تكاملية بينهما؛ إذ العلم من أسباب التزكية، والتزكية سبب من أسباب التوفيق للعلم النّافع والعمل الصالح.
- ✓ وسائل التزكية تعود إلى الإيمان والعبادات والأخلاق؛ فالإيمان باللهﷻ أصل كل زكاء ونماء؛ لأنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه وتعالى، ولكل ركن من أركان الإيمان دور مهم في الارتقاء بالنّفس البشرية.
- ✓ من آثار الإيمان وثماره أنّه يوصل إلى عبادة الله جلّ ثناؤه، والعبادات بدورها تزيد الإنسان طهرا ونماء؛ فالعبادات الفعلية والقولية مفتاح الخير وأساس النّجاح، حيث تطبع في المسلم الصفات الحميدة، وتخلصه من الصفات الدنيئة.

- ✓ لا يمكن بحال أن يرتقي الإنسان في مراتب التزكية إذا تخلى عن الأخلاق الحسنة، وقد بيّن القرآن والسنة أثر خلق العفة، وإحسان الظن والالتزام بآداب الاستئذان في التزكية، وتعتبر هذه الأخلاق أصل تنبثق منه جميع الأخلاق الأخرى؛ لذا خصّت ببيان أثرها في التزكية دون سواها.
- ✓ للتزكية آثار عديدة في الدنيا ومن ذلك الانتفاع بالمواعظ والآيات وحصول الهداية، ونيل محبّة الله ﷻ، وحصول الأخوة، وانتشار الأمن والرخاء، وتحقق السعادة والاطمئنان. كما أن التزكية سبب الفلاح في الآخرة؛ لأنها تحقق للمؤمن الثبات والبشارة عند الاحتضار وتنجيه من عذاب القبر، وفزع النّفخ في الصور، والحشر، والحساب والميزان، والمرور على الصراط، وليس وراء ذلك إلا دخول الجنة.
- ✓ اهتمّ القرآن والسنة بآداب العلم، فمن الآداب ما يشترك فيه المعلم والمتعلم، كالإخلاص لله تعالى، والعمل بالعلم، والصبر في طلبه وتبليغه، مع التواضع، بالإضافة إلى العناية بالهيئة وطريقة الجلوس.
- ✓ من الآداب ما يغلب فيه جانب المعلم أو المتعلم، فالمعلم يجب أن يكون رفيقا رحيما سهلا عدلا، يراعي الحالة النفسية والمادية للمتعلم، ويلاحظ استعداده الذهني، وعليه أن لا يقعد عن طلب العلم مهما ارتقى في درجاته، وليؤدي زكاة ما تعلمه بنشره، ونفع النّاس به، وليوطد العلاقة مع طلاّبه، فيناديهم بأسمائهم أو كناهم حتى يُشعرهم بالاهتمام، ما يساعدهم على الحرص والانتباه، فإن رأى ذلك منهم قابلهم بالتشجيع والثناء.
- ✓ اهتم القرآن والسنة بالمتعلم، باعتباره محور العملية التعليمية وأساسها، ومن عنايتهما به حثّه على احترام معلمه، والابتعاد عن حسد أقرانه، والعناية بالعلم والتسابق إلى حلقه، مع كتابة ما يلقى عليه.
- ✓ كل الآداب السابقة مهمة لنجاح العملية التعليمية، غير أنّ ذلك لا يحقق المقصود إلا بسلوك سبيل العلم ومراعاة طرائق تحصيله، مع العناية بمعرفة آثاره حتى يكون ذلك حافزا للعناية به.
- ✓ اهتم القرآن والسنة بأساليب تحصيل العلم، ومنها أسلوب التدرج، الذي يقتضي الانتقال بالمتعلم في تلقينه للعلوم والمعارف شيئا فشيئا، مراعيا في ذلك أحواله، ويعتبر التدرج من أنّفع الأساليب التعليمية التي تساهم في إيصال المعارف.
- ✓ اعتمد القرآن والسنة على المناقشة والحوار كرافد مهم للتعليم والتعلم، وقد رسما الإطار العام الذي ينبغي أن يتّسم به الحوار، فلا غنى عن المجادلة بالحسنى، والتركيز على إقامة الحجة وتوضيح المحجّة، وانتقاء ما يناسب المقام التعليمي.
- ✓ من أنجع طرق التعليم النّافعة التي اعتمدها القرآن والسنة؛ الاعتماد على طرح الأسئلة، فبها يتحفز الذهن ويحصل التشويق وتتحقق المعرفة؛ لذا ورد في القرآن والسنّة كثيرا بمختلف الصيّغ والأغراض، وجاء من المخالف والموافق.
- ✓ أخذ أسلوب الممارسة والتطبيق في القرآن والسنة حيزا هاما، لما يحقّقه من ترسيخ المعلومة، وإيصال المفاهيم بسرعة.

- من طرائق التعليم في القرآن والسنة ضرب الأمثال، حتى يصير المخيّل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنّه مشاهد.
- مما يبرز عناية الإسلام بإيصال المعلومات بمختلف الوسائل المشروعة؛ استخدام الإشارة والرّسم البياني، وقد ثبت ذلك عن النبيﷺ في مواقف عديدة، وهو ما يبرز أسبقية الإسلام إلى هذا الأسلوب.
- اعتمد القرآن والسنة أسلوب القصة، الذي يهدف إلى تحقيق الكثير من المقاصد ممّا يجعله وعاء للعلم والتعلم.
- الالتزام بآداب العلم وأساليبه يحقّق العلم، فينال صاحبه العديد من الآثار، من ذلك أنّ العلم سبيل لتحقيق الإيمان ونيل السعادة والاطمئنان، وبه ينال السؤدد، ويتحقق التمييز بين النافع والضار، وهو سبيل لنيل البركة في الدنيا والنجاة يوم القيامة.
- تعدد الأساليب التعليمية في القرآن الكريم والسنة النبوية يُسهم بصورة مباشرة في تسهيل العملية التعليمية.
- أساليب التعليم في القرآن والسنة تتكامل وتتفاعل مع بعضها، وكل مبدأ منها يتداخل مع المبادئ الأخرى، ولا يمكن الاستغناء عن واحد منها.
- للإسلام قصب السبق إلى كثير من الأساليب التربوية الحديثة.
- يعتبر المنهج الإسلامي التربوي التعليمي منهجا متكاملا، يحقق صلاح الفرد والمجتمع، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يصلح التعليم، ويحقق أهدافه إذا فصل عن التزكية.

التوصيات:

وختاما فإني أتمنى أن أكون قد وفّقت فيما قدمته من خلال هذا البحث، كما آمل أن أكون قد فتحت أمام المتخصصين مجالا واسعا، وأفقا رحبا لإثراء الموضوع أكثر، فإنه لايزال غضاًّ طريا.

- وإني أوصي بضرورة الاستمرار في دراسة الجانب المتعلق بآداب العلم وأساليبه؛ لاستنباط ما يساعدنا على أداء مهمتنا التعليمية على أكمل وجه.
- كما أوصي المتخصصين في العلوم الشرعية في بلدنا خاصة، وفي بلاد المسلمين عامة أن يبادروا بمدّ جسور التواصل مع واضعي المناهج التربوية لإفادتهم بالمنهج الإسلامي في التربية والتعليم.
- وأوصي القائمين على التربية بضرورة الاستغناء عن الأساليب المستوردة التي أثبتت التجربة عدم نجاعتها، مع ضرورة الإفادة من المنهج الإسلامي.

هذا جهد المقلّ، فما كان من صواب فمن الله وحده، ومن كان فيه من نقص وزلل فمن نفسي ومن الشيطان، والحمد لله رب العالمين.

فهارس البحث

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأعلام

فهرس الألفاظ الغريبة

فهرس المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

فهرس الآيات

طرف الآية ورقمها	الصفحة
سورة الفاتحة	
﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[4]	98
﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ...وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[5_7]	127، 234،273
سورة البقرة	
﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [2]	102،223،268،329، 378
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ... ﴾[6_7]	226
﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾[18]	210
﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ... ﴾[25]	273
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾[26]	360
﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[31]	43،385
﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ [34]	196
﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [43]	19، 117
﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[44]	275
﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾[45]	118، 243
﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [53]	62
﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ [54]	63
بحسبه﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾[60]	363
﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[67]	73
﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[79]	190
﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...مُّعْرِضُونَ ﴾ [82_83]	274
﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾[86]	183
﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾[87]	201

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾[96]	186
﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾[101]	274،55
﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾[102]	53،276
﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾[109]	201 ،198
﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ... ﴾[111_112]	27،67
﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾[120]	40 ،39
﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [121]	338،358
﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾[126]	238
﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ [128]	358
﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾[129]	79،84 ،19
﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[130]	95 ،59
﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ ﴾[143].	226
﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾[146]	36،273
﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾[147]	201
﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾[148]	323
﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾[151]	18،57،64،71،79 ،11
﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ... ﴾ [155_157]	227 ،112 ،121
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ ﴾ [159]	71
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾[164]	47
﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ... ﴾[166_167]	207 ،107
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ... ﴾[168_ 169]	177 ،161

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [170]	212
﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [171]	142، 143، 207، 213، 219
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾ [172]	128
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ [174]	299
﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾[176]	104
﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[179]	237
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [183]	121
﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾[186]	348
﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾[184]	102
﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾[189]	348
﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[195]	229
﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[198]	124
﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ ﴾[200]	124، 183
﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً ﴾[201]	183
﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [212].	169
﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[213]	22
﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾[220]	28
﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾[222]	51، 229
﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾[247]	49،76،82،388
﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[255]	41

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[259]	356،371
﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ [260]	356
﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ﴾[266]	361
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ ...﴾[267 _ 268]	172
﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾[269]	44
﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[275]	49
﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[276]	144
﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾[282]	45،84
سورة آل عمران	
﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۖ﴾[1_4]	105
﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[7]	170،220،379،380،389
﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾[8]	130،379 ،44
﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾[18].	390
﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ...﴾ [33_34]	228 ،58
﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [36]	164
﴿قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[38]	131
﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾[42]	13
﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ... مُسۡلِمُونَ﴾[58 - 63]	343،369
﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[76].	229
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾[77]	236
﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [79]	337
﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾[92]	107
﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[96]	395
﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[103].	232

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [110]	279
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [116]	190
﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [117]	238
﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [120]	197
﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [122]	97
﴿سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ...﴾ [133_134]	107، 229
﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [139]	85، 148
﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ [142]	39
﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [159]	279
﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [161]	259
﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [164]	18، 79، 80
﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ [173]	98، 255
﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [175]	171
﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [185]	180
﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [188]	27
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ...﴾ [190_191]	221
سورة النساء	
﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ [6]	144
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ [10]	53، 144
﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ [12]	231
﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [27].	179
﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ...﴾ [38_39]	188
﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [41]	132
﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [49]	19،27

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾[54].	198
﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾[58]	156
﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾[59]	344
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾[60].	173
﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾ [61]	176
﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[65]	90
﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ ... ﴾[66_68]	45، 84
﴿ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[78]	34
﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾[82]	56
﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾[83]	391
﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[95]	78
﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾[103]	138
﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾[113]	46، 71
﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ... إِلَّا غُرُورًا ﴾[120]	178
﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ...مَحِيصًا ﴾[121]	274
﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[142]	137
﴿ لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾[162]	379
﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ [173]	274
سورة المائدة	
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾[1]	323
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾[6]	90، 50
﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ﴾[14]	233
﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ... ﴾[15_16]	233
﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾[18]	27، 236

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [23]	97
﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ [27]	299
﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾[31]	355
﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [41]	196
﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾[44]	103
﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾[46]	103
﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[48]	61
﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾[60]	214
﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾[66]	236
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[67]	236،299
﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[72]	105
﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾[82]	202 ،186
﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾[83]	132
﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[90]	15
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾[91]	174
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ...بِهَا كَٰفِرِينَ﴾[101_ 102]	276
سورة الأنعام	
﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾[20]	273
﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[26]	132
﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ فِيهَا﴾[31]	258
﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ﴾ [33]	202 ،38
﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [35]	73
﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[36]	219
﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[37]	73
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [43]	174

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ... الظَّالِمِينَ ﴾[52]	203
﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾[68]	220
﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ [71]	227
﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾[75]	37
﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾[76]	239 ،35
﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ ... ﴾[81_82]	264
﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ... ﴾[83 _ 90]	228،268 ،59
﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾[111]	210 ،73
﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا ﴾ [112].	163
﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [121]	164 ،170
﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ... ﴾[123_124]	187 ،203
﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾[130]	182
﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [140]	،15
﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [141]	68
﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ [148]	41 ،39 ،34
﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾[153]	166
﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[155]	329
﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ... ﴾[192_194]	61
سورة الأعراف	
﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾[12]	161
﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾[13]	204
﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا ﴾[21]	162،166
﴿ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾[30]	235
﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾[31]	51
﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [32]	278،391

﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾[33]	75
﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون ﴾ [45]	176
﴿ الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ﴾[51]	184
﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ [54]	90، 109، 112
﴿ إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾ [56]	229
﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ﴾[58]	16، 60
﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ﴾[59]	300
﴿ أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ﴾ [70]	211
﴿ قال الذين استكبروا ﴾ [76]	200
﴿ قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾[82]	14
﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ... ﴾[85_86]	64
﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾[96]	235
﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾[100]	150
﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه... ﴾ [127_128]	63
﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ﴾[138]	206
﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾[146]	197، 283،269،229
﴿ للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾[156]	229
﴿ ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾[157]	16، 50، 150
﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾[172]	22، 90
﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ... ﴾ [175_ 176]	276
﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾[198]	212
﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ [199]	73
﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾ [204]	326
سورة الأنفال	

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُومِنُونَ ٱلذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ... ﴾[2_4]	78، 137
﴿ وَاذْكُرُوٓاْ إِذَ انتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي اِ۬لَارْضِ ﴾[26]	236
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ اُ۬للَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ ﴾[27]	236
﴿ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اَ۬للَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[28].	236
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ اُ۬للَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[29]	84
﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [30]	66
﴿ وَمَا لَهُمُۥٓ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اُ۬للَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾[34]	175
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ ﴾[45]	136،138
﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ اُ۬لشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [48]	74، 164، 169
﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اَسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾[60]	237
سورة التوبة	
﴿ وَإِنَ احَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ اَسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ اَ۬للَّهِ ﴾[6]	132
﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اَ۬للَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُومِنِينَ ﴾[24]	246
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [28]	15، 92
﴿ اِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا اَلِيمًا ﴾[39]	116
﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنِ اِنَّ اَ۬للَّهَ مَعَنَا ﴾[40]	246
﴿ قُل لَّنْ يُّصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ اَ۬للَّهُ لَنَا ﴾ [51]	94، 112
﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَنْ يُّرْضُوهُ ﴾ [62]	231
﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ [67]	66، 187، 214
وَالْمُومِنَٰتُ بَعْضُهُمُۥٓ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[71]	214
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيٓءُ جَٰهِدِ اِ۬لْكُفَّارَ وَالْمُنَٰفِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾[73]	77
﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ [81]	34
﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلَاعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ﴾ [101]	252
﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [103]	11، 80، 119
﴿ أَفَمَنُ اسِّسَ بُنْيَٰنُهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اَ۬للَّهِ وَرِضْوَٰنٍ ﴾[109]	264

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾[122]	46
سورة يونس	
﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[6]	84
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[7]	180
﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾[16]	36
﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [19]	22
﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [39	207
﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [58]	227
﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ...﴾[62_64]	248
﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[78]	185، 211
﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ ...﴾[84_86]	127
﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا﴾[88]	189
﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[89].	174
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ...﴾[96- 97].	197
سورة هود	
﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[3]	234
﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾[14]	39
﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾[27]	199
﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾[29].	208
﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [46]	73
﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾[49]	371
﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [51]	268
﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[52]	235
﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [62]	211
﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [75]	300

﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[87]	115، 211
﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ [116]	187
﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾[123]	99
سورة يوسف	
﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [5]	29، 177
﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[22]	388،24،70
﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[24]	94، 164
﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [33]	163
﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ...﴾[37_39]	70
﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[39]	350
﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾[40]	70
﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾[42]	163
﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾[54]	341
﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[55]	388
﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[87]	95
﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [100]	177
﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[105]	222
سورة الرعد	
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[11].	119
﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾[16]	350
﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[17]	220
﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ...الدَّارِ﴾ [19_22]	82، 280،220
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[28]	118، 244

سورة إبراهيم	
﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [1]	103
﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾[3].	169، 183
﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [5]	62
﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ...﴾ [6_ 7]	62، 339
﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾[9]	278
﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾[10]	278،210
﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ...﴾[11_12]	279،278
﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾[22]	179
﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾[24]	352،17
﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾[25]	360
﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾[26]	360
﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [27]	251
﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾[40]	131
﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ ...عَصِيّٗا﴾[43_44].	174
﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [52]	61
سورة الحجر	
﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ [6]	176
﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ...﴾[39_40]	167
﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[56]	95
﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾[75]	148
﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[77]	218
سورة النحل	
﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [5]	54

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ﴾[9]	224
﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[16]	54
﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [22]	196
﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[36]	61
﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾[39]	215
﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[43]	389،349،391
﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [44]	225
﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [53]	111
﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾[63]	169 ،164
﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾[78]	323 ،45
﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾[89]	102
﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾[97]	242 ،235
﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ...مُشْرِكُونَ ﴾[98_ 100]	175
﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ... الْغَافِلُونَ ﴾[107_108]	180
﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾[112]	240،282 ،238
﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[122]	231
﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [125]	301،340،342
سورة الإسراء	
﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾[3]	59
﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[9]	102
﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[19]	270
﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾[29]	49
﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ... ﴾[45 _46]	133
﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾[53]	177
﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ [57]	96

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾[62]	161
﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [70]	143
﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾[83]	182،191
﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[85]	294
﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[97]	258
سورة الكهف	
﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[13]	143
﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾[19]	19
﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾[28]	181
﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[29]	25
﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ...﴾[32_43]	241 ،241
﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [49]	261
﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾[60]	280
﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [62]	280
﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾[63]	281
﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [64]	281
﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [65]	42
﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا... أَمْرًا﴾[66_ 69]	296
﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [74]	20، 24
﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [81]	،20
﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾[84]	48
﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا...﴾[95_96]	48
﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا...﴾[100_ 101]	258 ،258
﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ...صُنْعًا﴾ [103_ 104]	228 ،228 ،176

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ [105]	144
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ...﴾ [107_108]	262، 264
﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [110]	93
سورة مريم	
﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾[19]	19، 24
﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾[43]	69
﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ...﴾ [54_55]	64
﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ...جِثِيّٗا﴾[71_72]	261
﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾[73]	257
﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ﴾[75]	257
﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾[76]	226
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[96]	230، 231
سورة طه	
﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾[13]	323
﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[14]	118، 243
﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[15]	254
﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا (33) وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا (34)﴾[33_34]	137
﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾[41]	59، 137
﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (43) فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [43 _44]	300
﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ ...﴾[56_57]	223
﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[70]	222
﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾[71]	222
﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ ...وَأَبۡقَىٰٓ﴾[72_73]	222
﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ...﴾[75_76]	67، 78

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ...إِلَّا يَوْمًا ﴾[102_108]	257
﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[114]	46، 72، 323،295،83
﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾[115]	323
﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[123]	65، 244
﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ... ﴾[124_126]	244، 252، 253، 258
﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾[130]	138
سورة الأنبياء	
﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[7].	206
﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ [24]	174
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَىٰ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[25]	81
﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾[47]	106
﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ... ﴾[51 - 56]	95
﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [74]	15، 40، 69
﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[79]	69
﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾[80]	47
﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾[90]	96
﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ [94]	270
سورة الحج	
﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾[3]	174
﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾[4]	174
﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾[28]	124
﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾[30]	92
﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾[35]	124
﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[46]	224

﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾[52]	162
سورة المؤمنون	
﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ...﴾ [1_4]	68، 115، 149، 175
﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾[24].	211
﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾[47]	185
﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[51]	128، 142، 144
﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ...﴾[84_ 89]	350
﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ...يَحْضُرُونِ﴾[97 _ 98].	165
﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ...﴾[99_100].	249، 250
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ...﴾[115_116].	254
سورة النور	
﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾[2]	147
﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾[12]	151
﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[21]	26، 152، 166، 179
﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى﴾[22]	152
﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾[26]	15، 16
﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[28]	20، 156، 157
﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾[30]	145، 177
﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[31]	146، 149
﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾[33]	120، 190
﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾[35]	35، 148
﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾[40]	224
﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [54]	231
﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ﴾[55]	235
سورة الفرقان	

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ ﴾[4_5]	176
﴿ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴾[22]	249
﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ ...خَذُولٗا ﴾[27 – 29]	175
﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ ﴾[32]	335
﴿ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ ﴾[44]	73
﴿ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾[52]	77، 133
﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ﴾[59]	349
﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا ...شُكُورٗا ﴾[61_62]	221
﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾[63]	204
﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ... ﴾[68_70]	105
﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ ﴾[74]	128، 131
سورة الشعراء	
﴿ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ (72) أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴾[72_73]	211
﴿ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ [74]	211
﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾[84]	230
﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾[88_89]	257
﴿ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾[107_108]	60
﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾[111]	199
﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾[214]	291
سورة النمل	
﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ ﴾ [14]	37، 200
﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗا ﴾[15]	76
﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴾[22]	283
﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[24]	168

﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[27]	283
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا... ﴾[45_ 52]	66
﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[56]	15
سورة القصص	
﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ [4]	62
﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ... ﴾ [5_6]	62
﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[14]	71
﴿ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [15]	161
﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [26]	61
﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [55]	73
﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ... ﴾ [76_81]	40، 56،111،125،189، 241
﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[88]	247
سورة العنكبوت	
﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[4]	115
﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾[8]	75
﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[38]	168
﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ ﴾ [39]	200
﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾[41]	361
﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[43]	361360،
﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[45]	115
﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[46]	340
﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾[48]	316
﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾[49]	37، 46، 135،316،377
﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[60]	98

سورة الروم	
﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ...هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [7_6]	55، 180، 209
﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[30]	22،24
سورة لقمان	
﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[17]	277،281
﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾[18]	283
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾[21]	212
﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[34]	37
سورة السجدة	
﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[4]	335
﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[24]	280
سورة الأحزاب	
﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [12]	99
﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[21]	103
﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[22]	99
﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [30]	157
﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [32]	14
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[33]	13
﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾[53]	149
﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ...﴾ [66 - 67]	208
﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾[72]	61
سورة سبأ	
﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾[6].	39، 82، 135

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ...﴾[10_ 13]	47
سورة فاطر	
﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [8]	28، 170
﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [10]	148
﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[28].	83
﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[32].	261
سورة يس	
﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾	164
سورة الصافات	
﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[22_23]	224
﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[24]	260
﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [35]	196، 203
﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[83_84]	59
﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[99_100]	131
سورة ص	
﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [8]	198
﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[41]	163
سورة الزمر	

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[9].	73
﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[10]	121
﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ ...﴾[17_18]	219،344
﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [22]	244 ،226
﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾[23]	325
﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾[45]	244
﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾[64]	40
﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾[68]	254
﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾[73]	262
﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ نَشَآءُۖ﴾[74]	262
سورة غافر	
﴿إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [27]	204 ،164
﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾[37]	168
﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ...﴾[45_46]	250
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾[56]	204 ،202
﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [60]	127
﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[82]	55
﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾[83]	209 ،55 ،40
سورة فصلت	
﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا ...لَا يَسۡمَعُونَ﴾[3_4]	186
﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ...﴾[6_7]	91 ،67 ،16

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [13].	66
﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [15]	199
﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [17]	65، 223، 224
﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [26]	176
﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ... ﴾ [30_32]	247
﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ [36]	136
﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [40]	264
﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [46]	26
سورة الشورى	
﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [11].	91
﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ [27]	187، 190
﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [36]	247
﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [52]	223،268
سورة الزخرف	
﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ...كَافِرُونَ ﴾ [23_24]	210، 212
﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [31]	198
﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ... مُشْتَرِكُونَ ﴾ [36 - 39]	176، 258
﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [54]	206
﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ...عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [61 _62]	170
سورة الدخان	
﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [8]	207
﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ [20]	164
سورة الجاثية	
﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ... ﴾ [7_ 8]	196
سورة الأحقاف	

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[22]	209
﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾[23]	209
﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[35]	279
سورة محمد	
﴿وَالذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ... ﴾[4_6]	252
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[7]	235
﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾[19]	38، 72، 74، 75، 81
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ﴾ [25]	177
سورة الفتح	
﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ... ﴾[8_9]	314
﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾[18]	246
﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [29]	158
سورة الحجرات	
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾ [2]	315
﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [10]	232
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾[11].	233
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[12]	151، 154
﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾[15]	158
﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾[16]	34
سورة ق	
﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿20﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾[20_22]	258
سورة الذاريات	
﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ [12]	349
﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿17﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[17_-19]	114
﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[55].	218

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[56].	91
سورة الطور	
﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ... ﴾[35_ 38]	133
سورة النجم	
﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾[3 - 5]	311
﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ... ﴾[29_30].	181
﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾[32].	19، 25، 28، 29
سورة القمر	
﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾[8]	255
﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾[46]	306
سورة الرحمن	
﴿ الرَّحْمَٰنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [1_ 4]	81
﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [26- 27]	254
﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [60]	229
سورة الواقعة	
﴿ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾[79]	196
سورة الحديد	
﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾[12]	262
﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ [20]	74
﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾[21	74
﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ... ﴾[23_24]	230
﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾[25]	47
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾[28]	85
سورة المجادلة	
﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾[11]	76، 320، 315، 290، 78

﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾[12]	13
﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ [19].	175
سورة الحشر	
﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[9]	120، 232
﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا ﴾[10]	130
﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [21]	360
سورة الصف	
﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾[4]	364
﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[5]	226
سورة الجمعة	
﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾[2]	16، 26،58، 79، 80
﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾[5]	275
سورة المنافقون	
﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ﴾[8]	148
سورة التغابن	
﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[7]	104
﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[8]	225
﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾[11]	222
﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[16]	120
سورة الطلاق	
﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾[2]	84، 104
﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[3]	84
سورة القلم	
﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾[1 _ 2]	328
﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ...أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[10_ 15]	108

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ ... ﴾[17_25]	242
سورة المعارج	
﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ ... ﴾[19_30]	243
﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾[44]	255
سورة نوح	
﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾[7]	326
﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ... ﴾[10_11]	234
سورة الجن	
﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾[6]	171
﴿ وَأَن لَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾[16]	235
﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾[18].	91
سورة المزمل	
﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾[5]	279
﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾[10]	279
سورة المدثر	
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [1_3]	286
﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [4]	286
﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ (7) ﴾[7]	279
سورة النازعات	
﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (17) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ [17_ 18]	20، 25، 26، 61، 92
﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[24]	300
﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (37) وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (38) ... ﴾ [37_ 41]	68
﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾[42]	349
سورة التكوير	
﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24) ﴾[24]	299

سورة الانفطار	
﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ⑩ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ⑪ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [12_10]	100
سورة المطففين	
﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ... ﴾[3_2]	156
﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ... ﴾[15_10]	108
سورة الانشقاق	
﴿ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴾[9_7]	260
﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ⑩ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴾[11_10]	261
سورة الأعلى	
﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ① ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[1_3]	223
﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ⑭ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾[14_15]	24،25،27،28،65،115، 218 ،149
﴿ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾[17]	247
سورة الفجر	
﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ㉗ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ㉘ ... ﴾[27_30]	248
سورة الشمس	
﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾[9]	11،13،15،24،25،26،28
سورة الليل	
﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ⑰ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾[17_18]	119
سورة العلق	
﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ② ... ﴾[1_5]	43 ،45، 72،81،286،295
سورة البينة	
﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾[5]	93،268،271
سورة العصر	
﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ① إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ② ... ﴾[1_3]	323
سورة قريش	

﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ③ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ... ﴾[3_4].	235، 339
سورة الماعون	
﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ① ... ﴾ [1–3]	108
سورة الفلق	
﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾[الفلق: 1_2]	165
سورة الناس	
﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ① مَلِكِ ٱلنَّاسِ ② ... ﴾[1_4]	165

فهرس الأحاديث والآثار

طرف الحديث أو الأثر	صاحب الأثر	رقم الصفحة
أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك		304
ابنوا لي منبرًا		292
أتحبه لأمك؟		14،345،353
أتدرون ما المعيشة الضنك؟		253
اتّقوا الشحّ؛ فإنّ الشحّ أهلك من كان قبلكم		119
أتيت النبيﷺ، وإذا أصحابه كأنما على رءوسهم الطير		326
اجتنبوا السبع الموبقات		106،53
اجلس مني قيد رمح	عمر	51
أخبروني بشجرة كالرجل المسلم لا يتحات ورقها...		352
أُخرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح		60
إذا دخل أهل الجنة الجنة		263
إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها		51
إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفّدت الشياطين ومردة الجن		123
إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك، وعصوك، وكذبوك		106
إذا مات الانسان		52
إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة		41
إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا		46
إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق		110
إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان له ضراط		175
أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالواد		291
أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات		116
ارجع فصل، فإنّك لم تصل،		308
ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم وعلّموهم		305
استأذنا النبي صلى الله عليه وسلم في الكتابة فلم يأذن لنا		330
استحوا من الله حق الحياء		157

الإسلام علانية والإيمان في القلب		92
أصلي كيف رأيت رسول الله ﷺ		359
أعجز النّاس من عجز عن الدعاء،	أبو هريرة	129
أفشوا السلام كي تعلوا		155
أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم		71
أقضاكم عليٌّ وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل		387
اكتب فو الذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق		330
اكتبوا لأبي شاه		330
أكمل الناس إيمانا أحاسنهم أخلاقا،		155
ألا إنّ الشيطان قد أَيِسَ أن يعبده المصلون		178
ألا إنّ ربي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم ممّا علمني يومي هذا		168
ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة		278
أليس هذا خيرا من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان؟		287
أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير		253
أما كان هذا يجد ما يسكن به شعره؟		287
أما له ثوبان غير هذين؟		289
أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثو في وجوههم التراب		30
أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم		315
إنّ إبليس يضع عرشه على الماء،		178
إنّ الرّفق لا يكون في شيء إلاّ زانه، ولا ينزع من شيء إلاّ شانه		301
إنّ الروح إذا قُبض تبعه البصر		252
أنّ الصلاة حين افترضت على رسول لله أتاه جبريل عليه السلام		357
إن القبر أول منازل الآخرة		251
إنّ الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه،		230
إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل		60
إن الله اصطفى موسى		59
إنّ الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات		364

إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن		310
إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق		306
إنّ الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين		128
إن الله جميل يحب الجمال		289،286
إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا		143
إن الله عز وجل يحب الرّفق في الأمر كله		301
إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب		230
إنّ الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين		76
إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا		233،264،267
إنّ الميت تحضره الملائكة		310،249
أنّ النبي ﷺ كان يتعوذ إذا سافر من الحُورِ بعد الكُور		130
إنّ أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه		271
إن أولى النّاس بالله، من بدأهم بالسلام		155
إن بين يدي الساعة لأياما ينزل فيها الجهل		74
أن تعبد الله كأنك تراه		229،83
إن حبيبي أمرني أن لا أسأل النّاس شيئا		99
إن رجلا أتاني وأنا نائم، فأخذ السيف		237
إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة		308
إنّ روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستوفي رزقها		112
إنّ في الجنة مائة درجة، أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله،		129
إن فيك خلتين يحبهما الله، الحلم والأناة		24
إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة، لتأخذ بيد رسول الله ﷺ		285
إن لكل دين خلقا، وخلق الإسلام الحياء		157
إن مثل المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد		234،151
إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم		316
إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس		302

أنا أكرم ولد آدم على ربه		29
أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني		310
أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا		366
انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخطب		293
إِنّك عَلِيمٌ مُعَلَّمٌ		32
إنما الدنيا لأربعة نفر		384
إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم		45
إنما أنا لكم مثل الوالد لولده، أعلمكم		71
إنما أنا لكم مثل الوالد لولده، أعلمكم...		301
إِنَّما بُعثت لِأُتَمِّم صالح الأخلاق		64
إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها		239
إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة		144
إني أحب أن أسمعه من غيري		132
إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري		346
أي عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله		215
إياكم والظن فإِنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث		154
أئتني بها		303
ائذنوا له، مرحبا بالطيب المطيب		16
بادروا بالأعمال سبعا		191
بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم		191
بأي شيء طيبت رسول الله ؟ قالت بأطيب الطيب		288
بت عند ميمونة، فقام النبيﷺ فأتى حاجته، فغسل وجهه ويديه،		316
بني الإسلام على خمس		21
بينا أنا نائم، إذ رأيت قدحا أتيت به فيه لبن		41
بينما موسى في ملإ من بني إسرائيل جاءه رجل		296،281
تأتي الإبل على صاحبها على خير ما كانت،		259

تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء		52
تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق		256
تزوجني رسول الله ﷺ لست سنين		305
تعلّمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانا		338
التقوى ها هنا، التقوى ها هنا.		366
تنح حتى أريك		358
ثلاث لا يغل عليهن قلب المسلم		95
ثلاث من فعلهن فقد طعم الإيمان		69،21،25، 83
ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان		245
الجماعة رحمة والفرقة عذاب		117
حدّث الناس كل جمعة مرة، فإن أبيت فمرتين،		308
حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم		339
حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النّار		98
حضرتني هذه الآية لن تنالوا البر...	ابن عمر	107
الحلال بيّن والحرام بيّن		92
خصلتان لا يكونان في منافق حسن سمت وفقه في الدين		381
خَطَّ رسول الله خَطًّا بيده، ثم قال هذا سبيل الله مستقيماً		368
خط رسول الله خطا، وقال هذا الإنسان		367
خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط		368
خط رسول الله ﷺ مربعًا		367
خيركم من تعلم القرآن		298،73
دخلت على عائشة أنا وأخوها من الرضاعة فسألها عن غسل النبي		359
الدعاء هو العبادة		126
ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا		243
الراحمون يرحمهم الرحمن		153
رأيت النبي ﷺ يقرأ وهو على ناقته أو جمله،		131

رأيت ليلة أسري بي رجالا تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من نار		276
رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر		279
سأل الناسُ رسول اللهﷺ عن الأهلة	ابن عباس	348
سمعت النبي ﷺيقرأ في المغرب بالطور		133
شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السّفر...		289
الشهر هكذا وهكذا ثم نقص في الثالثة إصبعا		366
الشيطان جاثم على قلب ابن آدم،	ابن عباس	136
صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح	ابن عباس	209،167،75
صدقك وهو كذوب ذاك شيطان		133
صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده		117
الصلاة مُنتهى ومُزدجر عن معاصي الله	ابن عباس	115
صلوا كما رأيتموني أصلي		357
الصوم جُنّة		122
العبد إذا وُضع في قبره		250
عجبا لأمر المؤمن، إن أمر المؤمن كله خير		243،112
عرضت علي الأمم، فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط		260
عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مثل»	عبد الله بن عمرو	362
علمني رسول اللهﷺ التشهد، كفي بين كفيه		301
عليك بالصوم فإنّه لا مثل له		121
غسل يوم الجمعة على كل محتلم		50
غسل يوم الجمعة على كل محتلم		287
فإذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمة الله عليك، وكرامته		289
فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد		291
فَأَهَلَّ بالتوحيد لبيك اللّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك		123
فأومأ بيده، قال ولا حرج		366
فكان رسول اللهﷺإذا دخل يتقمعن منه		306

فليؤمكم أكبركم		77
فينطلقون إلى نوح		59
قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك		271
قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي، لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين		264
قال رجل من المهاجرين لقد طلبت عمري كله في هذه الآية	أنس بن مالك	156
قتلوه قتلهم الله، ألم يكن شفاء العي السؤال		392
قل اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة،		166
قل آمنت بالله ثم استقم		104
القلب ملك والأعضاء جنوده	أبو هريرة	92
قم يا بلال، فأرحنا بالصلاة		243،147،1 19
قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض،		106
كان أجود النّاس بالخير		123
كان أحب الثياب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يلبسها الحبرة		287
كان النبي ﷺيعلمنا هؤلاء الكلمات، كما تعلم الكتابة		191
كان النبي بارزا يوما للناس		291
كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يدخل بيتا سلَّم ثلاث مرات		
كان خلقه القرآن		225
كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان		133
كان رسول الله يجلس بين أصحابه		292
كان رسول اللهﷺ يكني أصحابه إكراما لهم		311
كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا		96
كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا		392
كان يهود قريظة والنضير وفدك وخيبر يجدون صفة النبي ﷺعندهم	ابن عباس	200
الكبر بطر الحق		197،193
كل عمل ابن آدم له إلّا الصوم، فإنّه لي وأنا أجزي به		121

كمل من الرجال		60
كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم، كأن على رؤوسنا الرخم		327
كنا مع النبي ﷺستة نفر،		203
كنا مع النبي ونحن فتية		81
كنت أطيب النبي صلى الله عليه وسلم بأطيب ما يجد،		287
كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجراني		279
كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن		255
لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء		259
لا تجعلوا بيوتكم مقابر		133
لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا،		231،155
لا تزرموه		302
لا تزكوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البر منكم		21،29
لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل		395
لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه ...		330
لا صلاة بحضرة الطعام، ولا هو يدافعه الأخبثان.		305
لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر		289
لا يغرنّكم من سحوركم أذان بلال ولا بياض الأفق المستطيل هكذا		365
لا يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حدًّا معلومًا	ابن عباس	138
لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث		134
لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة		291
لا يقيمن أحدكم الرجل من مجلسه		290
لاَ يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ		51
لا يؤمن أحدكم، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه		233،152
لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين		311
لاتتبع النظرة النظرة		145
لأعطين الراية غدا رجلا يفتح على يديه		146
لأن أعضّ على جمرة أو أقبض عليها حتى تبرد في يدي	ابن مسعود	111

لأن يهدي الله بك رجلا		83
لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه		125
لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه		358
لتتبعن سنن		208
لتسون صفوفكم، أو ليخالفن الله بين وجوهكم		118
لقد تركنا محمد ﷺ، وما يحرك طائر جناحيه في السماء..		72
لقد رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الحلل		287
لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك		311
لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط، أو بول		72
لقد وُفق، أو لقد هدي		312
لكن أحسن الجهاد وأجمله الحج، حج مبرور		126
الله أعلم بما كانوا عاملين		41
اللّهم آت نفسي تقواها وزكّها أنت خير من زكاها		129
اللهم اجعل في قلبي نورا		226
اللّهم أطل عمره وأكثر ماله وولده، واغفر له		130
اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحصن فرجه		345
اللهم انفعني بما علمتني		295
اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى		129
اللهم إني أعوذ بك من الجبن		191
اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم		165
اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع		54
اللّهم اهدني فيمن هديت		129
اللّهم اهدني لأحسن الأعمال والأخلاق		129
اللهم اهدي أم أبي هريرة		307
اللّهم أهِلَّه علينا بالأمن والإيمان		238
اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا،		165
اللّهم طهرني بالثلج والبرد		14

اللّهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة		129
اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل		316
لو أنّكم تتوكلون على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير		98
لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت		285
لو رأيتني وأنا أسمع لقراءتك البارحة		132
لو ماتت شاة على شط الفرات ضائعة	عمر بن الخطاب	108
ليبلغ الشاهد منكم الغائب		117
ليس منا من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه		316
ليمر الناس على جسر جهنم		262
ما أنا بقارئ		43،377
ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت	ابن مسعود	297
ما ترون في الشارب والسارق والزاني		352
ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم		189
ما رأيت أجمل من رسول اللهﷺ وسلم مترجلا في حلة حمراء		287
ما شممت عنبرا قط، ولا مسكا، ولا شيئا أطيب من ريح رسول الله		287
ما كان أحد أعلم بحديث رسول اللهﷺ مني		330
ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن		51
ما من مولود إلا يولد على الفطرة		24
ما هذا الروح الطيب؟!		310
مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير		220،210،2 62
من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل عنه		354
من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه		248
من أراد العلم فليثوّر القرآن	ابن مسعود	377
من أرباب العلم	عبد الله بن سلام	276
من أشراط الساعة أن يرفع العلم		74،41،
من أصبح منكم معافى في جسده، آمنا في سربه		234

54		من اقتبس علما من النجوم، اقتبس شعبة من السحر
287		من أكل ثوما أو بصلا، فليعتزلنا
322		من تبع جنازة فله قيراط من الأجر
208		من تشبه بقوم فهو منهم
54		من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله
272		من تعلم علما مما يُبتغى به وجه الله
357		من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه
125		من حجّ البيت فلم يرفث، ولم يفسق رجع كما ولدته أمه
77		من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيرا أو ليعلمه
299		من سأل عن علم فكتمه
83،72،277		من سلك طريقا يلتمس به علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة
299		من سئل عن علم فكتمه، ألجمه الله عز وجل بلجام من نار
73		من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء
130		من طال عمره، وحَسُنَ عمله
272		من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء
55		من طلب العلم ليُمارِي به السُّفهاء
287		من عُرض عليه ريحان فلا يرده، فإنه خفيف المحمل طيب الريح
136		من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له
122		من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه
105		من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة
46		من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين...
122		من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة
110		المؤمن القوي، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف
251		نزلت في عذاب القبر،
298،221		نضّر الله امرأ سمع مقالتي فبلغها، فرب حامل فقه غير فقيه
126		نَضَّرَ الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يُبَلِّغَهُ

النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة		177
نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل		313
نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح		130
نهى عن الحبوة يوم الجمعة		290
هل لك من إبل؟		353
هلك المتنطعون		309
هم الذين لايشهدون أن لاإله إلا الله	ابن عباس	91
هون عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد		285
هي في علم الله قليل		295
والحياء شعبة من الإيمان		157
والصدقة برهان ...		120
والله ليهنك العلم أبا المنذر		41
وآمركم بذكر الله كثيرا،		136
وإن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد		284
وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم		168،23
وجدوا رسول ﷺ مع صهيب، وبلال وعمار وخباب		203
وجعلت قرة عيني في الصلاة		243،147،1 18
ورجل تصدق بصدقة فأخفاها		94
وفضل العالم على العابد		77
وكانوا إذا فزعوا، فزعوا إلى الصلاة		118
وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله		383
وماذا أعددت لها.		354
ومن يستعفف يعفه الله		99
ويضرب جسر جهنم		261
ويلك! قطعت عنق صاحبك		30
يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟		312

يا أبا هر		307
يا أيها الناس، أفشوا السلام		155
يا أيها الناس، إنّ منكم منفرين		303
يا عبادي كلكم ضال إلاّ من هديته		127
يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج		122
يا مُقَلِبَ القلوب ثبّت قلبي على دينك		130
يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا		170
يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء		256
يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا		301
يقول الله عز وجل يوم القيامة أنا أغنى الشركاء عن الشرك		93
يهرم ابن آدم ويشب معه اثنان الحرص والأمل		178
يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه		276
يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة		258
يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها		181

فهرس الأعلام

الصفحة	العلم المترجم له
11	برهان الدين المطرزي
17	عبد الرحمن الثعالبي
17	محمد المالقي
42	سليمان الطوفي
269	حرم بن حيان

فهرس

الألفاظ الغريبة

الكلمة	الصفحة
الدرنة	21
الشرط اللئيمة	21
جمعاء	23
جدعاء	23
القصارة	36
المقدحة	48
الخيف	126
الهذرمة	134
القنو	172
الحشف	172
الشيص	172
القضاه	237
صلتا	237
العسيب	253
عفراء	256
قرصة النقي	256
يعار	259
صامت	259
السعدان	261
المخردل	261
عرف	272
العيبة	289
الداجن	305
البنات	306
غامر	306
الرخم	327

الكلمة	الصفحة
حزاورة	338
الدقل	339
دحس	358

فهرس
المصادر والمراجع

كتب التفسير وعلوم القرآن

1. إبراز المعاني من حرز الأماني، ابن شامة المقدسي، ت: إبراهيم عوض، دار الكتب العلمية– بيروت، د ت ط.
2. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ت: محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط:1، 1394هـ– 1974 م.
3. أحكام القرآن، أبو بكر بن العربي، ت: محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 3، 1424 هـ - 2003م.
4. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، د ت ط.
5. الأساس في التفسير، سعيد حوّى، دار السلام – القاهرة، ط: 6، 1424 هـ.
6. أسباب نزول القرآن، علي الواحدي، ت: عصام الحميدان، دار الإصلاح – الدمام، ط:2، 1412 هـ - 1992م.
7. أسباب نزول القرآن، علي بن أحمد الواحدي، ت: عصام الحميدان، دار الإصلاح – الدمام، ط:2، 1412 هـ - 1992م.
8. الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية، نجم الدين، ت: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط:1، 1426 هـ - 2005 م.
9. الإعجاز العلمي إلى أين؟ مقالات تقويمية للإعجاز العلمي، مساعد الطيار، دار ابن الجوزي، ط:2، 1433 هـ.
10. الأمثال في القرآن، ابن قيم الجوزية، ت: إبراهيم بن محمد، مكتبة الصحابة– مصر، ط: 1، 1406 هـ - 1986م.
11. الانتصار للقرآن، أبو بكر البقلاني، ت: محمد عصام القضاة، ، دار ابن حزم – بيروت، ط:1، 1422 هـ - 2001 م.
12. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، ت: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: 1، 1418هـ.
13. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط: 5، 1424هـ– 2003م.

14. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أحمد بن عجيبة، ت: أحمد رسلان، مؤسسة حسن عباس زكي – القاهرة، ط:1، 1419هـ.

15. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط:1، 1376 هـ - 1957 م، (1/ 264).

16. تأويلات أهل السنة، أبو المنصور الماتريدي، ت: مجدي باسلوم. دار الكتب العلمية - بيروت، ط:1، 1426 هـ - 2005 م.

17. التبيان في آداب حملة القرآن، محيي الدين النووي،ت: محمد الحجار، دار ابن حزم ، بيروت، ط:3، 1414 هـ - 1994.

18. التبيان في أقسام القرآن، ابن قيم الجوزية، ت:محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د ت ط.

19. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر– تونس، 1984 هـ.

20. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس، 1984 هـ.

21. تفسير ابن عثيمين، محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، ط:1، 1425 هـ - 2004م.

22. تفسير ابن عرفة، محمد بن عرفة، ت: حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية – تونس، ط:1، 1986م.

23. تفسير ابن فورك، محمد ابن فورك، ت: عاطف بخاري، جامعة أم القرى - السعودية ط:1، 1430 - 2009م.

24. التفسير البسيط، أبو الحسن علي الواحدي، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.ط:1، 1430هـ

25. التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة بنت الشاطئ، دار المعارف، القاهرة، ط:7، د ت.

26. تفسير الراغب، الراغب الأصفهاني، ت: محمد بسيوني، كلية الآداب، جامعة طنطا ، ط:1، 1420 هـ - 1999م.

27. تفسير القرآن العزيز، محمد بن أبي زمنين، ت: حسين بن عكاشة، دار الفاروق الحديثة – مصر، ط:1، 1423هـ - 2002م.

28. تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير، ت: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، السعودية، ط:2، 1420هـ - 1999م.

29. تفسير القرآن، منصور بن محمد السمعاني، ت: ياسر بن إبراهيم، دار الوطن، الرياض – السعودية، ط:1، 1418هـ- 1997م.
30. التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي – القاهرة، د ت ط.
31. تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، مصر، ط: 1، 1365 هـ - 1946 م.
32. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب– مصر، ط: 1، 1990 م.
33. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر - بيروت، دمشق، ط: 2، 1418هـ.
34. تفسير عبد الرزاق، عبد الرزاق الصنعاني، ت:محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية - بيروت.، ط:1، 1419هـ.
35. تفسير مقاتل، مقاتل بن سليمان، ت: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت، ط:1 - 1423 هـ.
36. التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، فضل حسن عباس، دار النفائس للنشر والتوزيع– الأردن، ط:1، 1437هـ، 2016م.
37. تفسير يحي بن سلام، يحي بن سلام، ت: هند شلبي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط:1، 1425 هـ - 2004 م.
38. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، ت: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط:1، 1420هـ -2000 م.
39. تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، عبد الرحمن السعدي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – السعودية، ط:1، 1422هـ، (2/ 356).
40. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط:1 ، 1420 هـ - 2000م.
41. الجامع لأحكام القرآن، شمس الدين القرطبي، ت: أحمد البردوني، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط:2، 1384هـ - 1964م.
42. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمان الثعالبي، ت : محمد معوض، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط:1، 1418هـ.
43. حاشية الطيبي على الكشاف، شرف الدين الطيبي، ت :جميل بني عطا ، دبي، 2013 م.
44. حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي، شهاب الدين الخفاجي، دار صادر - بيروت ، د ت ط.

45. الحجّة للقراء السبعة، أبو علي الفارسي، ت: بدر الدين قهوجي، دار المأمون للتراث – بيروت، ط:2، 1413هـ، 1993م.

46. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، ت: أحمد الخراط، دار القلم. دمشق، د ت ط.

47. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر – بيروت، د ت ط.

48. روح البيان، إسماعيل حقي، دار الفكر – بيروت، د ت ط.

49. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي، ت: علي عطية، دار الكتب العلمية – بيروت،ط:1، 1415 هـ.

50. زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن الجوزي، ت: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط:1 - 1422 هـ.

51. زهرة التفاسير، محمد بن أب زهرة، دار الفكر، بيروت _ لبنان، د ت ط.

52. الزيادة والإحسان في علوم القرآن، محمد عقيلة، ت: محمد حقي وآخرون، مركز البحوث والدراسات، جامعة الشارقة_ الإمارات، ط:1، 1427 هـ.

53. سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، حسين شرفه، مؤسسة الرسالة_ لبنان، ط:1، 1429هـ– 2008م.

54. فتح البيان في مقاصد القرآن، محمد صديق خان القنوجي، المَكتبة العصريَّة، صَيدَا – بَيروت، ط:1، 1412 هـ - 1992م.

55. فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط:2، 1414 هـ.

56. فضائل القرآن، أبو العباس المستغفري، ت: حمد بن فارس السلوم، دار ابن حزم_ بيروت، ط:1427،1هـ، 2006م.

57. الفوز الكبير في أصول التفسير، ولي الله الدهلوي، دار الصحوة – القاهرة، ط:2، 1407 هـ - 1986م.

58. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق– القاهرة، ط:34، 1425هـ، 2004م.

59. الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها، أبو القاسم الهذلي، ت: جمال بن السيد، مؤسسة سما، ط:1، 1428هـ- 2007 م.

60. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جار الله الزمخشري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط:3 - 1407 هـ.

61.الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن إبراهيم الثعلبي، ت: مجموعة من الباحثين بإشراف: صلاح باعثمان، دار التفسير، السعودية، ط: 1، 1436 هـ - 2015م.

62. لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين الخازن، ت: محمد شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت، ط:1، 1415 هـ.

63. مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط:4، 2000م،

64.مباحث في علوم القرآن، مناع بن خليل القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع_ الرياض، ط:3، 1421هـ- 2000م

65. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد بن باديس، ت: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط:1، 1416هـ - 1995م.

66. تفسير العز بن عبد السلام، ت: عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم – بيروت، ط:1، 1416هـ/ 1996م.

67. محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، محمد باسل، دار الكتب العلميه – بيروت، ط:1 - 1418 هـ.

68.المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن عطيّة، ت: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط:1 - 1422 هـ.

69. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات النسفي، ت: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط: 1، 1419هـ - 1998م.

70. معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين البغوي، ت: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي –بيروت، ط: 1، 1420 هـ.

71. معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج ، ت:عبد الجليل شلبي عالم الكتب – بيروت، ط:1، 1408هـ- 1988م.

72. المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، د ت ط.

73. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط:1، 1364.

74. مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط:3 - 1420 هـ.

75. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهانى، ت: صفوان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق، ط:1 - 1412هـ.

76. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أبو جعفر الغرناطي، ت: عبد الغني الفاسي، دار الكتب العلمية– بيروت، د ت ط.

77. منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، ط1، د ت ط.

78. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، عبد الرحمن بن الجوزي، ت: محمد كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط:1، 1404هـ – 1984م.

79. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ابراهيم البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د ت ط.

80. نقد الصحابة والتابعين للتفسير _ دراسة نظرية تطبيقية _، عبد السلام بن صالح بن سليمان الجار الله، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، د ت ط.

81. النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام ، أحمد القصاب، ت : علي التويجري، إبراهيم الجنيدل، شايع الأسمري، دار النشر: دار القيم – ، ط:1 1424 هـ – 2003 م.

82. النكت والعيون، علي بن محمد الماوردي، ت: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية– بيروت، د ت ط.

83. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه، مكي بن أبي طالب، ت: مجموعة من الباحثين بإشراف: الشاهد البوشيخي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة، ط:1، 1429 هـ – 2008م.

84. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي الواحدي، ت: عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، – بيروت، ط:1، 1415 هـ – 1994م.

كتب الحديث وعلومه:

85. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة– بيروت، ط:1، 1408هـ– 1988م.

86. الإفصاح عن معاني الصحاح، يحي بن هبيرة، ت : فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن– السعودية، 1417هـ.

87. إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض اليحصبي، ت: يحي اسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط:1، 1419 هـ – 1998م.

88. التحبير لإيضاح معاني التيسير، الأمير الصنعاني، ت: محَمَّد صُبْحي، مكتبة الرشد – السعودية، ط: 1، 1433 هـ - 2012م.

89. تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة، ناصر الدين البيضاوي، ت: نور الدين طالب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية _الكويت، ط:1، 1433 هـ - 2012م.

90. تذكرة الحفاظ، شمس الدين الذهبي، ت: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: 1، 1419هـ- 1998م.

91. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، يوسف بن عبد البر، ت: مصطفى العلوي، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب، ط:1، 1387 هـ.

92. التنوير شرح الجامع الصغير، الأمير الصنعاني، ت: محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، مكتبة دار السلام– الرياض، ط:1، 1432هـ - 2011 م.

93. التوضيح لشرح الجامع الصحيح، سراج الدين ابن الملقن، ت: خالد الرباط، دار النوادر - سوريا، ط:1، 1429 هـ - 2008م

94. التيسير بشرح الجامع الصغير، زيد الدين المناوي، مكتبة الإمام الشافعي – الرياض، ط: 3، 1408هـ - 1988م.

95. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد علي بن علان، ت: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع– لبنان، ط:4، 1425 هـ - 2004 م

96. رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام، تاج الدين الفاكهاني، ت: نور الدين طالب، دار النوادر، سوريا، ط:1، 1431 هـ - 2010 م.

97. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف_ الرياض، ط: 1، 1415 هـ - 1995م.

98. سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، د ت ط.

99. سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، ت:شعَيب الأرنؤوط - محمّد بللي، دار الرّسالة العالمية، ط:1، 1430 هـ - 2009 م.

100. سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، ت: أحمد محمد شاكر، شركة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط: 2، 1395 هـ - 1975م.

101. سنن الدارمي، عبد الله الدارمي، ت: حسين الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع–السعودية، ط: 1، 1412 هـ - 2000 م

102. السنن الكبرى، أبو بكر البيهقي، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، ط:1، 1432 هـ - 2011 م.

103. شرح حديث جبريل في تعليم الدين، عبد المحسن العباد، المملكة العربية السعودية، ط:1، 1424هـ- 2003م.

104. شرح سنن أبي داود، شهاب الدين بن رسلان، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث- مصر، ط:1، 1437هـ- 2016م.

105. شرح صحيح البخاري، أبو الحسن ابن بطال، ت: ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد- الرياض، ط:2، 1423هـ - 2003م

106. شرح مسند الشافعي، عبد الكريم القزويني، ت: أبو بكر زهران، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية إدارة الشؤون الإسلامية- قطر، ط:1.

107. شعب الإيمان، أبو بكر البيهقي، ت: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد_ الرياض، ط:1، 1423 هـ - 2003 م.

108. صحيح ابن خزيمة، أبو بكر بن خزيمة، ت: محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، د ت ط.

109. صحيح الأدب المفرد، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة الدليل_ السعودية، ط:4، 1418 هـ - 1997م.

110. صحيح البخاري، البخاري، محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط:1، 1422هـ،

111. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط:1، 1412هـ_ 1991م.

112. صحيح وضعيف سنن ابن ماجة، محمد ناصر الدين الألباني،مكتبة المعارف_ الرياض، ط:1، 1417هـ_1997م

113. طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين العراقي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، د ت ط.

114. العدة في شرح العمدة في أحاديث الأحكام، علاء الدين ابن العطار، ت: نظام يعقوبي، دار البشائر الإسلامية _ بيروت، ط:1، 1427 هـ - 2006م.

115. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العينى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د، ت، ط.

116. غريب الحديث، إبراهيم بن إسحاق الحربي، ت: سليمان إبراهيم العايد، جامعة أم القرى - مكة المكرمة، ط:1، 1405هـ.

117. غريب الحديث، ابن قتيبة الدينوري، ت :عبد الله الجبوري ، مطبعة العاني - بغداد، ط:1، 1397.

118. غريب الحديث، عبد الرحمن ابن الجوزي، ت: عبد المعطي أمين القلعجي، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط:1، 1405 – 1985م.

119. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ت: محمد فؤاد عبد الباقي،محب الدين الخطيب،دار المعرفة - بيروت، 1379هـ.

120. فتح الودود في شرح سنن أبي داود، أبو الحسن السندي، ت: محمد زكي الخولي، مكتبة أضواء المنار - المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية، ط:1، 1431 هـ - 2010 م.

121. فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام، محمد بن صالح العثيمين، المكتبة الإسلامية، ط:1، 1427 هـ - 2006 م.

122. فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى – مصر، ط: 1، 1356.

123. الكاشف عن حقائق السنن، شرف الدين الطيبي، ت: عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ط:1، 1417 هـ - 1997م

124. كشف المشكل من حديث الصحيحين، عبد الرحمن بن الجوزي، ت: علي حسين البواب، دار الوطن – الرياض، د ت ط.

125. الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، شمس الدين الكرماني، دار إحياء التراث العربي– بيروت، ط:2، 1401هـ - 1981م.

126. لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح، عبد الحق الدِّهلوي، ت: تقي الدين الندوي، دار النوادر – سوريا، ط: 1، 1435 هـ - 2014م

127. المتواري على أبواب البخاري، نصر الدين ابن الممنيّر، ت: صلاح الدين أحمد، مكتبة المعلا– الكويت، ط:1، 1407هـ، 1987م.

128. مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن المباركفوري، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الهند، ط:3، 1404 هـ، 1984م.

129. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن محمد الملا القاري، دار الفكر، بيروت – لبنان،ط:1، 1422هـ - 2002م.

130. المستدرك على الصحيحين، الحاكم النايسبوري، ت: مصطفى عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط:1، 1411 – 1990م.

131. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط:1، 1421 هـ - 2001م.

132. مصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر ابن شيبة، ت: كمال الحوت، مكتبة الرشد – الرياض، ط:1409،1هـ.

133. معالم السنن، أبو سليمان الخطابي، ت: محمد راغب الطباخ، المطبعة العلمية – حلب، ط:1، 1351 هـ - 1932 م.

134. المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد الطبراني، ت: طارق بن عوض الله، دار الحرمين – القاهرة، ط:1، 1415هـ_ 1995م.

135. المفاتيح في شرح المصابيح، الحسين المُظْهِري، ت: نور الدين طالب، دار النوادر– الكويت، ط:1، 1433 هـ - 2012 م.

136. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، ت: محيي الدين ميستو، دار ابن كثير– بيروت، ط: 1، 1417 هـ - 1996م.

137. المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي، دار السعادة، القاهرة ، ط :1، 1332 هـ.

138. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محيي الدين بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: 2، 1392هـ.

139. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين ابن الأثير، ت: طاهر الزاوى، المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ - 1979م.

140. قوت المغتذي على جامع الترمذي، جلال الدين السيوطي، ت: ناصر الغريبي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1424 هـ.

كتب اللغة:

141. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل الجوهري، ت: أحمد عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط:4، 1407 هـ - 1987م.

142. القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز أبادي، ت: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط: 8، 1426هـ - 2005م.

143. مختار الصحاح، زين الدين الرازي، ت: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية _ بيروت، ط:5، 1420هـ _ 1999م

144. المخصص، علي بن سيده المرسي، ت: خليل جفال، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط:1، 1417هـ 1996م.

145. أساس البلاغة، جار الله الزمخشري، دار النفائس- بيروت، ط:1، 1430 هـ -2009م.

146. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ت: محمد عوض مرعب_ فاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث العربي- بيروت، 1439هـ- 2008م.

147. تهذيب اللغة، محمد الهروي، ت :محمد عوض ،دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: 1، 2001م.

148. لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، دار صادر – بيروت، ط: 3، 1414 هـ.

149. الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ت: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع– مصر، د ت ط.

150. الكليات، أبو البقاء الكفوي، ت: عدنان درويش، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط:2، 1419هـ–1998م.

151. المغرب في ترتيب المعرب، برهان الدين المطرزي، دار الكتاب العربي، بيروت، د ت ط.

152. المعجم الاشتقاقي المؤصل، محمد حسن جبل، مكتبة الآداب – القاهرة، ط:1، 2010 م.

كتب العقيدة:

153. القيامة الكبرى، عمر بن سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، ط:6 ، 1415 هـ - 1995م.

154. العقائد الإسلامية، سيد سابق، دار الكتاب العربي – بيروت، د ت ط.

155. إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، صالح الفوزان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 3، 1423هـ 2002م.

156. اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية، ابن قيم الجوزية، ت: زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة، ط: 1، 1431 هـ.

157. قاعدة جامعة في توحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة واستعانة، أحمد ابن تيمية، ت: عبد الله البصيري، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط: 1، 1418هـ/1997م.

158. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم الجوزية، ت: محمد أحمد الحاج، دار القلم- السعوية

159. ط:1، 1416هـ - 1996م

160. لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، شمس الدين السفاريني، مؤسسة الخافقين ومكتبتها – دمشق، ط:2، 1402 هـ - 1982 م.

161. أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، مجموعة من المؤلفين، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – السعودية، ط:1، 1421هـ
162. الجنة والنار، عمر بن سليمان الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط:7، 1418 هـ - 1998 م.

كتب التاريخ والطبقات والسير:

163. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن ابن خلدون، ت: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط:2، 1408 هـ - 1988 م.
164. البداية والنهاية، إسماعيل بن كثير، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط: 1، 1418 هـ - 1997م.
165. الجواهر المضية في طبقات الحنفية، محي الدين القرشي، مجلس دائرة المعارف، الهند، ط1، د ت ط.
166. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد مخلوف، ت: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية– لبنان، ط:1، 1424 هـ - 2003م.
167. الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط:15، 2002م.
168. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين السخاوي، دار مكتبة الحياة– بيروت، د ت ط .
169. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، ت: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية– الهند، ط:2، 1392هـ– 1972م.
170. سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة، ت: شعيب الأرنؤوط، ط:3، 1405هـ– 1985م.
171. صحيح السيرة النبوية، ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية – الأردن، ط:1، 1421هـ.
172. الطبقات الكبرى، ابن سعد، ت: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 1410 هـ - 1990م.
173. كتاب السير والمغازي، محمد بن إسحاق،ت: سهيل زكار، دار الفكر – بيروت، 1398هـ – 1978م.
174. تاريخ دمشق، ابن عساكر، ت: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر– دمشق، 1418 هـ - 1997 م.
175. زاد المعاد، ابن القيم الجوزية، مؤسسة الرسالة– بيروت، ط: 27، 1995.

كتب التزكية والرقائق:

176. الزهد، أحمد بن حنبل، ت: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية– بيروت، ط: 1، 1420هـ - 1999م.

177. فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل، ت: وصي الله عباس، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط: 1، 1403 هـ – 1983م.

178. قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، أبو طالب المكي، ت: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: 2، 1426 هـ -2005 م.

179. إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة – بيروت، د ت ط.

180. الوابل الصيب، ابن قيم الجوزية، ت: سيد إبراهيم، دار الحديث – القاهرة، ط:3، 1999م.

181. الطب النبوي، ابن قيم الجوزية، دار الهلال – بيروت، ط:2، 1992م.

182. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم الجوزية، ت: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط :3، 1416 هـ - 1996م.

183. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن قيم الجوزية، ت: محمد حامد الفقي، دار المعرفة– بيروت، ط:2، 1395هـ_ 1975م.

184. لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، ابن رجب الحنبلي، دار ابن حزم، ط: 1، 1424هـ– 2004م.

185. رسالة العبودية، ابن تيمية، ت: محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – بيروت، ط:7، 1426هـ– 2005م.

186. الرسالة القشيرية، عبد الكريم القشيري، ت: عبد الحليم محمود و محمود بن الشريف، دار المعارف– القاهرة، د ت ط.

187. الداء والدواء، ابن قيم الجوزية، ت: محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة ، ط:1، 1429هـ.

188. إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، ت: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية – بيروت، ط:1، 1411هـ - 1991م.

189. بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، ت: علي بن محمّد العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط:1، 1425 هـ.

190. أمراض القلوب وشفاؤها، ابن تيمية، المطبعة السلفية، القاهرة، ط:2، 1399هـ.

191. الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، زكي الدين المنذري، ت: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية – بيروت،ط:1، 1417هـ.

192. روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية– بيروت، ط:3، 1403هـ–1983 م.

193. أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط: 9، 1423 هـ 2002م.

194. طريقك إلى تقوية إيمانك، أسماء الرويشد، المكتب التعاوني للدعوة وتوعية الجاليات بالربوة، د ت ط.

195. تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين، محمد بن علي الشوكاني، دار القلم - بيروت، ط:1. د،ت.

196. تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين، نصر السمرقندي، ت: يوسف بديوي، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط:3، 1421 هـ، 2000 م.

197. سهام الإسلام، عبد اللطيف القنطري الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط:1 1400 هـ - 1980م.

198. حسن التنبه لما ورد في التشبه، نجم الدين الغزي، ت : بإشراف نور الدين طالب، دار النوادر، سوريا ، ط:1، 1432 هـ - 2011 م.

199. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم الجوزية، دَار عَالم الفوَائد، السعودية، ط:1 1432 هـ

200. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر القرطبي، ت: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، السعودية، ط:1، 1414 هـ - 1994 م.

201. أخلاق العلماء، أبو بكر الآجري، ت: إسماعيل الأنصاري، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – السعودية، 1398هـ_1978م.

202. زاد المهاجر إلى ربه، ابن القيم الجوزية، ت: محمد جميل غازي، مكتبة المدني – جدة، د ت ط.

203. مناهج التربية الإسلامية و المربون والعاملون فيها، ماجد عرسان،عالم الكتب، بيروت،ط:1416،1هـ_1995م،

204. تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، ماجد عرسان، دار ابن كثير، بيروت، ط: 2، 1405هـ_1985م،

205. الفوائد، ابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: 2، 1393 هـ - 1973م

206. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط:1، 1416هـ_1996م

207. منهج الإسلام في تزكية النفس وأثره في الدعوة إلى الله، أنس أحمد كرزون، دار ابن حزم_ لبنان، ط:5، 1432هـ_2011م.

208. الوابل الصيب، ابن قيم الجوزية، ت: سيد إبراهيم، دار الحديث – القاهرة، ط:3، 1999م،

209. العبادة وأثرها في تربية النفس الإنسانية، عبد العزيز المحيمد، وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة و الإرشاد، السعودية، ط:1، 1424هـ

210. أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، دار مكتبة الحياة، د ط، 1986م.

211. موسوعة فقه القلوب، محمد بن إبراهيم التويجري، بيت الأفكار الدولية، الأردن، ط:1، 2006م.

212. رياضة المتعلمين، أحمد بن السني، ت: نظام يعقوبي، دار النوادر، سوريا، ط: 1، 2015م

213. قانون التأويل، أبو بكر بن العربي، ت: محمد السليماني، دار القبلة للثقافة الإسلاميَّة_ جَدّة، ط:1، 1406 هـ - 1986م.

214. حلية طالب العلم، بكر أبو زيد، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، ط:1، 1416 هـ.

215. المقومات الشخصية لمعلم القرآن الكريم، حازم سعيد حيدر، مجمع الملك فهد، السعودية، د ت ط.

216. النظام التعليمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، محمد رمضان، مجلة القسم العربي، العدد:18، 2011م.

217. كيف نؤسس حوارا مدرسيا ناجحا_ لبدر بن محمد الحسين، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، ط3، 1432هـ .

218. آداب الحوار وقواعد الاختلاف، عمر بن عبد الله كامل، وزارة الشؤون الإسلامية، السعودية، د ت ط.

219. مهارات التواصل مع الأولاد -كي تكسب ولدك؟، خالد الحليبي، مركز الملك عبد الله للحوار الوطني _ الرياض، ط: 1، 1431هـ _ 2009م.

220. منهج التربية النبوية للطفل، مع نماذج تطبيقية من حياة السلف الصالح وأقوال العلماء العاملين، محمد نور بن عبد الحفيظ سويد، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط:1، 1419هـ - 1998م.

221. الإقناع في التربية الإسلامية ، سالم بن سعيد، دار الأندلس، السعودية، ط:2، 1422هـ .

222. التعليم الثانوي في الجزائر ومبرارات إصلاحه، لوغريت أحمد، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة بوزريعة، 1994- 1995.

كتب في فنون متنوعة:

223. مجموع الفتاوى، تقي الدين بن تيمية، ت: عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد، السعودية، ط: 1416هـ/1995م.
224. التوقيف على مهمات التعاريف، عبد الرؤوف المناوي، عالم الكتب، القاهرة، ط:1، 1410هـ-1990م.
225. آثار البشير الابراهيمي، محمد البشير الإبراهيمي، ت: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، ط:1، 1997م.
226. التعريفات، علي الجرجاني،ت: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، ط:1403،1 هـ -1983م.
227. غاية الأماني في الرد على النبهاني ، أبو المعالي محمود الألوسي، ت : أبو عبد الله الداني، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية ، ط:، 1422هـ- 2001م.
228. الاستقامة، ابن تيمية الحراني، ت: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود - المدينة المنورة، ط: 1، 1403هـ.
229. الفقيه والمتفقه، الخطيب البغدادي، ت: عادل الغرازي، دار ابن الجوزي – السعودية، ط: 2، 1421هـ،
230. المستصفى، أبو حامد الغزالي، ت: حمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية_ بيروت، ط:1، 1413هـ - 1993م،
231. الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن الآمدي، ت: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي_ بيروت، ط:2، 1406هـ، (4/ 221).
232. العدة في أصول الفقه، أبو يعلى ابن الفراء، ت: أحمد المباركي، ط:2، 1410 هـ - 1990 م.

فهرس الموضوعات

مقدمة .... أ

فصل تمهيدي: مفهوم التزكية والتعليم، أنواعهما، أهميتهما والعلاقة بينهما 10

المبحث الأول: مفهوم التزكية وأنواعها في القرآن والسنة 10

المطلب الأول: مفهوم التزكية في القرآن والسنة 10

الفرع الأول: مفهوم التزكية لغة واصطلاحا 10

الفرع الثاني: الألفاظ ذات الصلة 13

الفرع الثالث: التزكية في استعمال القرآن والسنة 19

المطلب الثاني: أنواع التزكية في القرآن والسنة 21

الفرع الأول: التزكية باعتبار مصدرها 21

الفرع الثاني: التزكية باعتبار حكمها 25

المبحث الثاني: مفهوم العلم وأنواعه في الكتاب والسنة 32

المطلب الأول: مفهوم العلم في الكتاب والسنة 32

الفرع الأول:مفهوم العلم لغة واصطلاحا: 32

الفرع الثاني: الألفاظ ذات الصلة 34

الفرع الثالث: العلم في استعمال القرآن والسنة 38

المطلب الثاني: أنواع العلم في القرآن والسنة 42

الفرع الأول: العلم باعتبار مصدره 42

الفرع الثاني: العلم باعتبار حكمه 46

المبحث الثالث: أهمية التزكية والتعليم والعلاقة بينهما في القرآن والسنة 57

المطلب الأول: أهمية التزكية في القرآن والسنة 57

الفرع الأول:التزكية أساس مبعث الأنبياء والمرسلين 57

الفرع الثاني: التزكية سبب الفلاح 67

المطلب الثاني: أهمية التعليم في القرآن والسنة 69

الفرع الأول: امتنان الله به على أنبيائه وجعله من مقاصد مبعثهم 69

الفرع الثاني: حثّ القرآن والسنة عليه وذمّ الجهل وأهله.................................. 72

الفرع الثالث: العلم مقدّم على غيره 74

المطلب الثالث: العلاقة بين التزكية والتعليم في القرآن والسنة 78

الفرع الأول: التقديم والتأخير بين التزكية والتعليم في القرآن الكريم...................... 79

الفرع الثاني: العلم وسيلة لتحقيق التزكية.. 81

الفرع الثالث: دور التزكية في تحصيل العلم النافع 84

الباب الأول: التزكية في القرآن والسنة

الفصل الأول: وسائل التزكية في القرآن والسنة.. 89

المبحث الأول: دور الإيمان في تحقيق التزكية.. 89

المطلب الأول: دور الإيمان بالله ﷻ في تحقيق التزكية.................................... 89

الفرع الأول: حقيقة الإيمان بالله ﷻ.. 90

الفرع الثاني: دور الإيمان بالله ﷻ في تحقيق التزكية 91

المطلب الثاني: دور الإيمان بالملائكة والكتب والرسل في تحقيق التزكية.................. 100

الفرع الأول: دور الإيمان بالملائكة في تحقيق التزكية 100

الفرع الثاني: دور الإيمان بالكتب في تحقيق التزكية 102

الفرع الثالث: دور الإيمان بالرسل في تحقيق التزكية.................................... 103

المطلب الثالث: دور الإيمان باليوم الآخر والقضاء والقدر في تحقيق التزكية 104

الفرع الأول: دور الإيمان باليوم الآخر في تحقيق التزكية.. 104
الفرع الثاني: دور الإيمان بالقضاء والقدر في تحقيق التزكية 109
المبحث الثاني: دور العبادات في تحقيق التزكية................................ 114
المطلب الأول: دور العبادات الفعلية في تحقيق التزكية.. 114
الفرع الأول: دور الصلاة والزكاة في تحقيق التزكية 114
الفرع الثاني: دور الصيام في تحقيق التزكية 121
الفرع الثالث: دور الحج في تحقيق التزكية.. 123
المطلب الثاني: دور العبادات القولية في تحقيق التزكية 126
الفرع الأول: دور الدعاء في تحقيق التزكية.. 126
الفرع الثاني: دور قراءة القرآن في تحقيق التزكية.. 131
الفرع الثالث: دور ذكر الله في تحقيق التزكية.. 136
المبحث الثالث: دور الأخلاق في تحقيق التزكية................................ 141
المطلب الأول: دور العفة في تحقيق التزكية 141
الفرع الأول: دور التعفف عن شهوة البطن المحرمة في تحقيق التزكية 142
الفرع الثاني: دور التعفف عن شهوة الفرج المحرمة في تحقيق التزكية 145
المطلب الثاني: دور حسن الظن والالتزام بآداب الاستئذان في تحقيق التزكية................ 150
الفرع الأول: دور حسن الظن في تحقيق التزكية.. 150
الفرع الثاني: دور الالتزام بآداب الاستئذان في تحقيق التزكية.................................. 153
الفصل الثاني: موانع التزكية في القرآن والسنة........................ 161
المبحث الأول: فتنة الشيطان وأعوانه.. 161
المطلب الأول: خطورة الشيطان وأعوانه على الإنسان 161

الفرع الأول: عداوة الشيطان وأعوانه لأنبياء الله ورسله 161
الفرع الثاني: الأمر بالاستعاذة من الشيطان في القرآن والسنة.............................. 164
المطلب الثاني: أساليب الشيطان وأعوانه للمنع من التزكية 166
الفرع الأول: تزيين الباطل 166
الفرع الثاني: التشكيك وبث الخوف في النفوس 170
الفرع الثالث: الصدّ عن الطاعات.. 173
الفرع الرابع: التمنية وإشاعة الأخبار الكاذبة.. 178
المبحث الثاني: الاغترار بالدنيا... 180
المطلب الأول: خطورة لدنيا وشهواتها 180
الفرع الأول: التعلق بالدنيا سبب في الغفلة والانحراف 180
الفرع الثاني: التعلق بالدنيا سبب للصدّ عن سبيل الله... 183
المطلب الثاني: نماذج لمن اغتروا بالحياة الدنيا 185
الفرع الأول: نماذج لمن اغتروا بالرياسة والشرف 185
الفرع الثاني: نماذج لمن اغتروا بالمال والشهوات... 189
المبحث الثالث: الكبر والحسد... 193
المطلب الأول: مفهوم الكبر والحسد وخطرهما.. 193
الفرع الأول: مفهوم الكبر والحسد 193
الفرع الثاني: خطورة الكبر والحسد 194
المطلب الثاني: مظاهر الكبر والحسد ونماذجهما 196
الفرع الأول: مظاهر الكبر والحسد 196
الفرع الثاني: نماذج للمعاندين بسبب الكبر والحسد.. 199

المبحث الرابع: مانع الجهل والتقليد الأعمى........................ 205

المطلب الأول: مفهوم الجهل والتقليد الأعمى وخطرهما 205

الفرع الأول: مفهوم الجهل والتقليد الأعمى........................ 205

الفرع الثاني:خطورة الجهل والتقليد الأعمى........................ 206

المطلب الثاني: نماذج للمعاندين بسبب الجهل والتقليد الأعمى 208

الفرع الأول: نماذج للمعاندين بسب الجهل 208

الفرع الثاني: نماذج للمعاندين بسبب التقليد الأعمى 210

الفصل الثالث: آثار التزكية في القرآن والسنة........................ 218

المبحث الأول: آثار التزكية في الدنيا 218

المطلب الأول: الانتفاع بالمواعظ والآيات وحصول الهداية 218

الفرع الأول: الانتفاع بالمواعظ والآيات........................ 218

الفرع الثاني: حصول الهداية........................ 222

المطلب الثاني: نيل المحبة وحصول الأخوة 228

الفرع الأول: نيل المحبة........................ 228

الفرع الثاني: حصول الأخوة 231

المطلب الثالث: تحقق الأمن والرخاء وحصول السعادة........................ 234

الفرع الأول: تحقق الأمن والرخاء........................ 234

الفرع الثاني: حصول السعادة 242

المبحث الثاني:آثار التزكية في الآخرة........................ 247

المطلب الأول: البشارة عند الاحتضار والأمن من عذاب القبر 247

الفرع الأول: حصول البشارة عند الاحتضار 247

الفرع الثاني: الأمن من عذاب القبر وتحصيل نعيمه 250

المطلب الثاني: السلامة يوم القيامة ودخول الجنة 254

الفرع الأول: السلامة يوم القيامة.. 254

الفرع الثاني:دخول الجنة 262

الباب الثاني: التعليم في القرآن والسنة

الفصل الأول: آداب المعلم والمتعلم في القرآن والسنة 268

المبحث الأول: الآداب المشتركة بين المعلم والمتعلم في القرآن والسنة..........268

المطلبالأول: الإخلاص والعمل بالعلم.. 268

الفرع الأول: الإخلاص... 268

الفرع الثاني: اقتضاء العلم العمل.. 273

المطلب الثاني: الصبر والتواضع 277

الفرع الأول: الصبر 277

الفرع الثاني: التواضع.. 282

المطلب الثالث: الاعتناء بالهيئة وطريقة الجلوس 286

الفرع الأول: الاعتناء بالهيئة 286

الفرع الثاني: الاعتناء بهيئة الجلوس 290

المبحث الثاني: آداب المعلم في القرآن والسنة 294
المطلب الأول: الاستزادة من العلم وعدم كتمانه 294
الفرع الأول: الاستزادة من العلم 294
الفرع الثاني: نشر العلم وعدم كتمانه. 297
المطلب الثاني: الرحمة بالمتعلمين ومراعاة واقعهم 299
الفرع الأول: الرحمة بالمتعلمين.. 299
الفرعالثاني: مراعاة حال المتعلم.. 304
المطلب الثالث: مناداة المتعلم باسمه والثناء عليه.. 309
الفرع الأول: مناداة المتعلم باسمه 310
الفرع الثاني: تشجيع المتعلم والثناء عليه 311
المبحث الثالث: آداب المتعلم في القرآن والسنة.. 314
المطلب الأول: المعاملة الحسنة والابتعاد عن الحسد 314
الفرع الأول: حسن المعاملة.. 314
الفرع الثاني: الابتعاد عن الحسد.. 317
المطلب الثاني: الحرص على العلم وتقييده 320
الفرع الأول: الحرص على العلم 320
الفرع الثاني: تقييد العلم 328
الفصل الثاني: أساليب التعليم وآثاره في القرآن والسنة 334
المبحث الأول: أساليب التعليم في القرآن والسنة 334

المطلب الأول: أسلوب التدرج 334
الفرع الأول:عناية القرآن الكريم بأسلوب التدرج 335
الفرع الثاني: عناية السنة النبوية بأسلوب التدرج 338
المطلب الثاني: أسلوب الحوار 340
الفرع الأول: عناية القرآن الكريم بأسلوب الحوار 341
الفرع الثاني: عناية السنة النبوية بأسلوب الحوار 344
المطلب الثالث: أسلوب التعليم بالسؤال.. 347
الفرع الأول: عناية القرآن الكريم بأسلوب التعليم بالسؤال.. 347
الفرع الثاني: عناية السنة النبوية بأسلوب التعليم بالسؤال 351
المطلب الرابع: أسلوب الممارسة والتطبيق.. 355
الفرع الأول: عناية القرآن الكريم بأسلوب الممارسة والتطبيق.. 355
الفرع الثاني: عناية السنة النبوية بأسلوب الممارسة والتطبيق 356
المطلب الخامس: أسلوب ضرب الأمثال 359
الفرع الأول: عناية القرآن الكريم باسلوب ضرب الأمثال 360
الفرع الثاني: عناية السنة بأسلوب ضرب الأمثال 362
المطلب السادس: أسلوب الإشارة والرسم البياني 365
الفرع الأول: عناية السنة النبوية باسلوب الإشارة 365
الفرع الثاني: عناية السنة النبوية بالرسم البياني.. 367
المطلب السابع: أسلوب القصص 368

الفرع الأول: عناية القرآن الكريم بأسلوب القصة.. 369

الفرع الأول: عناية السنة النبوية بأسلوب القصة 374

المبحث الثاني: آثار العلم في القرآن والسنة 377

المطلب الأول: العلم سبيل الإيمان والسعادة 377

الفرع الأول: العلم سبيل الإيمان 377

الفرع الثاني: العلم سبيل السعادة.. 382

المطلب الثاني:العلم سبيل الرفعة والتمييز بين النّافع والضار 385

الفرع الأول: العلم سبيل الرفعة والتمكين في الأرض.. 385

الفرع الثاني: العلم سبيل لمعرفة الحق والتمييز بين النافع والضار 390

المطلب الثالث: العلم سبيل لنيل البركة في الدنيا والنجاة يوم القيامة.. 394

الفرع الأول: العلم سبيل لنيل البركة في الدنيا 394

الفرع الثاني: حصول الأجر وبلوغ الجنة.. 396

الخاتمة.. 399

الفهارس

فهرس الآيات.. 404

فهرس الأحاديث والآثار.. 435

فهرس الأعلام 448

فهرس الألفاظ الغريبة 450

فهرس المصادر و المراجع 453

فهرس الموضوعات 470

ملخص البحث 481

ملخص باللغة العربية 482

ملخص باللغة الإنجليزية.. 484

ملخص البحث

ملخص البحث باللغة العربية:

عنوان البحث:

" التزكية والتعليم من خلال القرآن والسنة _ دراسة موضوعية _ "

يندرج هذا البحث ضمن التفسير الموضوعي، ويتناول بالدراسة ثنائية التزكية والتعليم، منطلقا من إشكالية رئيسة تتمثل **في بيان منهج القرآن والسنة في التزكية والتعليم**، وقد اشتمل على فصل تمهيدي استعرضت فيه **مفهوم التزكية والتعليم، وأنواعهما وأهميتهما والعلاقة القائمة بينهما في القرآن والسنة**، يليه بابان، خصصت **الأول** لعنصر **التزكية في القرآن والسنة،** تضمن وسائل التزكية، وفي مقدمتها أركان الإيمان، ثم العبادات الفعلية ممثلة في أركان الإسلام العملية، بالإضافة إلى العبادات القولية، كالدعاء والذكر وقراءة القرآن. لتكتمل الوسائل ببيان دور الأخلاق في تحقيق التزكية، ومن ذلك خلق العفة عن شهوات البطن والفرج، يضاف إلى ذلك حسن الظن والالتزام بآداب الاستئذان، فقد جاءت النصوص الشرعية مبينة أثر هذه الأخلاق في تحقيق التزكية. كما تناولت بالدراسة **موانع التزكية،** وركزت على فتنة الشيطان وأعوانه، ومانع الاغترار بالدنيا، بالإضافة إلى مانع الكبر والحسد، ومانع الجهل والتقليد الأعمى. وُختم هذا الباب ببيان **آثار التزكية في الدنيا والآخرة**، ففي الدنيا يوفّق من زكى نفسه للانتفاع بالمواعظ والآيات، وتتحقق له السعادة، وينال محبة الله تعالى، ويحظى بالقبول في الأرض، كما يتحقق بالتزكية الأمن والرخاء، بالإضافة إلى التآخي بين أفراد المجتمع المسلم. وأما آثار التزكية في الآخرة، فمنها حصول الثبات والبشارة عند الاحتضار، والأمن من عذاب القبر وتحصيل نعيمه، بالإضافة إلى السلامة يوم القيامة ودخول الجنة.

أما **الباب الثاني** فخصّصته لعنصر **التعليم في القرآن والسنة،** تناولت فيه **آداب المعلم والمتعلم،** استعرضت بداية الآداب المشتركة بينهما وهي: الإخلاص والعمل بالعلم، والصبر، والتواضع والاعتناء بالهيئة. ثم أوردت آداب المعلم، ومنها الرّفق والرّحمة بالمتعلمين ومراعاة واقعهم، والجلوس في مكان بارز، بالإضافة إلى مخاطبة المعلم باسمه أو كنيته، وعدم كتمان العلم، وضرورة تشجيع المتعلّم والثناء عليه. واستعرضت في الأخير آداب المتعلم في القرآن والسنة، تضمن احترام المعلم، والحرص على العلم، وتقييده بالكتابة، مع ضرورة الابتعاد عن الحسد. وتركز الحديث بعد ذلك عن **أساليب التعليم وآثاره في القرآن والسنة،** أوردت سبعة أساليب، وهي: أسلوب التدرج، ثم أسلوب المناقشة والحوار، ثم أسلوب التعليم بالسؤال، ثم أسلوب القصص، ليأتي بعده أسلوب الممارسة والتطبيق، يليه أسلوب ضرب الأمثال، لأختم بأسلوب استخدام الإشارة والرّسم البياني ثم أسلوب القصص. واستكملت البحث ببيان آثار العلم في القرآن والسنة، حيث إنّ له دورا في تحقيق الإيمان والسعادة، كما أنّ العلم سبيل

للتمكين في الأرض ونيل الرّفعة، وهو الطريق لمعرفة الحق والتمييز بين النافع والضار، وله دور في نيل البركة في الدنيا والنّجاة يوم القيامة.

ختمت البحث **بخاتمة** أوضحت فيها أهم النتائج المتوصل إليها منها: بيان الصلة الوثيقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للتزكية، كما اتّضح أنّها قائمة على التحلية والتخلية، وهي عملية متواصة في سبيل الارتقاء، تشمل الفرد والجماعة، ومن أهم وسائل تحقيقها العلم، فبينهما علاقة تكاملية؛ إذ العلم وسيلة للتزكية، والارتقاء في مراتبها يوصل العبد للعلم النّافع والعمل الصالح، وقد اتضح أنّ شرائع الإسلام التي جاءت لترسيخ الإيمان وتنظيم علاقات النّاس كلّها عوامل مؤثرة في تحقيق التزكية، كما تبيّن أنّ القرآن والسنة غنيان بالمبادئ التعليمية والتربوية، ولهما قصب السبق في تقرير الكثير من الأساليب الناجعة في العملية التَعليمية، وتمتاز طرق التدريس في القرآن والسنة باعتبارها شاملة ومتكاملة ومرنة وواقعية ومتوازنة.

Summary

Abstract :

Research Title:

Purification and Teaching through Qur'an and Sunnah - An Objective Study

This research is part of thematic exegesis, and it deals with the duality of purification and education, starting from a major problematic consisting of explaining the methodology of the Qur'an and Sunnah in purification and teaching. It includes an introductory chapter in which I reviewed the concept of purification and education, their types, their importance and the relationship between them in the Qur'an and Sunnah, followed by two chapters : The first one which is dedicated to purification in the Qur'an and the Sunnah, includes the means for purification, foremost among which are the pillars of faith, then actual acts of worship represented in the practical pillars of Islam, in addition to verbal acts of worship, such as supplication (dua), invocation and reading the Qur'an. To complete the means by explaining the role of morality in achieving nomination, that includes chastity from the desires of the stomach and sexual parts, in addition to that good thought and adherence to the etiquette of seeking permission. The study also dealt with impediments to purification, and focused on the temptation of Satan and his associates, being dazzled by this world, in addition to the obstacle of arrogance and envy, ignorance and blind imitation.

This chapter has been concluded with an explanation of the effects of putification in this world and the hereafter, as in this world the one who purifies himself is reconciled to benefit from the sermons and verses, to achieve happiness, to obtain the love of God Almighty, and to be accepted on the earth, as well as to safety and prosperity, in addition to brotherhood among the members of the Muslim community. The effects of purification in the Hereafter include steadfastness and good tidings at the time of death, protection from the torment of the grave and the attainment of its blessings, in addition to safety on the Day of Resurrection and entry into Heaven.

I devoted the second chapter to the teaching aspect in the Qur'an and Sunnah, in which I dealt with the etiquette of the teacher and the learner, and reviewed the beginning of the common ethics between them, namely: sincerity and acting on one's knowledge, patience, humility and taking care for the body.

Summary

Then I mentioned the teacher's etiquette, including kindness and compassion for learners, taking into account their reality, sitting in a prominent place, in addition to addressing the learner with his name or nickname, not concealing knowledge, and the necessity of encouraging and praising the learner.

. In the end, it reviewed the manners of the learner in the Qur’an and the Sunnah, which included four etiquette, which are respect for the teacher, concern for knowledge, and restriction of writing, with the need to avoid envy. The discussion then focused on the methods of education and their effects in the Qur’an and the Sunnah. Seven methods were presented, which are: the method of graduation, then the method of discussion and dialogue, then the method of teaching by questioning, then the method of telling stories, followed by the method of practice and application, followed by the method of stating proverbs, to conclude with the method of using signs and graphs. The research was supplemented by an explanation of the effects of knowledge in the Qur’an and the Sunnah, as it has a role in achieving faith and happiness, just as knowledge is a way to empower on earth and gain elevation, and it is the way to know the truth and distinguish between beneficial and harmful, and it has a role in gaining blessing in this world and salvation on the Day of Resurrection.

I concluded the research with a conclusion in which I explained the most important results reached, including: Explaining the close relationship between the linguistic and idiomatic meaning of recommendation, and it became clear that it is based on desalination and abandonment, and it is a continuous process for the sake of advancement, which includes the individual and the group, and one of the most important means of achieving science, between them is an integrative relationship. Since knowledge is a means of praise, and advancing its ranks leads the servant to useful knowledge and righteous deeds, and it has become clear that the laws of Islam that came to consolidate faith and organize the relationships of people are all influential factors in achieving praise, and it has also been shown that the Qur’an and the Sunnah are rich in educational principles, and they are the first in deciding a lot. It is one of the effective methods in the educational process, and the teaching methods in the Qur’an and Sunnah are distinguished as being comprehensive, integrated, flexible, realistic and balanced.